الكتب

وجهات نظر

في الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد الواحد والأربعون . السنة الرابعة . يونيه ٢٠٠٢ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 4 - Issue 41 - June 2002



فلسطين : ما جرى وما يجرى

وما العمل ؟ / الأمان فى العمق /

الإسرائيلى والانتفاضة / الدين

والسياسة فى الشرق الأوسط / التحالف

بين الصهيونية واليمين المتطرف

ألغاز الفن التجريدى

محاولة للفهم

محمد حسنين هيكل

٧ رصاصات.. وحرب!

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

السنة الرابعة
العدد الحادي والأربعون
يونية ٢٠٠٢

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفني
حلمي التوني

مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم
عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي
البحوث والمتابعة
هديل غنيم

«تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة»

كتّاب العدد:

- إبراهيم عبدالكريم.. باحث فلسطيني.
- جاك فلام.. أستاذ تاريخ الفن في معهد بروكلين وفي جامعة سيتي بنيويورك.
- سلامة أحمد سلامة.. صحفي.
- شوقي ضيف.. رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
- طارق البشرى.. كاتب ومؤرخ.
- طارق علي.. روائي وكاتب بريطاني من أصل باكستاني.
- عبد العظيم أنيس.. أستاذ الإحصاء الرياضي المتفرغ، بجامعة عين شمس.
- عزمي بشارة.. نائب عربي في الكنيست الإسرائيلي.
- عمرو كمال حمودة.. خبير في شئون الطاقة.
- فرانسيس فوكوياما.. مفكر أمريكي من أصل ياباني.
- محمد حسنين هيكل.. صحفي.
- محمد السماك.. كاتب لبناني.
- محمد عبد الرحمن يونس.. محاضر في جامعة الدراسات الأجنبية ببكين.
- محمود المراغي.. صحفي.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجي - محمد حاكم - سعد الدين شحاتة - أحمد اللبّاد

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصري - اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهما - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمـــــة..

مابعـــــد الـدمــــاء..

ربما يكون مثيرًا - ولكن مفهومًا - أن تمنح الحكومة الإسرائيلية فجأة منصة فى الإعلام الرسمى الإسرائيلى (الراديو والتليفزيون) لمسؤولين فلسطينيين كبار ليتناقشوا - أو بالأحرى ليتحاربوا - حول «الإصلاح الديمقراطى». ليس فقط فى المكان الخطأ، بل ربما أيضا فى الزمان غير المناسب.

هل نجح الإسرائيليون فى فرض أجندتهم، بعد أن سالت كثيرٌ من الدماء .. والكرامة؟

السؤال - على صعوبته ومرارته - لابد من طرحه رغم الصخب والضجيج .. والإلهاء.

كما لابد من مقاومته، رغم ما قد يبدو من صحة فى ماقاله بن جوريون قبل نصف قرن من ان «العرب المثقلين اصلاً بتناقضاتهم الداخلية، نفسهم قصير.. فهم قد يستطيعون تعبئة جهودهم لفترة زمنية محدودة، لكنهم إذا طال الوقت تراخت تعبئتهم، وضعفت حماستهم، وأخذتهم شواغل أخرى غير تلك التى جمعت بينهم..».

فى العدد الماضى من «وجهات نظر» قدمنا «قراءة فيما يجرى» من حصار واجتياح ومقاومة.. ونبهنا إلى أن شارون - بغض النظر عن مانشتات الصحف العربية - لم يفعل أبدًا أكثر من تنفيذ استراتيجيته «المعلنة» وأنه - وبغض النظر ايضًا عن كل الأمنيات، والنفخ الإعلامى فى وعود واشنطن، والقراءة الانتقائية لتصريحات البيت الأبيض - ماض فى خطته، بلا كلل أو ملل أو أى جهد للإخفاء والموارارة.

فى هذا العدد نتابع قراءة الحدث. فيكتب عزمى بشارة عن رؤيته لـ «ماجرى .. ومايجرى.. وما العمل؟» موضحًا - مرة أخرى - هدف شارون السياسى من عدوانه الأخير والمتمثل فى تغيير أجندة المفاوضات السياسية بحيث لا تشمل قضايا مثل القدس واللاجئين والاستيطان. وإنما لتتمحور - أو بالأحرى لتختزل - فى المسائل المتعلقة بـ«كيان فلسطينى»، مساحته، صلاحياته، علاقاته مع العرب ومع إسرائيل وبالطبع، وقبل كل شىء «التزاماته الأمنية».

ويبين بشارة كيف يحاول شارون من خلال رجال علاقاته العامة «بيريز ونتنياهو» أن يعرض ماجرى ويجرى بلغة مفهومة أمريكيًا: فضرب البنى التحتية (يقابله ضرب معسكرات التدريب فى افغانستان)،اعتقال الآلاف (يقابل معتقل جوانتنامو)، اغتيال وإعدام الأسرى والمعتقلين المناضلين (يقابله بن لادن مطلوب حيًا او ميتًا). وكيف أن العقبة الأساسية أمام جهد العلاقات العامة الإسرائيلى الهادف إلى اختزال الموضوع الفلسطينى إلى« مسالة إرهاب»، يتمثل فى حقيقة وجود حالة اسمها الاحتلال والاستيطان. والتى ترتبط بالضرورة بحالة من التمييز العنصرى والأبارتهايد، الذى يتناقض بالتالى مع حق تقرير المصير والانتخابات الحرة.

وينبه عزمى بشارة إلى أننا لم ننتبه بعد إلى أن نظام الأبارتهايد المزمع إقامته فى فلسطين قد بات علنيًا - ورسميًا - إذ فى خضم النقاش حول جرائم الحرب التى ارتكبتها إسرائيل فى جنين ونابلس وأثناء اجتماع عرفات باول يوم الأحد ١٤ أبريل أقرت الحكومة الإسرائيلية إقامة مناطق عازلة كثيفة التواجد العسكرى بمظاهر فصل مادية وعنصرية ديموجرافية حادة على الأرض حول المدن الفلسطينية القريبة من الخط الأخضر: طولكرم وجنين والقدس. تتمثل فى عوازل أمنية يصل عرضها فى بعض المناطق إلى خمسة كيلومترات. تحول عمليًا التجمعات الفلسطينية إلى معازل خلف أسلاك شائكة وحواجز وأسوار. وتتحول معها فعليًا المناطق (ا) التى كانت تحت مسؤولية السلطة الفلسطينية الأمنية إلى مناطق (ب) بمسؤولية أمنية إسرائيلية تدخلها إسرائيل متى شاءت «وعند الحاجة».

سيعمد شارون إذن إلى استخراج خطته القديمة حول «مرحلة انتقالية طويلة المدى» إن لم يكن حتى يموت آخر فلسطينيى ٤٨، «ليصبح الحل أسهل» كما يقول إيهود باراك، فعلى الأقل سيتكفل واقع الكانتونات العنصرية تدريجيًا وبفعل متطلبات الحياة اليومية بفرض أجندة مفاوضات جديدة لا تدور حول القدس أو اللاجئين أو المستوطنات أو الحدود بل حول شروط وظروف التعايش فى ظل الظرف الانتقالى المفروض. ويصبح مضمونًا، ولو إلى حين، وأدُ كل الآمال والطموحات.

ملهاة المؤتمر الإقليمى المقترح، الذى وصفه موظفون أمريكيون كبار بـ «أننا نعد لسهرة شرق أوسطية»، وضع له شارون شروطًا لا يعادلها فى فجاجتها إلا شروط بيريز للجنة التحقيق الدولية فيما جرى فى جنين. والتى وصلت فى حينه، وقبل أن ترفضها إسرائيل أصلا، وننسى نحن الأمر برمته، إلى حد اشتراط ألا تصدر اللجنة تقريرًا عن أعمالها!! فشارون اشترط للمؤتمر: ١- ألا يحضر عرفات، سواء أبقاه الفلسطينيون على رأس السلطة أو استبعدوه. وهو الأمر الذى يجرى التحضير له حاليًا. ٢- ألا يحضر السوريون أو اللبنانيون. وألا تحضر بالطبع ملفاتهم المعلقة. ٣- ألا تكون مبادرة السلام العربية أساسًا للمؤتمر. فضلاً عن استبعاد مبدئى لمرجعيات مدريد ومقررات أوسلو وغيرها مما تم الاتفاق أو حتى التوقيع عليه سابقًا.

لسنا إذن - رغم تطمينات التهدئة الإعلامية - بصدد مفاوضات سلام. بل «حوار عربى إسرائيلى بعد العدوان، أى بعد أن يتذوق العرب نتائج العدوان وسياسة القوة الإسرائيلية». ويصبح مجرد ذهابهم إلى هناك إذعانًا للشروط الإسرائيلية التى ليس أقلها استثناء عرفات.

يرى عزمى بشارة أن الأولوية ليست الآن للمعركة الدبلوماسية بل للمقاومة أولاً. و«لمعركة شعبية تشن عالميا وفى العالم العربى بلغة ديموقراطية مفهومة ضد مجرمى الحرب الإسرائيليين. هذه المعركة كفيلة بنشر المزاج السياسى اللازم لاستقبال المعركة السياسية والدبلوماسية القادمة ضد نظام الأبارتهايد».

فى ضرورة المقاومة يتفق المستشار طارق البشرى مع الأكاديمى والسياسى عزمى بشارة، مؤكدًا ما نعرفه من أنه فى مرحلة التصاعد المتبادل بين طرفى الصراع، فإن من يقف أولاً يكون هو الهالك والمهزوم.. وما من مرة فى الصراع العربى الصهيونى الأمريكى بادرنا فيها بقبول إلقاء السلاح إلا ودارت علينا الدوائر. ومشيرًا إلى أن القول بأن السلام خيار استراتيجى، يقال أمام مستعمر استيطانى يملك السلاح النووى، هو قول لا يفضى إلا إلى الاستسلام.

ويستعرض البشرى ما بدا أنه مفارقة كبيرة بين الاستجابات الشعبية القوية للانتفاضة ووقائعها. وبين الاستجابات الرسمية الحكومية بترددها وارتعاشها ولعثمتها قولاً وفعلاً. ورغم أن البشرى يلفت الانتباه إلى أنه من الطبيعى أن يوجد دائمًا قدر من التباين بين الموقف الرسمى الحكومى «المثقل بعلاقات وتبعات..» وبين الموقف الشعبى «الأقل قيودًا والأسرع استجابة»، إلا أنه ينبه إلى خطورة اتساع هذا التباين عن درجة معينة، يصبح بعدها أكثر مما تحتمله علاقات الاستقرار بين الجانبين.

ويركز البشرى على المفهوم الحقيقى للأمن القومى والذى لا تتباين حياله بالضرورة مصلحة الجماعة عن مصلحة الدولة. مدللاً بأمثلة من التاريخ على حقيقة أن الدولة التى تقع تحت التهديد المباشر لقوة احتلال عسكرى «مجاورة» ولا تملك القدرة على درء هذا التهديد عن نفسها.. يصبح القول «باستقلالها» محل نظر!

من زاوية أخرى يناقش محمد السماك وعبدالعظيم أنيس وطارق على كيف اختلطت على مدى التاريخ أوراق السياسة بالدين والعقائد.. والأساطير. وكيف ألقت النصوص والمأثورات دائمًا بظلالها «المقدسة» على الصراع فى الشرق الأوسط. وفى حين يقدم «أنيس» و«على» رؤيتين جديدتين للحروب الصليبية، يكتب محمد السماك عن المرتكزات الدينية للسياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط. معتبرًا أن العلاقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل ليست علاقة تأييد ودعم ومساندة. وليس صحيحًا أن إسرائيل تلعب دور الشرطى الأمريكى فى الشرق الأوسط. وبالتالى فإنه ليس صحيحًا أن المبالغة العربية فى التجاوب مع المصالح الاستراتيجية الأمريكية تلغى دور هذا الشرطى أو تعطله.

الحقيقة - يقول السماك - أن العلاقات الأمريكية الإسرائيلية تتجاوز حدود المصالح السياسية والاقتصادية والأمنية، وبالتالى فإنه مهما قدم العالم العربى/ الإسلامى من تنازلات وتضحيات للولايات المتحدة، ومهما أبدى من استعداد للتوافق معها وحتى السير فى ركابها، فإن ذلك لن يغير أبدًا من الموقف الأمريكى الثابت من إسرائيل. ذلك لأن هذا الموقف يترجم فى حد ذاته «ثوابت إيمانية» تتعدى المصالح وتتجاوز الحسابات السياسية.

وأيًا ما كان الرأى فيما ذهب إليه السماك ويؤيده فيه كثيرون، وفى القيمة النسبية لتأثير الدين على السياسة فى أمريكا، فالثابت أنه لا يمكن تجاهل الأبعاد الدينية للصراع فى الشرق الأوسط. وكفى بمعضلة القدس نموذجًا (الأقصى/ الهيكل - البراق/ المبكى..).

والثابت - ثانيًا - أن جورج دبليو بوش هدد قبل أيام «إيران التى يحكمها متطرفون يعادون صديقتنا إسرائيل..» حسب نص تصريح الرئيس الأمريكى الذى ندد - فى التصريح ذاته - بمحاولة طهران الحصول على أسلحة نووية. رغم حقيقة أن إسرائيل هى الدولة النووية الوحيدة فى المنطقة.. وهى الوحيدة غير الخاضعة للتفتيش من الوكالة الدولية للطاقة الذرية فى فيينا.

والثابت - ثالثًا - أنه رغم الدماء فى جنين.. والمبادرات فى بيروت.. والتنازلات فى شرم الشيخ، اقترع حزب الليكود (الأغلبية فى إسرائيل) برفض الدولة «غرب الأردن» أيًا ما كان الشكل، ومهما تكن الضمانات.

لم يستوقف الخبر واشنطن كثيرًا. ولكن المراهنة العربية على حياد أمريكى «مأمول».. مازالت للأسف هى الحصان الوحيد الذى نراه فى الحلبة المقامة منذ سلمنا مبكرًا جدًا بأن ٩٩٪ من أوراق اللعبة.. هناك.

وجهات نظر

فوكوياما فى كتاب جديد: نهـــاية التـــاريخ

قفز اسم فرانسيس فوكوياما إلى الشهرة، حين لفت الأنظار فى عام ١٩٩٢ بكتابه الشهير «نهاية التاريخ». وفيه روج لفكرة مؤداها أن العالم بعد سقوط حائط برلين قد انتهى إلى أفضل عالم ممكن فى تاريخ الإنسانية: عالم انتصر فيه نظام الرأسمالية القائمة على الديمقراطية الليبرالية فى مواجهة الشيوعية. ومن ثم فإن التقدم السياسى قد وصل إلى نهايته، وبلغ فيه التطور التاريخى منتهاه. وبعدها بعام واحد ـ فى ١٩٩٣ ـ ظهر أستاذ العلوم السياسية فى هارفارد صامويل هنتنجتون بكتابه الذى تضمن نظريته عن «صراع الحضارات» بدلاً من نهاية التاريخ. وبينما لقيت نظرية هنتنجتون اهتمامًا واسعًا وتعرضت لمناقشات مستفيضة، ازدادت حدتها بعد أحداث سبتمبر الأخيرة والهجوم الذى تعرضت له واشنطن ونيويورك، واجهت نظرية فوكوياما عن «نهاية التاريخ» نقدًا لاذعًا. وقيل أن مارجريت تاتشر عندما سمعت عن نظرية فوكوياما، كان رد فعلها بالغ السخرية حين قالت: «نهاية التاريخ أم بداية الكلام الفارغ؟!».

برغم التحفظات الشديدة التى لقيتها نظرية نهاية التاريخ، وفى مقدمتها أن حركة التقدم العلمى والإنسانى لا يمكن تقييدها، ومن ثم فلا بد أن ينجم عنها تغيرات اجتماعية وسياسية لم تخطر ببال فوكوياما ونظريته، إلا أن رؤيته التاريخية وجدت صدى عند كثير من السياسيين. واعتبرها خافيير سولانا المفوض العام للشئون السياسية والأمنية فى الاتحاد الأوروبى ـ على سبيل المثال ـ انعكاسًا للوضع العالمى الراهن الذى نعيش فيه، تحت سيطرة نظام سياسى واحد وقوة عالمية مهيمنة واحدة.

❁ يعود فوكوياما فى كتابه الجديد وقد تراجع عن كثير من طروحاته ليطرح أسئلة مثيرة بالغة الأهمية، تتعلق بمستقبل الإنسان والإنسانية: هل «الإنسان العاقل» Home SaPiens هو الحلقة الأخيرة فى سلسلة التطور التى شهدتها عملية الانتخاب الطبيعى عبر آماد زمنية طويلة، أم أننا نقف على أعتاب ثورة بيولوجية تقودها الهندسة الوراثية بعد أن أمكن التوصل إلى أسرار الجينوم البشرى، وأصبح بوسع التكنولوجيا الحيوية أن تغير الطبيعة البشرية، وترتقى بالإنسان إلى ما بعد الإنسانى»؟

ولنتخيل مستقبلاً تتحقق فيه هذه الصورة لعالم جديد مختلف أمام القارئ: مجموعة من الأشخاص الذين تجاوزت أعمارهم مائة عام، يعيشون داخل مستوطنة أو مستعمرة تضم جماعة من الناس، تم تعديل وعلاج جيناتهم أو خصائصهم الجينية.. النساء فيهم يشبهن عرائس الباربى والرجال أقوياء مفتولو العضلات، تنضح وجوههم بالوسامة والصحة. لا يعانون أمراض الشيخوخة. طعامهم مهندس وراثيًا وممزوج بعقار البروزاك (الذى ينزع عن الإنسان رغباته وطموحاته). بينما أطفالهم فى الأربعينيات أو الستينيات من العمر، يتجرعون المعرفة عن طريق عقار الريتالين. وخارج الأسوار العالية التى تحميهم من تطفل المتطفلين، تعيش جماعات أخرى من الناس المسنين، الأقصر عمرًا، والأسوأ حظًا، المعلولون بأمراض لابرء منها، والمحرومون من مزايا العلاج بالجينات.. هذه هى صورة المجتمع التى يتخيل فوكوياما أن ثورة التكنولوجيا الحيوية قد تؤدى إليها.

❁ هذه التطورات التى تقلق كثيرًا من العلماء والبيولوجيين بشأن النتائج المترتبة على تقدم تكنولوجيا الجينات، سوف تكتب صفحة جديدة فى تاريخ الحياة الإنسانية. قد تمكن الإنسان من تحديد جينات أطفاله، بكل ما يترتب على ذلك من مؤثرات اجتماعية ومشكلات أخلاقية تقوده إلى عوالم جديدة لم يطرقها الإنسان من قبل، وتفتح أمامه تحديات صعبة عن معنى الوجود الإنسانى، وعن فكرة المساواة التى هى جوهر الإنسان والتعبير الصادق عن مكانة الإنسانية.

وفى هذا الإطار قدم فوكوياما عددًا من السيناريوهات التى تناقش مستقبل مرحلة «ما بعد الإنسان»، أى المرحلة التى ستتحكم فيها التكنولوجيا الحيوية فى قدرات الإنسان وخصائصه ومدى صحته وسعادته.. وما يمكن أن يترتب على ذلك من صراعات اجتماعية وسياسية إذا أساء الإنسان استخدام هذه الإمكانيات العلمية الجديدة، وجعلها قاصرة على فئة فى المجتمع دون أخرى.

وفى كل الأحوال يظل هناك سؤال بدون جواب، وهو: هل يخاطر العلم فى سعيه الدائب إلى اكتشاف الجديد، إلى تدمير الإنسانية كما عرفناها أم إلى فتح آفاق جديدة أمام سعادة الإنسان؟

المحـــرر

كتابان حددا المستقبل واحتمالاته المخيفة فى القرن العشرين، هما كتاب جورج أرويل «١٩٨٤» (المنشور عام ١٩٤٩) وكتاب الدوس هكسلى «عالم جديد رائع» المنشور فى عام ١٩٣٢.

احتوى الكتابان على قدر من البصيرة أكثر مما كان يدركه أى شخص فى ذلك الوقت، لأنهما تركزا حول تكنولوجيتين مختلفتين كان «قدرًا لهما الظهور والتشكل فى الجيلين التاليين. كتاب «١٩٨٤» يدور حول ما نسميه الآن تكنولوجيا المعلومات: حيث كان أهم شىء وراء نجاح المملكة الشمولية مترامية الأطراف، جهاز يسمى تيليسكرين (الشاشة التى تنقل الصور عن بعد)، وهى شاشة مسطحة بحجم الحائط يمكنها فى وقت واحد إرسال الصور واستقبالها من كل أسرة إلى الأخ الأكبر مما جعل الحياة الاجتماعية مركزية إلى حد كبير فى ظل وزارة الصدق ووزارة الحب، وسمح للحكومة بإلغاء الخصوصية ومراقبة كل كلمة وفعل عبر شبكة ضخمة من الأسلاك.

وعلى العكس من ذلك كان كتاب «عالم جديد رائع» يدور حول ثورة تكنولوجية كبيرة أخرى توشك أن تقع، وهى ثورة التكنولوجيا الحيوية. إنها تخليق البشر ليس فى الأرحام، وإنما فى الأنابيب كما نقول الآن؛ والعقاقير التى توفر سعادة فورية للناس؛ وتحفيز الإحساس عن طريق الأقطاب الكهربية المزروعة؛ وتعديل السلوك من خلال التكرار خارج حيز الإدراك، أو إعطاء جرعات من الهورمونات الاصطناعية.

وحيث يفصلنا نصف قرن على الأقل عن نشر هذين الكتابين، فإننا نرى أنه بينما كانت توقعاتهما التكنولوجية دقيقة بصورة مذهلة، فإن توقعات «١٩٨٤» السياسية كانت خاطئة كل الخطأ.

فبعد خمس سنوات فقط من عام ١٩٨٤، وفى سلسلة من الأحداث الدرامية التى كانت ستبدو قبل ذلك وكأنها من قصص الخيال العلمى، انهار الاتحاد السوفيتى وإمبراطوريته، واختفى ذلك الخطر الشمولى الذى كان أورويل قد أثاره فى كتابه. ومرة أخرى سارع الناس لبيان أن هذين الحدثين ـ انهيار الإمبراطوريات الشمولية وظهور الكمبيوتر الشخصى، وغير ذلك من تكنولوجيا المعلومات غير المكلفة، من أجهزة التلفزيون والراديو إلى الفاكس والبريد الإلكترونى ـ لم يكونا بعيدين. فقد اعتمد الحكم الشمولى على قدرة الأنظمة على احتكار المعلومات، وما إن جعلت تكنولوجيا المعلومات الحديثة ذلك مستحيلاً حتى قُضى على سلطة النظام الحاكم.

وأما كتاب «عالم جديد رائع». فقد ثبت أن كثيرًا من التكنولوجيات التى تصورها هكسلى، مثل إخصاب الأنابيب، والأمومة البديلة، والعقاقير التى لها تأثير مُغيِّر على الإدراك والسلوك، والهندسة الوراثية فيما يخص صناعة الأطفال، هى أشياء موجودة الآن بالفعل أو تلوح فى الأفق. ولكن هذه الثورة بدأت بالفعل؛ وينبئ هذا السيل اليومى الجارف من التقدم فى التكنولوجيا الطبية الحيوية وإنجازات مثل اكتمال مشروع الجينوم البشرى بالمزيد من التغيرات الخطيرة التى توشك أن تحدث.

وفيما يتعلق بالكوابيس التى أثارها هذان الكتابان، بدا لى «عالم جديد رائع» أكثر غموضاً وتحدياً. حيث لا يظهر الشر فيه شديد الوضوح فهو عالم ينال فيه كل إنسان ما يريد، القوة فيه لا تجدى، ولابد من إغواء الناس بدلاً من إكراههم على العيش فى مجتمع مقيد بنظام معين. وقد قُضى فى هذا العالم على المرض والصراع الاجتماعى، ولا وجود فيه للاكتئاب أو الجنون أو الشعور بالوحدة والبؤس العاطفى، كما أن الجنس مفيد ومتاح فى أى وقت. ولم يعد هناك من يتخذ الدين مأخذ الجد، كما ألغيت فيه الأسرة البيولوجية ولم يعد هناك من يقرأ شكسبير أو يفتقد تلك الأشياء، مادام الجميع سعداء وأصحاء.

Our Posthuman Future:
Consequences of the Biotechnology Revolution

مستقبلنا ما بعد البشرى
عواقب ثورة التكنولوجيا الحيوية

Francis Fukuyama
Profile, 2002.

ليست نهاية التاريخ

مرحلة ما بعد الإنسان

فرانسيس فوكوياما



ويبدو من هذا أن هكسلى كان محقًا، وبأن أبرز تهديد تمثله التكنولوجيا الحيوية هو احتمال أن تتغير الطبيعة البشرية، وبالتالى تنقلنا إلى مرحلة «ما بعد الإنسان» التاريخية. وهذا مهم لأن الطبيعة البشرية موجودة، وهى مفهوم له دلالته، وكانت بمثابة استمرار مستقر لتجاربنا كجنس من الأجناس. وهى كذلك تُحَدِّد، بالاشتراك مع الدين، الذى هو أكثر قيمنا أهمية. وتشكِّل الطبيعة البشرية كل أشكال الأنظمة السياسية المحتملة وتقيدها، ولذلك فإن أية تكنولوجيا لديها من القوة ما يكفى لإعادة تشكيل ما نحن عليه ستكون لها عواقب ربما كانت خبيثة فيما يخص الديمقراطية الليبرالية وطبيعة السياسة ذاتها. وأحد أسباب عدم كونى شديد التفاؤل هو أن التكنولوجيا البيولوجية، على عكس الكثير غيرها من أشكال التقدم العلمى، تمزج الفوائد الجلية بالأضرار الخفية فى حزمة واحدة متماسكة تمام التماسك.

قد تكون هناك منتجات للتكنولوجيا الحيوية التى ستكون كذلك واضحة فيما يتعلق بالأخطار التى تمثلها للبشرية - مثل الجراثيم الفائقة، أو الفيروسات الجديدة، أو الأطعمة المعدلة وراثياً التى لها ردود أفعال سامة. وكما هو الحال بالنسبة للأسلحة النووية أو تكنولوجيا النانو، فإن التعامل مع هذه الأشياء أسهل ما يكون، لأننا ما إن نحدد خطورتها حتى يمكننا التعامل معها على أنها خطر واضح وصريح.

إن هناك سيناريوهات ثلاثة، يعد احتمال وقوعها أمرًا واردًا على مدار جيل أو جيلين:

يتصل السيناريو الأول بالعقاقير. فنتيجة للتقدم الذى شهده علم العقاقير العصبى، اكتشف علماء النفس أن الشخصية البشرية أكثر مرونة مما كانوا يعتقدون من قبل. والحادث أن العقاقير التى لها تأثير مُغَيِّر على الإدراك والسلوك، مثل بروزاك وريتالين، يمكن أن تؤثر على سمات كالاعتداد بالنفس والقدرة على التركيز، ولكنها تميل إلى إحداث قدر كبير من الآثار الجانبية غير المرغوب فيها، ومن ثم يتم تجنبها إلا فى حالات الضرورة العلاجية الشديدة. ولكن فى المستقبل، سوف تسمح معرفة الجينوميا لشركات الأدوية بتفصيل العقاقير بشكل شديد التحديد حسب التركيبات الوراثية الخاصة بكل مريض على حدة، مما يقلل إلى حد كبير الآثار الجانبية غير المرغوبة. وسوف يتدفق متبلدو المشاعر حيوية نشاطاً؛ ويصبح الانطوائيون منفتحين على الناس؛ ويمكنك أن تتخذ لنفسك شخصية يوم الأربعاء

وأخرى فى عطلة نهاية الأسبوع. فلم يعد هناك عذر لأى إنسان كى يكتئب أو يحزن؛ بل إن من هم سعداء «فى العادة» يمكنهم إسعاد أنفسهم أكثر وأكثر دون أن يشغلوا بالهم بالإدمان، أو بأضرار المخ طويلة المدى.

وفى السيناريو الثانى، يسمح التقدم الذى شهدته أبحاث الخلية الأصلية للعلماء بأن يولدوا بالفعل أى نسيج فى الجسم، مما يجعل متوسط العمر يقفز إلى ما فوق المائة عام. فإن كنت بحاجة إلى قلب أو كبد جديد، فإنك تزرعه داخل التجويف الصدرى الخاص بأحد الخنازير أو إحدى البقرات؛ كما أنه بالإمكان إصلاح الأضرار التى تلحق بالمخ من جراء الإصابة بمرض الزهايمر والسكتة الدماغية. والمشكلة الوحيدة هى أن هناك الكثير من الجوانب الغامضة فيما يتعلق بالشيخوخة.

حتى أن صناعة الكيمياء الحيوية لم تتوصل بعد وبصورة كاملة إلى طريقة إصلاحها: فالناس يفقدون مرونتهم الذهنية ويزدادون تشددًا فى آرائهم كلما تقدموا فى العمر، ومهما كان مقدار سعيهم، فإنه لا يمكنهم جعل أنفسهم جذابين من الناحية الجنسية لبعضهم البعض، فيظلون تواقين إلى شركاء فى سن الإنجاب. وأسوأ ما فى الأمر أنهم يرفضون التنحى عن مواقعهم تاركين الفرصة لأبنائهم وأحفادهم وأحفاد أبنائهم. ومن ناحية أخرى فقد لا يبقى غير عدد قليل ممن يملكون القدرة على الإنجاب التقليدى بحيث يبدو وكأن الأمر لا يهم أحدًا.

وفى السيناريو الثالث، سوف يفحص الأثرياء الأجنة قبل زرعها لكى يحصلوا على أبناء أقرب ما يكونون إلى الكمال. ويمكنك إلى حد كبير تحديد الخلفية الاجتماعية لأى شاب أو شابة من خلال مظهره وذكائه؛ وإذا لم يكن شخص ما عند حسن ظن مجتمعه به، ألقى باللائمة على الاختيارات الوراثية من جانب والديه، بدلاً من أن يلوم نفسه. وتنقل الجينات البشرية إلى الحيوانات، بل وإلى النباتات، بغرض البحث وإنتاج منتجات طبية جديدة؛ كما تُضاف الجينات الحيوانية إلى بعض الأجنة لزيادة تحملها الجسمانى ومقاومتها للمرض، ولا يجرؤ العلماء على إنتاج كائن خرافى نصفه إنسان ونصفها الآخر قرد، رغم استطاعتهم ذلك؛ لأن الشباب قد يأخذهم الشك فى أن زملاءهم فى الفصل الأقل منهم مقدرة هم فى حقيقة الأمر ليسوا بشرًا بالمعنى الكامل من الناحية الجينية، لأنهم ليسوا كذلك فى الواقع.

وقد كتب توماس جيفرسون قرب انتهاء حياته: «لقد أوضح الانتشار العام لنور العلم للجميع الحقيقة الملموسة، وهى أن السواد الأعظم من البشر لم يولدوا وعلى ظهورهم سروج، كما أنه لم تولد قلة وفى أقدامها أحذية ذات مهاميز ولديها الاستعداد لركوبهم بطريقة مشروعة». وتقوم المساواة السياسية المحفوظة فى إعلان الاستقلال على الحقيقة التجريبية الخاصة بالمساواة الإنسانية الطبيعية. ومع



مع أننا متفاوتون تفاوتًا كبيرًا كأفراد وتبعًا لثقافاتنا، إلا أننا نشترك فى الإنسانية التى تتيح لكل كائن بشرى الاتصال بقوة بكل كائن بشرى سواه على هذا الكوكب والدخول معه فى علاقة أخلاقية. والسؤال المطلق الذى تثيره التكنولوجيا الحيوية هو: ماذا سيحدث للحقوق السياسية لو أننا استنبطنا بعض الناس ممن على ظهورهم سروج، وآخرين ممن فى أقدامهم أحذية ذات مهاميز؟

أننا متفاوتون تفاوتًا كبيرًا كأفراد وتبعًا لثقافاتنا، إلا أننا نشترك فى الإنسانية التى تتيح لكل كائن بشرى الاتصال بقوة بكل كائن بشرى سواه على هذا الكوكب والدخول معه فى علاقة أخلاقية. والسؤال المطلق الذى تثيره التكنولوجيا الحيوية هو: ماذا سيحدث للحقوق السياسية لو أننا استنبطنا بعض الناس ممن على ظهورهم سروج، وآخرين ممن فى أقدامهم أحذية ذات مهاميز؟

إلى أين ستقودنا مثل هذه العقاقير التى تغير الحالة المزاجية مثل بروزاك وريتالين؟

الاعتداد بالنفس مفهوم سيكولوجى عصرى، وهو شىء يقال للأمريكيين دومًا، إنهم بحاجة إلى المزيد منه. إلا أنه يشير إلى جانب مهم من جوانب النفسية البشرية، وهو الرغبة التى لدى الناس جميعًا فى التقدير. والكائنات البشرية، بما لديها من ذاكرة وتعلم وقدرة ضخمة على التفكير المجرد، قادرة على توجيه جهودها من أجل التقدير إلى الأيديولوجيات، والمعتقدات الدينية، والمناصب الجامعية، وجوائز نوبل، وعديد من أشكال التكريم الأخرى. إلا أن المهم هو أن الرغبة فى التقدير لها أساس بيولوجى، وأن هذا الأساس يرتبط بمستويات مادة السيروتونين فى المخ.

ولهذا السبب يبدو عقار مثل بروزاك ذا أهمية كبيرة من الناحية السياسية. ويقول هيجل إن العملية التاريخية البشرية برمتها كانت بدافع من سلسلة من الكفاح المتكرر من أجل التقدير، ومعه بعض الحق فى ذلك. فالحقيقة أن كل التقدم البشرى كان منتجًا فرعيًا لحقيقة أن الناس لم يكونوا راضين قط بما يحظون به من تقدير؛ ومن خلال الكفاح والعمل وحده استطاع الناس تحقيق ذلك التقدم. وبعبارة أخرى، كان لا بد من اكتساب المكانة. وتتماشى مع ذلك الآن صناعة الأدوية الأمريكية، التى تقدم الاعتداد بالذات فى زجاجة برفع معدل السيروتونين فى المخ عن طريق عقاقير مثل زولوفت وبروزاك.

ولا شك أن هناك الملايين من المكتئبين إكلينيكيًا فى أنحاء العالم الذين تقل مشاعرهم الخاصة بقيمة الذات كثيراً عما ينبغى أن تكون عليه. ومن أجل هؤلاء، يعد بروزاك، وما على شاكلته من عقاقير، نجدة من السماء. إلا أن مستويات السيروتونين المنخفضة لا تكشف عن حالة مرضية واضحة المعالم، ويفتح وجود بروزاك الطريق أمام الوصف الشهير الذى وضعه بيتر كرامر، مؤلف كتاب «الاستماع إلى بروزاك»، لعلم العقاقير التجميلى: أى تناول عقار من العقاقير ليس من أجل قيمته العلاجية، بل لمجرد أنه يجعل المرء يشعر أنه «أفضل». وإذا كان الإحساس بالاعتداد بالنفس على هذا القدر من الأهمية بالنسبة للسعادة البشرية، فمن ذا الذى لا يرغب فى المزيد منه؟

وإذا بدا أن بروزاك ضرب من حبة السعادة، فقد ظهر ريتالين ليقوم بدور أداة صريحة للضبط الاجتماعى. وهو يستخدم الآن لمعالجة متلازمة تعرف باسم اضطراب نقص الانتباه المفرط ADHD، وهو «مرض» أشيع ربطه بالصبية الصغار الذين يجدون مشكلة فى الانتباه داخل قاعات الدرس.

وريتالين منبه للجهاز العصبى المركزى المرتبط كيميائيًا بالمواد الموجهة مثل الميتا امفيتامين والكوكايين، وآثاره الفارماكولوجية تشبه إلى حد كبير آثار العقارين السابقين، حيث إنه يزيد مدى الانتباه، ويخلق إحساسًا بالنشوة والابتهاج، ويوجد مستويات قصيرة المدى من الطاقة، ويسمح بقدر أكبر من التركيز. وإذا أُفرط فى تناول الريتالين كانت له آثار جانبية مشابهة لتلك الناتجة عن الميتا امفيتامين والكوكايين، بما فى ذلك الأرق ونقصان الوزن. وهذا هو السبب فى أن الأطباء الذين يصفون ريتالين للأطفال يوصون بأن تكون هناك «إجازة من العقار» بشكل دورى.

وهناك تماثل مزعج بين بروزاك وريتالين، فالأول يوصف بكثرة للنساء المكتئبات اللائى يفتقرن إلى الاعتداد بالنفس؛ فهو يعطيهن المزيد من الإحساس الذكرى الأول الذى يحدث فى وجود مستويات مرتفعة من السيروتونين، بينما يوصف ريتالين للصبية الذين لا يريدون أن يجلسوا ساكنين فى قاعات الدرس لأن الطبيعة لم تصممهم بحيث يتصرفون على هذا النحو. والجنسان معًا يُدفعان برفق نحو تلك الشخصية الوسطية الخنثى، الراضية بنفسها والمطيعة اجتماعيًا، التى هى النتيجة الصحيحة سياسيًا القائمة حاليًا فى المجتمع الأمريكى.

وليس بروزاك وريتالين سوى الجيل الأول من العقاقير التى لها تأثير مُغيِّر على الإدراك والسلوك. ففى المستقبل، سيكون بالفعل تحقيق كل ما يتصور الخيال الشعبى أن الهندسة الوراثية تحققه بشكل أسرع من خلال علم العقاقير العصبى. وربما تستخدم فئة من العقاقير تعرف باسم benzodiazepines (مجموعة من المركبات الكيماوية التى تستخدم كمضادات للاكتئاب ومهدئات ومنومات ولاسترخاء العضلات)، للحد من القلق والمساعدة فى الحفاظ على اليقظة المريحة ولكنها نشطة، وإحداث النوم فى فترة أقصر، دون أن تكون هناك آثار جانبية للتهدئة. وقد تستخدم محفزات أسيتيل الكولين، لتحسين القدرة على معرفة حقائق جديدة، والاحتفاظ بالمعرفة، وتحسين القدرة على استرجاع الوقائع. وقد تستخدم محفزات جهاز الدوبامين لزيادة قدرة التحمل والتحفيز. وأخيرًا، قد يكون من الممكن التحكم فى الجهاز المهدئ الباطنى لتقليل الإحساس بالألم وزيادة عتبة البهجة.

ولسنا مضطرين للانتظار حتى وصول الهندسة الوراثية البشرية كى نتصور زمنًا نستطيع فيه زيادة الذكاء والذاكرة والحساسية العاطفية والقدرة الجنسية، وكذلك نقلل الميول العدوانية ونتحكم فى السلوك بطرق كثيرة أخرى. فقد رُبطت هذه المسألة فعلاً بالجيل الحالى من العقاقير التى لها تأثير مُغيِّر على الإدراك والسلوك، وسوف تبرز أكثر وأكثر مع تلك التى ستظهر عما قريب.

ماذا يحدث حين يمتد العمر بالإنسان حتى ١٥٠ سنة؟

تُكرِّس مهنة الطب لفرضية أن كل ما يهزم المرض ويطيل العمر هو شىء مفيد بلا شك.

والخوف من الموت أحد أعمق المشاعر الإنسانية وأقدمها، ولذلك فمن المفهوم أنه ينبغي علينا الاحتفاء بأي تقدم في التكنولوجيا الطبية تساعد على إبعاد شبح الموت. ولكن الناس يشعرون بالقلق بشأن نوعية الحياة التي يحيونها كذلك ـ وليس فقط مقدارها. ومن الناحية المثالية، فإن المرء قد لايحب أن يعيش زمنًا أطول وحسب، بل كذلك الا تتعطل قدراته المختلفة عن العمل حتى ذلك الحين الذي تدركه فيه الوفاة في نهاية الأمر، كي لا يعيش فترة من الضعف والوهن في آخر حياته.

وبينما أدى الكثير من التقدم الطبي إلى تحسين حياة كبار السن، فقد كان للكثير منه أثر عكسي بإطالته جانبًا واحدًا من جوانب الحياة وزيادة التبعية. فمرض ألزهايمر ـ وفيه تبلى أجزاء بعينها من المخ، مما يؤدي إلى فقدان الذاكرة ثم الخبل في نهاية الأمر ـ مثال جيد لذلك، لأن احتمال الإصابة به يزداد زيادة تناسبية مع العمر. ففي الخامسة والستين، يحتمل إصابة شخص واحد فقط بمرض ألزهايمر؛ وفي الخامسة والثمانين تكون النسبة واحدًا من بين كل ستة. وعليه فإن الزيادة السريعة في عدد من يعانون من مرض ألزهايمر في الدول المتقدمة نتيجة مباشرة لزيادة متوسط العمر، حيث زيدت صحة الجسد دون زيادة مقاومة هذا المرض العصبي.

والواقع أن هناك فترتين من كبر السن أطالتهما التكنولوجيا الطبية، على الأقل بالنسبة لمن هم في العالم المتقدم. وتمتد الفئة الأولى من ٦٥ حتى الثمانينيات في بعض الأحيان، حيث يتوقع الناس أن يحيوا حياة تتسم بالعافية والنشاط، مع وجود الموارد الكافية للتمتع بها. والكثير من الكلام الطيب عن إطالة العمر يتعلق بهذه الفترة، والواقع أن ظهور هذه المرحلة الجديدة من الحياة، باعتبارها أملاً واقعيًا بالنسبة لمعظم الناس، يعد إنجازًا يفخر به العلم الحديث.

والمرحلة الثانية من العمر المتقدم، وهي الفئة الثانية، أكثر إشكالية بكثير. فهي الفترة التي يصلها معظم الناس حاليًا ببلوغهم الثمانين، حين تتداعى قدراتهم ويعودون إلى حد كبير إلى حالة من التبعية أشبه بالطفولة. وتلك هي الفترة التي لا يحب المجتمع التفكير فيها، حيث تتعارض مع مُثُل الاستقلال الشخصي الذي يعتز به معظم الناس.

وسوف يعتمد الأثر الاجتماعي لزيادة متوسط العمر المستمرة على أحجام نسبية من هاتين المجموعتين، وهو ما سيتوقف بدوره على «توازن» ما يحدث في المستقبل من تقدم في إطالة العمر. وقد يكون أفضل سيناريو هو ذلك الذي تؤخر فيه التكنولوجيا في الوقت ذاته عمليات الشيخوخة الموازية – كان يكون ذلك باكتشاف المصدر الجزيئي الشائع للشيخوخة في الخلايا الجسدية، وتاخير هذه العملية في أنحاء الجسم. وفشل الأجزاء المختلفة في القيام بوظائفها سوف يحدث في الوقت ذاته، ولكن متاخرًا؛ وهناك كثيرون ينتمون إلى الفئة الأولى، أما من ينتمون إلى الفئة الثانية فأقل منهم.

وقد يكون أسوأ سيناريو هو الخاص بالتقدم الذي يتسم بقدر كبير من عدم التوازن، ونعثر فيه، على سبيل المثال، على سبل للحفاظ على صحة الجسم دون أن نتمكن من



بينما أدى الكثير من التقدم الطبي إلى تحسين حياة كبار السن، فقد كان للكثير منه أثر عكسي بإطالته جانبًا واحدًا من جوانب الحياة وزيادة التبعية. فمرض ألزهايمر ـ وفيه تبلى أجزاء بعينها من المخ، مما يؤدي إلى فقدان الذاكرة ثم الخبل في نهاية الأمر ـ مثال جيد لذلك، لأن احتمال الإصابة به يزداد زيادة تناسبية مع العمر

دفع التدهور العقلي المصاحب للتقدم في العمر. وقد تسفر أبحاث الخلية الأصلية عن طرق لزرع أجزاء جديدة من الجسم. ولكن ما لم يكن هناك علاج موازٍ لمرض ألزهايمر، فلن تؤدي هذه التكنولوجيا الجديدة المدهشة سوى إلى السماح لمزيد من الناس بالبقاء في حالات إعاشية لسنوات أطول مما هو ممكن في الوقت الراهن.

فإذا حدث انفجار في عدد من ينتمون إلى الفئة الثانية فقد يطلق عليه «سيناريو التمريض المنزلي القومي»، حيث يعيش الناس حتى سن المائة والخمسين، ولكنهم يقضون الخمسين سنة الأخيرة في حالة من الاعتماد الطفولي على من يتولون رعايتهم.

وهناك العديد من الأسئلة التي لا جواب لها بشأن ما ستكون عليه الحياة التي من هذا النوع في المستقبل، حيث لم يشهد التاريخ البشري قط مجتمعات متوسط أعمارها ما بين الستين والسبعين، أو أكثر. فماذا عساها ستكون صورة ذلك المجتمع عن نفسه؟ إنك إذا ذهبت إلى حامل صحف تقليدي بأحد المطارات ونظرت إلى الناس المنشورة صورهم على أغلفة المجلات لوجدت أن أعمارهم قد تكون في أوائل العشرينيات، فهم الأغلبية العظمى ذات المظهر الجيد التي تتمتع بصحة جيدة. وبالنسبة لمعظم المجتمعات التاريخية، كانت تلك الأغلفة ستعكس منتصف العمر الفعلي للمجتمع ككل، وإن لم تعكس مظهره أو صحته. فماذا ستكون عليه أغلفة المجلات بعد جيلين آخرين، حين يكون من هم في أوائل العشرين من أعمارهم مجرد أقلية ضئيلة من السكان؟

هل ستظل لدى المجتمع الرغبة في أن يظن نفسه صغيرًا، ومتحركًا، وجذابًا، ومعافى، مع أن الصورة تنتقل من الواقع الذي يراه الناس حولهم إلى درجة أكثر تطرفًا مما هو عليه الحال الآن؟ أم أن الأذواق والعادات سوف تتغير، مع انهيار ثقافة الشباب بشكل نهائي؟

الاختيار غير الطبيعي

الإصرار على فكرة المساواة في مكانة الإنسان لها أسباب معقدة. فمن ناحية هناك قوة العادة، أو ما أسماه ماكس فيبر في يوم من الأيام «شبح المعتقدات الدينية الميتة» التي مازالت تنتابنا. ومن ناحية أخرى هناك نتاج الصدفة التاريخية؛ وكانت النازية أهم حركة سياسية تنكر صراحة فرضية المكانة الإنسانية العامة، وكانت النتائج المرعبة الخاصة بسياسات النازيين العنصرية وبمحاولات تحسين النسل، كافية لإقناع هؤلاء الذين عرفوها طوال الجيلين التاليين.

ولكن هناك سببًا مهمًا آخر للإصرار على فكرة عالمية المكانة الإنسانية يتعلق بما قد نسميه طابع الطبيعة ذاتها. فقد ثبت أن الكثير من الأسس التي حُرِمَت بناء عليها جماعات بعينها من نصيبها في المكانة الإنسانية أنها مجرد مسالة أحكام مسبقة، أو تعتمد على ظروف ثقافية وبيئية يمكن تغييرها.

وقد ثبت عدم صحة الأفكار التي تقول إن المرأة على قدر كبير من اللاعقلانية أو العاطفية بحيث لا يمكنها المشاركة في السياسة، أو أن أحجام رؤوس المهاجرين من جنوب أوروبا صغيرة وإنهم أقل ذكاء من هؤلاء الذين يقيمون في شمال أوروبا، وذلك بناء على بعض التجارب العلمية الصحيحة. و لا ينبغي أن يدهشنا كذلك كون النسق الأخلاقي لم ينهر انهيارًا تامًا في الغرب في أعقاب القضاء على الإجماع على القيم الدينية التقليدية، ذلك أن النسق الأخلاقي ينبع من داخل الطبيعة البشرية نفسها، وليس شيئاً يجب فرضه على الطبيعة البشرية بالثقافة.

هذا كله قد يتغير نتيجة للتكنولوجيا الحيوية. وأوضح خطر ماثل الآن هو أن الاختلافات الوراثية الكبيرة بين الأفراد سوف تضيق وتصبح مجمَّعة داخل جماعات اجتماعية مميزة. واليوم، يضمن «اليانصيب الوراثي» أن ابن الأب الثري أو الناجح لن يرث بالضرورة المواهب والقدرات التي خلقت الظروف التي أدت إلى نجاح الأب. وبطبيعة الحال، كان هناك دائمًا قدر من الانتقاء الوراثي: فالناجحون يميلون إلى الزواج من بعضهم، إلى درجة أن نجاحهم القائم على أسس وراثية سوف ينقل إلى أبنائهم فرصًا أفضل في الحياة. ولكن في المستقبل سوف يوضع كل ثقل التكنولوجيا الحديثة في خدمة تحسين أنواع الجينات التي تنقل إلى ذرية المرء. ويعني هذا أن النخب الاجتماعية قد لا تنقل الميزات الاجتماعية وحسب بل تغرسها وراثيًا كذلك. وقد لا يشمل هذا الصفات كالذكاء والجمال وحسب، بل كذلك السمات السلوكية مثل المثابرة والمنافسة وما شابههما.

و يرى كثيرون أن اليانصيب الوراثي غير عادل، لأنه يحكم على بعض الناس بأن يكونوا أقل ذكاء، أو أسوأ مظهرًا، أو يعانون من شكل أو آخر من أشكال الإعاقة. إلا أنه من ناحية أخرى شديد المساواة، حيث يجب على كل إنسان أن يشارك فيه، بغض النظر عن طبقته الاجتماعية أو عنصره أو الجماعة العرقية التي ينتمي إليها. فيمكن أن يكون لدى أغنى رجل ابن لا يصلح لشيء. وعندما يحل الاختيار محل اليانصيب فإننا نفتح سبيلاً جديدًا يمكن أن تتنافس فيه الكائنات البشرية، وهو سبيل يهدد بزيادة التباين بين قمة التراتب الاجتماعي وقاعدته.

إن ما سيفعله ظهور الطبقة العليا الوراثية لفكرة المكانة الإنسانية العامة أمر يستحق التامل. فاليوم يعتقد الكثيرون من الشباب النابهين والناجحين أنهم يدينون بنجاحهم لمصادفة مولدهم وتنشئتهم، التي لولاها لكان من المحتمل أن تاخذ حياتهم مسارًا مختلفًا تمامًا. وهم، بعبارة أخرى، يشعرون أنهم محظوظون، كما أنهم قادرون على الشعور بالتعاطف مع هؤلاء الأقل حظًا منهم.

ولكن إذا أصبحوا «أبناء بالاختيار» أي أن آباءهم قد اختاروهم بمواصفات وراثية معينة، فإنهم قد يعتقدون بقوة أن نجاحهم ليس مسالة حظ وإنما نتيجة لاختيار صحيح وتخطيط جيد من جانب آبائهم، ومن ثم فهم يستحقونه. وسوف ينظرون ويفكرون ويتصرفون، بل وربما يشعرون، بطريقة تختلف عن هؤلاء الذين لم يخترهم آباؤهم بالطريقة التي اختاروهم بها، وربما وصل بهم الحال في وقت من

الأوقات إلى أن يظنوا أنهم مخلوقات مختلفة. باختصار، فإنهم قد يشعرون أنهم أرستقراطيون، وأنه على عكس الأرستقراطيين القدامى سيُرجع حقهم المشروع في الأصل العريق إلى الطبيعة وليس العرف.

واحتمال سماح التكنولوجيا الحيوية بظهور طبقات وراثية جديدة أشار إليه وأدانه مرارًا من توقعوا شكل الحياة في المستقبل. ولكن يبدو كذلك أن الاحتمال العكسي يحظى بقدر كبير من الاعتبار - حيث سيكون هناك دافع إلى وجود مجتمع أكثر مساواة بكثير من الناحية الوراثية. ذلك أنه يبدو من غير المحتمل إلى حد كبير أن يجلس الناس في المجتمعات الديمقراطية الحديثة في حالة من اللامبالاة وهم يرون النخب تغرس الميزات وراثيًا في أبنائها.

والواقع أن هناك أشياء قليلة في سياسة المستقبل يحتمل أن تثير الناس كي يتقاتلوا بشأنها. ولا أعني بذلك المعنى المجازي للقتال، أي مباريات الصياح بين الرؤوس المتحدثة في المناقشات التلفزيونية أو في الكونجرس، بل حمل البنادق والقنابل واستخدامها ضد أناس آخرين. وهناك القليل جدًا من القضايا السياسية الداخلية اليوم في ديمقراطياتنا الليبرالية الغنية المكتفية ذاتيًا مما يمكن أن يثير غضب الناس بشدة، ولكن شبح الظلم الوراثي الناشئ قد يقض مضاجع الناس ويدفع بهم إلى الشوارع.

وإذا غضب الناس بما يكفي من «الظلم الوراثي»، فسوف يتخذ رد الفعل مسارين. أول هذين المسارين وأكثرهما معقولية هو منع استخدام التكنولوجيا الحيوية لتحسين الصفات البشرية والامتناع عن التنافس في هذا المجال. ولكن فكرة التحسين قد تصبح من الجاذبية بحيث لا يمكن التخلي عنها: أو قد يثبت أنه من الصعب فرض قانون يمنع الناس من تحسين أطفالهم: أو قد تعلن المحاكم أن ذلك من حقهم. وفي هذه الحالة يظهر الاحتمال الثاني، وهو استخدام التكنولوجيا نفسها للارتقاء بالقاعدة.

هذا هو السيناريو الوحيد الذي يُقبل فيه رؤية إحدى الديمقراطيات الليبرالية تعود إلى نشاط اليوجينيا (تحسين النسل البشري) الذي يخضع لرقابة الدولة. فقد كان الشكل القديم لليوجينيا يفرق بين المعوقين والأقل ذكاء بمنعهم من إنجاب أطفال. وفي المستقبل قد يكون من المحتمل توليد أطفال أكثر ذكاءً، وأكثر صحة، وأكثر «طبيعية».

وإعلاء شأن القاعدة أمر يمكن تحقيقه فقط من خلال تدخل الدولة. فمن المحتمل أن تكون تكنولوجيا التحسين الوراثي باهظة التكاليف وتنطوي على بعض المخاطر، ولكن حتى إذا كانت رخيصة وآمنة نسبيا، فإن الفقراء ومن يفتقرون إلى التعليم سيظلون لا ينتفعون بها. ولذلك فسيكون من الواجب تعزيز الخط الأحمر الساطع الخاص بالمكانة الإنسانية، عن طريق السماح للدولة بالتأكد من أن أحدًا لم يسقط خارجه.

وسوف تكون سياسة توليد كائنات إنسانية مستقبلية شديدة التعقيد. فحتى الآن يعارض اليسار الاستنساخ والهندسة الوراثية وما شابههما من تكنولوجيات حيوية لعدة أسباب، منها النزعة الإنسانية التقليدية، والهموم البيئية، والشك في التكنولوجيا وفي الشركات التي تنتجها، والخوف من اليوجينيا «تحسين النسل البشري». ويسعى اليسار منذ زمن بعيد إلى تقليل أهمية الوراثة لمصلحة العوامل الاجتماعية في تفسيره للمحصلات الإنسانية. فاليساريون يرون أنه لكي تدعم الهندسة الوراثية من أجل المحرومين، لا بد أولاً من الاعتراف بأن الجينات مهمة في تحديد الذكاء وغيره من أنماط المحصلة الاجتماعية.

ويرى فوكوياما أن اليسار في أوروبا أكثر عداءً للتكنولوجيا الحيوية منه في أمريكا الشمالية. وكثير من عدائه تغذيه الحركات البيئية القوية في أوروبا والتي قادت على سبيل المثال حملة ضد الأطعمة المعدلة وراثيًا. (ولم يتضح بعد إن كانت أشكال بعينها من النزعة البيئية المتشددة سوف تترجم إلى عداء للتكنولوجيا الحيوية البشرية أم لا. فبعض المدافعين عن البيئة يرون أنفسهم مدافعين عن الطبيعة ضد الكائنات البشرية، ويبدو أنهم أكثر اهتمامًا بالأخطار التي تتعرض لها الطبيعة غير البشرية من الطبيعة البشرية نفسها).

وما زال الألمان بشكل خاص على قدر كبير من الحساسية تجاه أي شيء تفوح منه رائحة اليوجينيا أي استخدام التكنولوجيا الحيوية في تحسين النسل. وقد أثار الفيلسوف بيتر شلوترديك عاصفة من الاحتجاجات عام ١٩٩٩ حين رأى أنه سرعان ما يصبح من المستحيل على الناس رفض قوة الاختيار التي توفرها التكنولوجيا الحيوية، وأن توليد شيء ما «ما بعد» الإنسان التي أثارها نيتشه وأفلاطون لم يعد من الممكن تجاهلها. وقد أدانه ضمن من أدانوه عالم الاجتماع هابرماس، الذي عارض الاستنساخ في سياقات أخرى.

وقد بدأ بعض اليساريين يعدون مرافعة ضد الهندسة الوراثية. ويقول جون رولز في كتاب A Theory of Justice إن التوزيع غير المتكافئ للمواهب الطبيعية ظلم من الناحية الوراثية. ولذلك فإنه ينبغي طبقًا لرولز أن تستخدم التكنولوجيا الحيوية لتحقيق تكافؤ الفرص عن طريق الارتقاء بالقاعدة، على فرض النجاح في حل المشكلات المتعلقة بالأمان والتكلفة وما شابه ذلك.

ومن المستحيل معرفة أي من هذين السيناريوهين - أحدهما خاص بالظلم الوراثي والآخر بالمساواة المتزايدة - هو الذي سيقع. ولكن ما إن تتحقق إمكانية التحسين الطبي الحيوي حتى تصعب معرفة الطريقة التي لا يصبح بها الظلم الوراثي إحدى نقاط الخلاف الرئيسية في سياسة القرن الحادي والعشرين.



هناك العديد من الأسئلة التي لا جواب لها بشأن ما ستكون عليه الحياة التي من هذا النوع في المستقبل، حيث لم يشهد التاريخ البشري قط مجتمعات متوسط أعمارها ما بين الستين والسبعين، أو أكثر. فماذا عساها ستكون صورة ذلك المجتمع عن نفسه؟

ما هو مستقبل ما بعد الإنسان؟

يعتقد فوكوياما أنه على الرغم من أن جزءًا كبيرًا من عالمنا السياسي يقوم على وجود «جوهر» إنساني ثابت فربما نكون على وشك الدخول في المستقبل ما بعد الإنساني، الذي ستمنحنا فيه التكنولوجيا القدرة على تغيير ذلك الجوهر شيئًا فشيئًا بمرور الزمن. وكثيرون يؤمنون بهذه القدرة، تحت راية الحرية الإنسانية. وهم يريدون تحقيق أكبر فائدة ممكنة من حرية الآباء في اختيار نوع ما لديهم من أطفال، وحرية العلماء في متابعة البحث، وحرية المستثمرين في استغلال التكنولوجيا لتحقيق الثروة.

ولكن هذا النوع من الحرية سيختلف عن كل أشكال الحرية الأخرى التي تمتع بها الناس من قبل. فقد كانت الحرية السياسية من قبل تعني حرية السعي لتحقيق تلك الغايات التي حددتها لنا طبائعنا. وهذه الغايات ليست محددة تحديدًا صارمًا: فالطبيعة البشرية شديدة المرونة، ونحن لدينا سلسلة كبيرة من الاختيارات التي تتلاءم مع طبيعتنا. ولكنها ليست قابلة للتشكيل إلى ما لا نهاية، وتشكل العناصر الثابتة - وخاصة ما يميز نوعنا كبشر من تدرج ردود الأفعال العاطفية - مرفأ آمنًا يسمح لنا بالاتصال بقوة مع سائر الكائنات البشرية.

قد يكون مقدرًا لنا بصورة أو بأخرى أن نعتاد على هذا النوع من الحرية، وقد نتعمد في المرحلة التالية من التطور والارتقاء، تولي مسئولية تركيبتنا البيولوجية بدلاً من تركها لقوى الانتخاب الطبيعي العمياء. ولكن إن نحن تولينا ذلك، فلا بد أن نفعل ذلك وعيوننا مفتوحة. ويفترض كثيرون أن العالم ما بعد الإنساني سوف يبدو إلى حد كبير أشبه بعالمنا هذا - حيث يتسم بالحرية والمساواة والرفاهية والرعاية والتعاطف والإنسانية - ولكنه سيكون فيها رعاية صحية أفضل، ويعيش الناس حياة أطول، وربما كان هناك قدر أكبر من الذكاء عما هو عليه الحال الآن.

ولكن «العالم ما بعد الإنساني» قد يصبح عالمًا أكثر تراتبيةً وتنافسًا من ذلك العالم القائم بالفعل، ونتيجة لذلك يكون زاخرًا بالصراع الاجتماعي. أو قد يكون عالمًا لا وجود فيه لفكرة «الإنسانية المشتركة»، لأن لدينا جينات بشرية مختلطة مع تلك الجينات الكثيرة الخاصة بالكثير من الأنواع الأخرى بحيث لم تعد لدينا فكرة واضحة عن ما هو الكائن البشري. أو قد يكون عالمًا يعيش فيه الشخص المتوسط عيشة طيبة في قرنه الثاني، جالساً في دار للرعاية، متمنيًا الموت الذي لا يدركه. أو قد يكون نوعًا من الطغيان الذي تصوره «عالمًا جديدًا رائعًا»، ينعم فيه الجميع بالصحة والسعادة ولكنهم ينسون معنى الأمل والخوف والكفاح.

ولسنا مضطرين لقبول هذه العوالم المستقبلية تحت راية الحرية الزائفة، سواء أكانت حرية حقوق الإنجاب غير المحدودة أو حرية البحث العلمي التي لا تحدها أية قيود. كما أننا لسنا مضطرين كذلك أن نعتبر أنفسنا عبيدًا للتقدم التكنولوجي الحتمي، حين لا يخدم هذا التطور غاياتنا الإنسانية. فالحرية الحقيقية معناها حرية المجتمعات السياسية في حماية القيم التي تعتنقها، وهذه الحرية هي ما نحتاج إلى ممارسته فيما يتعلق بثورة التكنولوجيا الحيوية في الوقت الراهن. ■

ترجمة: أحمد محمود

ما جرى وما يجرى وما العمل؟

عــــزمى بشـــارة

لم ينجح شارون، ولم تنجح إسرائيل فى عدوانها، بإحداث تغيير جدى فى الأوضاع السياسية والأسئلة السياسية المطروحة والمتعلقة بالاحتلال الإسرائيلى للأراضى العربية منذ العام ١٩٦٧. ومع ذلك يسود شعور عام بنشوء مرحلة جديدة تعيشها المنطقة، والقضية الفلسطينية بشكل خاص. نقول هذا رغم أن الهدف السياسى من عدوان شارون كما نفهمه هو تغيير أجندة المفاوضات السياسية بحيث لا تشمل قضايا لا حل لها بنظره، مثل القدس واللاجئين والاستيطان. والهدف أن تتمحور هذه المفاوضات السياسية حول أجندة الكيان الفلسطينى، مساحته، صلاحياته، علاقاته مع العرب ومع إسرائيل والتزاماته الأمنية بالطبع.

فى هذا السياق طرح شارون موقفه «المؤيد» لقيام دولة فلسطينية. وقد صوت حزب الليكود يوم ١٢مايو ٢٠٠٢ ضد موقفه هذا لأسباب متعلقة بالصراع على النفوذ داخل هذا الحزب، وضيق بذلك هامش مناورته الدولى. وقد وجد شارون أصلا صعوبة فى ترجمة عدوانه إلى إنجازات سياسية ولا حتى باللغة الأمريكية، ناهيك عن الأوروبية.

ولكن هذا الموقف الليكودى الذى خلط التعنت الأيديولوجى بالمزايدة الحزبية الداخلية كشف أيضًا عن الهوة الكبيرة الفاصلة بين الاعتبارات العربية والإسرائيلية فى المبادرة والتحرك السياسى. هكذا اتضح أنه عندما كان العرب يعدون لمبادرة سلام عربية عشية قمة بيروت ترضى الولايات المتحدة كانت إسرائيل تعد للعدوان على الشعب الفلسطينى، مجتمعًا وسلطة. وعندما اجتمع قادة المثلث العربى المهم فى شرم الشيخ لإصدار بيان يؤكد الرغبة فى السلام ونبذ العنف، أصدرت لجنة الليكود المركزية قرارًا يعارض الدولة الفلسطينية حتى بالتفسير الشارونى.

باشرت الحكومة الإسرائيلية بعد اسبوعين من العدوان بترتيب إنجازاته السياسية التى يتوجب أن تقدمها للمجتمع الإسرائيلى الذى دخل فى حالة «ترانس» أو «اكستازا» من نشوة لا بد لحكومة إسرائيل أن تقولبها وأن تحولها شعوريًا الى نشوة انتصار. ومن هنا أهمية اعتقال مروان البرغوثى الرمزية والقضاء بكل ثمن على جيوب المقاومة فى جنين ونابلس، ومن هنا إصرار شارون على اعتقال من تدعى إسرائيل أنهم على علاقة باغتيال زئيفى. يجب أن يبرر شارون بداية الحرب ونهايتها بـ«إنجازات» عينية يعرضها على المجتمع الإسرائيلى، وربما أيضا على الولايات المتحدة. فحتى شارون لا يستطيع الاكتفاء بالحالة الشعورية الهستيرية لتبرير ما قام به. عليه أن يبرر ويفسر ويشرح. وإذا كانت المهمة المعلنة للحرب هى «القضاء على البنية التحتية للإرهاب» فعليه أن يظهر ولو بالديماجوجية كيف تم ذلك.

ويحاول شارون أن يعرض «الإنجازات» بلغة مفهومة أمريكيًا من تراث العدوان الأمريكى على الشعب الأفغانى بشكل يبرر العدوان الإسرائيلى: ضرب البنى التحتية (يقابله ضرب معسكرات التدريب فى أفغانستان)، اعتقال الألاف (يقابل معتقل جوانتنامو)، اغتيال وإعدام الأسرى والمعتقلين المناضلين (يقابله بن لادن مطلوب حيًا أو ميتًا). قد تجد إسرائيل مقابلا أمريكيا لقصف المدنيين ولكنها لن تجد مقابلا للنزعة التخريبية لجنودها ولسرقة الممتلكات ولمنع العلاج عن الجرحى.

والأهم من ذلك كله أن إسرائيل لن تستطيع أن تختزل الموضوع الفلسطينى إلى «مسالة إرهاب»، ولا حتى فى الولايات المتحدة ذاتها. وذلك لوجود حالة اسمها الاحتلال والاستيطان. قد لا يفهم الرأى العام الأمريكى ما يفهمه الرأى العام الأوروبى عن حالة الاحتلال الكولونيالى، وقد يعتبر الاستيطان كلمة ذات دلالات إيجابية تذوقها المواطن الأمريكى من الذاكرة الجماعية حول تاريخه وتاريخ بلده الاستيطانى كما نقلت إليه عبر برامج التدريس والأفلام والأغانى. ولكن المواطن الأمريكى يفهم كلمة التمييز العنصرى والأبارتهايد، كما يفهم مطالب ديموقراطية من نوع حق تقرير المصير والانتخابات الحرة، وهكذا. وكلها مطالب يناضل الفلسطينى من أجلها. سيكون من الصعب بل المستحيل إلغاء الحق الفلسطينى أو تهميشه كقضية إرهاب حتى فى الولايات المتحدة ذاتها.

ويصح هذا، كما يصح غيره من آفاق العمل السياسى، إذا ما طور الفلسطينيون ـ كحركة سياسية ومجتمعية وكحركة تحرر، وبشكل لا يحتمل التأجيل ـ الاستراتيجية اللازمة للتعامل مع الوضع الجديد الذى نشأ بعد العدوان الإسرائيلى الأخير والشامل، خاصة بعد أن دفع شارون بسياسات القوة إلى حدودها القصوى، وكشف بذلك عن حدود سياسة القوة. من هنا ننطلق إلى مستقبل النضال الفلسطينى بالبناء على ما حصل، ولكى لا نبدأ من الصفر.

فى خضم النقاش حول جرائم الحرب التى ارتكبتها إسرائيل فى جنين ونابلس وأثناء اجتماع عرفات مع باول يوم الأحد ١٤ـ٤، أقرت الحكومة الإسرائيلية اقتراح شارون وجيشه إقامة مناطق عازلة كثيفة التواجد العسكرى بمظاهر فصل مادية حادة على الأرض حول المدن الفلسطينية القريبة من الخط الأخضر: طولكرم وجنين والقدس.

وإضافة لحملة الاعتقالات الواسعة الهادفة إلى ضبط النضال الفلسطينى والتحكم به يشكل قرار الحكومة الإسرائيلية يوم ١٤ أبريل الماضى بالفصل الديموجرافى الأمنى فى مناطق جنين وطولكرم والقدس نقطة فصل وتحول بين ما قبل العدوان وما بعده. لأنه يشكل بداية علنية لنظام الأبارتهايد المزمع إقامته فى فلسطين. لقد أعلن شارون فى جلسة الحكومة أن الخطوط التى سيرابط على طولها الجيش الإسرائيلى ليست حدوداً سياسية. الأمر الذى يؤكد أن القرار الحكومى الإسرائيلى ليس بداية لانسحاب من طرف واحد وإنما هو إقامة لنظام أبارتهايد من الفصل العنصرى الديموجرافى كحقيقة واقعة وبدون صفة دستورية أو رسمية. فما دام شارون لا يجد شركاء فلسطينيين للتفاوض حول «مرحلة انتقالية طويلة المدى» فإنه سيفرض هذه المرحلة من طرف واحد. وأى تعديل على هذا الفرض الإسرائيلى سوف يتطلب توجها فلسطينيا للتفاوض عليه، الأمر الذى سيتكفل تدريجيًا وبفعل متطلبات الحياة اليومية بفرض أجندة مفاوضات جديدة لا تدور حول القدس أو اللاجئين أو المستوطنات أو الحدود بل حول شروط وظروف التعايش فى ظل الظرف الانتقالى المفروض. وإذا ما رغب الفلسطينيون بتطوير المفاوضات سياسيا مع إسرائيل، فسوف تدور المفاوضات حول الكيان السياسى الفلسطينى وحدوده وطبيعة علاقاته مع إسرائيل. فقط فى هذه الحالة تنسحب إسرائيل إلى حدود سياسية متفق عليها، ولو كمرحلة انتقالية، ولا علاقة لهذه الحدود بقضايا الحل الدائم وأوسلو.

لقد كان قرار مجلس الأمن بضرورة انسحاب القوات الإسرائيلية من المدن التى اجتاحتها قرارًا ناقصًا وعاجزًا فإسرائيل سوف تخرج منها بغض النظر عن هذا القرار وعن «الضغط الأمريكى»، لأنها لا تريد ولا ترغب بإدارة حياة السكان. والأهم من ذلك أنها تريد الحفاظ على وضع يمكنها من العودة لتنفيذ تفتيش أو اغتيالات متى شاءت وأينما شاءت وضمن معايير جديدة من التجاهل و«التمسحة» تجاه هذه الممارسات الإسرائيلية.

ولكن جرائمها يجب ألا تمر بغير عقاب، ويكمن التحدى السياسى فى تحويل «انسحابها» نحو الحصار والجريمة المنظمة إلى بداية المعركة ضد نظام الأبارتهايد. فتجلى «الانتصار» الإسرائيلى على قرى الفلسطينيين ومدنهم ومخيماتهم، يكون برأى شارون ورئيس أركانه بفرض شروط إسرائيلية من طرف واحد على الأرض دون مفاوضات، أهم هذه الشروط المادية التى تفرض على الأرض هى هذه العوازل الأمنية بعرض مئات الأمتار وحتى خمسة كيلو مترات، والتى تحول التجمعات الفلسطينية إلى معازل خلف أسلاك شائكة وحواجز وأسوار. فى ظل هذا الأبارتهايد تتحول المناطق (أ) التى كانت تحت مسؤولية السلطة الفلسطينية الأمنية إلى مناطق (ب) بمسؤولية أمنية إسرائيلية تدخلها إسرائيل متى شاءت و«عند الحاجة»، إلا إذا «تعاون» الفلسطينيون أمنيا مع إسرائيل. وتشكل إقامة نظام الأبار تهايد من الفصل العنصرى المحكم إضافة إلى هذا النظام أو التشكيل الأمنى الجديد الترجمة العملية، هدف هذه المهمة العسكرية العدوانية الحقيقى.

لقد نشأ وضع جديد بعد العدوان الإسرائيلى الأخير، وليس الآن الوقت لمناقشة خلفيات هذه الحالة الجديدة والاستراتيجيات الفلسطينية، أو انعدامها، فى المرحلة السابقة وما يهمنا الآن هو تشخيص طبيعة المرحلة القادمة رغم وعبر هذا الدمار المخيف. لا الحالة انتصار فلسطينى، معنوى أو مادى، ولا الحالة قريبة من الترانسفير، الذى يحوله بعض الندابين إلى موضوع طبيعى للنقاش. ولا يجب ان يطرح مثل هذا الموضوع كأنه إمكانية وسيناريو من ضمن إمكانيات عديدة، بل كأنه آخر الدنيا، وليس فقط للفلسطينيين.

سمات الوضع الجديد:

١ـ حالة الفصل العنصرى المقبلة، ويتطلب التعامل معها استراتيجيات نضالية موحدة ذات طابع وطنى ديموقراطى يميز حركة تحرر وطنى تناضل من أجل العدالة والمساواة ضد العنصرية والاستيطان الكولونيالى والقمع والعنف الاحتلالى المستخدم. هذه استراتيجية تتضمن المقاومة لجعل حالة الاحتلال ذات ثمن للاحتلال ولكن بشكل يمكن المجتمع الواقع تحت الاحتلال من احتمال هذه المقاومة على المدى البعيد.

٢ـ تحول أمريكا من حليف إسرائيل فى الصراع إلى طرف فيه. وهذا يعنى أنه من غير الممكن الاعتماد على هامش استقلال فى الموقف الأمريكى تلعب فيه دور وسيط منحاز لصالح إسرائيل. وتحول أمريكا إلى طرف لا يعنى أن الخيارات يجب أن تتراوح بين مواجهة شاملة معها من ناحية او توسلها من ناحية أخرى، وإنما يجب أن يعنى هذا عدم توقع إنجازات من الاستراتيجية الدبلوماسية الأمريكية القائمة. يجب مواجهة الموقف الأمريكى سياسيا خارج وداخل الولايات المتحدة فى المجتمع الأمريكى أيضا. وهذا لم يتم حتى الآن فقد انتقلت منظمة التحرير الفلسطينية من النضال من أجل اعتراف أمريكى إلى توسل الهامش الدبلوماسى الأمريكى المستقل عن التحالف مع إسرائيل فى المفاوضات.

٣ـ تكشف عجز الحالة العربية الرسمية بشكل فاضح. فكل ما صدر رسميا عن الدول العربية أثناء هذه الحرب ورغم كل الجعجعة هو اجتماع لوزراء الخارجية العرب يوم ٦ أبريل أقر التوجه لمجلس الأمن بغرض طلب فرض عقوبات على إسرائيل بموجب الفقرة ٧

من ميثاق الأمم المتحدة التى تلزم بتنفيذ قرارات مجلس الأمن، ثم ما لبثوا أن تراجعوا عن قرارهم.

هذا كل شىء. عن هذا تمخضت الحالة السياسية العربية. المسؤول العربى متعاطف مع الفلسطينيين وحاقد عليهم فى الوقت ذاته لأنهم يكشفون له عن عجزه. ويضطرونه إلى إحراج ذاته وإحراج الولايات المتحدة لو أراد أن يرخى لتعاطفه العنان، ولو أراد أن يتفاعل مع مزاج شعبه السياسى. قد يدفع هذا الشعور إلى التآمر مع الولايات المتحدة إذا كان من غير الممكن أو المرغوب مواجهتها.

٤ـ وضوح قوة الحالة الشعبية العربية وتعاطفها مع القضية الفلسطينية ولو بدون قيادات سياسية مبلورة، ويتضح أيضا أن هذا العامل الشعبى العربى يشكل ضاغطا أساسيا على حكومات المنطقة وعلى اعتبارات الولايات المتحدة الأمريكية. ولكن القضية الفلسطينية الحية فعلا فى ضمير الأمة تكاد تتحول بالنسبة للحالة الشعبية العربية إلى سياسة هوية وإلى تاكيد على الهوية العربية، وترجمة المعاناة والتناقضات إلى اللغة الفلسطينية المشروعة الموجهة ضد الآخر، الإسرائيلى، بدلا من النظام الحاكم.

٥ـ ضغط أمريكى على الدول العربية الحليفة لتلعب دورًا أكبر فى «ترشيد» القيادات السياسية الفلسطينية المختلفة.

ورغم تورط الولايات المتحدة فى العدوان الإسرائيلى وتواطئها معه، إلا أن إسرائيل لم تظهر تفهما لحاجات الولايات المتحدة الأمريكية بعده وأثناءه. ولم تعر إسرائيل نداءات بوش أى اهتمام، كما لم تستعجل أية مهمة تفهما لحرج الولايات المتحدة مقابل حلفائها من الأنظمة العربية. ولم تكتف إسرائيل بذلك بل أوفدت رؤوس الكونجرس من ديموقراطيين وجمهوريين للتأثير على رئيس الولايات المتحدة ليس فقط لصالح العدوان الإسرائيلى، بل أيضا لمساعدة إسرائيل أن تحصد نتائجه السياسية.



ولم يكتف شارون بصمت كولن باول فى المؤتمر الصحفى فى القدس أثناء زيارته المكوكية للمنطقة بعد العدوان، وامتناعه عن التعبير حتى عن الموقف الأمريكى العلنى من الانسحاب الإسرائيلى من المدن الفلسطينية، بل تجاوز ذلك إلى طرح تصوره للأبارتهايد كرؤية سياسية يتمخض عنها العدوان. لم يجد باول فكرة سياسية إسرائيلية واحدة ذات قيمة يتقدم بها للفلسطينيين أو للعرب. ودون ذلك لا يستطيع باول، ولا حتى بمساعدة بعض العرب، إقناع الفلسطينيين بمناقشة موضوعات وهمية مثل وقف إطلاق النار (بين من ومن؟)، أو إعطاء تاكيدات حول «مكافحة الإرهاب» فى المستقبل. لم تتبن السلطة الفلسطينية أثناء العدوان وحتى اليوم المقاومة كخيار استراتيجى، ولكنها مع ذلك لا تستطيع أن تفاوض بتعابير مثل «وقف إطلاق النار»، أو ضرورة «مكافحة الإرهاب». ويبدو أن إسرائيل والولايات المتحدة كانتا «تطبخان» معادلة ما، تمكن الإسرائيليين من الادعاء أن فى حوزتهم، بعد أن «أنجز» العدوان ما «أنجز»، جوابا سياسيا على المبادرة العربية للسلام من قمة بيروت، عندما قام نتنياهو بإحباط هذه المحاولة.

لقد استنتجت الإدارة الأمريكية الحالية من فشل الإدارة السابقة فى كامب ديفيد أن السبب يعود جزئيا إلى عدم منح الدول العربية دورًا كافيًا فيه وفى الإعداد له، وأن القيادة الفلسطينية لا تستطيع وحدها، دون سند عربى واسع،التوصل إلى تسوية على قضايا

ما جرى وما العمل؟

كبرى مثل القدس واللاجئين. وتحاول إسرائيل استغلال هذا الاستنتاج الأمريكي لاقتراح مؤتمر إقليمي للسلام.

ويعتبر المزاج السياسي العربي عموما النموذج العربي - الدولي المشترك للتفاوض أفضل من المسارات المنفردة وتناقضاتها. ولذلك يبدو اقتراح شارون وكأنه تبنٍّ لاستنتاجات الإدارة الأمريكية الحالية بما يتوافق مع المزاج السياسي العربي. ولكن اقتراح شارون ليس اقتراحا لمفاوضات سلام بل لحوار عربي إسرائيلي بعد العدوان، أي بعد أن يتذوق العرب نتائج العدوان وسياسة القوة الإسرائيلية. ويشترط شارون استثناء عرفات، الأمر الذي يعني تقبل العرب أهداف العدوان الإسرائيلي الأخير كحقائق ناجزة. كما لا يقبل شارون مبادرة السلام العربية أساسا للمؤتمر الإقليمي الذي يقترح. وهو بالتالي مؤتمر غير ملزم للحوار وليس للتوصل إلى تطبيق شروط تسوية متفق عليها.

والأنكى والأمر أن المؤتمر الدولي لايدعو سوريا ولبنان للمشاركة. وذلك لتتحول هذه إلى مطالب. فإذا استهجن البعض عدم دعوتهما تصبح الدعوة إنجازا. لقد أحسنت سوريا ولبنان صنعا بعدم الرد إطلاقا على موضوع المؤتمر، دلالة على عدم أخذ هذه الفكرة بجدية، وحتى دون انتقاد تغييبهما لئلا يفسر ذلك كمطلب.



كما أن الرد العربي في قمة شرم الشيخ على اقتراح المؤتمر الإقليمي بالتمسك بمبادرة بيروت يعني عدم قدرة إسرائيل على فرض الهزيمة على العرب. لقد ولد هذا الاقتراح بتشويهات حادة وتحاول الولايات المتحدة إحياءه بالتنفس الاصطناعي. ولكن قرار مؤتمر الليكود ضد دولة فلسطينية يعرقل هذه المحاولة.

في ظل المعطيات الحالية يبدو أن الاقتراح المادي والملموس الوحيد الذي يواجهه الشعب الفلسطيني هو اقتراح الأبارتهايد. ويجب أن تقابله سياسات مقاومة ملموسة ذات استراتيجية موحدة. يتطلب واقع الأبارتهايد في حالة فرضه برنامجًا سياسيًا واستراتيجية مقاومة موحدة مشتقة منه. هذه الاستراتيجية وحدها قادرة أن تستثمر حتى التضحيات الأخيرة التي تمت في غيابها، فهي قادرة أن تبدأ بشن الحملة على إسرائيل كدولة أبارتهايد كولونيالي تعج بمجرمي الحرب الذين يجب محاسبتهم. ليست الأولوية الآن للمعركة الدبلوماسية بل لمعركة شعبية تشن عالميا وفي العالم العربي بلغة ديموقراطية مفهومة ضد مجرمي الحرب الإسرائيليين. هذه المعركة كفيلة بنشر المزاج السياسي اللازم لاستقبال المعركة السياسية والدبلوماسية القادمة ضد نظام الأبارتهايد. مع شارون بلغت سياسة القوة الإسرائيلية حدودها، والعمل السياسي الفلسطيني والمقاومة الفلسطينية بعدها إذا كانت محكومة باستراتيجية هي ربح صاف للفلسطينيين وخسارة لإسرائيل.

علام نتناقش؟

منذ فك الحصار عن مكتب الرئيس الفلسطيني يدور في المجتمع الفلسطيني نقاش حي يتوقع من شعب حي، وقد انتشرت حالة النقاش انتشار النار في الهشيم فلم تترك حارة ولا منتدى ولا صحيفة إلا وتملكتها. هنالك حمى من النقاش والنقد والنقد الذاتي تذكر بما بعد أيلول ١٩٧٠ وما بعد لبنان ١٩٨٢ وما بعد أوسلو. فهل نحن أمام «ما بعد» أخرى لا يأتي بعدها جديد؟ وهل تستطيع القوى القائمة أن تأتي بجديد.

ولأن النقاش يدور في حلقات متوازية أشبه بثقافات فرعية subcultures وجماعات منفصلة اجتماعيا وسياسيا. فلا يبدو أن هنالك حوارا اجتماعيا شاملا تستفيد منه قيادة موحدة لحركة تحرر وطني، بل وتبادر له في المنعطفات التاريخية الحادة. ولا أدري إذا كان النقاش الدائر في رفح ذا علاقة بالنقاش الدائر في رام الله، وإذا كان النقاش الدائر داخل حركة «فتح» مرتبطًا بشكل من الأشكال بالحوارات الدائرة في الفصائل الأخرى أو في الشتات. وقد لمست جانباً مهماً من النقاشات الدائرة والأسئلة المتطايرة من وإلى كافة الاتجاهات من خلال الاحتكاك مع القوى الفاعلة والناس في الداخل وفي الشتات والعالم العربي وطبعا في المناطق المحتلة عام ٦٧ وفي لقاءات مفتوحة مع جماهير واسعة عقدت مؤخراً معي في الناصرة والقدس المحتلة ثم في دولة الإمارات العربية المتحدة وفي شيكاغو وفيلدلفيا لمست نفس نوع الأسئلة الذي يقلق الجمهور العربي. وهو وإن طرح بصياغات متشابهة من قبل قيادات أيضًا في الصحافة وغيرها إلا أنه يخفي دوافع ونوايا مختلفة.

لقد فرض المد الجماهيري الفلسطيني صياغة كافة الأسئلة بلغة متشابهة ألا وهي لغة ضرورة «الإصلاح». ولكن لغة الإصلاح تخفي نوايا ودوافع سياسية مختلفة. فمن دعاة الإصلاح من يعتقد أنه كان على القيادة الفلسطينية قبول ما طرح في كامب ديفيد وتجنب الانتفاضة، ومن دعاة الإصلاح أيضًا من يرى أن الطريق لتحقيق الأهداف الوطنية بعد إملاءات كامب ديفيد تمر عبر المقاومة، ولكنه يسأل أية مقاومة وكيف؟

لم يعد بالإمكان إذاً الاكتفاء بكلمات وصياغات مثل ضرورة الإصلاح. لقد طرحت هذه الصياغات والتعابير بعد أيلول ١٩٧٠ وبعد اجتياح ١٩٨٢ وبعد حرب الخليج الثانية وبعد أوسلو وأثناء عمل السلطة الفلسطينية في السنوات الثماني الأخيرة، وكان الإصلاح ينتهي عادة بتصليح وضع دعاة الإصلاح على مستوى البعد أو القرب من عملية صنع القرار.

ولا شك أن الحاجة ملحة لترتيب مؤسسات السلطة الوطنية الفلسطينية، وأن الحاجة ماسة أيضا لترتيب عملية اتخاذ القرار بشكل أكثر ديموقراطية، وأن تتضح فيه أهمية الوزير مقابل غير الوزير وأهمية مؤسسة مثل اللجنة التنفيذية ل م.ت.ف. وغيرها في عملية صنع القرار والاتصالات الدولية والمحلية، وقيمة ووزن حركة «فتح» كتنظيم سياسي في السلطة، ثم أهمية غيرها من الحركات السياسية ووزنها في عملية صنع القرار أو أخذ معارضتها بعين الاعتبار ضمن إجماع وطني على ثوابت لا تطالها هذه المعارضة.. هذه الأسئلة مصيرية ولكن يجب أن تطرح في السياق السياسي القائم حالياً وإلا فقدت معناها بالنسبة للجمهور الواسع. فالشعب الفلسطيني يسأل حالياً أسئلة سياسية متعلقة بمصير المواجهة مع الاحتلال، والحل السياسي للأزمة، ويتساءل عن البرنامج السياسي لدى قادته.

لا شك أنه في مراحل اليأس والإحباط تنتشر نظرية المؤامرة ويتبعها التخوين، ولكن دور المثقف المسيس في قيادة النقاش حالياً يشمل تجنيب الجمهور نظرية المؤامرة والخيانة، كما يشمل قيادة الحوار باتجاه طرح القضايا المحورية والمصيرية.

تبدأ الاستفادة السياسية من ترتيب محاور النقاش بصياغة السؤال التالي:

١) هل الحركة الوطنية الفلسطينية هي حركة تحرر وطني أم دولة قيد التكوين؟ يجب ان يحسم هذا السؤال من أجل إقرار نمط العمل والسلوك السياسي. لقد بقي هذا السؤال معلقاً منذ بداية الثمانينيات، ولكنه اكتسب أهمية خاصة مع قيام سلطة فلسطينية مرتبطة باتفاقيات من ضمنها اتفاقيات أمنية. تشتق من حسم هذا السؤال على هذا النحو أوذاك توجهات مختلفة تماماً في التعامل مع مفاهيم ووقائع مثل: «سلطة ومعارضة»، «وحدة وطنية»، «تنسيق أمني». حسم السؤال باتجاه حركة التحرر الوطني المناضلة من أجل الاستقلال عبر خيار مقاومة الاحتلال يطرح مسألة استراتيجية المقاومة. ولكن دون حسم هذا السؤال لا توجد استراتيجية مقاومة، بل توجد «عملية سياسية» من ناحية و«عمليات مقاومة» من ناحية أخرى لا تربطهما إلا علاقة التعارض أو الإزعاج المتبادل أو التواطؤ غير المتجانس في بعض الحالات. أما إذا حسم السؤال باتجاه الدولة قيد التكوين فهذا يعني الاعتقاد أن العملية السياسية التدريجية الجارية والمنطلقة من كيان سياسي فلسطيني قائم ومعترف به على الساحة الدولية «يحترم تعهداته واتفاقياته» ستؤدي إلى قيام دولة فلسطينية مستقلة على خطوط قريبة مما طرح في كامب ديفيد، أو ما بين كامب ديفيد والمبادرة السعودية. ويفترض أن تكون واقعية هذا المنطلق بدون مقاومة بحد ذاتها موضع نقاش.

لقد برز بعد العدوان أكثر من مؤشر على رغبة الولايات المتحدة أن تلعب دورا بهذا الاتجاه بشرط أن يحول عرفات إلى شخصية رمزية تحركها محاور ومراكز قوى مقربة أمريكيا. ولكن لا ضمان أن تنجح الولايات المتحدة بفرض حل كهذا على إسرائيل، ولا ضمان لنجاح خطتها فلسطينيا. ولكن الجولات المكوكية ستبدأ ومن الضروري بلورة موقف فلسطيني منسق عربيا تجاه هذه المحاولات.

بطرحنا هذا السؤال نحن لا نقصد أن على الحركة الوطنية الفلسطينية أن تختار بين السياسة والمقاومة، كما أننا لا نقصد الاختيار بين المقاومة والتفاوض، بل على العكس من ذلك نحن نرمي إلى الجمع بين السياسة والمقاومة، وبين المقاومة والتفاوض إذا لزم الأمر، ضمن استراتيجية واحدة، فهل هي استراتيجية تحرر وطني تتضمن عناصر السياسة والمقاومة والبناء الذاتي أم هي استراتيجية دولة تتعامل مع ذاتها ومع الدول الأخرى كأنها دولة في صراع حدود مع دولة أخرى.

ومن غير المعقول القبول لا دولياً ولا فلسطينياً بحالة من الفصل بين السياسة والمقاومة. ثم الاحتفاظ بحالة من «التواطؤ» ذي الحبل القصير المصداقية بين العنصرين. والمقصود هو استنكار العمليات واستخدامها في الوقت ذاته سياسيا كإثبات فشل سياسة إسرائيل الأمنية. في هذه الحالة تخسر السياسة العالمين، عالم المقاومة وعالم الصالونات الدبلوماسية. كما أنه من غير الممكن القبول فلسطينيا بحالة الصراع على الوراثة كأن الدولة قد تكونت، أو انتشار الفساد البيروقراطي في هذه المرحلة من التحرر الوطني ترافقه كليشيهات التحرر الوطني والمبالغة باستخدام الرموز حول الدولة والكيان كتعويض عن النقص في الواقع. كما أن المجتمع الفلسطيني لم يعد يقبل بالتنافس بين الفصائل على تبني «عملية»، خاصة أن جدواها السياسية غير ثابتة لأنها لا توضع ضمن تصور شامل للنضال الفلسطيني يشمل العلاقة الجدلية بين الوسيلة والهدف.

وقد أعربنا عدة مرات عن رأينا أن الحسم يجب أن يتجه باتجاه استراتيجية حركة التحرر الوطني ضد حالة كولونيالية استعمارية أصبحت أكثر وضوحاً للعالم بعد العدوان الأخير. فقد أزال هذا العدوان آخر الأوهام حول وجود كيان فلسطيني سياسي ولو بنصف سيادة في علاقة تكافؤ من أي نوع مع إسرائيل، ولكن مسألة حركة التحرر الوطني تطرح السؤال الثاني:

٢) ما هي استراتيجية حركة التحرر الوطني الفلسطيني في المرحلة الراهنة؟

يجب أن تجمع حركة التحرر الوطني بين العمل السياسي والمقاومة المشروعة ضد الاحتلال بحيث يحكم الهدف السياسي وطبيعة الأدوات المتوافرة والأهمية المتفاوتة لساحات العمل المختلفة وغيرها من العوامل نوعي النشاط. يهدف العمل السياسي إلى تعبئة الرأي العام الفلسطيني والعربي إلى التأثير على الرأي العام الأمريكي والأوروبي والإسرائيلي ويجب أن يتلاءم عمله مع استراتيجية المقاومة. ولا تتألف المقاومة من مجموعة «عمليات» تقيم كل واحدة بشكل منفرد، بل هي استمرارية، عملية، صيرورة تحكمها الغاية، والغاية هي تحقيق الهدف السياسي. والتقدم نحوه هو الحكم الوحيد في اختيار هذه الأداة أو تلك.

٣) ولكن هل يمكن تحقيق ذلك دون وجود قيادة سياسية موحدة؟

لا يمكن انتقاء الأدوات النضالية بشكل موضوعي ومحاكمة جدواها ونجاعتها بمدى تقريبها لمجمل الحركة الوطنية من الهدف، كما يستحيل الانسحاب التكتيكي والمناورة وغيرهما إذا كان هنالك تنافس ومزايدة على مستوى قيادة حركة التحرر الوطني. أي إذا لم تتوافر قيادة مركزية قادرة على صنع القرار وفرضه، إن كان هجوميًا أو تراجعًا. ولا يمكن أن يتم ذلك على المستوى الفلسطيني بعد كل هذه التجربة الطويلة إلا بالحوار والقيادة الموحدة، كل أسلوب آخر يؤدي إلى مجابهات ومواجهات أهلية.

«يلف» النقاش الشعبي حالياً و«يدور» حول هذه القضايا ولكنه لا يلامسها ولا يجابهها. ويبدو لي أن القوى المساهمة في النقاش على مستوى القيادة ترغب بالابتعاد عن هذه القضايا إلى نقاشات على مستوى صراعات النفوذ تحت شعارات الإصلاح. ولا بأس بصراعات النفوذ لو كانت تمثل وجهات نظر متباينة. والسياسة في هذه الحالة من بين أمور أخرى عديدة هي أيضا صراع على النفوذ. ولكننا نرى السياسة مستمرة بقوة القصور الذاتي. ولا يبدو الفرق واضحاً بين الحصار وفك الحصار. وأن القيادة الفلسطينية في حالة إدارة أزمات. والمبادرة ما زالت إما بيد شاب فجر نفسه في عملية استشهادية، أو بيد شارون، أو حكومة الولايات المتحدة. ولا يمكن أن تكون القيادة الفلسطينية فاعلة بالأساليب القديمة وما دامت تتجنب الأسئلة الثلاثة أعلاه.

بعد العدوان

من بين نتائج العدوان الإسرائيلي على الشعب الفلسطيني، مجتمعاً ومؤسسات، يمكن اعتبار التغييرات في الوضع الداخلي الفلسطيني هي الأكثر حساسية وخطورة. فقد تكون الهزة الداخلية الفلسطينية تطوراً محموداً، وقد تتطور إلى كارثة حقيقية.

فإذا فتحت هذه الطريق إلى الأسئلة الصحيحة المؤدية إلى القناعة بضرورة إقامة قيادة وطنية موحدة ذات برنامج سياسي مرحلي موحد واستراتيجية مقاومة موحدة، فقد تتحول جدلياً إلى بركة حقيقية من ناحية تنظيم وضع مؤسسات الشعب الفلسطيني. أما إذا لم يتم تلخيص التجربة كما حصل في حالة الأردن ١٩٧٠ ولبنان ١٩٨٢ عبر طرح الأسئلة الضرورية المؤدية إلى القناعات الصحيحة، فسوف يؤدي الزلزال إلى المس بهيبة السلطة بشكل مجرد فحسب دون أن يقود إلى طرح الأسئلة الصحيحة، وسوف تفتح الطريق نحو الفوضى السياسية والاجتماعية والتسيب والانحلال.

وهذا ما تبثه «النقاشات»، أو الحرب الكلامية، بين قيادات في السلطة والأجهزة الأمنية للشارع الفلسطيني، منذ أن رفع الحصار عن مبنى المقاطعة في رام الله. ويتساءل الجمهور الفلسطيني: علام يدور النقاش؟ وهل آن الأوان لصراعات النفوذ أو لاقتسام الكعكة، وأين الكعكة أصلاً؟

لم يحن الوقت بعد لصراعات النفوذ، ففي ظروف ضعف السلطة لا تعني الصراعات داخلها إلا حالة انحلال. ويساور الشك أوساطًا واسعة من الشعب الفلسطيني أن الصراع يدور حول «الوراثة» في حياة الرجل، لأن حسم هذه المسألة يحسم أيضاً أي مجموعات النفوذ يتحكم بالقرار السياسي في حياته، كما يدور الصراع حول تحويل ياسر عرفات إلى رمز (رمز فعلي يعني رئيسًا رمزيًا وليس لقب الرمز) كما كتب مارتين إنديك، السفير الأمريكي السابق في إسرائيل (يديعوت أحرونوت، ١٢-٥-٢٠٠٢). هذه دون شك مشكلة، وخاصة أن هذا الشك يغذي يوميا بازدياد المؤشرات على صراع سياسي يرافقه صراع على النفوذ تتابعه الولايات المتحدة بدقة.

ولكن المشكلة الأساسية والأكثر خطورة هو نشوء حالة انحلال يزيدها حدة الحصار الذي يقطع أوصال الشعب الفلسطيني ويضعف مؤسساته بالفعل الاحتلالي السياسي والاقتصادي.

انتقلت منظمة التحرير الفلسطينية من النضال من أجل اعتراف أمريكي إلى توسل الهامش الدبلوماسي الأمريكي المستقل عن التحالف مع إسرائيل في المفاوضات

ولا بد أن تؤدي حالة الانحلال والتسيب وضعف المؤسسات التي تعكس شرعية وطنية شاملة إلى نشوء مليشيات مسلحة في حالة انتشار الأسلحة، خاصة مع توفر كم كاف من السجال السياسي الوطني والقومي والإسلامي والحمولي التبرير قيام أصغر مليشيا في أصغر حي. ولن تلبث هذه أن تبرر ذاتها بضرورات الحماية والمصلحة الفردية لدى أعضائها، وبعدم الثقة بالقيادات الفصائلية أو القيادات المركزية. ومن هنا لا تقود الطريق بالضرورة إلى الصومال وأسياد الحرب الصوماليين. فالمجتمع الفلسطيني أقوى بنية، وكل هذا يتم في ظل الاحتلال وبوجود حركة وطنية ومؤسسات ذات تاريخ وتراث وتقاليد. ولكن حالة الفوضى الاجتماعية ممكنة بأشكال فلسطينية وليس بالضرورة صومالية. وهي تقلل من قدرة المجتمع الفلسطيني على الصمود، والنضال ضد الاحتلال.

ما زال الاحتلال قائماً على شكل حالة أبارتهايد تحيط بالمدن الفلسطينية، وقد كرست إسرائيل معياراً جديداً باجتياح مدن الضفة الغربية ومخيماتها فتقتل من شاءت ومتى شاءت.

ويعاني الشعب الفلسطيني في ظل حالة الحصار من سلسلة معقدة ومتشابكة لا تعد حلقاتها ولا تفك ولا تحصى من الإجراءات والعقوبات، بدءًا بالحاجز ومنع الماء عن قرى بيت فوريك وبيت دجن مثلا (هل سمع أحد بذلك؟) وشل حركة الاقتصاد إلى الاغتيالات المستمرة دون ضجة إعلامية. وتحاول إسرائيل في ظل حالة الحصار والعقوبات الفردية والجماعية هذه أن تسجل إنجازات سياسية إما عبر حالة فوضى سياسية فلسطينية تؤكد حالة غياب الشريك التفاوضي، وإما عبر إيجاد شريك سياسي فلسطيني في المفاوضات يوافق على تغيير أجندة المفاوضات مقابل دولة فلسطينية بمفهوم شارون أو بوش، أو بالمفهوم الوسط بينهما.

لقد قررت الحكومة الإسرائيلية وسلطة البث إبان الحرب على الشعب الفلسطيني ألا يمنح المسؤولون الفلسطينيون منصة في الإعلام الرسمي الإسرائيلي، الراديو والتليفزيون. ولكن فجأة ودون سابق إنذار فتحت الميكروفونات أمام قيادات فلسطينية أساسية. وقام هؤلاء بقوة الاستمرار وكأنهم على منصة فلسطينية بالاحتراب الكلامي على المنصة الإسرائيلية كأنهم يتكلمون على منصة الصديق لا الخصم. ولم يتساءل هؤلاء: لماذا تغير فجأة الموقف الإسرائيلي؟ لماذا فتحت فجأة هذه المنصة أمامهم؟

ليس الإنسان بحاجة إلى عقل سياسي حاد بشكل خاص لكي يرى المصلحة الإسرائيلية بصب الزيت على نار هذا الصراع العديم العلاقة مع مصالح الشعب الفلسطيني. وهو بالتأكيد ليس نقاش إصلاح ديموقراطي من أي نوع. والإصلاح السياسي الديموقراطي الفلسطيني لا يمر عبر الإذاعة الإسرائيلية الرسمية.

تثبت ظاهرة التسيب والانحلال الآخذة بالانتشار أن طريق الإصلاح لا يمكن أن يمر إلا عبر الشرعية الوطنية ومؤسساتها، وأن هذه غير ممكنة حالياً بعد العدوان الإسرائيلي دون حوار وطني شامل بين السلطة والمعارضة وداخل السلطة يقود إلى قيادة وطنية موحدة ذات برنامج سياسي موحد، على الأقل لمرحلة وجودها (مثل أي قيادة سياسية)، وذات استراتيجية موحدة تجمع بين السياسة والمقاومة.

ولن تقوم قيادة وطنية موحدة إذا لم تقتنع القوى السياسية الفلسطينية باعتبار المصلحة الوطنية العليا فوق المصالح الفئوية الضيقة، وأن التعددية والنقاش والحوار يتم في إطار هذه المصلحة الوطنية العليا المتفق عليها والمشتقة من الأهداف الوطنية النضالية المتفق عليها. كما لن تقوم قيادة وطنية موحدة بالأدوات القائمة وحدها، أي بأجهزة السلطة. وأمر الساعة هو إجراء حوار وطني شامل يؤدي إلى قيام لجان شعبية في القرى والمدن والمخيمات الفلسطينية تصلح قاعدة وطنية شعبية لهذه القيادة الموحدة.

ونحن لا نقلل من أهمية التناقض الذي من الممكن أن ينشأ بين القيادة الموحدة وهيئات السلطة المركزية، وبين اللجان الشعبية وأجهزة السلطة الوطنية المحلية. لا توجد سلطة تقبل بازدواجية السلطة. ولهذا أيضا طالبنا أن يحسم المزاج السياسي الفلسطيني مسألة حركة تحرر وطني أم دولة. عندها تستطيع مؤسسات السلطة القائمة أن تتعايش وتتعاون محليا مع اللجان الشعبية ذات الطابع السياسي، كما تستطيع مؤسسات مثل المجلس التشريعي، وهي تحتاج بنفسها إلى تفعيل وتنشيط، أن تتعاون مع قيادة وطنية موحدة، وليناقش المجلس مثل هذا الموضوع، وليشارك أيضًا بإقرار طبيعة هذه القيادة. وعندما توافق السلطة على هذا التوجه سيكون بالإمكان أيضًا تشخيص الإشكالات الممكنة ووسائل التغلب عليها خاصة بين السياسي، المتمثل بالقيادة الموحدة، والتنفيذي، أي أجهزة السلطة.

أما إذا لم يتم التوصل إلى صيغة من هذا النوع فلا بد من إجراء انتخابات سياسية، وأن تخاض معركة لتحويل هذه الانتخابات إلى نوع من التعبير عن حق تقرير المصير، يتوجب على العالم أن يحترم نتائجه السياسية. وليس لدينا أدنى شك أن هذه النتائج سوف تحرج إسرائيل. ولا مانع أن تؤدي الانتخابات إلى ائتلاف شامل هو تعبير أكثر ديموقراطية عن القيادة الوطنية الموحدة. ولكن هذا التوجه يشترط أن تشارك في الانتخابات قوى مستقلة حتى لو كانت جديدة، وألا تقاطع المعارضة الانتخابات، وأن تمنح الشرعية لمنظمات تعتبر أمريكيا وإسرائيليًا منظمات إرهابية للمشاركة فيها. وهذه معركة أخرى تستحق أن تخاض، لأنها تنسجم مع القضية الوطنية والهدف السياسي. هذه المعارك هي تعبيرات ديموقراطية عن حق تقرير المصير، وتصب في النضال ضد الاحتلال.

انطباعات:

لماذا تصمت العلوم الاجتماعية عن أسباب ودوافع السلوك السياسي الفلسطيني عندما لا تنجح الاستراتيجيات بضبطه؟ من المفروض أن العلوم الاجتماعية قد وجدت لتقدم محاولات على الأقل بالتفسير العلمي لمثل هذه الظواهر. فلماذا تنتشر الغيبية الاستشراقية في تفسير السلوك النضالي الفلسطيني وتصمت العلوم الاجتماعية التي لا يخلو الاستشراق منها عن تفسير ظاهرة تزايد عدد الشباب الفلسطيني المستعد لدفع حياته ثمنا لتدفيع الطرف الآخر، المحتل، ثمنا؟ ليس بالإمكان تبرير هذه الظاهرة، وقد تحولت إلى ظاهرة للأسف الشديد، وليس بالإمكان الدفاع عنها أخلاقيا إلا عبر التضحية بقيمة الحياة باعتبار أن هنالك قيمًا أسمى منها مع الثمن الأخلاقي والاجتماعي المترتب على ذلك. وإذا كان من الصعب تبرير الظاهرة، فإن العلوم الاجتماعية لا ترضى بأقل من محاولة التفسير. ولا يمكن أن تكتفي بتراوح «التفسير» السائد بين طلب

ما جرى وما العمل؟

الجنة انطلاقا من «عقلية» يحدد طبيعتها «عقل» استشراقي وبين اعتبارها حالة يأس. فاليأس قد يؤدى فى حالات نادرة إلى الانتحار، ولكن لا اليأس ولا القنوط يؤدى إلى عملية استشهادية موجهة فى خدمة قضية. وطلب الجنة لا يتناقض مع بناء الحياة الدنيوية واستمرارها، بل ويبنى عليها، وإذا طرأ تناقض فهو لا يصلح لتفسير السلوك السياسى والاجتماعى بل يحتاج بذاته إلى تفسير.

عندما سيحلل علماء الاجتماع الذين يطمحون إلى ما هو أعمق من التقرير الصحفى أو عندما يرغبون بتجاوز تعبئة الاستمارات الإحصائية لينتهوا إلى تحليل أقل من صحفى بشأن المعاناة الفلسطينية وإسقاطاتها على السلوك السياسى للفلسطينيين، إذا كانت توضح شيئا بنظرهم، أود أن يجدوا أمامهم الخلفية الانطباعية التالية، التى لا تطمح إطلاقا أن تقدم شرحا، والتى من المفترض أن يلمسها أى باحث ميدانى مدرب الحواس وغير متبلد الإحساس قبل أن يعد نماذجه النظرية وأدواته التفسيرية.



إن قياس القمع الإسرائيلى بعدد الضحايا الفلسطينيين وعدد البيوت المهدمة وقصف المدنيين و عدد المعتقلين بمحاكمة وغير محاكمة وحده لا يكفى. هذا احتلال استعمارى، والاحتلال الاستعمارى يكرس ذاته باستخدام القمع والقوة. ويزداد استخدام القوة كلما ازدادت وتيرة مقاومة الاحتلال. ولكن فى عصر لم تبق فيه احتلالات كولونيالية يفترض أن تزداد حساسية الرأى العام العالمى لجرائم الاحتلال. ولكن ذلك لا يحصل فى حالة الفلسطينيين بالشكل الذى يولد ضغطا دوليا كافيا- ويتم رسميا فقط بعد التأكيد على توازن بين المحتل والواقع تحت الاحتلال فى دوامة وحلقة عنف مفرغة. هذه المساواة بين المحتل والواقع تحت الاحتلال تؤدى إلى شعور فلسطينى مضاعف بالظلم.

ثم إن المحتلين لا يكذبون عادة بشأن عنفهم الكولونيالى وضرورته. ولكن إسرائيل الرسمية تتحدث وكأنها هى الواقعة تحت الاحتلال. وهى تحتاج إلى كم هائل من الأكاذيب لكى تعطى المبرر لهذه المساواة بين المجرم الأصلى وعنفه وبين الضحية وعنف الضحية- أى المقاومة. لذلك يضطر الفلسطينيون أن يستمعوا إلى ضابط إسرائيلى يقول فى مؤتمر صحفى إن «إرهابيين فلسطينيين يختطفون كهنة فى كنيسة المهد»، وهو يقول ذلك دون أن يرمش له جفن. أى أن الكذب ليس مذمة بنظره أو بنظر رؤسائه ومرؤوسيه. كيف يشعر إنسان مضروب فى المحكمة عندما يلف المعتدى «ابن العيلة» رأسه ويدعى أن المضروب ابن العائلة الفقيرة قد اعتدى عليه وأن هذا «الاعتداء» نابع من عقلية المضروب وعقليته الإجرامية بعد استعراض تاريخه وسلوكه وألفاظه مراهنا على الفرق بينهما بالسمعة والشكل والمكانة الاجتماعية وبالقدرة على عرض ادعاءاته بلغة المحاكم ممثلا بمحامين يعاقرون مع القضاة نفس أوقات الفراغ. تخيلوا حالة الغضب والمرارة والعجز التى يشعر بها الضحية وكيف لا يخطر بباله كيف يجن ويبدأ بالتكسير فى القاعة عندما يشعر أن بعض المحلفين بدأوا يصدقون الكذبة، ثم ما يلبث أن ينكسر أمامهم ويبدأ بالتوسل. وما إن يفقد أعصابه حتى يبدأ المجرم المحترف الهادئ الأعصاب بهز رأسه بإيماءات العارف الحكيم: ألم أقل لكم؟ فتزداد الضحية عصبية لتلعن المجرم والمحلفين أيضًا. اضرب هذه الصورة حسابيا بألف كذبة فى اليوم يسمعها ليس من تعرض للضرب بل من فقد وطنا ثم أخا أو أبا، أو من فقد بيته، أو من لا يستطيع الوصول إلى المستشفى، أو من لا يستطيع أن يوصل زوجته التى يحب إلى غرفة الولادة، فيفقد رجولته على الحاجز مع عجزه عن إنقاذ طفله الوليد، أو من أصابه حصار بول من المعتقلين الذين لم يسمح لهم بالتبول فأبوا أن يتبولوا فى ثيابهم. تخيل أيها الباحث كيف يحس أولئك عندما يسمعون الكذب الإسرائيلى؟ الظاهرة الميدانية الانطباعية المهمة الأولى أمام الباحث إذا هى: تأثير كذب المجرم على أعصاب الضحية.

شقت طريق الاحتلال الإسرائيلى لفلسطين بالدبابة والبولدوزر، بالقتل والتدمير، بالمجزرة والمصادرة.... ولكن الاحتلال الإسرائيلى يختلف عن بقية الاحتلالات بأنه يحتل الأعصاب أيضًا. إنه عصابى استحواذى الطابع حتى ليخطر ببال الإنسان المتوسط أنهم يريدون الدخول تحت جلده. لا شىء يبرر منع سيارات الإسعاف من الوصول إلى الجرحى غير الرغبة بتعذيب الناس بشكل سادى. صحيح أن المجتمع الإسرائيلى هو الوحيد بين المجتمعات الكولونيالية الذى يردد فى اللحظة بشكل موحد أية فرية يطلقها الناطق بلسان جيشه من نوع أن الفلسطينيين يستخدمون سيارات الإسعاف لنقل الأسلحة أو لتهريب المطلوبين. وتوهم هذه الفرية سامعها أن الفلسطينيين لا يستخدمون سيارات الإسعاف لنقل الجرحى إلا فيما ندر. لا يمكن تفسير إنزال امرأة مريضة من سيارة إسعاف على حدود القدس والبدء بتفتيش السيارة ببطء بحيث يفطن كل جندى على حدة لجانب نسوا تفتيشه، وبإهانة لم يتلقها الزوج بعد، والزوجة ممددة إلى جانب الحاجز على نقالة المرضى. ووجوه الجنود عابسة كأنهم ينفذون مهمة عسكرية مصيرية، ولكنهم يتبادلون تعابير تعقبها ابتسامات عندما يتبادلون النظرات بخبث. يتلهون.

لا يقوم جيش بفرض منع التجول أسابيع متواصلة لا يستطيع خلالها الناس العمل أو التزود أو مجرد التنقل أو سد أتفه الحاجات أو أكثرها إلحاحًا، حتى« ينهى تساهل كافة مهامه». لا يقوم جيش نظامى باعتقال جميع الناس فى كافة المناطق فى بيوتهم إلى أن «يفرغ من مهامه» إلا إذا تملكته الرغبة بتلقين الناس درسًا، أو لأن الغضب والعصبية استحوذا عليه لأنه لا يستطيع قصف هذه المدن بالطائرات ومحوها من ناحية ولا يريد التضحية بأى من مشاته من ناحية أخرى، لذلك فهو يقوم بإذلال الفلسطينيين ليس كخطوات وقائية (محسوبة) فحسب بل كخطوات انتقامية (استحواذية ولا عقلانية)... سيريهم من هم وماذا يساوون، سينتقم الجندى لأمه الغاضبة على الفلسطينيين لأنه لا يمكن محوهم عن الأرض من الجو، وهى بالتالى مضطرة للقلق على ابنها الذى لم يسعده الحظ أن يقبل فى سلاح الطيران والمتواجد فى طولكرم بنفسه شخصيا. فجلالته لم يفلح أن ينتدب عنه طائرة أو صاروخ طوماهوك يمحو وسط المدينة. وجندى آخر يحاول إذلال الفلسطينيين ليجمع مادة للحديث مع رفاقه فى البار أو المقهى عند «خروج» أول سبت بعد الخدمة: كيف يتصرف هؤلاء الفلسطينيون إذا «نهرتهم»، أو إذا طلبت منهم خلع السراويل والمشى بدونها من الحاجز، و«كيف تصرف رب البيت عندما أمرنا زوجته أن تعد لنا الطعام بعد أن قمنا بتفتيش البيت».

ماذا يفعل الفلسطينى الذى رآهم يسرقون المتاجر وينهبون المكاتب إذا قرأ ترجمة خبر عن صحيفة «يديعوت أحرونوت» أن مجموعة من الجنود الإسرائيليين تناولت طعام العشاء على طاولة عائلة فلسطينية بعد اقتحام بيتها ثم أبى أفرادها إلا أن يجمعوا بضع مئات من الشيكلات لتعويض العائلة، كأن الفلسطينيين «يجرسنون» للأسياد حتى وهم تحت الاحتلال، وكأن الإسرائيليين «ضباط وجنتلمن» عند المقدرة؟ وفى الاحتلال الإسرائيلى لا يمكن الحفاظ على الانفصام المفيد فى الشخصية الكولونيالية،ضابط وجنتلمن، والذى يمكن من العفو عند المقدرة، عندما يتميز الاحتلال عن البيت. فى الاحتلال الإسرائيلى لا يتميز البيت عن الاحتلال لا بآلاف بالأميال الجغرافية ولا بالبعد التاريخى. البيت هو الاحتلال، والفارق هل هو احتلال ١٩٤٨ أم ١٩٦٧ (هكذا يعيرنا بعض النواب الليكوديين فى الكنيست: إذا أردتم استرجاع نابلس فلماذا لا تطالبون باسترجاع يافا، وما الفرق إلا ١٩ سنة؟) والمسافة التاريخية والجغرافية بينهما لا تقيم انفصاما بالشخصية. ولذلك يتقمص الجندى بسهولة ويسر شخصية المحتل، ويحتاج إلى جهد نفسى وأخلاقى أكبر لكى يقاوم تقمصها.الظاهرة الانطباعية الثانية التى يجب أن تلفت نظر الباحث هى ذلك الاستحواذ اللاعقلانى العصابى القادم من التطابق بين السياسة الأمنية والانتقام والعقاب فى تعامل الجندى الإسرائيلى المتوسط مع الفلسطينيين أبناء المكان. يتضمن كل احتلال افتراضا عنصريا مهينا للواقع تحت الاحتلال يتمحور أساسًا حول تفوق المحتل عليه. ومن دون هذا الافتراض الأيديولوجى يصعب تبرير موقع السيطرة والتحكم. ولكن الاحتلال الإسرائيلى لا يكتفى بهذا التبرير المضمر أو السافر، بل يتجاوز ذلك إلى احتكار دور الضحية، باعتبار اليهودية ضحية العنصرية الأوروبية الاستعمارية وغير الاستعمارية بامتياز، ثم يتجاوز دور الضحية إلى التنظير الأيديولوجى للضحية الحقيقية فى سياق الاحتلال. «من الصعب أن يكون الإنسان فلسطينيا» يقول شارون. إنه يطمح إلى تفهم معاناة الفلسطينيين بعد التسبب بها ورفع منسوبها للضغط عليهم. أما جولدا مائير فقد أعلنت: «لن نسامح الفلسطينيين لأنهم يجبرون أولادنا على قتلهم».

يزعج الواقع تحت الاحتلال نفسية المحتل، ومعاناته النفسية «لاضطراره» أن يقمع تنافس معاناته فى أفضل الحالات، هذا إذا لم تتفوق عليها. علينا أن نتخيل وضعا تجمعت فيه جمهرة من الناس حول جريح ينزف بعد أن طعنه سارق، وأخذت بالصراخ طلبا لأخصائى نفسانى لمعاينة المعتدى السارق بدلا من سيارة إسعاف للمعتدى عليه. لا ينبع الاهتمام الدولى بالقضية الفلسطينية من الاهتمام المباشر بها بل من الاهتمام المحلى فى كل دولة على حدة، ومن الاهتمام الدولى بالمسألة اليهودية المتشابكة مع قضايا الهوية القومية والذاكرة التاريخية فى سياق لا علاقة له بفلسطين ولا بقضية فلسطين، وتشكل فيه المعاناة الفلسطينية عاملا ثانويا وغير مباشر فى تعديل وإعادة إنتاج وتعريف هذه الهويات. أعاق هذا التعامل الدولى مع القضية الفلسطينية حلها لأنه منع صياغتها كمسألة كولونيالية، وزادها تعقيدا. ولكن عوامل الإعاقة هى ذاتها عوامل تقييد درجة القمع، بهذا المعنى لا يقتل الفلسطينى بنفس سهولة قتل الإندونيسى أو السودانى. لقد قتل المئات أثناء مواجهات بين متمردين وحكومة أوغندا وقتل عشرات المواطنين الإندونيسيين فى مواجهات بل غارات طائفية. فى نفس الأسبوع الذى جذب فيه النقاش على عدد شهداء مخيم جنين اهتمام وسائل الاتصال العالمية، وهل وقعت فيه مجزرة مقصودة ضد المدنيين أم جرائم حرب، وقعت مجازر أخرى فى مناطق أخرى لم تلفت نظر الرأى العام. إن ما يعقد حل المسألة الفلسطينية هو ذاته ما يقيد أيدى إسرائيل عن ارتكاب جرائم أكثر فظاعة بسهولة أكبر لم تمنع إنسانية إسرائيل جيشها من محو مخيم جنين

أو البلدة القديمة فى نابلس عن الأرض، بل منعتها نفس العوامل التى تجنبها التعامل الدولى معها كحالة استعمارية. ليست إسرائيل كلية القدرة. ولكن إسرائيل تمن على الشعب الفلسطينى بأنها لم ترتكب جرائم أكبر، وكان على الشعب الفلسطينى أن يشكر القدر الذى ورطه مع إسرائيل وليس مع دولة أخرى، لا تسأل هى عن الرأى العام، وهو بدوره لا يسائلها. ولو أجرينا حسابا فظيعا، بحكم تعريف الحساب عندما يتعلق بحياة البشر، لوجدنا أنه كلما اقترب الفلسطينى فى الفضاء الفيزيائى من إسرائيل كلما ازدادت قيمة حياته ومعاناته. فالفلسطينى فى لبنان يقتل فى غارة إسرائيلية بسهولة أكبر من ابن الضفة الغربية، الذى قد يسهل موته مقارنة بالفلسطينى المواطن فى إسرائيل الذى يبرر مقتله المطالبة بلجان تحقيق رسمية. وكان قيمة حياة الإنسان الفلسطينى تتناسب عكسيا مع مدى بعده عن إسرائيل.

شعور فظيع أن تشتق قيمة حياة الضحية من مدى قربها من القاتل. يضاعف هذا الاشتقاق الشعور بالغبن وعدم الإنصاف، كما يزيد من الشعور بحالة انسداد الأفق لدى الواقع تحت الاحتلال إذا كانت البوابة إلى اعتراف العالم بمعاناته هى ذاتها التى تفتح على الفاعل المحتل المستعمر لتمر الضحية إلى العلم عبر منطقه ومشاعره وتبريراته. لذلك تحل المعاناة النفسية والعصبية محل ذلك الجزء من المعاناة الجسدية الذى تنبع منه أهمية الفاعل لا قيمة الضحية. وهذه ثالثة الظواهر التى تميز حالة المعاناة الفلسطينية.

لم يحصل فى تاريخ الاستعمار أن دعى هذا الكم من نخب المحتلين والواقعين تحت الاحتلال إلى الحوار فى العواصم الأوروبية. كما لم يحصل أن اشتقت أهمية الواقع تحت الاحتلال من قدرته على خلق موازاة حوارية مع المحتل. ولم يسبق أن اخترع هذا العدد من الكتاب والمثقفين لغرض أن يجلسوا بمقابل مثقفى المحتلين فى جلسات حوار واعتراف متبادل. ولم يسبق أن شوهت ثقافة الشعب الواقع تحت الاحتلال إلى هذه الدرجة، بحيث أصبح امتحان المثقف لا إبداعه بل ابتداعه، أى اختراعه كمثقف لغرض الحوار، قبوله لحالة التكافؤ الوهمية مع مضطهد شعبه التى تجعل منه مثقفا مشوها. تقابل هذه السابقة ردة الفعل الرافضة بشكل مطلق التى تحول صاحبها أيضا إلى حالة خاوية فقيرة المضمون لأنها معتمدة كليا على الرفض كردة فعل للآخر. ولم يسبق أن أنجبت «اللياقة السياسية» politically correct هذه الكمية من الأوهام حول المساواة والتكافؤ على المستوى الرمزى بين غير المتساوين وغير المتكافئين مما يضيف من عوائق المساواة على المستوى الفعلى.

يغرق الفلسطينى بالرمزية ليس فقط كتعويض عن فقر الواقع وإنما لأن حالة التوازى والتكافؤ الكاذبة والخادعة تحتاج إلى قدر كبير من الرموز بغرض المنافسة، من المقارنة الكاذبة بعدد المثقفين والإنتاج الثقافى إلى التنافس بين دولتين بالاعتراف الدبلوماسى على المستوى العالمى. يدخل الفلسطينى فى حالة منافسة خادعة ومخادعة ومعروفة النتائج بدلا من حالة الصراع الواضح مع المحتل، حيث المطلوب ليس أن تتفوق بل أن تتحرر من الاحتلال.

ويغرق المثقفون الذين يخلطون بين الاعتراف بمواهبهم وبنديتهم وبين الاعتراف بحقوق شعبهم فى هذه الرمزية المريحة لأنصار السلام لدى الشعب المحتل، فهم يعترفون رمزيا بندية هؤلاء كبديل رمزى عن إحقاق الحقوق للشعب الفلسطينى والنضال من أجل ذلك. ومن هنا العشق الخاص لصناعة الهوية وقضاياها فيما وراء الدفاع عنها وتطويرها. هذه الهوية التى ينوب فيها أبطال هذه السياسة عن شعبهم بحكم تمثيلهم لهويته.

لم يسبق فى تاريخ المستعمرات أن طلب من الواقع تحت الاحتلال أن يضمن أمن المحتل. ولكن صناعة التكافؤ والتوازى الكاذبة لا تتطلب هذا فقط بل تتطلب ضمان أمن المحتل نفسيًا أيضًا. ولم يسبق أن طلب من الواقع تحت الاحتلال أن يعترف لا بالمحتل القائم فحسب بل بمعاناته وبذاكرته التاريخية وبحقه الموازى.

تتعامل الحالة الإعلامية العربية مع المعاناة الفلسطينية بالمقاييس العربية. ويسمع الفلسطينى أخبار شعبه ومدينته وحارته من الإعلام الفضائى العربى. لقد باتت حتى أخبار الحى تمر عبر مصفاة الفضائيات، وبات الفلسطينى يتعامل ليس فقط مع معاناته بل مع صورتها فى وسائل الإعلام العربية. ولا تتعامل وسائل الإعلام العربية مع معاناة الفلسطينيين بالمقاييس العربية فحسب، بل ويتناسب فيها حجم المعاناة مع قدرتها على التعبير عن ذاتها فضائيا. ويصطنع السياسيون فى بعض الحالات معاناة فضائية ليكتسب موقفهم شرعية. فالشرعية الفضائية لا تشتق من صحة أو صدق الموقف بل من الاعتراف بمعاناة صاحبه. وإذا لم يكن اعتقال يختلق اعتقال أو ضرب أو ملاحقة ليصبح السياسى ضحية. وتشاهد ضحايا الضرب والاعتقال الفعليين بحسرة تحول المعاناة إلى أداة بيد الأقرب إلى الإعلام لاكتساب الشرعية، فيضاف الإحباط إلى المعاناة الجسدية، كما تنشأ حالة الارتباك واختلاط الكذب بالحقيقة، والأنكى من هذا كله تحول الكذب إلى تعبير عن الحقيقة. وإذا لم ينجح السياسى الإعلامى بالتحول إلى ضحية، أو ببث صورة الضحية عن ذاته وهو الأمر الأهم، فإنه يتحول إلى ممثل للضحايا وناطق باسمهم. وإذا لم يكن قادرًا على جعل الموقف السياسى يعبر عن المعاناة بالنضال التحررى بهدف وضع حد لها، يصبح تضخيم المعاناة تثبيتا أكيدا للشرعية والمكانة فى أوساط مستهلكة للإعلام. ويؤدى تضخيم المعاناة إلى المس بالمصداقية خارجيا، كما يؤدى إلى تآكل القدرة على الصمود داخليا. ترتبط القدرة على الصمود إلى حد بعيد بصدق التعبيرات عن المعاناة. فإذا شعر الإنسان الذى يواجه القمع فى حياته اليومية أن هنالك من يستفيد من معاناته من خلال التعبير الكاذب عنها، أو من خلال تقمصها، بل وسرقتها، فإن قدرته على الصمود تمس إلى حد بعيد.

المسئول العربى متعاطف مع الفلسطينيين وحاقد عليهم فى الوقت ذاته لأنهم يكشفون له عن عجزه. ويضطرونه إلى إحراج ذاته وإحراج الولايات المتحدة لو أراد أن يرخى لتعاطفه العنان، ولو أراد أن يتفاعل مع مزاج شعبه السياسى

فى كل حركة وطنية تعيش طفيليات على جراح الناس المفتوحة وقيحها. ولكن الاهتمام العربى والدولى بالقضية الفلسطينية جعل بالإمكان الارتقاء بالتطفل إلى مرتبة الصناعة وتحويل الـ«قضية الفلسطينية» إلى هدف أو غاية أو إلى واقع معاش ينبغى الحفاظ عليه. من هنا تم الانتقال بالحركة الوطنية من حب فلسطين وحب الحرية لشعبها إلى حب القضية الفلسطينية، ومن الحياة الحقيقية المعاشة إلى الولع بالرموز المعبرة عن «القضية». لقد نشأت حول «القضية» دراما إعلامية تمثيلية تسمح بكم هائل من التمثيل والكذب الصريح بغرض اكتساب الشرعية من استخدام لغة القضية، بما فيها التظاهر والاحتجاج المحسوبان وغيرهما مما لا يدفع صاحبهما ثمنا ويكسبه شرعية.

يقتضى حب فلسطين كشعب محتل وكبلد محتل التضحية فى معركة التحرير ضد الاحتلال. ولكن التضحية فى هذه الحالة ليست هدفا قائما بذاته، بل يحاول المناضلون تجنب التضحية خاصة إذا كانت بحياة الآخرين. ولكن التعبير عن حب القضية الفلسطينية، بدلا من الفلسطينيين، يتم بالمعاناة أو تقمصها رمزيا وتحصيل اعتراف بذلك ضمن الحيز العام. ولكن هذه المصلحة باستمرار القضية الفلسطينية كحالة خطابية صوتية تقتضى التضحية بحياة الآخرين، ومن ثم المبالغة بحجمها ترضية للضمير وتعويضا صراخيا عن عدم المشاركة بالتضحية، ومحاولة لتحقيق أعظم استفادة، بدل أعظم فائدة، ممكنة من هذه التضحيات.

تصلح صنمية القضية غطاء لمن لديه مصلحة باستمرارها، كما يمطها ويمغط كلاشيهاتها الجاهزة ذلك الذى استنتج ضرورة تصفيتها لتغطية صفقات تبرر بجمل «القضية» الجاهزة غير المركبة من كلمات ولا معانى بل من استعارات وصور. «الصمود والمقاومة البطوليان» يصلحان لتبرير «المضى فى نفس الطريق» دون تلخيص العلاقة بين الوسيلة والهدف، أى بين الوسيلة ونجاعتها، أى بنفى صفة ومعنى الأداة النضالية عن الوسيلة. كما يصلح «الصمود والنضال البطوليان» لتبرير العودة لقبول ما لم يقبل والتأكيد بالتالى على أن الانتفاضة خطا تأسس على خطيئة الرفض، ذلك لأن هذا الصمود لم ينفع بتحريك العالم العربى، كما يدعى التصفويون زورا، ولأنه لم يعدل ميزان القوى المختل لصالح إسرائيل...تخلط صنمية القضية حابل الدوجمائية والجمود العقائدى الفارغين بنابل البراجماتية المتبجحة ولكن الفارغة من أية إنجازات هى الأخرى.

هذه الصنمية تمكن من إطلاق الهتاف العجيب الغريب «عالقدس رايحين شهداء بالملايين» !! كيف بالملايين؟ ولماذا بالملايين؟ ومن سيبقى بموجب روح هذا الهتاف ليحتفل بتحرير القدس؟ وهل تحرير القدس هو الهدف أم تحرير الشعب لتكون القدس عاصمة؟ كان الشعب الفلسطينى سيناقش هذه الأسئلة لو أخذ الهتاف بجدية. ولكنه يعرف انه لا علاقة بين هذا الهتاف وتلك الممارسة. تماما كما يدرك العرب خواء خطيئة الزعماء العرب الذين يريدون التضحية بـ«مليون» مواطن فى الحرب مع إسرائيل. فهم من ناحية يدركون عدم جدية وغياب نية المسرفين بحياة ملايين المواطنين فى خوض الحرب. ولكن هذه التصريحات من ناحية أخرى تذكرهم بالاستهتار بحياة المواطنين. وحياة المواطنين اليومية ضحية دائمة لممارسات هؤلاء. تؤدى صنمية القضية إلى تناسب عكسى بين ضخامة الشعارات وضآلة الممارسات.

تشكل لغة «القضية» والمعتاشين عليها كصناعة من رفضيين وتصفويين مصدر ارتباك شديد للحالة السياسية والشعورية الفلسطينية يعبر عنها بالانتقال السريع من الحماس الجارف والرافض لأى اعتبارات يمليها الواقع، والتهريج الذى لا يدع الحقائق تربكه، والذى يصدق كل إشاعة عن البطولة، إلى اليأس والقنوط القاتلين، ثم إلى التشكيك بكل شىء، هذا التشكيك المصاغ دائما وأبدا بلغة المؤامرة، والذى يصدق أية إشاعة عن «الخيانة» هذه المرة. هذه هى الظاهرة الرابعة التى تنتصب بعناد لا يترك مجالا للباحث للتهرب. تتعلق هذه الظاهرة بالإرادة السياسية، والإرادة السياسية هى العامل الأكثر أهمية فى مرحلة التحرر الوطنى خاصة بالنسبة لمن يعمل ضمن اختلال فى موازين القوى فى غير صالحه كمعطى، كما هو الحال فى النضال ضد الاستعمار.

لقد نشأت ازدواجية تمنع الجمع بين المبدئية والعقلانية: فإما مبدئية غيبية ودوجمائية تنص بجمل جاهزة وإما عقلانية متلمظة تبحث عن طريقة لطرح تذوق الهزيمة بشكل عقلانى. تمنع عصبية وارتباك الحالة الفلسطينية التقييم العقلانى النقدى للمراحل، ويمنع غياب التشخيص والتقييم النقديين إمكانية وضع استراتيجية نضالية.

وما يحتاجه الشعب الفلسطينى، ما يحتاجه الفلسطينيون الآن هو تلخيص نقدى لا يمر مر الكرام على مجريات الأحداث ويصلح أساسًا لمناقشة استراتيجية سياسية تشمل برأينا استراتيجية مقاومة ضد الاحتلال. لم تتم مثل هذه المناقشة للتجارب السابقة فى لبنان والأردن والكويت لأن الحالة الفلسطينية تحللت إلى حالات متناقشة كل فى داخله، فجهاز منظمة التحرير هو جسم قائم بذاته لا علاقة لاعتباراته بنقاش الشارع. ولديه مجموعة مصالح واعتبارات إقليمية ودولية لا تؤثر فيها نقاشات الشارع الفلسطينى المنقسم أصلا إلى شوارع يمكن اللجوء إلى أحدها تجنبا للاعتراف بالفشل فى الآخر بل لكى يكون بالإمكان اعتبار الفشل نصرا يحتفى به. وبهذا المعنى فإنها قيادة لا تهزم ولا تقهر بمعنى أنها لا تعترف بالفشل، أى فشل. وربما يكمن الفرق بين أزمة أبريل ومايو من العام ٢٠٠٢ وبين سابقاتها فى غياب شارع سياسى فلسطينى يصلح لاستقبال القيادة الفلسطينية بعد الضفة والقطاع. وقد يحتم ذلك ضرورة الاستماع إلى ما يقال.

كلمة أخيرة

إذا كانت المقاومة أمرا مذموما، فلماذا تغنى الجميع بالمقاومة التى صمدت أياما طوالأ فى مخيم جنين بناء على قرار المقاومين؟ وإذا كانت المقاومة أمرا محمودا فلماذا لم يدع المتغنون بها إليها؟ ناهيك عن ممارستها عندما يتطلب الأمر ذلك. ■



فلسطين..
الأمان فى العمق

طارق البشرى

[١]

في السبعينيات، جنحت سفينة مصرية في شاطئ الإسكندرية، وتهشمت جوانبها. أيامها قال لى صديق عزيز كان من ربابنة السفن الكبيرة: «إن ربان السفينة الجانحة أخطأ بالاقتراب من الشاطئ عندما اشتدت به الريح وعلا الموج، كان الأحرى به ألا يقترب من الشاطئ وأن يدخل بسفينته فى عرض البحر». سألته متعجبًا وكيف يكون عرض البحر الهائج آمن على السفينة من الشاطئ الأقل هياجًا، فأجابنى بأنه عندما يشتد الريح ويعلو الموج، فأمان السفينة فى العمق، إنها إن اقتربت من الشاطئ ضربتها الأمواج على صخوره فتتكسر، أما فى العمق فهى كلها أمواج فى أمواج، إن ضربها موج تلقاها موج آخر وحملها.. وعندما تعصف الريح ويثور الموج فالأمان فى العمق.

وعندما يصف القرآن الكريم فى سورة «هود» حادث الطوفان، نعرف أنه لما علا الماء وتفجرت به ينابيع الأرض وهطلت به أمطار السماء، وظل يعلو على الأرض ويعلو. هرب ابن نوح من الماء وظل يصعد ويصعد لئلا يصله الماء، حتى بلغ قمة الجبل، ولكن المياه علت وعلت حتى أدركته فكان من المغرقين. أما نبى الله نوح عليه السلام، فادرك بالحكمة الربانية أن الأمان ليس فى الهرب ولكن فى المواجهة، وأن الأمان لا على صخور الشواطئ، ولكنه فى عمق البحار الهائجة، وأن الأمان من الموج فى الموج نفسه. فلما بلعت الأرض ماءها وأقلعت السماء وغيض الماء، ساعتها فقط استوى نوح بسفينته على الجبل.

ونحن الآن، على هذه الأرض، منذ ١١ سبتمبر ٢٠٠١ بدأت الرعود الأمريكية، ومن ٧ أكتوبر ٢٠٠١ بدأ ضرب أفغانستان، ومن ٢٨ مارس ٢٠٠٢ تصاعد الاجتياح الصهيونى الأمريكى لمدن فلسطين بالضفة الغربية.. فالعاصفة قوية والريح شديدة والموج هائج، وكل ذلك يتصاعد ويبلغ العراق حيث جبل الجودى الذى استوت عليه سفينة نوح، ومع ذلك فليس من بين ربابنة الدول العربية من أدرك حكمة نوح عليه السلام، وليس منهم من ابتعد عن صنيع ابن نوح، وما منهم إلا من جنح بسفينته إلى صخور الشاطئ، هاربًا من الموج أويًا إلى ما تتكسر عليه الضلوع.

ونحن نعرف من فنون إدارة الصراع أنه فى مرحلة التصاعد المتبادل بين طرفى الصراع، فإن من يقف أولاً يكون هو الهالك والمهزوم. إلا أن يكون «متحرفًا لقتال أو متحيزًا إلى فئة»، أى إلا أن يكون باقيًا على عزم القتال موصول الأعمال به ولم يُلق سلاحه. وما من مرة فى الصراع العربى الصهيونى الأمريكى بادرنا فيها بقبول إلقاء السلاح إلا ودارت علينا الدوائر.

ونحن يتعين علينا أن نستدعى الحكمة من شعر أبى الطيب المتنبى عندما يقول:

تفرست فى الآفات حتى تركتها
تقول أمات الموت أم ذعر الذعر

[٢]

نحن هنا لا نتكلم عن العنف الحتمى، لكننا نتكلم عن وجوب المواجهة حتمًا بالطريقة المناسبة، وإن كان العنف هو الخيار المطروح والراجح الآن، وأنه هو السبيل الذى لابد من ولوجه فى الحالة الفلسطينية الراهنة والمعيشة، وإن السعى الصهيونى للضم القسرى للأراضى المحتلة والإبادة المقصودة للشعب الفلسطينى والتهجير المزمع بالقوة، كل ذلك لا يواجه إلا بالمقاومة العنيفة. وما كان يمكن لانتفاضة «أطفال الحجارة» فى ١٩٨٧ إلا أن تتطور من طرفيها فى انتفاضة القدس فى ٢٠٠٠، فيصير الأطفال شبابًا وتصير الحجارة رصاصًا ومتفجرات.

وإسرائيل مجتمع استيطانى لايزال ينشأ ويتوسع، والمجتمعات الاستيطانية لا تنشأ بالحق إنما تنشأ بالقوة، والمعادلة التى تتبناها هى: القوة، ثم الأمر الواقع، ثم ما يدعى بعد ذلك من حقوق، وهكذا قامت الولايات المتحدة ذاتها. ولا يقابل ذلك إلا بالمنعة المادية أولاً، والمقاومة العنيفة أولاً أيضًا، ولا يجرى إقناع المعتدين عن طريق الحقوق وإنما عن طريق الإفشال المادى للسعى العدوانى العنيف، وإلا بأن القوة سترتد أضرارًا مادية للمعتدين وإيجاعًا جسمانيًا لهم، وأن المعتدى لن يحقق كسبًا بعدوانه، بل إن خسارته المادية والبشرية تفوق ما يعوّل عليه من كسب.

ونحن لا نتنازع مع العدوان الإسرائيلى الأمريكى حول أرض غريبة عنا يطمع فيها كلانا، بمعنى أننا لسنا طرفًا فى صراع بين متنازعين، ولكننا نحن موضوع الصراع ذاته، نحن موضوعه وأحد طرفيه فى ذات الوقت، وهذا الوضع يعطينا مزيّة لا تكون لغيرنا قط، وهى مزيّة لا ينفد معينها، وما من بلد غلبه المعتدون على أمره وانتهى جهاده ضدهم إلا بردّ الاعتداء. وقد تكسرت إمبراطوريات أمام هذا الصبر والتصميم. والصبر والمصابرة، وطول النفس يأتيان من أنه فى صراع الوجود وفى مجال الدفاع عن الذات، يمكن للجماعة أن تُغلب مرة ومرات، ولكنها مجتمعة ـ أو أيًا من قواها منفردة ـ لا تملك أن تتنازل عن الحق فى الوجود الحاضر أو فى البقاء المستقبل، والأجيال تتوالى ولا يؤثر فى حقوقهم ما انضغطت به إرادة أسلافهم. ونلحظ الآن أن المعلقين يكتبون أن مسألة فلسطين هى أقدم مشكلة فى عالم اليوم، وهذا صحيح لأنه لا نهاية لمثل هذه المسائل إلا باسترداد الوجود لمن أُريد إفناؤهم أو إزاحتهم. وفلسطينيو الشتات وهم بضعة ملايين الآن، لايزال حقهم فى العودة إلى ديارهم قائمًا لديهم ولدينا جميعًا.

أما المعتدون فهم ليس لديهم هذا النوع من الحقوق طويل المدى، أو هذا النوع من الحقوق العابر للأجيال، إنهم فى الغالب يبحثون عن المنفعة وعن الربحية، والأمر يتعلق بحساب الربح والخسارة ومجالات القوة والهيمنة، بمعنى أن الأهداف هنا تتعلق بالكسب المادى واستغلال الثروات، أو تتعلق بالمواقع الإستراتيجية والعسكرية لضمان الانتشار وتأمين طرق المواصلات الدولية، أو تتعلق بالوجود السياسى فى مواقع الهيمنة، وعلى أى من هذه الأهداف فإنه إذا فسدت إمكانات تحقق الهدف بسبب جدية المقاومة واستمرارها وتحديها للأهداف المطلوب تحققها، إذا حدث ذلك يكون فشل المشروع.. وهنا نجد أن نوع المنافع التى كانت مرجوة هى منافع قصيرة المدى نسبيًا وقابلة للتغيير والاستبدال، وأن عدم تحققها وظهور عدم إمكان ذلك يؤدى إلى استبدال غيرها بها وإلى تنحيتها، فيحمل المعتدى عصاه ويرحل.

وإذا كان يمكن القول بأنه لا مهرب من استخدام العنف عند مواجهة استعمار استيطانى قائم على كسب الأمر الواقع بالقوة أو يتوسل لذلك بإبادة أصحاب الحق وأصحاب الأمر الواقع القائم، بالإزاحة أو بالقتل، إذا كان هذا هكذا، فإنه يتعين القول بأن للمقاومة العنيفة ضوابط، فهى أولاً تمارس فى الأرض المحتلة عادة وليس خارجها، وهى تمارس ضد الطرف المعتدى عسكريًا كان أو متخذًا سمتًا مدنيًا، وهى مع تنامى الصراع تتنامى وتتسع دائرتها الجغرافية. وتتصاعد وتتمدد وسائل القوة حسب خطط العدو المعتدى وحسب ما يستخدمه من أدوات العنف، والتصعيد حتمى لمن يبغى النصر بما يشمل ذلك من المصابرات والتحرف للقتال والتقاط الأنفاس، ولكن دون إلقاء السلاح ودون كسر إرادة الاسترداد، مع ملاحظة أنه لا عنف إلا فى الأرض المعتدى عليها، ولا عنف إلا ضد المعتدين، وهذا مما يُستَقرأ من حالات المقاومة الوطنية التى عرفناها فى العالم عن التاريخ المعاصر.

واستقراء هذه الحالات أيضًا، يظهر أن للعنف درجات، من حيث مداه الإقليمى، ومن حيث وسائله، بدءًا من الحجارة كما حدث فى انتفاضة ١٩٨٧، حتى كل أشكال حروب العصابات، ولا يفرق أسلوب عن أسلوب إلا بالملاءمة الواقعية والخبرة العملية وفنون المواجهات، وهذا ما أظن أن القارئ المتابع المهموم بهذه القضايا يدركه جيدًا. إنما ما أقصد أن أشير إليه هما أمران:

أولهما: أنه متى كان العنف بأى من أساليبه المناسبة لا محيص عن استخدامه فى مقاومة المعتدين، فإنه يصير هو الأسلوب الحاكم لغيره من الأساليب الأدنى، بسبب تكلفته وضحاياه، ولأن التكلفة البشرية له باهظة الثمن دائمًا، ولأنه لم يلجأ إليه إلا لثبوت عدم إمكان نجاح المقاومة بغيره، ومن ثم فهو مفترض فيه أنه الأبلغ مقصدًا.

وثانيهما: إن كل أساليب المقاومة السلمية المشروعة بعد ذلك، سياسية أو اقتصادية أو إعلامية، تكون ممكنة ومطلوبة فى إطار خدمتها للأسلوب الأكثر حسمًا، وكلها مطلوبة وليست مستبعدة بطبيعة الحال، ما بقى التقدير السائد أنه لا مناص من استخدام العنف من أجل التحرير، وما بقى كل من هذه الوسائل محكومًا بالوسيلة الأحسم، تهيئة وتيسيرًا وإتاحة وتطويرًا وكفالة استمرار.

إنه عند القول بلزوم استخدام العنف فى حركات التحرير ومقاومة المعتدين، فإن ذلك لم يكن أبدًا اختيارًا من بدائل متاحة.. تفضى كلها إلى ذات الغاية من مقاومة جادة وتحرير

إن القول بأن السلام خيار إستراتيجى، يقال أمام مستعمر استيطانى يملك السلاح النووى، هو قول لا يفضى إلا إلى الاستسلام

مرتقب، لأن اتباع سبل العنف، يعنى بالنسبة لحركات التحرير والجهاد الاستعداد لتحمل خسائر باهظة فى أعز ما تملك الجماعة المقاومة وهو النفوس البشرية والأرواح، وما من جماعة مستعدة لأن تقدم أرواح أبنائها إلا اضطرارًا، وذلك مصداقًا لقول الله سبحانه وتعالى: «كُتب عليكم القتال وهو كره لكم». لذلك فإن القول بأن السلام خيار إستراتيجى، يقال أمام مستعمر استيطانى يملك السلاح النووى، هو قول لا يفضى إلا إلى الاستسلام لأنه لا سلام إلا من خلال استخدام أساليب عنف مناسبة فى هذه الحالة.

[٣]

بدأت انتفاضة الأقصى فى ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠، وهى مستمرة بإذن الله حتى التحرير، ومضى عليها إلى الآن عشرون شهرًا، وخلال هذه المدة انعقدت مؤتمرات حكومية للدول العربية والإسلامية عدتها أربعة مؤتمرات، وانعقدت على مستوى القمم أى رؤساء الدول، كان أولها مؤتمر قمة الدول العربية الطارئ الذى انعقد مع بدايات الانتفاضة، ثم تلاه مؤتمر قمة الدول العربية الدورى الأول بالأردن فى مارس ٢٠٠١، ثم مؤتمر قمة الدول العربية الدورى الثانى ببيروت فى مارس سنة ٢٠٠٢، وخلال ذات الفترة انعقد مؤتمر قمة الدول الإسلامية فى قطر.

وقد أظهر الأمر مفارقة كبيرة بين الاستجابات الشعبية القوية للانتفاضة ووقائعها وبين الاستجابات الرسمية الحكومية بترددها وارتعاشها ولعثمتها قولاً وفعلاً.

ومن الطبيعى أن يوجد دائمًا قدر معتبر من التباين بين المواقف الحكومية وبين المواقف الشعبية، والحكومات أبطأ حركة وأقل انطلاقًا وأكثر قيودًا، فى حين أنها أفعل وأكثر تأثيرًا. لأنها تملك اتخاذ القرار وتنفيذه، بما يقتضى ذلك من تجميع للمعلومات وشبكات تنظيم وقدرة تحريك وإمكانية مالية ومادية متاحة فى أيديها، ولكنها فى الوقت ذاته حكومات مسئولة عن إدارة الشئون العامة للجماعة من حيث المرافق العامة كلها، ومن حيث الخدمات العامة جلها، من أول الطرق والكبارى والترع إلى المدارس وسياسات الاقتصاد، وهى من ناحية أخرى عضو فى الجماعة الدولية وهى شخص من أشخاص القانون الدولى بما يفرضه عليها ذلك من علاقات وتبعات وبما ييسره لها أيضاً من مصالح ومنافع.

وفى المقابل فإن الحركات الشعبية هى أخف حركة وأسرع استجابة وأقل قيودًا، وهى وإن كانت أقل خبرة وأضعف فى إمكانيات التنفيذ بما لا يقارن، إلا أنها فى النهاية لابد مؤثرة فى الدولة وفى حركتها ونهجها، والدولة ما وجدت إلا لخدمة الجماعة، وما بقيت إلا لأن بقاءها على المدى الطويل يعيد انتظام حياة الجماعة واستقرار وضعها ورتابة حركتها المعيشية.

وأن التباين بين الموقف الرسمى الحكومى والموقف الشعبى، وإن كان أمرًا واقعًا ووضعا مفهوماً، إلا أن اتساع هذا التباين عن درجة معينة، يهدد أمن الدولة واستمرارها بنظامها وسياستها المتبعة، ويلقى عليها عبء أن تعدل من هيئة السياسات المتبعة ومن جذورها العميقة، وإن لم تفعل فإنها تتعرض فى العاجل أو الآجل إلى أن تتعدل هذه السياسات والهياكل السياسية على رغمها، من خارج النظام القائم وبأساليب تتراوح فى الحدة واللين، وتتراوح فى الفجائية والتدرج، وتتراوح أحيانًا فى العنف والسلم، وكل مشروط بوقته وموازينه وملابساته الداخلية والخارجية.

وما يستدعى التنبيه أن هذا التباين بين الحكومى والشعبى ليس فقط أكثر مما تحتمله علاقات الاستقرار بين الجانبين، وليس فقط مما يمكن رأب الصدع بشأنه بالدعايات الإعلامية وذكر أنصاف الحقائق، وباللف والدوران ووسائل التدويخ الفكرى من محترفى الصياغات الفكرية، ولكنه تباين يتعلق فيما أظن بأوثق المسائل التى تصل وتربط بين الحكومات وشعوبها، وهى مسائل الأمن القومى.

وأقول للمرة الثالثة فيما كتبته أخيرًا أن كفالة الأمن القومى هى أهم من كفالة الماء والخبز، وتهديده هو أفدح من تهديد الجماعة فى مائها وخبزها، بل على وجه الدقة فإن قضايا الماء والخبز هى بعض عناصر الأمن القومى، ويفوقها خطرًا وجود دولة عنصرية توسعية تكتسح أهالينا اكتساحًا من أراضيهم وتبيدهم إبادة أو تزيحهم إزاحة، وشعبها المستوطن المجلوب من الخارج يؤيدها وينتخب الأكثر قدرة من ساسته وحاكميه على الإبادة والقتل والتدمير، وتمتلك كل أسلحة التدمير والقتل بما فى ذلك السلاح النووى، ولا تكف عن التطلع إلى كل الأراضى المحيطة.

أن يصل الأمر إلى أن حكومات مهددة فى نفسها وشعوبها تكرر القول دائمًا بأن السلام هو خيارها الاستراتيجى الذى لا محيد عنه، وتصير الوسيلة هدفًا، ويصير السلام عنصرًا يطمئن المعتدى أنه لن يواجه ما يتهدده فى عدوانه، وأن يصل الأمر إلى أنه حتى بالنسبة للـ«أسلحة السلمية» مثل سلاح المقاطعة أو التأثير فى السياسة البترولية أو غير ذلك، تصدر تصريحات حكومية رسمية حازمة بأن أيًا من ذلك لن يستعمل، وأنه إذا استعملته إحدى الدول العربية فستعوض الأخرى النقص الناتج عن ذلك، أن يصل الأمر إلى هذه الدرجة من الجانب الرسمى، وإلى نقيضه من الجانب الشعبى، فيتصل سيل المظاهرات الشعبية أسابيع فى البلاد العربية كلها حتى فى البلاد التى لم يعرف أهلها التظاهر من قبل قط، وفى بلاد لم يعتد أهلها على التظاهر السريع، وفى بلاد تواجه حكوماتها حركة التظاهر بما اعتادت مواجهتها به من قمع وتصفية، وأن تكون هذه المظاهرات واضحة التعاطف مع المقاومة المسلحة التى تستخدمها حركة تحرير الشعب الفلسطينى وتطالب بدعمه ومشاركته، أن يصل الأمر إلى هذا التناقض فإن الظاهرة خطيرة فعلاً فى إمكانية تحقق الاستقرار من بعد، ما بقى التباين بهذا الحد وفى هذه المسألة الفارقة.

[٤]

إننا إذا حاولنا تلخيص تاريخنا السياسى عبر القرنين الماضيين، سواء فى مصر أو فى أى من بلاد العرب والمسلمين، فسنلحظ أنه من الناحية الشعبية يتلخص فى حركات التحرير الوطنى ضد الاستعمار الغربى. وسنلحظ أنه من الناحية الحكومية يتلخص فى موقف الحكومات الوطنية من قضايا الأمن القومى، وحيث يكون الحكم وطنيًا يكون كل همه استكمال استقلالية الإرادة السياسية وكفالة استمرارها. وحيث لا يكون كذلك تتولى الحركات الشعبية نقد الحكومة ومقاومتها فيما تقاوم ومحاولة تصويب مسارها.

إننا على مدى هذين القرنين بدأنا أولاً نعانى من الضغوط الاقتصادية والسياسية والمحاصرة والتغلغل البشرى الأوروبى من رجال الأعمال والمغامرين والامتيازات الأجنبية والتدخل باسم حماية الأقليات المسيحية (ذلك ما حدث فى الدولة العثمانية)، ثم جاء الاحتلال العسكرى الغربى لبلادنا قطرًا قطرًا مع هيمنة الدول المحتلة وسقوط الإرادة الوطنية لهذه الدول، وذلك على مدى خمسين سنة من الربع الأخير للقرن التاسع عشر حتى الربع الأول للقرن العشرين، ثم بدأت حركات التحرر الوطنى يشتد عودها لإجلاء الاحتلال العسكرى الأجنبى وذلك على مدى الخمسين سنة التالية حتى أوائل السبعينيات.

وفى هذه الفترة من ظهور حكومات التحرر الوطنى، وجلاء القوات الأجنبية عن بلادنا ظهرت أشكال جديدة للسيطرة الغربية على بلادنا، بدأت فى الثلاثينيات من القرن العشرين فى صيغة معاهدات الدفاع المشترك بين دول الاستعمار القديمة الكبرى وبين أقطارنا حديثة العهد بالاستقلال، ثم تطور ذلك بعد الحرب العالمية الثانية إلى اتفاقات الأحلاف العسكرية بين تلك الدول الاستعمارية الكبرى وبين أقطارنا، وهناك من خضع من بلادنا وهناك من قاوم مجاهدًا من أجل استكمال إرادته السياسية.

وفى هذه الأثناء ظهر الشكل الجديد، وهو إنشاء دول تستفيد من ضمانات القانون الدولى من حيث عدم جواز التدخل فى شئونها الداخلية ومن حيث الحماية الدولية لها باسم حماية استقلالها، ولكنها دول لا تؤدى من الوظائف إلا ما يناسب أهداف الدول الاستعمارية الكبرى وأطماعها، سواء بالنسبة لاستنفاد الثروات الطبيعية المحلية لصالح هذه الدول الكبرى، أو بالنسبة لتكوينها قواعد عسكرية تمكن من الهيمنة السياسية على الشعوب المحيطة بها أو القريبة منها، ويجرى ضمان أداء هذه الدول المصطنعة لهذه المهام دون غيرها عن طريق أنها تكون دولاً بغير شعوب ثابتة ومستقرة وقديمة فى أى من هذه الأقاليم، ويكون ذلك عن طريق التهجير إليها من الخارج، فيصير الأجانب بها أكثر من المواطنين، أو يصير حديثو العهد فيها أضعاف السكان الأصليين، أو تصير موطنًا للمهجرين إليها بدلاً من سكانها الذين تجرى إزاحتهم بالقوة المسلحة وبالإبادة أو الترحيل مثل ما يحدث فى إسرائيل.

والمهم فى ذلك أن وجود قوة احتلال عسكرى تتخذ هذا الشكل الدولى، لا يعتبر فى يقينى أنها دولة مستقلة، ولا يعتبر فى ظنى أن من جاورها من دول وأقطار وأقاليم هى دول أو شعوب مستقلة بريئة من وصف الاحتلال العسكرى الأجنبى لها، يكفى أن هذه الشعوب والدول المسماة بالمستقلة تقع تحت

أن كفالة الأمن القومى هى أهم من كفالة الماء والخبز، بل على وجه الدقة فإن قضايا الماء والخبز هى بعض عناصر الأمن القومى، ويفوقها خطرًا وجود دولة عنصرية توسعية تكتسح أهالينا اكتساحًا من أراضيهم



التهديد المباشر «للقاعدة العسكرية / الدولة». يكفى أن هذه الشعوب والدول المسماة بالمستقلة لا تملك القدرة على درء هذا التهديد عن نفسها. والاحتلال الانجليزى لمصر عندما أجلى قواته المسلحة عن المدن المصرية وركزها كلها بالقاعدة العسكرية التى أنشأها فى منطقة قناة السويس فى سنة ١٩٤٧ لم يشعر مصرى واحد أن ثمة استقلالاً تحقق، ونحن الآن بالمثل لا ينبغى أن نتوهم أن استقلالاً لنا تحقق ما بقيت إسرائيل (القاعدة العسكرية / الدولة) المهددة لحدودنا ومجتمعاتنا ودولنا. وهكذا الأمر بالنسبة لسوريا ولبنان والأردن. وهو كذلك بالنسبة للسعودية وما جاورها والعراق وغيرها.

والحادث أن إسرائيل حطمت المفاعل النووى العراقى فى أواخر السبعينيات لأنه يهددها، وأنها تنظر بريب إلى المفاعل الباكستانى وإلى تسلح إيران، والحال من قبل أن بريطانيا أعلنت الحرب على ألمانيا الهتلرية عام ١٩٣٩ عندما سيطرت ألمانيا على ميناء دانزج فى بولندا، ودون أن تقترب ألمانيا من الجزيرة البريطانية. وعرف العالم كله أن بريطانيا بإعلانها الحرب لم تكن تبدأ حربًا ولا كانت تعتدى على غيرها، بل الظن الغالب أنها تدفع عن نفسها خطرًا وشيكًا ظاهر النية فى عدوانه جهير العزم على التوسع، وأن حالنا نحن العرب بالنسبة لإسرائيل أظهر من حال بريطانيا بالنسبة لألمانيا فى ١٩٣٩. ومسائل الأمن القومى لا تقف عند الحدود الجغرافية، إنما تهتم بحجم الضغوط على الإرادة السياسية وحجم التهديد للجماعة.

ونحن نعرف من تاريخنا الحديث فى مصر، أن موضوع الاستقلال الوطنى ومدى تحرر الإرادة السياسية الوطنية هو الموضوع الذى حكم كل نظلمنا السياسية واستقرار حكوماتنا. وفى دراسة سابقة لى عن معدّل تغير الحكومات فى مصر بين الأحزاب السياسية فى ظل دستور ١٩٢٣، وعلى مدى ثلاثين سنة تلت صدوره، تبين أنه ما من تغيير وزارى أساسى جرى فى هذه الفترة إلا وكان بسبب يرجع إلى فشل مفاوضات مع الإنجليز أو إفشال مفاوضات معهم، أى أنه ما من مسألة تتعلق بنظام الحكومة إلا وكانت متصلة اتصال سببية بالمسألة الوطنية. وهذا ما أدى بى إلى اعتناق مبدأ عن التقويم التاريخى للأحداث المصرية يتعلق بأن الديمقراطية كانت دائمًا منظورًا إليها فى إطار خدمتها للمسألة الوطنية، وأن الصلة بين المسألتين صلة لا تنفصم، وهى لم تنفصم.

واتصل هذان الأمران بصورة أعمق وألزم لما ظهرت المسألة الفلسطينية، فتغير نظام الدولة كله فى مصر بعد هزيمة ١٩٤٨ فى فلسطين، وتغير النظام السياسى والاجتماعى كله فى مصر كذلك بعد حرب ١٩٦٧. وإذا ذهبنا إلى التاريخ البعيد فى بداية القرن التاسع عشر، وجدنا أن تهديد الأمن القومى للدولة العثمانية الذى ظهر فى هزيمتها أمام روسيا واضطرارها لإبرام معاهدة كشك قينارجى فى ١٧٧٤ هى ما به بدأت مشكلة الأمن الجماعى لهذه الدولة، ومن يومها خلع سلاطين وقتل سلاطين وجرت ثورات، وأبيد جيش الانكشارية وقامت جمعيات سياسية سرية وعلنية، جرى كل ذلك بحثًا عن توفير عناصر الأمن الجماعى للدولة والمجتمع.

وبالمثل فإن حملة عسكرية فاشلة على مصر جرت من الفرنسيين فى ١٧٩٨ ولم تستطع أن تستمر أكثر من ثلاث سنوات. هذه الحملة قضت تمامًا على نخبة سياسية ظلت تحكم مصر منفردة مائتين وخمسين سنة وتشارك فى حكم مصر مع العثمانيين مائتين وثمانين سنة تالية. وهى نخبة المماليك، قضى عليها ظهور فشلها فى حماية مصر وأمنها من غارة الفرنسيين عليها. وسقطت إلى غير رجعة لها فى التاريخ كله.

وقد قصدت أن أذكر هذه الأحداث فى غير ترتيبها الزمنى لكى تظهر دلالتها السياسية بأقوى مما تظهر دلالتها التاريخية المستقاة من تتالى أحداث التاريخ، كما قصدت أن أركز الأحداث المشار إليها فى رؤوس موضوعات حتى لا تصرفنا التفاصيل عن التنبه للدلالات العامة.

[٥]

أظهرت الأحداث الفلسطينية الجارية الآن، أن بلادنا ليست فى تمام السيطرة على قرارها السياسى. وإن نقص السيطرة هنا عندما يتعلق بمسائل الأمن القومى إنما يعتبر نقصًا فى السيادة. لأنه يفيد عدم توافر القدرة على تحريك الإرادة السياسية إلى ما يوفّر الحماية لأمن الجماعة تجاه مخاطر الخارج، وهذا قيد على الاستقلال السياسى.

أخشى أن أصل إلى فكرة أن الأحداث الأخيرة تكاد تشير إلى أنه لم يعد للكثير من الدول العربية سياسة خارجية، أقصد سياسة تصدر فى الأساس - وقبل كل شىء وبعد كل شىء - عن صوالح الشعوب والجماعات العاجلة والآجلة، وإدراك بالالتزام بما يحقق هذه الصوالح، على مستويات الإعداد الداخلى والتوجه الاقتصادى والخيارات المتاحة من حيث العلاقات مع الدول الأخرى ووجوه تبادل المنافع معها.

إن فلسطين محتلة، وسوريا فيها أرض محتلة من خمس وثلاثين سنة، ومصر عادت لها سيناء منزوعة السلاح لا تستطيع مصر أن تحميها بقواتها المسلحة إلا من غرب قناة السويس، ومن يذهب من المصريين إليها لعمل أو لترف لا يتمتع - فى عمله ولا فى ترفه - بحماية القوات المسلحة المصرية، ولا يطمئن على نفسه من عدوان إسرائيلى عسكرى يأتيه وهو فى طابا أو دهب أو نويبع أو شرم الشيخ، من على بُعد خطوات من المياه الإقليمية المصرية فى خليج العقبة ويمكن للإسرائيليين اختطاف أو اغتيال أى أحد منا فى سواحل خليج العقبة بأسهل مما حدث منهم فى لبنان وتونس من نحو عقدين من السنين، وجيش إسرائيل على بعد بضعة عشر كيلومترًا، وجيش مصر على بعد مائة كيلو متر وبضع عشرات من الكيلو مترات. والجزيرة العربية ومنطقة الخليج بها دولنا العربية التى تعتمد فى كل دخلها على ناتج البترول، ووسط آبارها وحوافها. وفى المياه القريبة قواعد عسكرية أمريكية برية وبحرية.

وفى مصر، نحن ننتج نصف القمح الكافى لكى يأكل المصريون الخبز، وذلك طبقًا للأرقام التى يدلى بها الرسميون فى صحف مصر السيارة، ومناطق إنتاج القمح فى العالم هى فى الأساس الولايات المتحدة وكندا وأستراليا، وراسمو السياسة الإنتاجية فى مصر يعرفون ذلك من عشرات السنين، ولهم خطط وسياسات، والأرقام معروفة سلفًا ومتوقعة من حيث مستقبل الزيادة السكانية ومستقبل استهلاك القمح ومستقبل إنتاج القمح، كل ذلك معروفة حساباته من الستينيات والسبعينيات، فليس مما يتذرع به أحد الآن أن يقول إنه فوجئ بنقص أو أنه فوجئ بهذا القيد على سياسته الخارجية.

وبالمقابل فإن وزارة الثقافة فى مصر - حسبما ذكرت صحيفة الأسبوع فى أول أعداد شهر مايو - أعدت حفلاً لفرقة فنون شعبية بالقلعة، ثم فوجئوا بأن السفير الإسرائيلى يبلغهم بعزمه على حضور الحفل للترفيه عن نفسه، ورفض ما ذكر له من أن وجوده يثير

فى الفكر السياسى الذائع الآن، صارت أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية هما العالم، منذ السبعينيات، وصارت أقوال الساسة الأمريكيين وكتابات المفكرين السياسيين الأمريكيين هى العلم، ونكاد - إلا من عصم ربك - نكرر ما يقولون، على مدى خمس عشرة سنة

خواطر المصريين بما قد يهدد سلامته، فألغت الوزارة الحفل كله، لأن مصر لا تستطيع أن تقول للسفير الإسرائيلى «لا» ولا تستطيع أن تفرض عليه ما تراه من مسئولية عليها فى حفظ أمنها، وهكذا تسقط الإرادة الوزارية ما بين «الخبز» وما بين «المسرح»، ناهيك عن أن يكون ثمة شىء آخر.

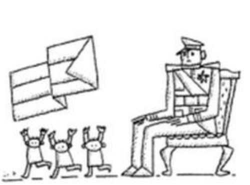
ونحن فى الفكر السياسى الذائع الآن، صارت أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية هما العالم، منذ السبعينيات، وصارت أقوال الساسة الأمريكيين وكتابات المفكرين السياسيين الأمريكيين هى العلم، ونكاد - إلا من عصم ربك - نكرر ما يقولون، على مدى خمس عشرة سنة. فإذا قيل «نظام عالمى جديد»، قلنا «نظامًا عالميًا جديدًا»، وإذا قيل «العولمة» قلنا «العولمة»، وإذا قيل «صراع الحضارات» قلنا «صراع الحضارات» ثم قدمنا على استحياء تعديلاً بأنه «تواصل الحضارات» لأنه لا طاقة لنا اليوم بلفظ الصراع، وإذا قيل «الإرهاب» قلنا «الإرهاب»، والصفحات تملأ، والأحبار تهرق، والندوات تعقد، وموجات الأثير تزدحم، ثم يأتى شارون ورجاله فنقول «لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده» (الآية الكريمة من سورة البقرة).

وأن موضوع استكمال الإرادة الوطنية يكاد أن يكون مغيَّبًا، ولا أحد يثير الآن أن لنا شوقًا إلى استكمال الإرادة الوطنية واستكمال ما يتعين أن نرنو إليه من توفير كفالات أمننا القومى من النواحى السياسية. والعجيب أن إسرائيل تبدى المزيد من القلق وادعاء الحق فى ألا يوجد سلاح ذو دمار شامل فى إيران مثلاً، وفى باكستان أيضًا على بعد آلاف الأميال منها، ونحن فى «مصر المحروسة» لا نكاد نشعر بخطر وجود سلاح نووى على بعد لا يكاد يذكر من حدودنا الشرقية، وعلى بعد أقل من مائتى كيلو متر من القاهرة، وهو فى يد دولة توسعية دخلت معنا فى أربع حروب من قبل ويحكمها استيطانيون متهوسون، ويحترفون القتل الجماعى للشعب العربى فى فلسطين. ونواجه ذلك بأننا ضد أن يستخدم الفلسطينيون المطرودون من ديارهم أو المهددون بالطرد والمضروبون أبدًا من مستعمريهم، نحن ضد أن يستخدم هؤلاء العنف مع جلاديهم.

محسوم لدىّ فيما أظن أن الحرب النظامية لا مجال لها فى هذا الصراع القائم بين العرب وإسرائيل، ومحسوم فيما يظن أنه متى استبعدنا الحروب النظامية بحسبانها وسيلة فى هذا الصراع، فيتعين أيضًا أن نستبعد وأن نتفادى ما يفضى إلى حروب نظامية من سياسات وأوضاع.

ولكن من المحسوم أيضًا أن بفلسطين أرضًا محتلة من إسرائيل وأن الاحتلال الإسرائيلى غير مشروع فى كل منطق ونظام دولى قائم، ومحسوم أيضًا أن إسرائيل تهدد الأمن الجماعى العربى وأن وجودها يجهض أبدًا إمكانيات النهوض والتنمية فى بلادنا.

ومع تعارض «المحسومين الأولين» مع «المحسومين الأخيرين» فلا بد أن يوجد طريق ثالث، وهذا الطريق الثالث هو طريق المقاومة الشعبية بكل صورها وأشكالها، شريطة أن يشارك فيها الشعب العربى فى جميع الأقطار،



فالصراع دام ونحن العرب جميعًا طرف فيه.

والطريق الثالث أيًا كانت مسالكه، له مخاطره بالنسبة للشعوب فى المقام الأول وبالنسبة للدول فى نطاق ما، ولكن لكل سياسة ولكل قرار يتخذه فرد أو جماعة أو هيئة او دولة، له دائمًا وجوه مخاطر، كما أن للسكوت والجمود وللمواقف السلبية مخاطرها أيضًا، وقد تكون مخاطرها أفدح. ومن يرد أن يتجنب المخاطر تمامًا فعليه ألا ياكل وألا يشرب لقيام احتمال حقيقي بأن ثمة «فيروس» فى الطعام، ويكفينا دائمًا أن نفكر فى احتمالات المخاطر المقدرة وأن نقلل من هذه الاحتمالات، وأن نفكر فى أساليب تدارك ما نستطيع من آثارها ونخفف من المضار المتوقعة، مع وجود الاستعداد لتحمل ما لا يمكن تفاديه مما يسعه البذل والفداء.

ومن نحو عشرين سنة، وفى محاضرة كان يلقيها المؤرخ العسكرى الوطنى الغيور اللواء المرحوم حسن البدرى، عن الصراع العربى الإسرائيلى، سئل عن حجم الخسائر، فتكلم وأسهب فى الشرح، ثم قال إننا دائمًا سنجد أن الهزيمة فى الصراع أبهظ تكلفة وأفدح نفقات وأعظم خسائر وأشد خرابًا.

[٦]

فى سنة ١٩٥١ عندما ألغت حكومة الوفد فى مصر معاهدة الدفاع المشترك بين مصر وبريطانيا، صارت القاعدة العسكرية البريطانية فى مصر والقوات المسلحة الإنجليزية فى وضع غير مشروع، وصارت مكافحة هذا الوجود العسكرى الأجنبى ولو بالسلاح مكافحة مشروعة، وحدث ذلك كله فى موجة من الحماس الوطنى العارم، وتكونت فرق الفدائيين للكفاح المسلح، حتى أنه أنشئ معسكر للتدريب على العمليات الفدائية داخل حرم جامعة القاهرة، كان يقبل المتطوعين فيه من طلبة الجامعة. وفى تلك الأيام كانت المظاهرات تملأ مدينة القاهرة والإسكندرية والأقاليم يوميًا، واحدة منها بالقاهرة، قدر حجم المشاركين فيها بمليون متظاهر، وكانت الصحافة الوطنية مليئة بأخبار الحوادث المتتابعة للأعمال الفدائية وبالتحميس لها.

فى هذه الأجواء ظهر ثمة شعار سياسى كتبت عنه الصحافة ورددته هتافات المتظاهرين، يطالب الحكومة أن تصدر قانونًا يلغى القانون الذى يمنع حمل السلاح بغير ترخيص والذى يعاقب على مخالفة ذلك بالحبس نحو ستة أشهر. وكنت أعجب من هذا المطلب، وأتساءل: هل هذا الفدائى الذى أعد نفسه للشهادة، ولأعمال يغلب على ممارسها أن يبذل حياته، هل يخشى من عقوبة يحتمل أن تطبق عليه تؤدى إن ثبت فعله إلى أن يحكم عليه بالحبس ستة أشهر؟ أم أنه يطلب الإقرار بشرعية فعله، ولكن شرعية فعله لم تكن وقتها تحتاج إلى تشريع يعترف له بها، لأن مصر كلها كانت على حماس بالغ بهذا الصنيع.

الحقيقة أننى لم أعرف بعد ذلك وعلى مدى السنين أى جدوى لمثل هذا المطلب، إلا أنه صادر عن مجرد حماس وعن روح خطابية يمكن أن تؤدى أكثر مما تفيد، لأن استجابة الدولة لهذا المطلب من شأنها أن تضعها فى حالة حرب مع القوات البريطانية، بما يترتب على ذلك من نتائج مواجهات عسكرية نظامية غير متكافئة أبدًا.

أتذكر ذلك جيدًا عندما أسمع اليوم أصواتًا كثيرة تدعو دولها العربية إلى ما أسمته هذه الأصوات «فتح الحدود» مع إسرائيل لوصول الفدائيين العرب إلى الانضمام إلى زملائهم فى فلسطين، كما لو أن الحدود عليها أسوار مبنية وأبواب مغلقة تفتح بقرار سياسى أو بقرار إدارى، وكذلك الدعوة التى تذيع أحيانًا تطالب الحكومات بأن تعلن «الجهاد» على إسرائيل، وكأن الجهاد يحتاج إلى إذن من الدولة لكى يبدأ ولكى يكون مشروعًا.

والحاصل أن أيًا من هذين المطلبين، لو أن دولة من دولنا استجابت إليه بالطريقة المطلوبة، لكان ذلك بمثابة اشتباك فى حرب نظامية مع إسرائيل، وهو أمر لا أظنه واردًا فى تفكير من يطالبون بأى من هذين المطلبين، إنما قد يكون الدافع إليه هو حث الحكومات لكى تتخذ موقفًا أكثر وضوحًا وصلابة فى مواجهة العدوان الإسرائيلى. وهذا الدافع مع مشروعيته إلا أن التعبير عنه بإعلان فتح الحدود أو إعلان الجهاد هو تعبير يجاوز حدود المعقول والمطلوب، كما أنه غير مفيد، لأن من المعروف أن ما يضبط من عمليات التهريب عبر الحدود لا يمثل أكثر من نسبة قليلة مما يجرى تهريبه فعلاً، وهذا يحدث بالنسبة لأقوى الدول العربية من حيث الانضباط الأمنى، ناهيك عن الدول الأقل قدرة فمن يريد أن يمارس لا يحتاج إلى سبق إجازة بفتح الحدود.

ومن جهة أخرى، فإن من يطلب الجهاد وينضم للمقاومة بروح الفداء، لن يخشى أن تعتقله شرطة بلده، كما أنه لا يخشى يقينًا أن يتربص به المتربصون عند الطرف الآخر. والدول والحكومات لا تسمح مسبقًا بأى تحرك شعبى واسع ومطرد، إنما هو يحدث بموجب الأمر الواقع، وتضطر الحكومات إلى السكوت عنه فى إطار الملاءمات السياسية التى تقدرها. وكل ذلك فيه من الدفع والجذب ما فيه، وأن التحركات السياسية تبدأ بالممارسة، وتستمر بالإصرار وبالدأب وبقبول حجم ما من المخاطر وحجم ما من التضحيات. وأن مخاطر مواجهة تحرك شعبى لحكومته فى القضايا الوطنية، هى مخاطر أهون كثيرًا من مخاطر مواجهة قوى الاحتلال العسكرية، التى تبغى حركات المقاومة الشعبية مواجهتها فى النهاية.

وفى النهاية فإن موضوع المواجهة فى الصراع العربى الإسرائيلى، وإن اختلفت الأوضاع بشأنه بين مواقف الحكومات ومواقف الشعوب، وإن ظهرت سياسات حكوميه لا تحقق الوضع الأمثل لهذه المواجهة، وإن بدا فى مسلكها ما يعوق ويعرقل تحريك وجود المقاومة الشعبية على قدر الطاقة التى يستطيعها شعبها، إن بدا كل ذلك مما يستلزم النقد والمواجهة بأساليب الحوار والمواجهات المشروعة السلمية، إلا أنه ينبغى ألا يغيب عن الذهن أمران:-

أولهما: أن مسائل الأمن القومى وعلى رأسها بالنسبة لنا هذا الصراع العربى الإسرائيلى. هذه المسائل لا تتباين فيها مصلحة الجماعة عن مصلحة الدولة، إذا نظر إلى الأمر فى أبعاده السياسية العامة، وبالنظر المستقبلى البعيد. وإذا بدا أحيانًا استغراق من أجهزة الدولة فى حماية ما يسمى بأمن النظام والخوف من شعبها، وإذا بدا نوع من الوهن وخفوت الإرادة السياسية خوفًا من الخارج أو ارتباطًا بقواه الأجنبية، فلابد فى النهاية أن تتعدل الموازين لصالح حماية الأمن القومى، والوطنيون يضعون بعضًا من رهانهم على هذا التحول والتعديل.

ثانيهما: أجهزة الحكومة كلها فى بلاد مثل مصر تتكون من مهنيين هم مواطنون ووطنيون فى الغالب الأعم من تكوينهم الاجتماعى والثقافى والسياسى. وهم بأصولهم الاجتماعية وتوجهاتهم السياسية وتشكلهم الثقافى يعكسون الطابع الغالب الذى يتشكل منه التيار السياسى الثقافى الأساسى فى بلادهم. وهم بحركتهم التلقائية فى نشاطهم، وفى حدود الانضباط المعتبر للخضوع الرئاسى وللهرمية الإدارية، يغلبون بقدر ما يستطيعون ما فيه الصالح الوطنى العام، وخاصة فى القضايا ذات الإجماع الشعبى المتعلق بأمن الجماعة وصوالحها القومية العامة. وأن جزءًا من رهاننا يتعلق بتقدير هذا العنصر وحساب آثاره الإيجابية فى أى تحرك شعبى يبغى فى النهاية الصالح الوطنى العام تجاه مخاطر الخارج.

وأن المشكلة غالبًا فى مثل هذه الأمور تكون مع القرار السياسى ومع مبعث الإرادة السياسية. والوطنيون يضعون بعضًا من رهانهم هنا على تقديرهم لوطنية هؤلاء المهنيين الذين تتكون منهم أجهزة الحكم والإدارة والأمن الجماعى. ونحن فى النهاية شعبًا وأجهزة دولة. وفى مسائل الأمن الجماعى للأمة وفى المسألة الوطنية، يصيب الضارب منا ما يصيب المضروب، وإن أى رشاش ينجرح به الضارب بقدر ما يُصاب به المضروب.

[٧]

وفى النهاية فإن الولايات المتحدة الأمريكية هى التى أسقطت مفهوم الشرعية الدولية، وهى لا تترك أية فرصة لصديق لها ولا لعميل أن يقنع ساذجًا منا بأنها ليست خصمًا لنا، ولا أنها دون إسرائيل فى خصومتها للعرب، فى فلسطين وفى غيرها من القضايا المثارة. وهى وإسرائيل لا تتركان فرصة لصديق لهما أن يقنع ساذجًا وطنيًا بأنهما تبغيان أى نوع من السلام معنا ولا بأن تعترفا بآدمية هذا الذى نسميه «نحن العرب». وليس أمامنا إلا الاغتراب الكامل عن المنطق الأمريكى الإسرائيلى.

والولايات المتحدة الأمريكية، بمسلكها الدولى فى العقد الأخير، وبخاصة فى السنة الأخيرة، لم تعد تهتم بضرورة وجود أية صياغة فكرية لأى نمط للشرعية يستر تصرفاتها وأفعالها، ولم يعد يهمها أن يقوم ثمة نوع من التقبل العام لمنطقها أو لنمط شرعيتها، كما كانت تسعى قديمًا أيام حربها الباردة مع المعسكر الاشتراكى ودوله بقيادة الاتحاد السوفيتى.

وهذا النمط من التجبر البواح ومن السفور العنصرى ومن استخدام القوة بغير ساتر شرعى ولا شبه شرعى لها، ومن الزهو والخيلاء، كل هذا يخفف عنا جهودًا فكرية كثيرة، كانت يمكن أن تصرف لكشف مستور أو تبيين عورات خفية، أو توضيح أضاليل أو تكذيب أكاذيب، وصارت القوة المادية المعتدية تواجه بقوة الصدور العارية وبروح الشهادة، وصارت الدنيا تواجه بالآخرة.

والسؤال الأخير: ألم نلحظ من وقائع التاريخ بدوله وأنظمته المتتابعة، أن هذا التجبر والقهر والشراسة كانت فى الغالب من ملامح نهاية العصور ومن مظاهر الانحدار والأفول بالنسبة للدول العدوانية. ■

> **إن الولايات المتحدة الأمريكية**
> **هى التى أسقطت مفهوم الشرعية الدولية،**
> **وهى لا تترك أية فرصة لصديق لها ولا لعميل**
> **أن يقنع ساذجًا منا بأنها ليست خصمًا لنا،**
> **ولا أنها دون إسرائيل فى**
> **خصومتها للعرب**

وعي زائف
واعترافات مبتورة

إبراهيم عبد الكريم

تبين التقاليد التي درجت عليها النخبة الأكاديمية والثقافية الإسرائيلية في تعاملها مع الأحداث، أنها تعبّر عن مفاهيم شريحة خاصة تمتلك مهارات عالية نسبياً في التوصيف واقتراح الحلول.

لهذا السبب، على نحو رئيس، يولي الإسرائيليون - ولاسيما دوائر صناعة القرارات - اهتماماً ملحوظاً لما يصدر عن هذه الشريحة من رؤى وتصورات. ويتم التركيز على أن أي مسيرة تغيير في النطاق الإسرائيلي يجب أن تبدأ على المستوى البحثي. وهو ما يفسر، ولو جزئياً، لماذا تعمل في إسرائيل عشرات المراكز والمؤسسات وصناديق التمويل في ميادين الأبحاث السياسية والاجتماعية وشؤون الصراع والسلام.

وقد جرت قراءة نتائج الانتفاضة، لدى مجموعة من الأساتذة والمثقفين الإسرائيليين، بالتنميط الصهيوني الشائع، الذي يتجاهل التعيُّنات الملموسة، لتقديم صيغة ذهنية مادتها المصطلحات الأكاديمية التضليلية. ومن ثم جاءت هذه القراءة مغايرة للواقع القائم وتصب في خدمة الإنشاءات الأيديولوجية الصهيونية.

وجرت قراءة النتائج ذاتها للانتفاضة، لدى مجموعة أخرى، بالرضوخ إلى بعض مقتضيات الواقع والاستجابة الخجولة إلى ضرورة تسمية المولود باسمه. قطع هؤلاء شوطاً في الاعتراف بجزء من الحقائق، لكنهم راحوا عند نقطة معينة يغادرون منحى تحليل الظاهرة إلى مسار آخر تبتعد نهايته عن المآل المنطقي والواقعي.

وبذلك أصبحت التوصيات التي قدمتها الأوساط الأكاديمية والثقافية الإسرائيلية بمثابة «تنويع» في إطار الوحدة الأيديولوجية والسياسية. وحتى لا يظهر هذا التقدير كما لو أنه يتعلق بعموميات أو بأحكام مسبقة، تفصح النصوص التي نشرها العديد ممن ينتمون إلى تلك الأوساط عن تعبيرات واضحة غنية عن التأويل.



صحف إسرائيل.. هآرتس (يمين)، جيروزاليم بوست، هاتسوفيه (يمين ديني) معاريف (يمين)

من الصمت إلى التأتأة:

انساقت النخبة الأكاديمية والثقافية الإسرائيلية وراء الرواية التضليلية التي قدمتها حكومة إيهود باراك لمفاوضات كامب ديفيد وطابا، والتي ألقت باللوم على الفلسطينيين في رفض يد إسرائيل الممدودة للسلام وفي عدم تجاوبهم مع التنازلات التي قدمها الجانب الإسرائيلي خلال تلك المفاوضات.

كان صمت أهل القبور هو السمة الرئيسة عموماً التي قابلت بها تلك النخبة سياسة حكومة باراك وخليفتها حكومة شارون، ورأت في جرائم الاحتلال والحصار والقمع ضد الفلسطينيين دفاعاً عن النفس وعمليات مشروعة لاجتثاث الإرهاب. وأمام ضغوط الواقع، راحت تظهر أصوات همس وتأتأة تطرح تصورات متآكلة وحلولاً مجتزأة، منها - مثلاً - مذكرة أعدتها مجموعة من ٣٣ شخصاً من رجال الفكر والأدباء والنشطاء في ما يسمى «قوى اليسار والسلام» قدمت (مطلع العام ٢٠٠١) إلى القيادة الفلسطينية للشروع في مفاوضات والتوقيع على اتفاق سلام. وبعد أن حددت المذكرة طبيعة الحل الذي تتصوره بإقامة دولتين لشعبين، أوضحت عدم موافقتها على عودة اللاجئين إلى وطنهم (ضمن ما يسمى الخط الأخضر) لأن ذلك يعني تصفية دولة إسرائيل (يديعوت أحرونوت ٥/ ١/ ٢٠٠١) ونشرت مجموعة من المثقفين الإسرائيليين بياناً (في هآرتس ١٧/ ٣/ ٢٠٠٠) تضمن مواقف تقترب من التوجهات الإسرائيلية العامة الشائعة، بخصوص «العنف المتبادل» و«الكراهية في الجانبين» وغير ذلك من التراكيب التي تتجنب ذكر إرهاب الدولة وتتعمد تبسيط الصراع وتحميل الجانب الفلسطيني مسؤولية ما يحدث..

لم تخرج المحاولات الأخرى عن هذا النطاق، وكان الجميع تقريباً ينتظرون ما سوف تسفر عنه المواجهة غير المتكافئة بين قوات الاحتلال وقوى الانتفاضة، استناداً إلى معرفة مسبقة بالحصيلة. وهو ما يعني أن الأوساط الأكاديمية والثقافية كانت شريكة للأطر العسكرية والسياسية في نهجها الدموي الموجه للشعب الفلسطيني وانتفاضته.

كعينة من المواقف الفورية للمثقفين الإسرائيليين خلال بدايات الانتفاضة، قال غرشون شيكد (أستاذ الأدب العبري المشهور) لقد بت أولي أهمية أكبر لمسألة الأمن والشعور بثقة أقل تجاه الفلسطينيين (الحياة الجديدة ٢٤/ ١٠/ ٢٠٠٠). ووجه عاموس عوز (الأديب الإسرائيلي البارز) الدعوة إلى أنصار السلام في إسرائيل لتعديل مواقفهم. لماذا؟! لأن العناد الإسرائيلي زال، ومع ذلك فالفلسطينيون ليسوا مستعدين لصنع السلام مع إسرائيل، إذ إنهم يطالبون بحق العودة الذي يعني تصفية إسرائيل ونزع الحق المبدئي للشعب اليهودي في تقرير المصير والقضاء عليه بأن يتحول إلى أقلية تخضع لحسن نوايا المسلمين (يديعوت أحرونوت ٦/ ١/ ٢٠٠١). ورأى مروس أوفريش (محاضر في معهد الهندسة التطبيقية بحيفا) أن الفلسطينيين لا يتصرفون وفق قواعد العالم الغربي المتحضر ويرفضون لعب دور الشريك البراجماتي الذي يقبل المصالحة والحل الوسط والحياة الهادئة (هآرتس ٢١/ ٥/ ٢٠٠١). أما الشاعرة القومية البارزة نعمي شيمر فقد اعتبرت أن «الغاز النازي أهون وأقل وطأة من القتل العربي» (معاريف٢٨/ ١٠/ ٢٠٠١).

وفق هذا النسق من الادعاءات، تعتبر الانتفاضة الفلسطينية عملاً مداناً، وتتم عملية تبديل للأمكنة بين القاتل والضحية. وتكون النتيجة المترتبة على ذلك، تنصُّل إسرائيل من الجرائم المقترفة بحق الفلسطينيين.

ومن التعليلات التي سيقت في معرض الحديث عن سكوت النخبة الأكاديمية والثقافية عما سمي «حالة الاستخدام الإسرائيلي المفرط للقوة»، ذهب الكاتب والمؤرخ البارز توم سيجف إلى أن الفلسطينيين هم الذين اضطروا الإسرائيليين أصحاب الميول «ما بعد الصهيونية» للعودة إلى رحم الصهيونية. قبل الانتفاضة - يتابع سيجف - كان الإسرائيليون أكثر انفتاحاً، لكن الانتفاضة أحيت «المشاعر الوطنية» لدى الإسرائيليين (الأيام ٢٩/ ١/ ٢٠٠٢). وقال نظراء سيجف من «المؤرخين الجدد» إن المقدرة على التعاطف مع الفلسطينيين تلاشت تقريباً منذ انهيار أكثر محادثات السلام شمولاً بين الجانبين (في يوليو ٢٠٠٠).

تحرير أم وجود؟

بعد أن تبينت النخبة الأكاديمية والثقافية الإسرائيلية عقم المراهنة على تركيع الفلسطينيين، راحت تظهر - وخاصة بعد عام ونصف من الانتفاضة - أوصاف جديدة على الفعل الفلسطيني، لكن دون الاستجابة لاستحقاقات هذه الأوصاف. وبتعبيرات

كيف يقرأ الإسرائيليون الانتفاضة؟

ميخائيل يائير (أستاذ القانون والمستشار القضائى الأسبق للحكومة) تحولت الانتفاضة إلى حرب تحرير قومية للشعب الفلسطينى، وتعلمنا مسارات التاريخ ودروسه أن أى شعب لا يمكن أن يرضى بالخضوع لسلطة شعب آخر، وستكون نهاية نضاله للتحرر هى الانتصار. إننا نعرف ذلك ونفهمه، لكننا نتجاهله (هآرتس ٢٠٠٢/٣/٤) ويصف الكاتب والمفكر المشهور ب. ميخائيل الحرب التى تشنها إسرائيل على الفلسطينيين بانها ليست حرب وجود ولا حرب اللا مفر ولا «حرب تحرير» ثانية ولا حرب على حياة الدولة - طبقاً لزعم الكثيرين فى إسرائيل - لكنها حرب على المناطق، حرب بسبب المستوطنات، حرب الذين يصرون على التمسك بغنائم الأيام الستة والمستعدين لسفك الدماء وارتكاب كل رذيلة باسم إيمانهم الوثنى بقدسية الأرض. إنها - يتابع ميخائيل - حرب حمقاء وجنونية، زائدة وعديمة الفائدة، فرضت على الشعبين بأيدى مجموعة صغيرة من المخبولين والمتدينين والشوفينيين، اليهود والمسلمين (يديعوت إنترنت ٢٠٠٢/٣/١٠). هكذا إذن يتقاسم - فى نظره - طرفان مناصفة مسئولية هذه الحرب، لا فرق بين القاتل والضحية، أو بين اللص والحارس. ولدى محاولة وضع المسالة فى سياقها الصحيح، تبرز فى الحال محاولة لتمرير مفاهيم دوجمائية (دون بيّنة) تقفز فوق طبيعة المشروع الصهيونى، كان يقول يورام كينوك (وهو واحد من كبار الرموز الفكرية والثقافية الإسرائيلية) إننى لا أعرف ما الذى يجب عمله، من جانب لا نريد السيطرة على ثلاثة ملايين عربى، ومن جانب آخر انا لا اريد ان يتجول الأشخاص هنا مع أرقام زرقاء على أيديهم..

قلة هم الذين غامروا بين جموع الأساتذة والمفكرين والمثقفين الإسرائيليين فى النظر إلى الصراع من زاوية منفرجة. فماذا وجدوا؟! .. البروفيسور موشى تسوكرمان (رئيس معهد التاريخ الألمانى فى جامعة تل أبيب) أدرك حالاً أن بداية الفكر الصهيونى كانت خطأ، حيث انسحب اليهود من النضال داخل البلاد التى كانوا فيها إلى تبنى فكرة العودة إلى فلسطين (الاتحاد - حيفا ٢٠٠١/١١/٢٩). ومع تكرار الخطأ فى المستقبل، باحتلال المناطق الفلسطينية عام ١٩٦٧، كان هناك من طلب العفو على طريقة أفرايم كيشون (الكاتب الساخر الهنجارى المولد الذى حصل على جائزة إسرائيل لعام ٢٠٠٢) قائلاً: عذراً لأننا انتصرنا (الأيام ٢٠٠٢/٣/١٩). والمعنى الكامن وراء ذلك، هو ثقل ما ترتب على الاحتلال من أعباء على كاهل إسرائيل، بالمنظور الاستراتيجى / التاريخى. فالاحتلال أو ما يسميه ميخائيل بن يائير «اليوم السابع لحرب الأيام الستة» حوّل إسرائيل من مجتمع أخلاقى (...) واثق بعدالة كيانه السياسى(...) إلى مجتمع قامع ومضطهد لشعب آخر ويمنعه من تحقيق تطلعاته القومية الشرعية، من مجتمع صادق (...) إلى مجتمع غير صادق و مستعد لتوسيع تسلطه على حساب أطلال وخرائب شعب آخر (هآرتس ٢٠٠٢/٣/٤).هل ثمة حاجة للإشارة إلى النصف المظلم من المعادلة؟ ! إذا كان طرفها الثانى صحيحاً واعترافاً بالواقع، فبأى معايير يتم الحديث عن الأخلاقية والعدالة والصدق كصفات لإسرائيل؟!

أمام ارتفاع منسوب الفعل السياسى والعسكرى الإسرائيلى، النافى والتدميرى للشعب الفلسطينى، لم يستطع بعض الأساتذة والمثقفين الإسرائيليين رؤية الصورة المشوهة لإسرائيل فى مرآة السلوك المتبع ضد هذا الشعب على المستويين الجارى والاستراتيجى. فاخذ هؤلاء يعاينون حالة الاحتلال، ويسجلون اعترافات نستشف منها محاولة لخفض ضغوط الاحتقان الذاتى. يقول ميخائيل بن يائير: اخترنا وبتشوق التحول إلى مجتمع كولونيالى، تجاهلنا المواثيق الدولية، صادرنا الأراضى، نقلنا المستوطنين من إسرائيل إلى المناطق المحتلة، عملنا المجازر وقطعنا اللحم الحى ووجدنا لكل ذلك المبررات. وبتلهفنا للتمسك بنتائج الحرب أقمنا جهازى قضاء / الأول فى إسرائيل متطور وتقدمى وليبرالى(...) والثانى فى المناطق المحتلة ظالم ومجحف، وفرضنا عملياً حكم أبرتهايد هناك (هآرتس ٢٠٠٢/٣/٤). واختار يوسف زيف (محاضر بالفلسفة والعلوم فى كلية وينجت ودار معلمين الكيبوتسيم) توجيه خطاب إلى كل ضابط أو جندى يخدم فى المناطق المحتلة، نبهه فيه أنه حتى إذا كانت الحرب عادلة، لا يعنى ذلك أنه مسموح فيها باى شىء. من المحظور - يقول زيف - تحويل المدنيين إلى أهداف والقيام بعقوبات جماعية وهدم البيوت وردم آبار المياه وإهانة الأشخاص وإذلالهم عند الحواجز. ومن المحتمل أن تجد نفسك هناك، فى المحاكم الدولية لجرائم الحرب، خاصة إذا كنت ضابطاً (هآرتس ٢٠٠٢/١/١٤). وإزاء التجاوزات الفظيعة والإيغال فى هذه الأنماط وسواها من الممارسات، أبدى بعضهم جراة غير معهودة، كحالة أبراهام عوز (أستاذ المسرح فى جامعة حيفا) الذى شبه ممارسات جنود الاحتلال بممارسات النازيين، وصاح: «إن فى كل واحد منا آيخمان صغيراً»(هآرتس ٢٠٠٢/٣/٢٢). إنه مجرد توصيف، لكنه على أى حال خطوة متقدمة، تصبح ذات أهمية حين لا تكون نهاية المطاف، بل بداية فى طريق مفترض هو طريق التغيير.

لا يجد الأكاديميون والمثقفون الإسرائيليون عناءً فى تحديد التداعيات المتصورة لسياسة إسرائيل إزاء الفلسطينيين. واستباقاً للنهاية الحتمية، انبرى بعضهم للتحذير من الكارثة التى ستحل بإسرائيل جراء استمرارها بنهجها الحالى.. أ.ب. يهوشع (أحد كبار الأدباء الإسرائيليين) يصف الواقع القائم بانه حالة جنون مطلق، جراء ربط الدورة الدموية الإسرائيلية بنظيرتها الفلسطينية (يديعوت إنترنت ٢٠٠٢/٢/١٨). ويؤكد عامى إيلون (الذى انتقل من رئاسة الشاباك إلى طاقم للتفكير والتقديرات) أن إسرائيل تسير باعين مفتوحة نحو كارثة وجودية تتمثل بنهاية الدولة الصهيونية فى حال استمرار الوضع الراهن (معاريف ٢٠٠٢/٢/١) خاصة أن العرب - باعتقاد المؤرخ الإسرائيلى «الجديد» بنى موريس - لا يمكنهم قبول شرعية إسرائيل وامتلاك اليهود ثلاثة أرباع فلسطين.



بدائل وتصورات للحل:

بغية عدم ترك الباب مفتوحاً على التوقعات، عمد بعض الأكاديميين والمثقفين الإسرائيليين إلى بلورة العديد من المقترحات التى توخت تغذية النقاشات حول سبل الخروج من نفق المواجهة مع الفلسطينيين. ويمكن تصنيف هذه المقترحات وفق ثلاثة أنماط، هى:

. نمط «الحل الإسرائيلى»، الداعى إلى استباق الزمن وتخريب القوة التى حشدها الفلسطينيون والتى تقود العرب إلى شن حرب لإبادة إسرائيل - حسبما يقول البروفيسور آرييه الدار - بحيث يتم اختيار الزمان والمكان المناسبين لتشن إسرائيل حرباً إلزامية وتطلق النار على رأس عرفات، عندها فقط يمكنها ضمان وجودها فى هذه البلاد.

. نمط «دولتين لشعبين»، سواء عبر المفاوضات وتقديم التنازلات التى ستضطر إسرائيل إلى تقديمها آجلاً، والخروج من الدائرة السحرية، بتقديم سبب للطرف الفلسطينى كى يتخلى عن العنف / بعبارات الأديب دافيد جروسمان (يديعوت إنترنت ٢٠٠٢/٢/١٨). أو بطرح مبادرة إسرائيلية لإنهاء الاحتلال وإقامة خط حدود مغلق ومحصن حسب الواقع الديمجرافى، والاعتراف بقيام دولة فلسطينية مع البحث عن حل شامل بين إسرائيل والعرب.

. نمط «الخيار الأردنى»، الذى يبدو أنه لا يزال بين الملفات الإسرائيلية المفتوحة. والتبرير هو أن الدولة الفلسطينية تثير مشكلة استراتيجية أساسية، هى: كيف يمكن التأثير عليها حتى لا تكون معادية وليس لها مطالب داخل إسرائيل. وبعد التركيز على المخاطر الكامنة بموافقة إسرائيل على قيام دولة فلسطينية، يقع الاختيار على حل الدمج الفلسطينى - الأردنى مع ضمانات معينة / دعوة يحزقئيل درور، أستاذ العلوم السياسية والإدارة فى الجامعة العبرية (القدس المقدسية ٢٠٠٠/١١/٣٠).

إذا كانت هذه الأنماط تتفق على وجود مشكلة تتطلب الحل، إلا أنها تشير إلى حالة من التخبط والارتباك فى تحديد طبيعة الحل الذى يصمد على المدى التاريخى. وتبدو معالم الخلل واضحة فى التصورات المعروضة، بالقفز فوق مشكلة اللاجئين.

إسقاط حق العودة:

ثمة إجماع إسرائيلى شامل تقريباً على أن عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم تعنى نهاية الدولة اليهودية. وبطبيعة الحال يلخص هذا الإجماع المفهوم العنصرى لهوية الدولة وحصريتها الاثنية، عبر المحافظة على الأغلبية اليهودية فيها، ونجد فى معالجة الأساتذة والمثقفين الإسرائيليين لهذه المسألة ثلاث صيغ رئيسة، هى:

- صيغة الرفض المطلق لحق العودة واعتباره «سيارة مفخخة»، مع إمكانية مساهمة إسرائيل فى حل لمشكلة اللاجئين .
- صيغة الاعتراف الإسرائيلى بمشكلة اللاجئين والإقرار بالألم والمعاناة المرتبطة بها وتحمل المسؤولية ولو الجزئية عن وقوعها.
- صيغة ترك مشكلة اللاجئين للزمن، مع التركيز على تطبيق حل سياسى عملى يتضمن قيام الدولة الفلسطينية.

هنا إذن تبدأ قضية الصراع العربى - الإسرائيلى، وهنا تنتهى. وما لم يجد حق العودة طريقه إلى الاعتراف به، تظل مشكلة اللاجئين الكاشف الحقيقى للنظم الفكرية والسياسية والعملية السائدة فى الأوساط الأكاديمية والثقافية الإسرائيلية. وتظل هذه الأوساط فى حالة مشابهة للحيتان التى تفقد إحساسها بالاتجاه، دون أن تدرى أن الموت ينتظرها على الشاطئ. ■

لأن الأفيال تخرج من ثقب

- تقارير دولية: غسيل الأموال قد يصل إلى (٥) بالمائة من دخل العالم!
- مصر: الكبار يغسلون فى عواصم الغرب والصغار يغسلون فى قطعة أرض!
- موسكو: بوتين أيضا متهم
- باكستان: (٣٠٠) مليار دولار مشبوهة على حدود أفغانستان
- الإمارات: تجميد أموال (٣٠) شركة ومنشأة بطلب من واشنطن
- غسيل الأموال من المخدرات والرقيق الأبيض إلى «إرهاب ١١ سبتمبر»
- فى البدء، كانت الأموال القذرة تتجه إلى محلات الغسيل والكى!



أموال الأنابيب أو المال الحرام

محمـــود المـــراغى

حين نشر الخبير الاقتصادى الباكستانى إكرام الحق دراسته عن غسيل الأموال، وكان ذلك قبيل ١١ سبتمبر الشهير، لم يكن يعرف أن الدراسة سوف تكون ورقة رئيسية فى ملف سبتمبر وحرب الإرهاب!

كانت الدراسة معنية بحكاية المخدرات فى كل من باكستان وأفغانستان وعرجت على عالم الجريمة المنظمة، لكنها تنبهت ـ وفى وقت مبكر ـ إلى ذلك الخيط الذى يربط بين المجالين: الإرهاب والحشيش، حتى أنه يمكن القول إن زواجًا قد تم بين المخدرات والتطرف وعالم السياسة، وأن هناك ـ كما يقول إكرام الحق ـ «تنظيمات إرهابية اكتسبت نفوذًا بفضل إمكاناتها المالية التى تقدر بآلاف المليارات والناتجة من تجارة المخدرات».

والقراءة الجديدة للدراسة والتى تم نشرها قبيل صيف عام ٢٠٠١ ربما تقدم لنا أيضًا التفسير لذلك الفخ الذى وقعت فيه باكستان فتحولت من حليفة للأفغان إلى رأس رمح ضدهم، وباتت تأتمر بما تراه واشنطن دون حذف أو تعديل.. ذلك أنها قد تم الإمساك بها مرتين، الأولى حين بدت كمورد رئيسى للبشر الذين تعلموا فى معاهدها الإسلامية وراحوا ينضمون إلى طالبان، والمرة الثانية وهى التى تبرزها الدراسة، حين بدت كقناة تمويل رئيسية لأنشطة (طالبان ـ القاعدة)، أما التفاصيل التى يقدمها الاقتصادى الباكستانى فهى مذهلة، حيث يبلغ نصيب الشبكات الباكستانية فى تجارة الهيروين العالمية حوالى مائة مليار دولار سنويًا، أى نحو ثلث الحجم العالمى لهذه التجارة.. أو هى (١٠) بالمائة مما يتم غسله سنويًا فى العالم من أموال قذرة.. واللعبة تبدأ على الحدود الأفغانية ـ الباكستانية حيث يبلغ سعر الكيلو جرام ـ بالجملة ـ ألف جنيه إسترلينى، ثم يتضاعف (٢٠ ـ ٢٥) مرة حين تصل البضاعة إلى بريطانيا، ويستمر تزايد السعر فى سوق التجزئة ليصل إلى (٤٢) ألف جنيه إسترلينى، أى أنه أكثر من سعر المنبع بحوالى (٤٢) مرة..!

وهذه الأرباح الهائلة هى التى تغرى بالمخاطرة، وبينما تسعى الأموال القذرة للوصول إلى المشروعية عبر عمليات غسل وتطهير وإخفاء، فإن بعضها يذهب لتمويل تنظيمات سياسية تزداد نفوذًا ونشاطًا بفضل التمويل الضخم القادم من عالم المخدرات، والذى تقبله هذه التنظيمات ذات الطابع الإسلامى ربما بمنطق (الضرورات تبيح المحظورات)، وربما بفتاوى تجعل المخدرات شيئًا غير الخمر، ويجوز للمسلم أن يزرعها وينقلها ويتداولها ويستهلكها (!) ومن هنا، وإذا كان تنظيم القاعدة أو طالبان ـ على سبيل المثال ـ ذا أيديولوجية إسلامية وجهادية، فإنه قد يستبيح زراعة وتجارة المحظور دوليًا من أجل غاية يرى التنظيم أنها مشروعة. إنه طريق (اللا مشروع) للوصول إلى (المشروع) وهو هنا: الجهاد من أجل الإسلام!

صدرت الدراسة قبل سبتمبر، وكانت واشنطن أيضًا معنية بالقضية ولكن من زاوية بعيدة عن الإرهاب وعالم السياسة، فقامت عناصر من المباحث الفيدرالية الأمريكية (إف.بى.آى) بتدريب كوادر أمنية باكستانية على مكافحة عمليات غسل الأموال القذرة والتصدى للجرائم المالية التى أصبح نجاحها ـ كما تقول سفيرة أمريكية هى ويندى تشامبرلين ـ «حافزًا رئيسيًا للفساد وانتشار العلل الاجتماعية». بل إنها الحلقة التى تجعل الجريمة مفيدة وذات ثمرات وإغراء.

أصدرت الخارجية الأمريكية تقريرها هذا فى مايو (٢٠٠١) ولم تتنبه ويندى تشامبرلين مساعدة وكيل وزارة الخارجية والمعنية بمكافحة غسل الأموال والتى تم ترشيحها بعد ذلك للمكان المناسب وهو العمل كسفيرة لبلادها فى باكستان ـ لم تتنبه لتلك العلاقة التى أشار لها إكرام الحق بين المخدرات والإرهاب، وإن كانت قد نبهت لأهمية إعلان الحرب على مافيا غسل الأموال والذين يتعاملون ـ وفقًا لتقديرها ـ فى تريليون دولار سنويًا!

فى تلك الفترة أيضًا، وقبل سبتمبر بأحداثه المروعة، وبالتحديد فى شهر أغسطس (٢٠٠١) نشرت مجلة «نيوزويك» أن تحقيقات أوروبية تجرى مع مدير إحدى الشركات الروسية ـ الألمانية حول عمليات غسل الأموال، وأن التحقيقات (قد تمتد للرئيس الروسى فلاديمير بوتين) والذى تولى مسئولية إدارة هذه الشركة لبعض الوقت.. أما الشركة نفسها فكان منسوبًا لها (وهى شركة سباج كما ينطقونها بالألمانية) أنها سهلت عمليات غسل الأموال لعصابات المافيا الروسية ومهربى المخدرات فى كولومبيا.

ونحن لا نعرف ما انتهى إليه التحقيق، لكننا نعرف ومن سياق ما جرى نشره أن الرؤساء أيضًا يمكن مساءلتهم طبقًا للقواعد الأوروبية ـ والتى باتت دولية ـ فى جريمة جديدة اسمها غسل الأموال، والتى لم يكن بعيدًا عنها رؤساء دول سابقين مثل: سوهارتو، ماركوس، وعدد من الرؤساء الأفارقة.. وربما غيرهم أيضًا، وهو ما تشير له دراسة مجلة (Impact) الصادرة عن هيئة التمويل الدولية فى ربيع عام (١٩٩٩) تحت عنوان «جحيم الفساد».

فى هذه الدراسة يروى فيليب سيجال ـ صاحب الدراسة ـ أن النتائج السالبة لظاهرة الفساد وغسل الأموال تمتد من الاقتصاد إلى السياسة، وبينما قد يفيد منها الأثرياء فإن الفقراء يدفعون الثمن.. ويضرب مثلاً بما حدث فى إندونيسيا حيث احتكر أصدقاء وأقرباء الرئيس الأندونيسى السابق سوهارتو صناعة الطاقة، وجرى بناء مشروع مشترك (إندونيسى ـ أمريكى) تشارك فيه شركة جنرال الكتريك، وكان نص العقد يقضى بشراء المراجل اللازمة للمشروع من شركة أجنبية أخذ توكيلها المحلى أحد أبناء سوهارتو، ولكن بتكلفة إضافية تحملها المستهلك مقدارها عشرون مليونًا من الدولارات.. والأمر متكرر: الفساد يحدث، والتكلفة تزيد، والمستهلك يدفع!

وفى حالة سوهارتو، الذى تنازل عن جزء كبير مما نهب قبل أن يرحل، استمرت المعلومات تتدفق عن أموال خارج البلاد.. فهل كان ذلك عبر قنوات شرعية، أو من خلال وسيلة من وسائل غسل الأموال: بنوك وأسهم وسندات وعقارات وشركات وهمية؟

على أى حال فإنه الفساد عند القمة، يدخل عبر الباب الملكى، وربما عبر أكبر البنوك العالمية.. وبينما كان الأمر يتعلق قبل سبتمبر بجرائم مثل المخدرات والدعارة وتجارة السلاح.. فإنه ـ وبعد سبتمبر ـ بات فى بؤرة الاهتمام، ذلك أنه ارتبط ـ وعلى نطاق واسع ـ بتمويل الإرهاب وما جرى فى واشنطن ونيويورك، وحينذاك أصبحت الدول العربية والإسلامية فى مركز الأحداث «فمن هنا نبدأ» كما ترى واشنطن بعد أن تكشف لها خيطان:

* الأول، مشاركة عدد غير قليل من أبناء الدول الخليجية وبعض المصريين فى أنشطة تنظيم القاعدة أو التردد على أفغانستان، وجزء منهم قد تم القبض عليه وجرى نقله إلى قاعدة «جوانتانامو».
* الثانى، خروج بعض الأموال الخليجية إلى أفغانستان أيضًا، مما حدا بالإدارة الأمريكية لطلب تجميد بعض الحسابات فى الإمارات العربية والتفتيش على حسابات كثيرة فى دول أخرى.

ولم يكن ذلك الإيقاع المتسارع فى نهاية (٢٠٠١) وبدايات (٢٠٠٢) هو بداية خيط الاهتمام عربيًا بقضية غسل الأموال، فقبلها كان الإلحاح قائمًا من قبل اللجنة الدولية المعنية بهذا الأمر، وكانت الاتهامات لبعض الدول العربية بأنها حقل خصب لغسل الأموال.. وهى اتهامات تحولت بعد سبتمبر للحديث عن تمويل الإرهاب من خلال (أعمال الخير) التى باتت متهمة فى كل مكان، ومن خلال منظمات الخير المنتشرة فى الخليج والتى أصبحت موضع شك من وجهة النظر الأمريكية.. وربما من وجهة نظر أمنية خليجية!

وهكذا ازداد الاهتمام عربيًا بالقضية بتحرك من البنوك المركزية، وبإصدار تشريعات لتجريم غسل الأموال لأول مرة.. والأخطر بتعاون مفتوح مع الولايات المتحدة «لتعرف، وتراقب، وتطارد، وتأمر ـ أحيانًا ـ بالمصادرة ليس للأموال القذرة وحدها، وإنما للأموال النظيفة أيضًا وهى الأكثر بطبيعة الحال!

على أى حال فقد بات «غسل الأموال»، أو قصة الأموال الهاربة فى الظلام على الأجندة العربية، وبات ذلك مواكبًا لاهتمام دولى متزايد تعكسه الدراسات المنشورة، والتحركات السياسية والاقتصادية والتى تستهدف إقامة حلف دولى جديد يواجه حلف المفسدين، والمرتشين، وأصحاب الجريمة المنظمة وجماعات الإرهاب أيضًا.

[١]

فى دراسة نشرتها مجلة (فورين بوليسى) ـ عدد مايو،

يونيـه (٢٠٠١) يروى - (Nigel Marris Cotterill) شيئًا من التاريخ فيقول إنه منذ ثلاثة آلاف عام تقريبًا كان التجار الصينيون يحاولون إخفاء أموالهم حتى لا يستولى عليها الحكام، فكانوا يخبئونها فى أشكال مختلفة من الأنشطة مثل امتلاك بعض الأصول غير السائلة، وربما كان ذلك هو أول نشوء لفكرة غسل الأموال.

القصة، كما قلت، عمرها ثلاثة آلاف عام لكن عامر التميمى رئيس الجمعية الاقتصادية الكويتية يروى لنا قصة أخرى عمرها ثلاثة عقود فقط فيقول: «إن مصطلح غسل - أو غسيل - الأموال ظهر فى الولايات المتحدة لأول مرة خلال السبعينيات حيث لاحظ رجال مكافحة المخدرات أن التجار الذين يبيعون للمدمنين بالتجزئة تتجمع لديهم - فى نهاية كل يوم - فئات صغيرة من النقود الورقية والمعدنية وعادة ما يتجهون إلى محلات غسيل الملابس لغسل الأموال الملوثة بآثار المخدرات بالبخار أو الكيماويات أو لاستبدالها بنقود من فئات كبيرة يمكن إيداعها بالبنوك.. ومن هنا نشأ مصطلح غسل الأموال، والذى قد يحمل أيضًا تحويل الأموال القذرة إلى أموال نظيفة لا تحمل شبهة الجريمة».

وبصرف النظر عن أصل الكلمة فإن القصة لم تبدأ هكذا، ولم تخرج التنظيمات والمعاهدات الدولية لكى تواجه نفرًا يتجه لمحلات الغسيل والكى!

لقد تحدثنا طويلاً عن الاقتصاد الخفى والاقتصاد الأسود.. فهل تكون هذه هى البداية؟

الإجابة أيضًا بالنفى، فنقطة البدء هى كعكة الاقتصاد العالمى التى تزداد حجمًا بسرعة هائلة، وحركة الأموال التى تتسارع وتيرتها، وعالم التكنولوجيا والكمبيوتر الذى جعل انتقال الأموال يتم بضغطة إصبع على جهاز إلكترونى، كما جعل انتقال الملكية وبالمليارات كل يوم، عبر أوامر إلكترونية للبورصات وأسواق المال.. فكيف يمكن التحكم فى كل ذلك؟

فى تقرير (التنمية فى العالم) الذى أصدره البنك الدولى (٢٠٠١) أن صافى تدفقات رءوس الأموال الخاصة فى مجموعة الدول ذات الدخل المنخفض والمتوسط قد ارتفع من (٤٢,٦) مليار دولار عام (١٩٩٠) إلى (٢٦٨) مليار دولار عام ١٩٩٨.. أى أنه تضاعف أكثر من ست مرات فى ثمانى سنوات، بل إنه فى بلد مثل البرازيل قد تضاعف نحو مائة مرة فى نفس الفترة!

ودون الدخول فى تفاصيل حركة رءوس الأموال عبر الحدود الدولية فقد كانت الكعكة كبيرة، وتضم الاقتصاد الرسمى الذى تسجله الأرقام وتعلم عنه الحكومات الكثير من أسراره، والاقتصاد غير الرسمى أو الاقتصاد الخفى والذى يضم المشروع وغير المشروع، البائع المتجول الذى لا تعرف عنه الضرائب شيئًا، وبائع المخدرات الذى يدخل فى مجال الاقتصاد الأسود، ويسعى لتبييض وجهه أمام المجتمع، أو لتبييض أمواله حتى لا تكون مطاردة إلى غسل هذه الأموال، لتخرج (بيضاء من غير سوء) فيضع المال الملوث فى أوعية مختلفة مثل شراء الذهب أو التحف أو العقارات أو الشركات الحقيقية أو شركات (الواجهة).. ثم يعيد سحب النقود ليودعها فى البنوك التى تملك حاسة الشم، لكنها وإزاء مصدر مشروع لا تستطيع إلا أن تقبل ما يُقدم لها من أموال.. ومن بعدها يبدأ التوجه الحقيقى للأموال كما يريدها صاحبها.

إنها مثل لعبة «السلم والثعبان» التى يتسلى بها الأطفال، فلا تكاد العين وهى تنظر لبداية اللوحة أن تعرف كيف الوصول إلى النهاية. فالتعرجات، والطرق الملتوية كفيلة بالتمويه.

أيضًا فهى «أموال الأنابيب» إن جاز التعبير، فمثلما ينجب الرجل من زوجته دون لقاء جنسى وعبر أنبوبة تضم سائل الرجل والمرأة.. فإن نفس الشىء يحدث فى غسيل الأموال حيث يلتقى المال وهدفه النهائى الوصول إلى النشاط المشروع عبر عالم سرى لا تراه الأعين!

والبداية قد تكون أيضًا أموالاً نظيفة وناتج نشاط مشروع، لكنها ورغبة فى التهرب من الضرائب الباهظة، أو رغبة فى الهروب من أنظمة وطنية تمنع تحرك رءوس الأموال، حينذاك قد يلجأ رأس المال للفرار عبر وسائل غير مرئية، وعبر بنوك وأنشطة فى الداخل أو فى الخارج، وبينما كان نظام الحسابات السرية، والتى قد يصبح اسم صاحبها مجهولاً، وسيلة جيدة للتخفى فإن هناك بلادًا قد اشتهرت بغسل الأموال وإعطاء شهادة صلاحية للانتقال إلى مختلف أنحاء العالم!

فى كتاب يحمل اسم «فخ العولمة» تأليف: (هانس - بيتر مارتين وهارالد شومان) قصة طويلة حول «الواحات الضريبية» التى تستقبل الأموال الهاربة من نيران الضرائب فى أماكن أخرى، فتأتى إلى هذه الجنات وتتمتع بإعفاءات كاملة أو شبه كاملة، وتتحرك فى المصارف بحرية دون أن يسألها أحد: (من أين لك هذا؟).

ويقول مؤلفو الكتاب - الذى قام بترجمته للعربية د. عدنان عباس على - أنه «من الكاريبى وعبر لشتنشتاين هناك ما يقرب من مائة منطقة متناثرة تدير منها المصارف وشركات التامين وصناديق الاستثمار أموال زبائنها الأثرياء.. وبينها مثلاً جزر (الكايمن) الكاريبية والتى تخضع - رغم استقلالها - للتاج البريطانى وتضم (١٤) ألف مواطن فقط ولا تزيد مساحتها على (١٤) كيلو مترًا مربعًا.. وهذه الجزيرة وحدها تضم خمسمائة مصرف مسجل، وبعض هذه المصارف ينتمى لبنوك عالمية شهيرة.. ومثل الكايمن، تأتى إمارة لوكسمبورج، وإمارة لشتنشتاين وجزيرة جيرسى الواقعة فى القنال الإنجليزى.. وغيرها.

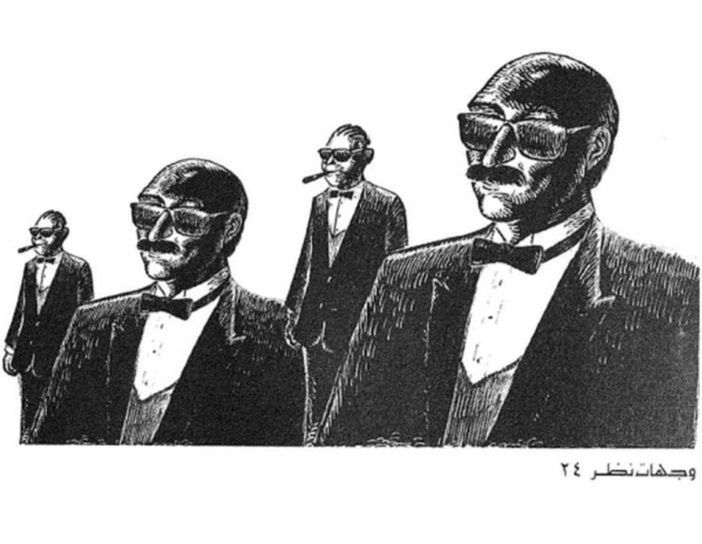
[٢]

يدافع البعض جزئيًا عن عملية غسل الأموال حين تكون اضطرارية ويضرب (نيجل موريس) المثل فى دراسته بمجلة (فورين بوليسى - مايو، يونية ٢٠٠١)، يضرب المثل بالبيض الذين صادرت زيمبابوى أراضيهم، وبرجال الأعمال فى نيجيريا الذين أقاموا اقتصادًا موازيًا خارج نيجيريا بسبب قواعد التحويل الصارمة للعملة النيجيرية والذى استمر طويلاً.. وتتحدث الدراسة عن التهرب من الضرائب وهو تهرب يعنى أن جزءًا من الأرباح المشروعة وهى الأموال المتهربة قد بات غير مشروع، وأصبح كما يشير الباحث مثل نقطة الحبر إذا اختلطت بالماء لوثته، لكن فصلها عنه يصبح مستحيلاً.. وهكذا تكون الأموال بعد أن تدخل إلى باب البنك ويقبلها الشباك.

المنابع إذن متعددة، والأحجام هى ما جعلت الاهتمام الدولى متزايدًا حتى أن لجنة دولية لمكافحة غسيل الأموال قد أنشأتها أوروبا، ثم باتت تنظيمًا عالميًا إضافة لبرنامج الأمم المتحدة لمكافحة المخدرات وغسل الأموال.

ورغم أن تقدير حجم الأموال التى يتم غسلها سنويًا مختلف عليه لأنه جزء من «المال الحرام» الذى يصعب حصره، فإن الأرقام تتفاوت بين ستمائة مليار دولار وألف وخمسمائة مليار دولار. يقدر تقرير للبنك الدولى أن الحجم عام (١٩٩٩) كان ستمائة مليار دولار ويقول تقرير صادر من صندوق النقد الدولى أن الأموال التى تم تبييضها عام (٩٨) تتراوح ما بين (٦٠٠ - ٧٠٠) مليار دولار وهو ما يعادل فى الحدود الدنيا (٢٪) من الناتج المحلى لكل دول العالم، بينما يرتفع الحد الأعلى - وفق تقديرات أخرى إلى (٥٪) من دخل العالم و(٢٥٪) من التجارة العالمية وأكثر من سبعة أضعاف مجموع الصادرات السنوية لمنظمة أوبك من النفط، وما يوازى ثلاثة أضعاف مجموع احتياطيات البنوك!

وتتفق تقديرات اللجنة المالية الدولية لمكافحة غسيل الأموال مع صندوق النقد فى تقديراته التى تذهب إلى أن غسل الأموال يتراوح بين (٢ - ٥) بالمائة من الناتج العالمى، ويقدر د. إكرام الحق فى دراسته المشار إليها سابقًا أن ما يتم غسله سنويًا يبلغ نحو تريليون (ألف مليار) دولار، بينما يقدر د. شريف بسيونى الخبير بالعلاقات الدولية والقانون الجنائى الدولى حجم تجارة المخدرات وحدها بخمسمائة مليار دولار سنويًا، ويرى د. حمدى عبد العظيم نائب رئيس أكاديمية السادات للعلوم الإدارية أن حجم الاقتصاد الخفى فى مصر فى منتصف التسعينيات (١٩٩٤) قد بلغ (٣٢,٧) مليار جنيه بينما بلغت قيمة المخدرات المتداولة حوالى (٣) مليارات جنيه سنويًا ويتم غسل (٧٠٪) منها فى البنوك وأسواق المال محليًا وعالميًا، وتستند هذه الدراسة الأخيرة على أرقام وزارة الداخلية التى تشير لضبط (١٤)



ألف قضية في عام ١٩٩٤. وتقول الدراسة أنه إذا كان المعلن أو المضبوط لا يتجاوز (٤٠) بالمائة في العادة مما يتم تداوله فإن الرقم الحقيقي لما يتم تداوله - ومن ثم غسله أو غسل معظمه - يصل إلى ستة مليارات من الجنيهات كل عام، وبينما يغسل الصغار أموالهم في مشروع أو قطعة أرض فإن الكبار يتجهون للعواصم الغربية في أغلب الأحيان.

في كل الأحوال فإننا أمام أرقام هائلة، ولنا أن نتصور دورتها في الاقتصاد سواء في مصر أو العالم العربي أو العالم الخارجي.

** فالبداية نشاط غير مشروع يقتطع من الاستثمار القومي حصة لا بأس بها، وبينما تكون الدولة في حاجة إلى مستشفى - على سبيل المثال - فإن الأموال تذهب لشراء أسلحة صغيرة أو مخدرات أو اقتناء غانيات وأطفال يعملون في سوق الرقيق الأبيض!

والسؤال: هل ننظر للأنشطة غير المشروعة كنشاط اقتصادي في النهاية، يضيف للدخل القومي عبر رافديه الشهيرين: الأجور وعوائد التملك.. أم اننا نعتبر شره أكثر من خيره، إن كان هناك خير على الإطلاق؟

صحيح أن الأنشطة غير المشروعة تلد دخولاً وفرص عمل لكنها تبتعد عن أي جانب أخلاقي أو قانوني وترتكب كل ما يضر المجتمع، وفي جانبها المالي فإنها تقتطع من الاستثمار القومي، والاستهلاك القومي الرشيد وتذكي أنشطة «اقتصاد المغامرة» إن جاز التعبير، فالنقود الرخيصة والتي تأتي بكميات غير معتادة في الأنشطة الاقتصادية المشروعة.. تخرج من أيدي أصحابها ببساطة فيضاربون على أسعار السلع والأراضي، وربما يقيمون ليالي ألف ليلة وليلة في أفراحهم كما تروي بعض الحكايات في مصر.

وتتسم المرحلة الأولى بأنها قد تضم أكثر من نشاط واحد فيكون التحالف بين مختلف فروع الجريمة، فتاجر المخدرات قد يتحول إلى تاجر سلاح بشكل غير مشروع والاثنان يحتاجان إلى حماية فيلجآن لعصابات القتل وعصابات التزوير والتزييف. إنه تحالف الجريمة تلتقي فيه نوعيات متعددة تعمل تحت السطح وبعيدًا عن أعين المجتمع!

** بعدها، تبدأ المرحلة الثانية، مرحلة نقطة الحبر التي تختلط بالماء فلا نستطيع أن نفصلها، وهنا تتعدد الوسائل، وبينما لا يلفت المنحرف الصغير (مثل الموظف المرتشي) الأنظار حتى لو ذهب إلى البنوك يودع فيها أمواله.. فإن المنحرف الكبير يبقى هو المعنى بالوصول إلى شباك البنك ليودع فيه نقوده، ثم يسحبها وقد أصبحت أموالاً مشروعة..

ومن ثم تدخل المرحلة الثالثة وهي مرحلة الدخول إلى المشروع عبر مشروعات وأنشطة عادية، ولكن ما بين المرحلة الثانية والثالثة أي مرحلة الدخول والخروج من المصارف أو البورصات أو المؤسسات المالية يكون الحذر ويكون الفساد والإفساد فيبحث صاحب الأموال عن مصرفي يحميه أو مسئول يعطيه البراءة!

[٢]

هذه الدورة ذات الطبيعة الخاصة هي التي تجعل شعار الحملة العالمية لغسل الأموال هي «اعرف عميلك»، بمعنى أنه عندما تزيد الإيداعات في البنوك عن رقم معين (وهو عشرة آلاف دولار في الولايات المتحدة مثلاً) أو عندما يشك موظف البنك فإن السؤال يصبح ضروريًا عن مصدر الأموال، ولكن وحتى نصل إلى هذه النقطة فإن أربعين وسيلة عمل ونصيحة قانونية أصدرتها اللجنة المالية لمكافحة غسيل الأموال والتي تضم أكثر من ثلاثين دولة، وتعتبر مسئولة عن تطوير السياسات الهادفة إلى مكافحة عمليات غسل الأموال، وملاحقة العوائد المتأتية عنها للكشف عن مصادرها غير المشروعة ولمنع إعادة استخدام هذه العوائد في أنشطة غير شرعية.

التوصيات تم وضعها عام ١٩٩٠، وجرت مراجعتها وتطويرها وصدرت معدلة عام ٩٦ لتطبقها الدول الأعضاء وغير الأعضاء، ولتصبح بعد ذلك دستورًا يحدد الدول المتعاونة والدول المتهمة بعدم التعاون ومن ثم غسل الأموال في نطاقها.

وتبدأ التوصيات بأهمية التصديق على أحكام معاهدة الأمم المتحدة لعام (١٩٨٨) والخاصة بالمخدرات والمعروفة باسم معاهدة فيينا وتمتد لأهمية أن تصدر الدول المختلفة التشريعات التي تحدد نطاق الجريمة الأصلية «المخدرات مثلاً» والجريمة التابعة «غسل الأموال»، كما تحدد الهيئات المسئولة عن ذلك وتنظيم التدابير التي تشمل: حق المصادرة، حق التتبع للأموال والممتلكات، تجميد الأموال والحجز عليها في التحقيق، إبطال العقود، إنزال العقوبات، وتبادل المعلومات محليًا ودوليًا وبما يجعل كل المؤسسات المالية والتجارية مسئولة عن تطبيق القانون وليست البنوك وحدها.. ولكن، وعندما تصل التوصيات إلى دائرة البنوك فإنها ترفع الشعار السالف ذكره (اعرف عميلك) فغير مسموح بفتح حسابات بأسماء مجهولة أو وهمية أو دون التعرف على المركز القانوني للعميل أو عنوان إقامته ومجال نشاطه.

التوصيات، أو الوصايا تتعدد بعد ذلك لتشمل جوانب فنية كثيرة، مثل حفظ السجلات لمدة خمس سنوات على الأقل، ومثل تصميم نظام للإبلاغ عن المخالفين والمشتبه فيهم دون أن يصاب الموظف الذي يقوم بذلك بأذى.

وتمتد الوصايا من مجال الداخل وتطوير أجهزته وتشريعاته إلى مجال الخارج وأهمية فتح قنوات بين الدول لتبادل المعلومات.. وتبادل المتهمين أيضًا مع إبرام معاهدات دولية على غرار معاهدة المجلس الأوروبي حول غسيل الأموال، وهي واحدة من اتفاقيات ومعاهدات أبرزها:

١- اتفاقية فيينا (١٩٨٨) لمكافحة الاتجار غير المشروع في المخدرات والمؤثرات العقلية.

٢- مبادئ الرقابة الحصيفة، أو هكذا جرت تسميتها من لجنة بازل، ويرتبط أحد هذه المبادئ بعملية غسل الأموال.

٣- توجيه المجلس الأوروبي في يونيو (٩١) حول هذا الأمر.

٤- الاتفاقية العربية التي عقدت عام (١٩٩٤).

وقد تم تتويج ذلك بالنشاط الدءوب للجنة الدولية لمكافحة غسيل الأموال (F.A.T.F) والتي نشأت في قمة الدول الصناعية السبع عام (٨٩) وأصدرت توجيهاتها الأربعين السابق الإشارة إليها عام (٩٠) ثم عدلتها وراجعتها عام (٩٦) واللجنة تضم دولاً من أوروبا وأمريكا اللاتينية وآسيا ومجلس التعاون الخليجي.

[٤]

جريمة غسل الأموال إذن جريمة مستحدثة، بل هي ابنة العقود أو السنوات الأخيرة من القرن العشرين، وهي - كما قلت - جريمة تابعة، بل هي محاولة لمحاصرة مجموعة من الجرائم عن طريق حرمانها من عائدها المادي أو عن طريق الإمساك بتلابيبها من الطرف الأخير للجريمة: الربح المتحقق والأموال الظاهرة.

وعالم الجريمة - كما هو معروف - عالم متسع يشمل - على سبيل المثال لا الحصر - المخدرات، والخطف والابتزاز والاحتيال والسرقة والاختلاس والرشوة وتهريب الأسلحة والبضائع وقطع الغيار الأدمية والدعارة والاتجار في السوق السوداء والتهرب الضريبي والاقتراض من البنوك والاستيلاء على أموالها أو تهريبها للخارج والاتجار في السلع الفاسدة وتزوير الشيكات والمضاربة غير المشروعة في أسواق الأوراق المالية.

القائمة طويلة أضيف إليها في الآونة الأخيرة وبشكل ملح: قضية الإرهاب، والتي كانت وراء تجميد أرصدة ثلاثين شركة مشتبهًا في أمرها بدولة الإمارات العربية وكان ذلك في (٢٠) نوفمبر عام (٢٠٠١) أي بعد سبعين يومًا من أحداث (١١) سبتمبر وبناء على طلب من الولايات المتحدة، وإن لم يفصح قرار البنك المركزي بالإمارات عن ذلك.. وقد شمل قرار التجميد عددًا من الشركات التجارية ومحطات البنزين والمطاعم ومحلات المجوهرات، فهل كان لهذه المنشآت علاقة بتمويل الإرهاب الذي ضرب الولايات المتحدة؟ أم أن التجميد تم تطبيقًا لقانون مكافحة غسل الأموال والذي كان قد صدر قبل ذلك بأسابيع؟

على أي حال، فإن سلسلة من الإجراءات قد تمت في الدول العربية استجابة للضغوط التي مورست للدخول في حملة غسل الأموال أو درءًا للاتهام الذي جرى توجيهه بالفعل لبعض البلاد مثل مصر والتي جاء اتهامها بعدم التعاون في الحملة الدولية بسبب عدم إصدارها للقوانين والترتيبات المنظمة لذلك، وهو ما يتم تداركه حاليًا.. وهو نفس الاتهام الذي جرى توجيهه لدولة الإمارات والتي أعلنت بدورها - على لسان محافظ المصرف المركزي يوم (٨) سبتمبر (٢٠٠١) أنها قد توصلت إلى اتفاق مع مجموعة العمل المالي الدولية لتأجيل تقرير الفريق بشأن تصنيف الدول غير المتعاونة إلى فبراير عام (٢٠٠٢).

في هذه الآونة أيضًا، النصف الثاني من عام (٢٠٠١) أوقفت شرطة البحرين خمسة من رجال الأعمال الذين يحملون الجنسيتين القبرصية والأردنية بتهمة غسل أموال حجمها (٥٠) مليون دولار، وكان ذلك تطبيقًا لقانون مكافحة غسل الأموال الذي أصدرته البحرين في يناير من نفس العام.

بعدها، وفي فبراير من هذا العام (٢٠٠٢) ألغى النائب العام اللبناني قرارًا قد صدر بملاحقة

جريمة غسل الأموال إذن جريمة مستحدثة، بل هي ابنة العقود أو السنوات الأخيرة من القرن العشرين، وهي جريمة تابعة، بل هي محاولة لمحاصرة مجموعة من الجرائم عن طريق حرمانها من عائدها المادي أو عن طريق الإمساك بتلابيبها من الطرف الأخير للجريمة: الربح المتحقق والأموال الظاهرة

كتاب الزاوية

حالة حصار

محمود درويش (١٣ مارس ١٩٤١)

ولد بقرية «البيرة» فى سهل عكا. خرج مع الخارجين بعد اجتياح القرية فى ١٩٤٨، قضى مع عائلته عامًا فى لبنان، عادت بعده العائلة إلى فلسطين. صدرت مجموعته الأولى «عصافير بلا أجنحة» فى ١٩٦٠. وتتابعت مجموعاته وهو يقضى أيامه بين السجن والإقامة الجبرية. فى ١٩٧٠ خرج للدراسة فى موسكو. لكنه قرر ألا يعود. جاء إلى القاهرة، ومنها إلى بيروت حيث استقر زمنًا وأصدر مجلة «الكرمل». وخرج من بيروت بعد اجتياحها فى ١٩٨٢. وظل محمود يراوح بين المدن العربية والأوروبية، ويكتب الشعر فى كل الأحوال. رفض درويش «اتفاق أوسلو»، واستقال من «اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير»، ولم يعد إلى فلسطين إلا فى ١٩٩٦، وأقام فى رام الله.

أهم أعماله الشعرية: «عاشق من فلسطين» ١٩٦٦، «أحبك أو لا أحبك» ١٩٧١، «محاولة رقم ٧» ١٩٧٣، «تلك صورتها. وهذا انتحار العاشق» ١٩٧٥، «مديح الظل العالى» ١٩٨٣، «حصار لمدائح البحر» ١٩٨٤، «ورد أقل» ١٩٨٦، «هى أغنية. . هى أغنية» ١٩٨٧، «أرى ما أريد» ١٩٨٨، «أحد عشر كوكبًا» ١٩٩٢، «لماذا تركت الحصان وحيدًا؟» ١٩٩٥، «سرير الغريبة» ١٩٩٩ و«جدارية» ٢٠٠٠.

ومن أعماله النثرية: «يوميات الحزن العادى» ١٩٧٣، «شىء عن الوطن» ١٩٧٥، «ذاكرة للنسيان» ١٩٨٦ و«فى وصف حالتنا» ١٩٨٧.

«حالة حصار» آخر أعماله، وهى قصيدة طويلة كتبها الشاعر فى رام الله، فى يناير ٢٠٠٢.

ثلاثة لبنانيين - أحدهم يحمل الجنسية الأسترالية - بتهمة تبييض الأموال وبناء على طلب هيئة التحقيق الخاصة لدى مصرف لبنان المركزى والتى تعنى بمكافحة غسل الأموال.

وفى نفس الشهر - فبراير - كانت كل من مصر واليمن والكويت تعد مشروعات قوانين حول هذا الأمر، وقد وافق مجلس الشعب المصرى بالفعل فى شهر مايو الماضى على مشروع القانون بعد أن كان مجلس الشورى قد وافق عليه قبل ذلك بأيام.

ويبدو أن المطاردة بالاتهامات كانت وراء موجة القوانين التى تعالج هذا الأمر فى مختلف البلاد العربية، وفى حالة مصر التى جرى إدراجها ضمن الدول غير المتعاونة والتى تجرى مناقشة تشريع جديد لهذا الغرض، فإن الدوائر المسئولة ترى أن غسل الأموال لم يكن مباحًا، لكن مواجهته كانت تتم من خلال قوانين تعالج الجرائم الأصلية مثل المخدرات، كما أن مصر ملتزمة باتفاقية الأمم المتحدة (فيينا - ١٩٨٨) وقد أصدر البنك المركزى فى يوليو (٢٠٠١) تعليمات للبنوك للحيلولة دون غسل الأموال.. أى أن المواجهة قد بدأت قبل اللجوء لقانون خاص جرى الاختلاف حول أثره وهل يمكن أن يحاصر الجريمة ويطارد أموال الإرهاب (وإن لم تظهر فى مصر)، أم أنه يزيد من مشاكل البنوك ويدفع رءوس الأموال للهرب من القنوات الشرعية، ومن ثم يؤثر على حركة الاستثمار.

[٥]

فى حالة مصر تثار علامات استفهام عديدة.

* فإذا كان محافظ البنك المركزى قد أصدر منشورًا فى منتصف عام (٢٠٠١) يقضى بعدم وضع أى قيود على الإيداعات النقدية بالعملات الأجنبية فى حالة سداد مديونيات العملاء تجاه البنوك، أو حالة فتح اعتمادات مستندية أو بيع عملات أجنبية مقابل الجنيه المصرى.. إذا كانت هذه هى التوجيهات ألا تفتح الباب لعمليات الغسيل إذن؟ وهل يتم إلغاء هذا المنشور - والذى استهدف جمع عملات صعبة - بعد صدور القانون الجديد؟

* وإذا كانت البورصة قد شهدت طفرات جذبت مستثمرين أجانب، فهل كان يتم التحقق من هوية أموالهم، وأنها ليست مالاً حرامًا؟

* ونفس السؤال يتم توجيهه فى عملية الخصخصة، فالعين دائمًا على أفضل العروض، وأعلى الأسعار، وأيسر الطرق للبيع.. فهل كانت العين مفتوحة أيضًا على ذلك الجانب الذى نتحدث عنه، وهو جانب «المال الحرام»، وهل كانت الأموال «المنهوبة» من البنوك المصرية والتى تم بها شراء مشروعات عامة أو إنشاء مشروعات مع انسحاب المال المملوك للمستثمر فى الوقت المناسب.. هل كان استخدام هذه الأموال - وربما فقدها - حلالاً أم حرامًا؟

* وهل كانت ظاهرة تركز الإقراض فى عدد محدود من رجال الأعمال عنصرًا حافزًا للاستثمار.. أم مشجعًا لهروب رءوس الأموال إلى الخارج، بموجب سماح يضمنه قانون النقد الأجنبى الذى يعطى تسهيلات تزيد عما هو مطبق فى بريطانيا.

القانون فى مصر يسمح بتحويل الأموال بلا قيود، لكن البعض - وهروبًا من المسئولية أو خضوعًا لمقتضيات معينة قد يلجأ أيضًا لعمليات غسل أموال، تختفى بعدها الثروات خارج مصر.

أقول: إنه تركز الإقراض وأمامى دراسة مصرفية تشير إلى أن (٣٤٣) عميلاً قد حصلوا - فى نهاية مارس (٢٠٠٠) - على ٤٢٪ من حجم الائتمان فى مصر، وأن ثمانية عملاء قد حصلوا وحدهم على (١٢,٤) مليار جنيه، وبعض هؤلاء (خرج.. ولم يعد).

قضية غسل الأموال إذن قضية مهمة، لكن الأهم: مجموع السياسات التى تضمن السلوك المالى والاقتصادى القويم.. والسياسات هنا: تشريع، وتنظيم، ومؤسسات، ورقابة، ومحاسبة.. وقبل ذلك وبعده: شفافية تسمح بنشر الحقائق ونشر المفاسد أيضًا. إنها قضية الديموقراطية وحرية المعلومات والتى لم تعد - كما تقول مؤسسات دولية كالبنك الدولى - تنفصل عن قضية الاقتصاد.. فالديموقراطية فى النهاية هى الطريق القويم لاتخاذ القرارات فى السياسة والاقتصاد والمجتمع.



[٦]

فى البدء، كما قلت، كان الفساد. فهو الأصل ومن أرباحه يقتطع البعض ما يحتاج إلى «غسل وكى وتطهير»!

والفساد، سياسى واقتصادى، وطبقًا للأدبيات الدولية، فإن الفساد قد انتقل من السفح «صغار الموظفين» إلى القمة «كبار الموظفين والمسئولين» كما أنه انتقل من المحلية إلى العالمية، وبعد أن كان قرين التوسع فى الوظائف التى تقوم بها الحكومات، بات فى عصر اقتصاديات السوق شاملاً (العام والخاص).

(شهدت الأونة الأخيرة فى مصر تقديم عدد من كبار المسئولين السابقين للمحاكمة بتهمة الفساد، كما شهدت تقديم رئيس أحد الأحزاب للمحاكمة بتهمة الابتزاز عن طريق صحيفة الحزب، وشاعت جرائم المال العام التى يرتكبها أفراد من القطاع الخاص).

وبينما يضع البعض تعريفًا للفساد أنه الدخول إلى عالم الجريمة «بالملابس الرسمية» ويقول آخرون: «إن الفساد هو أن تبيع الحكومة بأجر معلوم».. بينما تأتى هذه التعريفات الساخرة فإن الدراسات الدولية تشير إلى أن بداية الفساد استغلال للسلطة، وهى - فى أغلب الأحيان سلطة عامة تفرض الضريبة وتحصلها وتعفى منها، وتعطى التراخيص أو تحجبها، وتشترى وتبيع من خلال مناقصات دولية ومحلية. إنها سلطة المنح والمنع يمارسها موظف كبير أو صغير، فإذا انحرف بسلطته، أو قام بتعقيد الإجراءات ليقوم بتسهيلها بمقابل مادى، فإن الفساد يكون قد بلغ ذروته.

لكن الفساد ليس مجرد نقيصة أخلاقية. إنه أيضًا عرض من أعراض سوء التنظيم والإدارة، ومن ثم فقبل أن يصيح «امسك حرامى»، فإنه لابد أن نصيح مطالبين بتظلم إدارية وسياسية أفضل. أما الدليل فهو ما جاء فى تقرير لمؤسسة الأهرام عن الاتجاهات الاقتصادية الاستراتيجية لعام (٢٠٠٠) والذى تناول أسباب قضية الفساد فى الوطن العربى، فتحدث عن لعبة إخفاء المعلومات، ومشكلة غياب المساءلة، وقضية انخفاض أجور الموظفين وتضارب الاختصاصات وعدم وضوح اللوائح.

(تعترف مصلحة الجمارك فى مصر بأن الإجراءات بالغة التعقيد حتى أنها تحتاج لإنشاء مهنة مخلص ليقود المتعاملين داخل الدوائر الجمركية!!)

ولكن لماذا احتلت قضية الفساد اهتمامًا عالميًا؟

لقد نشأت بيئة دولية جديدة فى التسعينيات. غاب التناحر الذى خلقته الحرب الباردة وبدأ التنافس السلمى على الأسواق.. وبات كسب الأسواق على أساس قاعدة «الأفضل» أمرًا مستهدفًا.. ولكن لأن البعض «يدفع» فإنه يستحوذ على الصفقات الدولية الكبرى وينفذ إلى الأسواق على حساب الآخرين.

هكذا كان الأمر - مثلاً - مع شركات ألمانية وأمريكية كبرى.. وهكذا كانت البداية فى ألمانيا التى أعلنت النيابة العامة فيها أن صناعة البناء الألمانية كانت تدفع (١٠) مليارات مارك سنويًا كرشاوى للمسئولين.. وفى ألمانيا أيضًا تم التحقيق مع شركة أوبل لتقاضى (٦٥) من المسئولين التنفيذيين بها للرشاوى!

ومن ألمانيا إلى روسيا ودول شرق أوروبا يستمر المشهد.. وقائع فساد لا تتوقف حتى باتت القضية همًا دوليًا يستحق البحث لأن الرشوة تقضى على فكرة المنافسة فى اقتصاد السوق، وهو ما حدا بالعالم لإبرام معاهدة دولية لمكافحة الرشوة.

وفى عالمنا العربى، وعلى ما أظن فإن المجهول أكثر من المعلوم، وآليات الفساد متوافرة بأكثر مما هو متاح فى الدول المتقدمة.

فى الدول العربية تختلط السياسة بالأعمال، وهذا باب واسع للفساد.. وفى بلادنا العربية تتراجع الرقابة الشعبية وتغيب الديموقراطية إلا قليلاً.. ومن ثم يصبح الكشف عن المفاسد مهمة الأجهزة الإدارية التى قد تكون ذاتها مرتعًا للفساد.. وتحت إشراف مسئولين قد يكونون فاسدين.

فى بلادنا أيضًا، تتراجع الحساسية تجاه الأخطاء ويلعب احتكار السلطة وعدم تداولها دورًا فى تكريس الفساد.

ومع ذلك فإن حديث الفساد الذى ازداد إيقاعه فى الفترة الأخيرة، وتصدى بعض البرلمانات لمظاهر الفساد، واهتمام الصحافة بالقضية، وإنشاء بعض الدول - مثل الأردن - لمديريات «مكافحة الفساد»، كل ذلك يمثل خطوة إيجابية، قد يساعدها المناخ الدولى الجديد الضاغط من أجل تحجيم الفساد، والأهم: عملية ضبط الإيقاع وتنظيم الجهود فى حملات مخلصة وحقيقية.

إننى لا أتوقع مجتمعًا متطهرًا.. طاهرًا.. نقيًا، لكن ما نرجوه قدرًا أقل من الفساد يحمى المال العام، ويحمى مصالح المجتمع، ويحمى ما تبقى لدينا من قيم روحية.

أما الحل، فهو ما تذهب له المؤسسات الدولية الآن.. ابحث عن الأنظمة، وابحث عن المؤسسة.

الديموقراطية تزيد الانتماء، وتوفر الحيوية والمشاركة والشفافية تجعل كل شىء «على المكشوف» مما يسهل الرقابة والمتابعة.. وسيادة القانون هى ما يمنع الانحراف.

* هل تنشئ منظمات لمحاربة الفساد، كما فعلت بعض الدول؟

* هل نعيد النظر فى طريقة التصرف فى المال العام فنوفر شفافية أكثر فى عملية الخصخصة، وننشر فحواها أولاً بأول؟

* هل تشدد القوانين لتجعل المال الحرام من الكبائر؟

كل ذلك مطلوب، فاسوأ ما تفعله أمة أن تكون حكوماتها للبيع والشراء.. وأن يكون الدخول إلى الفساد بالملابس الرسمية! سواء فعلها الصغار، أو فعلها الكبار من وزراء سابقين أو لاحقين.

القضية ليست غسل الأموال، رغم أهمية مطاردة هذه الأموال، لكن القضية هى ما وراء ذلك، فالأفيال تخرج من ثقب إبرة.. هكذا تعودنا فى بلادنا. ■

كتاب الزاوية

حالة حصار (٢)

هنا، عند مُنْحدرات التلال، أمامَ الغروبِ
وفُوَّهَةِ الوقت،
قُرْبَ بساتينَ مقطوعة الظلِّ،
نفعلُ ما يفْعلُ السُجَناءُ،
وما يفعلُ العاطلون عَن العَمَل:
نُربِّى الأمَلْ.

* * *

بلادٌ على أهْبَة الفجر،
صرنا أقلَّ ذكاءً،
لأنَّا نُحملقُ فى ساعة النصر:
لا لَيْلَ فى ليلنا المُتَلألىء بالمدفَعيّة
وأعداؤنا يُشْعلون لنا النورَ
فى حلكة الأقبيةْ

* * *

يقولُ على حافّة الموت:
لم يَبْقَ بى مَوْطىء للخسارة،
حُرٌّ أنا قُرْبَ حُرِّيتى
وغدى فى يدى . . .
سوف أدخلُ، عما قليلٍ، حياتى
وأُولَدُ حرّاً بلا أبوينِ،
وأختارُ لاسمى حروفاً من اللّازوَرْد

آمن بها ريجان وكارتر

المسيحية الصهيونية فى أمريكا

محمد السمّاك

تقف الدبلوماسية العربية متلعثمة أمام تفسير الموقف الأمريكي المؤيد لإسرائيل فى كل الحروب والاعتداءات التى تشنها على العالم العربى. لماذا تغامر الولايات المتحدة بتعريض مصالحها وسمعتها المعنوية للخطر؟. ولماذا تضرب عرض الحائط بالصداقة مع العالم العربى (٣٠٠ مليون) ومع العالم الإسلامى (مليار و٢٠٠ مليون)؟ بل ومع شعوب العالم فى الشرق وفى الغرب التى تؤمن بحقوق الإنسان وتدعو إلى احترام المواثيق والقوانين الدولية؟ ولماذا تدافع عن المجازر التى ترتكبها إسرائيل وتؤيدها على حساب كل هذه القيم والمبادئ الإنسانية؟.

فى الأساس هناك خطأ فى صياغة هذا السؤال الذى يتردد على كل شفة ولسان جيلاً بعد جيل. والخطأ هو فى الاعتقاد بأن الولايات المتحدة تؤيد إسرائيل. إن هذا الاعتقاد الخاطئ يؤدى إلى نتائج خاطئة. فالعلاقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل ليست مبنية على التأييد وعلى الدعم والمساندة. وليس صحيحاً أن إسرائيل تلعب دور الشرطى الأمريكى فى الشرق الأوسط. وبالتالى فإنه ليس صحيحًا أن المبالغة العربية فى التجاوب مع المصالح الإستراتيجية الأمريكية يلغى دور هذا الشرطى أو يعطله.

الحقيقة هى أن العلاقات الأمريكية - الإسرائيلية تتجاوز حدود المصالح السياسية والاقتصادية والأمنية. وبالتالى فإنه مهما قدّم العالم العربى - الإسلامى من تنازلات وتضحيات للولايات المتحدة، ومهما أبدى من استعداد للتوافق معها وحتى للسير فى ركابها، فإن ذلك لن يغيّر أبداً من الموقف الأمريكى من إسرائيل. ذلك لأن هذا الموقف يترجم فى حدّ ذاته ثوابت إيمانية تتعدى المصالح وتتجاوز الحسابات السياسية.

وحده الشرق الأوسط من دون مناطق العالم الأخرى يخضع فيه القرار السياسى الأمريكى إلى هذه الثوابت الإيمانية. وما اللوبى الصهيونى الفعال والواسع النفوذ فى الولايات المتحدة سوى أداة واحدة من أدوات عديدة أخرى توظف هذه الثوابت الإيمانية لمصلحة إسرائيل.

من أجل ذلك لا بد لفهم خلفية الالتزام الأمريكى بإسرائيل من فهم هذه الثوابت ومن معرفة موقعها فى عملية صناعة القرار الأمريكى.



فى عام ١٨٩٧ عُقد فى مدينة بال السويسرية المؤتمر الصهيونى الأول بدعوة من الصحفى اليهودى النمساوى تيودور هرتزل. ولكن قبل ذلك بثلاثة قرون انطلقت الحركة الصهيونية المسيحية من هولندا وبريطانيا، ثم استوطنت وتجذرت فى الولايات المتحدة.

فى الأساس كانت الكاثوليكية تقول بأن العصمة للكنيسة التى يمثلها البابا. بعد حركة الإصلاح الدينى التى انطلقت من ألمانيا بقيادة مارتن لوثر وكالفن وغيرهما أخذت تلك الحركة بنظرية تقول إن العصمة للكتاب المقدس.

كانت الكاثوليكية تتمسك بنظرية القديس أوغسطين بأن ما ورد فى الكتاب المقدس بشأن مملكة الله قائم فى السماء وليس على الأرض. وبالتالى فإن القدس وصهيون ليسا مكانين محددين على الأرض لسكن اليهود ولكنهما مكانان سماويان مفتوحان أمام كل المؤمنين بالله. بعد حركة الإصلاح الدينى وُضعت تفسيرات أخرى تقول بالواقع الأرضى لمملكة الله، وبوعد الله المقدس لليهود وبوكالتهم عن الله فى إقامة مملكته، وبالعودة الثانية للمسيح وشروطها وبالألفية وحتميتها.

وهكذا ومنذ منتصف عام ١٦٠٠ بدأت الحركة البروتستانتية دعوة اليهود إلى مغادرة أوروبا والعودة إلى فلسطين لإقامة مملكة الله. أوليفر كرمويل راعى الكومنولث البريطانى فى انطلاقته الأولى دعا إلى تهويد فلسطين تمهيداً لعودة المسيح.

وفى عام ١٦٥٥ نُشر كتاب للقس البروتستانتى الألمانى بول فليجن هوفر قال فيه إن اليهود سوف يتحولون إلى المسيحية بمجرد الظهور الثانى للمسيح لأنهم سوف يعتبرونه واحداً منهم. وأن من مستلزمات هذا الظهور الثانى عودة اليهود إلى البلد الذى منحهم الله إياه عبر إبراهيم وإسحق ويعقوب.

وهكذا تكونت الأدبيات الدينية التى تجعل من اليهود المؤتمنين على الخطة الإلهية التى يتحدد بمقتضاها مصير البشر جميعهم. والتى تجعل من إقامة دولتهم المدخل الوحيد الذى لا بد منه للعودة الثانية للمسيح، وهى العودة التى تحسم مصير صراع الإيمان والكفر والتى تنتهى بانتصار المسيح وسيادته على العالم مدة ألف عام ومن ثم تقوم الساعة.

من خلال هذه الأدبيات أصبح الإيمان بمساعدة اليهود فى إقامة دولة فى فلسطين نوعاً من العبادة التى تعبر عن المشاركة الإنسانية فى تحقيق الإرادة الإلهية. حتى أن اللورد أنطونى أشلى كوبر الإصلاحى الإنجليزى الشهير قال فى عام ١٨٣٩ «إن اليهود رغم أنهم غلاظ القلب وغارقون فى المعصية وينكرون اللاهوت فإنهم ضروريون بالنسبة للأمل المسيحى فى الخلاص». والرغبة فى الخلاص المسيحى كانت الحافز الدينى وراء قيام الحركة الصهيونية المسيحية بمعنى مساعدة اليهود على إقامة دولتهم فى فلسطين بالذات. وحتى لا يتعرض الضمير المسيحى البروتستانتى إلى أى عذاب، رفع اللورد كوبر الشعار الذى

تبناه من بعده كل الصهاينة المسيحيين وهو أن فلسطين أرض بلا شعب لشعب بلا أرض.

تولى الترجمة العملية الأولى لهذا الشعار اللورد بالمرستون وزير الخارجية البريطانية فى ذلك الوقت (وكان عمّ اللورد كوبر) وذلك من خلال إنشاء قنصلية بريطانية فى القدس فى عام ١٨٣٩ وتعيين وليم يونج أحد المؤمنين بالصهيونية ـ المسيحية نائباً عاماً للقنصل. وقد حددت مهمة يونج برعاية مصالح اليهود وحمايتهم وتسهيل إقامتهم وتشجيع عودتهم. فى ذلك الوقت كان عدد اليهود فى فلسطين كلها والتى كانت جزءاً من الامبراطورية العثمانية يبلغ حسب وثائق القنصلية البريطانية نفسها ٩٦٩٠ شخصاً فقط. كان للقنصلية البريطانية حق حماية اليهود الأجانب فى فلسطين بموجب اتفاق إذعان فرض على السلطنة العثمانية. إلا أن الحماية البريطانية شملت اليهود العثمانيين أيضًا. أدى هذا الأمر لأول مرة فى التاريخ الحديث إلى اعتبار كل اليهود أمة واحدة مهما اختلفت اثنياتهم وجنسياتهم.

وفى عام ١٨٤١ كتب هنرى تشرشل (ضابط الأركان البريطانية فى الشرق الأوسط) إلى موسى مونتجيور، رئيس مجلس الممثلين اليهود فى لندن: «لا أستطيع أن أخفى عليك رغبتى الجامحة فى أن أرى شعبك يحقق مرة أخرى وجوده كشعب. إننى أعتقد أنه يمكن تحقيق الهدف بدقة، ولكن لا بد من توافر أمرين لا غنى عنهما، أولاً: أن على اليهود أنفسهم أن يتحملوا الأمر على الصعيد العالمى وبالإجماع، ثانياً: أن على القوى الأوروبية أن تساعدهم». ويعكس هذا الموقف مدى تقدم الفكر الصهيونى للمسيحية الإنجيلية على اليهودية. حتى إن العديد من قادة اليهود فى ذلك الوقت كانوا ينظرون إلى عمليات تشجيعهم على الهجرة إلى فلسطين، مقصودة فى حدّ ذاتها لإخراجهم من أوروبا تحت غطاء دينى.

فى عام ١٨٤٥ اقترح إدوارد بتفورد من مكتب المستعمرات فى لندن «إقامة دولة يهودية فى فلسطين تكون تحت حماية بريطانيا العظمى، على أن ترفع الوصاية عنها بمجرد أن يصبح اليهود قادرين على الاعتناء بأنفسهم». وقال: «إن دولة يهودية ستضعنا فى مركز القيادة فى الشرق بحيث نتمكن من مراقبة عملية التوسع والسيطرة على أعدائنا والتصدى لهم عند الحاجة».

وهكذا بدأ استخدام مخطط توطين اليهود فى فلسطين ينتقل إلى الميدان السياسى من غير أن يخرج من تحت المظلة الدينية. وهذا التلازم لا يزال مستمراً حتى اليوم.

فى السادس من فبراير ١٩٨٥، ألقى بنجامين نتنياهو، وكان سفير إسرائيل لدى الأمم المتحدة، خطاباً فى الجمعية العامة للمنظمة الدولية قال فيه: «ان كتابات المسيحيين الصهيونيين من الإنجليز والأمريكان، أثرت بصورة مباشرة على تفكير قادة تاريخيين مثل لويد جورج وآرثر بلفور وودرو ويلسون، فى مطلع هذا القرن. إن حلم اللقاء العظيم أضاء شعلة خيال هؤلاء الرجال، الذين لعبوا دورًا رئيسًا فى إرساء القواعد السياسية والدولية لإحياء الدولة اليهودية».

كان نتنياهو واضحاً فى إقرار الحقيقة التاريخية عندما قال: «.. لقد كان هناك شوق قديم فى تقاليدنا اليهودية للعودة إلى أرض إسرائيل. وهذا الحلم الذى يراودنا منذ ٢٠٠٠ سنة، تفجّر من خلال المسيحيين الصهيونيين».

إذا كانت الحركة الصهيونية المسيحية انطلقت من الأدبيات الدينية للكنيسة البروتستانتية فى بريطانيا وهولندا وألمانيا، فإن الولايات المتحدة حملت شعلة هذه الحركة وسهرت ـ ولم تزل ـ على قيادتها حتى أن ثمة اعتقاداً دينياً يجرى تعميمه وترسيخه فى الضمير الدينى الأمريكى مفاده أن الله يعاقب من يسىء إلى إسرائيل ويُحسن إلى من يساعدها. وأنه ببركة دعم الولايات المتحدة لإسرائيل تتنزل بركات الله على الشعب الأمريكى رزقاً وخيراً وأمناً وسلاماً.

فى عام ١٦٤٢ منحت جامعة هارفارد الأمريكية أول شهادة دكتوراه فى تاريخها. كان عنوان الأطروحة «العبرية هى اللغة الأم». أول كتاب طبع فى الولايات المتحدة كان «سفر المزامير» (IPsalm) أول مجلة صدرت فى الولايات المتحدة كان اسمها «اليهودى» «The JeW».

فى مطالع الهجرة من أوروبا إلى أمريكا، اعتبر الإنجيليون المهاجرون العالم الجديد بمثابة كنعان الجديدة New Canan، واعتبروا ملك بريطانيا جيمس الأول الذى اضطهدهم بمثابة فرعون الجديد، واعتبروا إنجلترا التى هربوا منها بمثابة مصر، واعتبروا الهنود الحمر فى أمريكا بمثابة الأسباط العشرة المفقودة من بنى إسرائيل، حتى انه عندما تاهت إحدى الجماعات البروتستانتية من طائفة المورمون فى الصحراء الأمريكية قبل أن تصل إلى ولاية يوتاه وتستقر فيها، شبهت عملية التيه بتلك التى تعرّض لها بنو إسرائيل فى صحراء سيناء، ولذلك أطلقت هذه الجماعة على نهر كولورادو الإسم التوراتى القديم نهر باشان.

وقد بلغ من تأثير الصهيونية المسيحية على الرواد الأوائل فى أمريكا حداً اقترح معه الرئيس جيفرسون اتخاذ رمز لأمريكا يمثل أبناء إسرائيل تظلّلهم غيمة فى النهار، وعمود من نور فى الليل بدلاً من شعار النسر، وذلك توافقاً مع ما يتضمّنه سفر الخروج.

تبنى مؤسس الكنيسة المورمونية، القس جوزف سميث، نظرية البعث اليهودى فى فلسطين. وارتفعت منذ العام ١٨١٤ م الدعوات الأمريكية الإنجيلية لتوطين اليهود فى فلسطين. أحد رواد الحركة الصهيونية المسيحية الأمريكية القس وردر جريسون (Warder Gresson) هاجر من أمريكا إلى فلسطين واعتنق اليهودية، وعمل مستشاراً للحكومة الأمريكية فى القدس، ثم قنصلاً عاماً لها فى العام ١٨٥٢ م. وكان نشاطه يتمركز حول موضوع واحد وهو إقامة وطن يهودى فى فلسطين. وتحقيقاً لذلك، أنشا مستوطنة زراعية يهودية، ووطّن إنجيليين أمريكيين ويهوداً فيها، بدعم من مؤسسة يهودية ـ مسيحية ـ إنجليزية.

توالت بعد ذلك حركات الاستيطان بتمويل من رجال أعمال أمريكيين، فقامت مستوطنة «جبل الأمل» إلى الغرب من يافا فى العام ١٨٥٠ م، وكان إقبال الصهاينة المسيحيين على الاستيطان أشد من إقبال الصهاينة اليهود، وذلك «انتظاراً للعودة الثانية للمسيح».

ومنذ ذلك الوقت بدأت الأرض الدينية الأمريكية تفرخ منظمات وهيئات أهلية غايتها توفير الدعم المعنوى والمادى من أجل تحقيق النبوءات التوراتية بإعادة اليهود إلى فلسطين. من أوائل هذه المنظمات «الفيدرالية الأمريكية المؤيدة لفلسطين» Pro-Palestine Federation of America التى أسسها فى العام ١٩٣٠م. القس تشارلز راسل Ch. E. Rusell، ومنظمة «اللجنة الفلسطينية الأمريكية» American Palestine Committee التى أسسها فى العام ١٩٣٢ م السيناتور روبرت واجنر R. Wagner، وضمّت ٦٨ عضواً من مجلس الشيوخ و٢٠٠ عضو من مجلس النواب وعدداً من رجال الدين الإنجيليين ورجال أعمال وأساتذة جامعات، وصحافيين وأدباء مشهورين. كما تأسست فى العام ١٩٤٢ م. منظمة «المجلس المسيحى لفلسطين» Christian Council Of Palestine على قاعدة وعد بلفور وتحقيقاً له، من القساوسة البروتستانت ومن شخصيات مالية وسياسية وحكومية بارزة. رفعت هذه المنظمات شعار الأرض الموعودة، وشعار الشعب المختار، وربطت بين الشعارين، وعلّمت الناس أن أفضل عمل يقوم به المسيحى تقرّباً إلى الله، هو المساهمة المادية والمعنوية فى تحقيق إرادة الله بإعادة اليهود إلى فلسطين تمهيداً لعودة المسيح.

بلغ من تأثير الصهيونية المسيحية على الرواد الأوائل فى أمريكا حداً اقترح معه الرئيس جيفرسون اتخاذ رمز لأمريكا يمثل أبناء إسرائيل تظللهم غيمة فى النهار، وعمود من نور فى الليل بدلاً من شعار النسر، وذلك توافقاً مع ما يتضمنته سفر الخروج

تبنى الكونجرس الأمريكى قرار المؤتمر الصهيونى الذى عُقد فى نيويورك فى العام ١٩٤٢ م، واتخذ فى العام ١٩٤٤ م، قراراً «تتعهد الولايات المتحدة بموجبه ببذل قصارى جهدها من أجل فتح أبواب فلسطين أمام اليهود للدخول إليها بحرّية ولإتاحة الفرصة أمامهم لاستعمارها حتى يتمكّن الشعب اليهودى من إعادة تكوين فلسطين يهودية ديمقراطية حرة».

لقد استعمل الكونجرس الأمريكى عبارة إعادة تكوين فلسطين بدلاً من العبارات التى استعملها المؤتمر الصهيونى فى بيان مؤتمرنيويورك وهى تكوين دولة يهودية فى فلسطين، فكانت الصهيونية المسيحية أشدّ مغالاة وأكثر تطرفاً من الصهيونية اليهودية!!.

يوجد فى الولايات المتحدة (٧٦٧٥٤٠٠٩) بروتستانتيين ينتمون إلى ٢٠٠ طائفة. أكثر هذه الطوائف مغالاة فى تبنّى العقيدة الصهيونية هى الطائفة التدبيرية Indispensationalism التى يبلغ عدد أتباعها ٤٠ مليوناً تقريباً. وتعرف المجموعة باسم الأنجلوساكسون البروتستانت البيض White Anglo-Saxon Protestant (W.A.S.P.) وهى تضمّ الشخصيات الأبرز فى المجتمع الأمريكى سياسياً واقتصادياً وتربوياً وإعلامياً وعسكرياً.

أثناء زيارة إلى واشنطن قام بها رئيس الحكومة الإسرائيلية الأسبق نتنياهو، حرص على الاجتماع بشخصية معروفة من هذه الشخصيات هو القس جيرى فولويل.

فى هذا الاجتماع سأل فولويل: إلى أى مدى تستطيع إسرائيل أن تتخلى عن المزيد من الأرض للفلسطينيين من دون أن تعرّض أمنها للخطر؟..

ردّ نتنياهو: الواقع أننا لا نستطيع أن نتخلى إلا عن القليل جداً.

وكان تعليق فولويل: ولا إنش.

ومن هذه الشخصيات أيضاً بات روبرتسون، صاحب برنامج «نادى السبعماية» التليفزيونى الذى يستقطب وحده ١٩ بالمائة من الأمريكيين (١٦ مليون عائلة). وجيمى

سواغرت، صاحب ثاني أكبر محطة تليفزيون إنجيلية فى الولايات المتحدة ويستقطب عشرة بالمائة من المشاهدين (أكثر من ٩ ملايين عائلة).

ومنها كذلك جيم بيكر وأورال روبرتس وكينين كوبلاند وريتشارد دى هان وريكس همبرد، ويملك كل منهم محطة تليفزيونية إنجيلية تبشيرية.

تؤمن هذه المجموعة من الشخصيات الدينية بأن إرادة الله متمثلة بقيام إسرائيل. وأن الله يساعد من يساعد إسرائيل ويعادى من يعاديها. وأن قيام إسرائيل يؤكد توافر الشرط الذى طال انتظاره من أجل العودة الثانية للمسيح. وبالتالى فإن الدفاع عن إسرائيل هو عمل دينى يتعلق بثوابت إيمانية وليس مجرد موقف سياسى يتأثر بالمتغيرات من الأحداث.

إن فى الولايات المتحدة، الدولة العلمانية (والتى ينص دستورها على فصل الدين عن الدولة) ١٤٠٠ محطة دينية يعمل فيها ٨٠ ألف قسيس إنجيلى أكثريتهم الساحقة من أتباع هذه المدرسة التى تعتبر إسرائيل تجلياً إلهياً وتجسيداً لنعمه من أجل خلاص بنى البشر!!..

لذلك ما أن تواجه إسرائيل أزمة أو مأزقاً، حتى يتحرك هذا الجيش الإعلامى - الدينى عبر شبكة الكنائس ومحطات الإذاعة والتليفزيون وسلسلة المطبوعات اليومية والأسبوعية التى تتولى إصدارها.

ينطلق التحرك من مقولة ثابتة من مقولات هذه الحركات الدينية، وهى أن القوانين الدولية الوضعية لا تطبق على إسرائيل لأن إسرائيل تختلف عن كل الكيانات السياسية الأخرى فى العالم من حيث إن وجودها هو تجسيد لإرادة إلهية وليس استجابة لحاجة إنسانية. وتالياً فإن ما يجب أن يطبق على إسرائيل هو الإرادة الإلهية التى وردت فى الكتب المقدسة وأبرزها الوعد الإلهى لشعب الله المختار.

من هنا فإن حكومات إسرائيل - أياً كان رئيسها - فى حلٍّ ليس فقط من قرارات الأمم المتحدة (٤٢٥ و٣٣٨ و ٢٤٢ و١٩٤ (والآن) ١٤٠٢ و ١٤٠٣)، ولكنها فى حلٍّ حتى من أى اتفاق عقدته حكومة إسرائيلية سابقة إذا تبين أن هذا الاتفاق يتناقض مع مصالح الشعب المختار أو مع الوعد الإلهى، مثل اتفاق أوسلو!!.. وهذا ما يفعله الجنرال شارون الآن.

فى كتاب «النبوءة والسياسة» Prophecy and Politics، للكاتبة الأمريكية جريس هالسل - كانت تكتب خطابات الرئيس الأسبق ليندون جونسون - تقول الكاتبة من خلال تجربتها فى العمل فى البيت الأبيض: «إنه فى كل مرة يجتمع مجلس الأمن القومى لاتخاذ قرار يتعلق بالشرق الأوسط، يُدعى ممثل من هذه الكنيسة الإنجيلية تحديداً حتى يأتى القرار متوافقاً مع الإيمان بالنبوءات الدينية الواردة فى التوراة والتى وضعت هذه الكنيسة تفاسير وترجمات حديثة لها. وفى كل مرة يتم انتخاب رئيس أمريكى جديد يتولى أحد رموز هذه الكنيسة ترأس قداس حلف اليمين الدستورية. ولقد حلف الرئيس كلينتون اليمين الدستورية أمام أحد قادة هذه الحركة القس بيلى جراهام».

تؤمن هذه الحركة بالعودة الثانية للمسيح. وبأن لهذه العودة شروطًا منها قيام دولة صهيون وتجمع يهود العالم فيها، ولذلك تعتبر مساعدة إسرائيل واجباً دينياً وليس مجرد عمل سياسى مرتبط بحسابات المصالح. وتؤمن هذه الحركة الأصولية أيضا بأنه بموجب تدبير إلهى أيضا تتعرض الدولة اليهودية إلى هجوم من غير المؤمنين، وخاصة من المسلمين والملحدين. مما يتسبب فى وقوع مجزرة كبيرة تدعى «هرمجيدون» نسبة إلى موقع المجزرة فى سهل مجيدو الذى يقع بين الجليل والضفة الغربية. فى هذه المجزرة تستعمل أسلحة مدمرة كيماوية ونووية. ويقتل فيها مئات الآلاف من المهاجمين، ومن اليهود معًا.

«سيناريو» هرمجيدون كما يرسمه هال



العالم يتحرك بسرعة كبيرة نحو هرمجيدون. القس بيلى جراهام

ليندسى أحد أبرز قادة الحركة فى كتابه «نهاية الكرة الأرضية العظيمة» يفترض:

١- قيام إسرائيل.

٢- عودة اليهود من الشتات إلى أرض الميعاد.

٣- إعادة بناء هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى.

٤- تعرّض إسرائيل إلى هجوم كبير من الكفار (المسلمين والمسيحيين غير المؤمنين بالعودة الثانية للمسيح).

٥- قيام ديكتاتور يكون أسوأ من هتلر أو ستالين أو ماوتسى تونج يتزعم القوات المهاجمة.

٦- خضوع مناطق واسعة من العالم لسيطرة هذا الديكتاتور الذى يعادى اليهود.

٧- تحول ١٤٤ ألف يهودى إلى المسيحية الإنجيلية بحيث يصبح كل واحد منهم مثل بيلى جراهام (القس الإنجيلى الأمريكى المعروف) ينتشرون فى العالم لتحويل بقية الشعوب إلى الديانة الإنجيلية.

٨ - وقوع معركة هرمجيدون النووية التى تتسبب فى كارثة بيئية ضخمة.

٩- ارتفاع المؤمنين بالولادة الثانية للمسيح وحدهم وبالجسد وبمعجزة إلهية فوق أرض المعركة، ونجاتهم من الكارثة، بينما تذوب أجسام بقية البشر فى الحديد المنصهر.

١٠- حدوث كل ذلك فى غفلة عين.

١١- نزول المسيح بعد سبعة أيام إلى الأرض وحوله جميع المؤمنين به.

١٢- يحكم المسيح العالم لمدة ألف عام بعدل وسلام حتى تقوم الساعة (الألفية).

من أتباع هذه الكنيسة شخصيات أمريكية سياسية ودبلوماسية وإعلامية وعسكرية تتبوأ مراكز قيادية بارزة. كان منهم مثلاً الرئيس السابق رونالد ريجان.

لقد أصبح تقليديا دعوة شخصية دينية أو أكثر من هذه الكنيسة إلى البيت الابيض فى كل مرة يجد الرئيس الأمريكى نفسَه مدعواً لاتخاذ قرار جوهرى يتعلق بالشرق الأوسط. أهمية مشاركة الشخصية الدينية هى العمل على توجيه القرار السياسى الأمريكى بحيث يتوافق مع إرادة الله. وفى مفهوم هذه الحركة الكنسية الأصولية، فإن إرادة الله تحددها التفسيرات الموضوعة لمجموعة من النبوءات الدينية التى ورد ذكرها فى بعض أسفار التوراة والعهد القديم، مثل سفر الرؤيا، وسفر حزقيال، وسفر يوحنا، وغيرها. من هذه النبوءات معركة هرمجيدون التى يتبعها مباشرة الظهور الثانى للمسيح.

فى مارس من عام ١٩٨١ نقلت مجلة نيويورك تايمز عن أحد كبار شخصيات هذه الحركة وهو القس جيرى فولويل أن الرئيس ريجان قال له «جيرى.. إننى أحيانا أومن بأننا نتوجه بسرعة كبيرة نحو هرمجيدون».

وفى أكتوبر من عام ١٩٨٣ قال الرئيس ريجان أمام لجنة العلاقات العامة الأمريكية الإسرائيلية: «إننى أتساءل إذا كنا نحن الجيل الذى سيشهد معركة هرمجيدون. إن النبوءات فى العهد القديم تصف تمامًا الوقت الذى نمرّ فيه..».

العلاقة بين العمل السياسى - العسكرى والإيمان الدينى بهذه النبوءات، هى علاقة مباشرة. ذلك أن هذه الحركة الكنسية تعلم أتباعها أن من واجب الانسان المؤمن أن يوظف كل إمكاناته وقدراته لتحقيق إرادة الله. وأن الله يختار من الناس من يؤهلهم ويمكنهم من القيام بهذا الدور المساعد لتحقيق الإرادة الإلهية. ولذلك كان الرئيس الأسبق ريجان يقول إنه يتمنى أن يمنّ الله عليه بشرف كبس الزرّ النووى لتحقيق إرادة الله فى وقوع هرمجيدون ومن ثم بظهور المسيح.

هذا يعنى «أن الإيمان بهرمجيدون يتطلب إنتاج الأسلحة المدمرة. وقد أنتجت. وهو يتطلب خلق الظروف المواتية لاستعمال هذه الأسلحة فى المكان الذى تحدده النبوءات، للظهور الثانى للمسيح، وهذا المكان هو الشرق الأوسط.

وردت كلمة هرمجيدون مرة واحدة فى الإنجيل وتحديدا فى المقطع السادس عشر من الفصل السادس عشر من سفر الرؤيا: «وجمعهم كلهم فى مكان يدعى بالعبرية هرمجيدون».

وفى الفصل ٣٨ و ٣٩ من سفر حزقيال وصف لما يحدث: «ستنهمر الأمطار وتذوب الصخور وتتساقط النيران وتهتز الأرض وتتساقط الجبال والجدران على الأرض فى وجه كل أنواع الإرهاب».

ويفسر القس هول ليندسى الحلم الذى ورد فى سفر يوحنا بان - يوحنا - رأى فى الحلم جرادا له أذيال العقارب: «بأنها طائرات هليكوبتر كوبرا التى تطلق من أذيالها غاز الأعصاب»!!. وهى الطائرات التى استخدمها الجيش الإسرائيلى فى قصف مدن ومخيمات الضفة الغربية، وخاصة مخيم جنين.

فى كتابه الشهير «نهاية الكرة الأرضية العظيمة» يقول القس ليندسى: «بعد أن أصبح اليهود أمة بدأ العد العكسى للمؤشرات التى تتعلق بالنبوءات الدينية.. قيام إسرائيل كان فى حد ذاته أول مؤشر ثم احتلال القدس، ومن المؤشرات المنتظرة بناء هيكل سليمان».

واستناداً إلى هذه النبوءات فإن العالم كله سوف يتمركز حول الشرق الأوسط، وخاصة حول إسرائيل فى الأيام الأخيرة. إن كل الأمم سوف تضطرب وسوف تتورط بما يجرى هناك. وباستطاعتنا الآن أن نرى كيف أن هذا الأمر يتطور ويأخذ مكانه الصحيح فى مجرى النبوءات تمامًا.. كما تأخذ الأحداث مواقعها فى الصحف اليومية».

ومنذ العام ١٩٧٠ والقس الإنجيلى المعروف بيلى جراهام يردد فى مواعظه التى تنقلها شبكات التليفزيون الأمريكية: «إن العالم يتحرك بسرعة كبيرة نحو هرمجيدون، وأن الجيل الحالى من الشباب قد يكون آخر جيل فى التاريخ». هذا القس هو الذى أدى صلاة الاحتفال بأداء القَسَم للرئيس بيل كلينتون لدى تسلمه سلطاته رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية فى عام ١٩٩٢. ثم إن

الرئيس جورج بوش ـ الابن ـ أقسم اليمين أمام القس جراهام الابن، الذى أعلن بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ «أن الإسلام ليس فقط مصدر الإرهاب، بل إنه الشيطان نفسه».

وعندما زار الرئيس الأمريكى الأسبق جيمى كارتر إسرائيل فى مارس ١٩٧٩ ألقى خطابا أمام الكنيست) وكان يعمل على إقرار معاهدة الصلح بين مصر وإسرائيل قال فيه: «جسّد من سبق من الرؤساء الأمريكيين الإيمانَ بأن جعلوا علاقات الولايات المتحدة مع إسرائيل هى أكثر من علاقات خاصة، إنها علاقات فريدة لأنها متاصلة فى ضمير الشعب الأمريكى نفسه وفى أخلاقه وفى دينه وفى معتقداته. لقد أقام كلاً من إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية، مهاجرون رواد، ثم إننا نتقاسم معكم تراث التوراة».

طبعا كان يمكن أن يبدو سيناريو هرمجيدون وأدبيات الحركة الأصولية الإنجيلية الأمريكية مجرد خزعبلات أو هلوسة دينية، ولكن عندما يكون من بين المؤمنين بها إيمانا شديدًا وصادقًا رؤساء (ريجان ـ كارتر)، ووزراء (وزير الدفاع السابق جسبار وينبرجر) وغيرهم من كبار الشخصيات الأمريكية السياسية والعسكرية التى تتبوأ مراكز قيادية حتى الوقت الحاضر..

وعندما توزع نسخ من كتاب هول ليندسى على كل أعضاء البيت الأبيض وموظفى البنتاجون وقادة القوات الأمريكية، وعلى جميع أعضاء الكونجرس (الشيوخ والنواب)، وعلى حكام الولايات وكل الشخصيات النافذة، عندما يحدث ذلك بهذه العلانية، فإن السياسة الخارجية للولايات المتحدة فى الشرق الأوسط تصبح مجرد ترجمة لهذا المفهوم الإنجيلى المتهوِّد ـ للمسيحية».

ويعكس الموقف الذى اتخذه يوم الثلاثاء ٢٤ أكتوبر ١٩٩٥ الكونجرس الأمريكى بمجلسيْه الشيوخ والنواب، باعتبار القدس عاصمة لإسرائيل وبنقل مقرّ السفارة الأمريكية إليها من تل أبيب، مدى قدرة الحركة الأصولية على التأثير فى صناعة القرار الأمريكى.

من خلال ذلك يتبين بوضوح أن الأصولية الإنجيلية لا تقتصر على مجرد تقديم تفسيرات معينة لمفاهيم دينية محددة، ولكنها تحاول أن تصنع المستقبل وفقاً لهذه التفسيرات وعلى قاعدتها. ومن خلال الموقع الممتاز الذى تتبوأه فى مصنع القرار الأمريكى (والذى يتحكم فى مصائر العالم ومقدراته) لم يعد يجوز، ولم يكن جائزاً فى الأساس، تجاهلُ دورها وتأثيرها ونفوذها. فقرار الكونجرس بشأن القدس لم تمله مصالح أمريكية. وهو لا يقع فى إطار حركة السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط، ولكن أملته معتقدات دينية أصولية. وبات على السياسة الأمريكية أن تتكيف معه وأن تعيد النظر فى سلوكها وفقاً لمقتضيات الالتزام به كمعطى إلهى مقدّس. إن هذا الموقف المبدئى يؤكد التواصل بين التفسير الصهيونى للعهد القديم الذى تعتمده هذه الحركات الدينية الأمريكية والقرار السياسى الأمريكى فى الشرق الأوسط.

فى ضوء هذه المرتكزات الدينية للسياسة الأمريكية فى العالم العربى، فإن من السذاجة اتهام الإدارة الأمريكية، سواء كانت إدارة جمهورية أو ديموقراطية، بممارسة ازدواجية المعايير سواء بالنسبة للتعامل مع القرارات الدولية أو بالنسبة لإدانة انتهاكات حقوق الإنسان أو الاعتراض على تجاوزات القانون الدولى. ذلك أن إسرائيل هى فى الأساس خارج هذه المعايير وفوق الأنظمة والقوانين لأنها، فى الإيمان الأمريكى، تجسيد لإرادة إلهية مقدسة. فأى مسّ بها هو انتهاك للمحرمات، وتحدٍّ للمشيئة الربانية، كما تقول هذه الكنيسة فى تعاليمها.

ولترجمة هذا الإيمان عملياً عُقد فى عام ١٩٨٥ (أى بعد مرور٨٨ عاماً على المؤتمر الصهيونى الأول الذى عقد فى عام ١٨٩٧) فى المدينة السويسرية نفسها ـ بال ـ وفى الفندق نفسه، وفى القاعة نفسها من الفندق، وفى الشهر نفسه أغسطس، مؤتمر استثنائى للكنائس الإنجيلية التى تعتبر قيام صهيون أمراً لا بد منه تمهيداً للعودة الثانية للمسيح.

وجه الدعوة إلى «المؤتمر الصهيونى المسيحى» الدكتور دوجلاس يونج مدير المعهد الأمريكى لدراسات الأرض المقدسة. وترأسه الدكتور فان ديرهوفين رئيس الكنيسة الإنجيلية الهولندية. وحضر المؤتمر التاسيسى ٥٨٩ شخصية دينية من الولايات المتحدة وأوروبا، ومن كنائس مماثلة فى دول أفريقية وآسيوية أخرى بلغ عددها ٢٧ دولة.

ومنذ ذلك الوقت يُعقد مؤتمران فى شهر أغسطس، الأول للحركة الصهيونية ـ اليهودية استكمالاً لمسيرة المؤتمر الأول الذى نظمه ثيودور هرتزل فى عام ١٨٩٧، والثانى للحركة الصهيونية المسيحية الذى أعدّه دوجلاس يونج.

انبثقت عن مؤتمر ١٩٨٥ منظمة جديدة تحمل اسم «السفارة المسيحية الدولية». ومهمتها توظيف النفوذ المعنوى والمادى للكنيسة (بعض الكنائس الإنجيلية الأمريكية) من أجل تحقيق النبوءات التوراتية المتعلقة يظروف العودة الثانية للمسيح وأهمها إقامة دولة صهيونية وتجميع اليهود فيها حتى يظهر المسيح فيهم للمرة الثانية وفقاً لما تقوله هذه النبوءات.

وقد عملت السفارة المسيحية الدولية على تحقيق معظم الأهداف التى أعلنتها فى عام ١٩٨٥، ومن أبرزها نقل يهود الاتحاد السوفيتى السابق إلى إسرائيل، وإنهاء المقاطعة ضد المصالح الإسرائيلية، وحمل دولة الفاتيكان وأسبانيا الكاثوليكيتين على الاعتراف بإسرائيل وتبادل التمثيل الدبلوماسى معها، والضغط على دول أوروبة الشرقية والوسطى لتطبيع علاقاتها مع إسرائيل، ودعوة العالم إلى الاعتراف بالقدس عاصمة أبدية موحدة لإسرائيل. وقد لعبت هذه المنظمة الدور الأبرز فى استصدار القرار الأول عن مجلس الكونجرس الأمريكى (الشيوخ والنواب) فى أبريل ١٩٩٠، الذى نصّ على دعوة الإدارة الأمريكية إلى الاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل، ثم باستصدار القرار الثانى فى عام ١٩٩٥ بنقل مقرّ السفارة الأمريكية من تل أبيب إلى القدس.

صحيح أن الكنيسة الكاثوليكية، والكنيسة الأرثوذكسية، وكذلك العديد من الكنائس الإنجيلية الأمريكية تعارض عمليات التهويد العقدى والسياسى وتعتبرها تشويها للمسيحية الحقيقية وتضليلاً للمسيحيين المؤمنين، إلا أن الصحيح فى الوقت نفسه أن الدور السياسى الذى تقوم به منظمة السفارة المسيحية الدولية تحت العباءة المسيحية، يكاد يصبح الدور الأهم فى التأثير على صياغة القرار الأمريكى من قضايا الشرق الأوسط والصراع العربى ـ الإسرائيلى.

تبنّت هذه المنظمة اسم «السفارة المسيحية الدولية»، توصيفاً للمهمة التى تقوم بها. وهى أن تكون بمثابة سفارة فى مختلف دول العالم للدفاع عن إسرائيل ومصالحها. ولذلك أقامت فروعاً لها فى معظم الولايات الأمريكية وأطلقت على رئيس الفرع لقب قنصل. ومهمة الفرع جمع التبرّعات لبناء المستوطنات اليهودية وشراء الأراضى من أصحابها العرب، وبيع سندات الدعم لإسرائيل، والاتصال المباشر مع ممثلى الولايات من مستوى البلدية المحلية حتى الكونجرس لحثْهم على الدفاع عن مصالح إسرائيل.

وللسفارة المسيحية الدولية فروع فى عدد كبير من دول العالم تقوم بالمهمة نفسها. ويشكل المؤتمر السنوى الذى تعقده فى شهر أغسطس من كل عام مناسبة لتقييم المنجزات التى حققتها، ولوضع برنامج عمل للعام الجديد.

وتتولى هذه المنظمة بشكل أساسى تنظيم عمل ٢٥٠ هيئة وجمعية أمريكية (غير يهودية) تعمل فى الولايات المتحدة على قاعدة تفسيرات صهيونية لما يُعتقد أنه نبوءات توراتية تتعلق بعودة اليهود إلى فلسطين وإقامة دولة صهيون التى يظهر فيها المسيح ثانية مخلصاً الإنسانية من الشرور التى تغرق فيها.

لقد تجاهل العالمان العربى والإسلامى هذه الحقائق منذ أوائل القرن الماضى، ودفعنا جميعاً وما زلنا ندفع ثمن تجاهلها غالياً جداً. آن الأوان لأن نضع حداً لهذا التجاهل ولمواجهة الحقائق بشجاعة وتصميم وبنفس طويل. إن المفتاح لسياسة أمريكية متوازنة فى الشرق الأوسط ليس سياسياً، وهو ليس فى المصالح الأمريكية فى المنطقة. المفتاح هو فى العقيدة الدينية التى تتحكم فى صياغة القرارات الأمريكية تجاه هذه المنطقة. هل هذا يعنى أن على العالم العربى ـ الإسلامى، الاستسلام للأمر الواقع؟.. أبداً.

إن المجتمع الأمريكى مجتمع متدين ومنفتح. وفى الولايات المتحدة كنائس إنجيلية مناوئة لهذه العقيدة الصهيونية. وفيها كنائس كاثوليكية وأرثوذكسية محلية قوية وواسعة الانتشار تعتبر هذه العقيدة تشويهاً للمسيحية وتهديداً لها. ومن خلال التعاون معها يمكن على الأقل التخفيف من غلواء هذا التطرّف اليمينى الدينى الذى يستقوى بآلة إعلامية تليفزيونية ضخمة تروّج لأفكاره ولمبادئه وتمكّنه من استخدام حضوره قوة انتخابية وقوة ضغط معنوية مؤثرة.

إننا نتمنى لو أن منظمة المؤتمر الإسلامى وجامعة الدول العربية، وغيرهما من المنظمات القومية والإسلامية، تعمل على وضع خطة عمل بالتعاون مع مجلس كنائس الشرق الأوسط ومع مجلس الكنائس العالمى، ومع مجلس الكنائس الأمريكى، من أجل الترويج لأدبيات دينية فى المجتمع الأمريكى تفك الارتباط بين إسرائيل والخلاص المسيحى.

لقد كان التجاهل أمراً سيئاً. ولكن الانكفائية سلبية أسوأ منه. ■



إسرائيل فى الإيمان الأمريكى تجسيد لإرادة إلهية مقدسة والمساس بها انتهاك للمحرمات

الحـــروب الصـــليبية

منظـــور إســـلامى

عـــبـد العظيم أنيـــس

خلال القرون الأولى من الحكم الإسلامى كان الحجـاج المسيحيون إلى بيت المقدس قادرين عـلى زيارة الأماكن المقدسة. وكانوا يصلون إلى تلك الأمـاكن عـن طريـق البلقـان والأناضول وسوريا، أو عـن الطريق البحرى إلى مـصـر أو فلسطين. وعـن هذا الطريق وصلت إلى أوروبا أنباء الحياة المتقدمة والإنجازات العظيمة للعـالم الإسلامى

هذا الكتاب أسطورى بكل المقاييس من ناحية اعتماده على المئات من المراجع العربية والإسلامية عند إعداده، ومن ناحية دسامة البحث وعمق التحليل وموضوعيته، وهو يقع فى أكثر من ستمائة صفحة من القطع العريض، فـضـلاً عن أنه مـحلى بـعـشـرات الصـور الفوتوغرافية لمساجد وقلاع وأسلحة حربية وزخارف وآثار فنية. ولذا فليس غريبًا أن يشار إليـه فى المراكز العلميـة الأوروبية بأنه عـمل مذهل فى اتساعه ودقته وموضوعيته.

مؤلفة هذا الكتـاب هى الأستاذة كـارول هيلنبراند Carole Hillenbrand أستاذة اللغة العربية فى جامعة إدنبرة. وقد صدرت الطبعة الأولى فى عام ٢٠٠٠.

إن الإنسان ليدهش عندما يكتشف أنه فى المكتبة العربية الحديثة لا يوجد كتاب يغطى هذا الموضوع المهم التغطية اللائقة. فباستثناء كتاب د. سعيد عاشور (الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين والمغول فى العـصر المملوكى)، وكـتـاب البـاحـث السـورى ذاكـار (الحـروب الصليبيـة) الذى تنتقده كـارول بشدة لأنه يحتوى على العديد من الروايات والاقتباسات دون تحليل لها... باستثناء هذين الكتابين لا توجد مراجع علمية حديثة، مع أنه من الواضح وعلى ضوء أحداث الصراع الحالى العسكرى والسـيـاسى بين الـعـرب وإسـرائيل وموقف الغرب (خصوصًا أمريكا) الممالئ لإسرائيل، أقول من الواضح إن الحروب الصليبية ليست مـجـرد تاريخ قـديم عـفى عليـه الزمن، بل له دلالته العظمى فى فهم طبيعة الصراع الحديث بين الشـعـوب العـربيـة، وبين الغـرب حـول قضية الاستيطان والاستقلال.

ونحن لا ندعى أن التـاريخ يعيد نفسه، أو ربما الأدق أن نقول إن التاريخ يعيد نفسه ولكن فى مستوى آخر. ذكرتنى بهذا الانقسامات بين حكام الـعـالم الـعـربى فى مـصـر والشـام أيام الحروب الصليبيـة كـمـا هى الانقسـامـات بين الحكام العرب فى عالم اليوم.

كـمـا ذكرتنى بهـذا حكاية الكاتب الأمريكى الأحمق ريتـشـارد لورى الذى نادى مـؤخـرًا فى مجلة ناشيونال ريفيو الأمريكيـة بضرب مكة بالقنابل الذرية! فإذ بى أجد فى كتابنا الحـالى (الحروب الصليبية) إشارات واسعة إلى القائد الصليبى ريناد أوف شـاتيلون، قـائد منطقـة الكرك والشـوبـاك (الأردن حـاليًـا) والذى كـان معروفًا لدى المسلمين باسم أرنات Arnat. كان هذا الرجل الصليبى مـتـخصصًـا فى قطع طريق قوافل الحجاج الذاهبين إلى مكة والمدينة. ولقد بنى قلعـة الكرك «شرق البـحـر الميت»، وكـان الهدف هو تهديد الطرق الرئيسية التى تمتد من سوريا إلى مصر ثم الجزيرة العربية، رغم وجود معاهدات بين المسلمين والفرنجة لعدم التعرض لقوافل الحجاج بأى سوء.

فـفى عـام ١١٨٤ - ١١٨٥م ضـرب قـائد منطقـة الكرك من الـفـرنجـة عـرض الحـائط بالمعاهدة بينه وبين المسلمين وهاجم قافلة من قوافل الحجاج، وقيل إنه فعل ذلك بالاتفاق مع بدو مـحليين، وقـد أساء مـعـاملـة الحـجـاج ووضـعهم فى أقبية وزنازين، فلما أشاروا إلى المعـاهدة بين المسلمين والفرنجـة قـال لهم ساخرًا: «قولوا لمحمد أن يفك أسركم».

وعندمـا سمع صلاح الدين بهذه القصة اقسم على أن يقتل ريناد بنفسه عندما يتحقق النصـر، ويحكى الكتـاب أن ريناد قـام عـام ١١٨٢م (٥٧٨هـ) بـعـمل كـسب به كـراهيـة شديدة من المسلمين. فقد ذهب جنوبًا فى البحر الأحمر وهدد المدن المقدسة فى الحجاز بهجوم بحرى لتدمير الأماكن المقدسة فيها لولا أن أسطولاً بحريًا مسلمًا تحت قيادة حسام الدين لولو أفشل هذه الخطة وأوقع رجال ريناد فى الأسر، وإن كان قد أفلت يومئذ من هذا المصير. وتقول المصادر التاريخية إن حسام الدين قد أرسل الأسرى من الفرنجة إلى منى (قرب مكة) لتقطع رؤوسهم هناك حتى يكونوا عبرة لكل من يهدد مقدسات المسلمين.

وتشير مؤلفة الكتاب إلى القصة المعروفة عندمـا أسـر صـلاح الدين عـددًا من قـادة الصـلـيـبـيـين فى مـعـركـة حطين (١١٨٧م/٥٨٣هـ)، وتقول إن هذه القصة تجد إبرازًا واسعًا فى المصادر الإسلامية، التى تميز بين المعاملة الطيبة التى عامل بها صلاح الدين قادة الفرنجة ومعاملته لريناد عندما وقع فى الأسر فى معركة حطين.

فـقـد قـدم صـلاح الدين الماء المثلج لملك الفـرنجـة (جـاى) الذى شـرب ثم نـاول الماء لريناد الذى شرب هو أيضًا، عندئذ قال صلاح الدين: هذا الملعون شـرب دون إذنى ولذا فـهـو مستبعد من حمايتى وأمانى.

ثم ذكره بما قـاله للحُجّاج عن الرسول محمد وقال له: إننى الرجل الذى سوف ينتقم لمحمد منك ولتذهب روحك إلى الجحيم، ثم قام بقتله على التـو. هذه هى الرواية التى ترد فى كتاب مؤرخ صلاح الدين المعروف بابن شداد.

ينشغل الكتاب بأحداث مـسيرة الحـروب الصليبية طوال القرنين الثانى عشر والثالث عشر، لكنه فى فصوله التسعة لا يكتفى بهذا بل يبحث عددًا من الموضوعات المهمة ذات الصلة، كـيف كـان المسلمون ينظرون للفـرنجـة عندئذ (أنماط دينية وعرقية) وبعض الجوانب المهمة عن حياة المسلمين فى تلك الفترة، ومفهوم الجهاد كـمـا نظر له المفكرون المسلمـون، ثم طبـيـعـة الأسلحة التى استخدمت فى تلك الحروب، وعلى وجه الخصوص القلاع التى بناها الصليبيون لحماية مواقعهم والأساليب التى استخدمها المسلمون لتدمير هذه القلاع باستخدام سلاح المنجانيق فى حصارها، ثم ضربها بقذائف من نار، وهو الـعـمل الذى أثبت به المسلمـون - خصوصًا الظاهر بيبرس ومن تلاه من سلاطين المماليك - تفوقهم الحربى على الصليبيين.

وتخصص المؤلفة فصلاً كاملاً عن كيفية إدارة الحرب وفصلاً أخيرًا لتـأمل الحـروب الصليبيـة والدروس المستخلصة منهـا فى العصر الحديث.

إن أول لقاء لأوروبا مع المسلمين كان نتيجة السياسة التوسعية للدولة الإسلامية بعد وفاة الرسـول عـام ٦٣٢م. بـعـد ذلك بـقـرن عـبـر المسلمون جبال البرينز واستولوا على أرض تمتد من شمـال الهند حـتى جنوب فـرنسـا. وللقرنين التـاليين ظل ميزان القوى بين أوروبا والعـالم الإسلامى فى صـالح المسلمين بشكل حاسم. فقد تمتعوا بنمو اقتصادى واسع كما ازدهرت ثقافتهم وعلمهم بشكل رائع. ومنذ عام ٧٥٠م جرت صياغة الدولة العباسية فى ظل ثقافة إسلامية فـارسيـة وتولى حـمـاية هذه الدولة جيش من الأتراك العبيد.

وفى القرنين الحادى عشر والثانى عشر تعمق التـفتت السياسى لهـذه الامبراطورية العـبـاسـيـة وسـاعـد هذا الوضع على ظهـور الأوروبيـين فى شرق المتـوسط وبدأت عمليـة

The Crusades: Islamic Perspectives

(الحروب الصليبية: منظور إسلامى)

Carole Hillbrand

Routledge, 2000, 648p

إحياء السلطة المسيحية فى إسبانيا. ولقد أعقب التواصل التجارى فى البحر الأبيض مكاسب بحرية ضد المسلمين. فقد استولى النورمان على صقلية من المسلمين واستطاع أهل شمال إسبانيا أخذ طليطلة وبدأوا تقدمًا ساحقًا جنوبًا. أما البيزنطيون - جيران العالم الإسلامى - فقد قاموا بغارات ناجحة فى شمال سوريا واحتفظوا لفترة وجيزة ببعض المدن الحدودية.

خلال القرون الأولى من الحكم الإسلامى كان الحجاج المسيحيون إلى بيت المقدس قادرين على زيارة الأماكن المقدسة. وكانوا يصلون إلى تلك الأماكن عن طريق البلقان والأناضول وسوريا، أو عن الطريق البحرى إلى مصر أو فلسطين. وعن هذا الطريق وصلت إلى أوروبا أنباء الحياة المتقدمة والإنجازات العظيمة للعالم الإسلامى. ولا يوجد شك عند مؤلفة الكتاب أن المسلمين كانوا عندئذ أصحاب حضارة وثقافة ارقى من حضارة الأوروبيين وثقافتهم.

ولكن المسلمين كانوا منقسمين سياسيًا ما بين الأتراك السلاجقة فى الشرق الأدنى (سوريا وفلسطين) وبين الفاطميين فى مصر. وحتى فى الشام كانت هناك إمارات إسلامية مختلفة بين حكامها المحليين صراعات وقتال. وعندما أدرك البابا وملوك أوروبا هذا الوضع المتضعضع للعالم الإسلامى وتفكك القوى الإسلامية. وعندما بدأت تصل إلى أوروبا شائعات عن حاكم فاطمى سيىء (الحاكم بأمر الله) يقوم باضطهاد المسيحيين فى مملكته ثم فى سوريا وفلسطين. ثم توج هذا كله بشائعة تدميره لكنيسة القيامة فى القدس. أصبح الجو مهيئًا لصرخة البابا إربان الثانى لمسيحيى أوروبا بضرورة الدفاع عن الأماكن المسيحية المقدسة فى الشرق.

وهكذا بدأت الحروب الصليبية الأولى.

فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر كانت سوريا وفلسطين ميدان صراع حاد بين الأتراك السلاجقة الذين كانوا يحكمون الجزء الشرقى من العالم الإسلامى وبين السلطة الفاطمية ومركزها مصر. إن الفاطميين يدينون بأيديولوجية يمقتها المسلمون السنة خصوصًا أنها كانت تهدد الخلافة فى بغداد التى كان الأتراك السلاجقة يقومون بحمايتها، وكان المسلمون فى غالبيتهم يعتبرون أن الأتراك وجيوشهم شر لابد منه نتيجة تفوقهم العسكرى وحماسهم الدينى. وقد عبر الغزالى عن هذه الحقيقة فى كتبه. مع ذلك كان من الصعب على أهل سوريا وفلسطين تحمل الوجود التركى على أرض المشرق.

أما فى الأناضول (تركيا حاليًا) فقد كان الوضع السياسى غير مستقر. لقد فقد البيزنطيون العديد من المدن للسلاجقة الأتراك، ثم تشكلت سلطنة سلجوقية فى قونية، حكمت أجزاء من الأناضول وجعلت مرور الحجاج المسيحيين القادمين من أوروبا إلى بيت المقدس أمرًا محفوفًا بالمخاطر.

وكما أوضحنا فقد تميز العقد الأخير من القرن الحادى عشر بضعف سياسى فى سوريا وفلسطين وتفكك وعدم استقرار لحياة المسلمين. وتوالى وفاة الوزير الأول نظام الملك وأعقبه وفاة السلطان السلجوقى ملك شاه عام ١٠٩٢م، ثم وفاة الخليفة الفاطمى المستنصر عام ١٠٩٤ فى القاهرة. وكل هذا ترك فراغًا سياسيًا. ولم تستطع الدولة الفاطمية أن تحقق السيادة التى تحققت لها فى النصف الأول من القرن الحادى عشر، بل امتلأت بالصراعات داخل الأسرة الفاطمية ذاتها.

هذه هى الظروف التى جعلت البابا إربان الثانى فى ٢٧ نوفمبر ١٠٩٧ يوجه خطابه الكنسى لتشكيل جيش أوروبى لإنقاذ الأماكن المقدسة من الاضطهاد.





الحروب الصليبية

منظور إسلامى

الإسلامى» وفى عام ١٠٩٧م تشكل جيش أوروبى مختلط تحت قيادات عسكرية متعددة من غرب أوروبا. ووصل إلى القسطنطينية فى اتجاهه نحو الأناضول نحو بيت المقدس.

وهكذا بدأت أولى الحملات العسكرية التى عرفت فى التاريخ الإسلامى باسم «حروب الفرنجة» والتى عرفت فى التاريخ الأوروبى باسم الحروب الصليبية.

حققت الحملة الصليبية الأولى نجاحات حربية مهمة رغم تنوع قيادتها. فقد استولى الفرنجة على العاصمة السلجوقية إزنك فى يونيو ١٠٩٧. وأوقعوا هزيمة كبيرة بالجيش السلجوقى بقيادة السلطان أرسلان فى معركة دوريليوم فى يوليو ١٠٩٧. وحاصروا إنطاكية فى شمال سوريا. ثم خرج جزء من قوات الصليبيين إلى مدينة الرها واستولوا عليها فى مارس ١٠٩٨ وأقاموا عليها أول إمارة صليبية سميت «إمارة الرها». وقد سقطت إنطاكية فى أيدى الصليبيين فى يونيو ١٠٩٨ أما الجائزة الكبرى (بيت المقدس) فقد سقطت فى يد الفرنجة فى ١٥ يوليو ١٠٩٩.

وهكذا تكونت أربع إمارات صليبية: إمارة القدس، وإمارة الرها، وإمارة إنطاكية، وإمارة طرابلس.

وسوف نلاحظ أن الفرنجة لم يفلحوا فى الاستيلاء على مدينتين رئيسيتين فى المنطقة: دمشق وحلب.

ولقد تمثل رد فعل المسلمين لنجاح الحملة الأولى فى الضياع وفقدان الاتجاه أو المهادنة والانشغال بقضايا داخلية، وحاول مفتى دمشق الاستنجاد بالخليفة فى بغداد دون جدوى، وقد شهدت تلك الفترة استيلاء الفرنجة على معظم موانى ساحل الشام فضمنوا بذلك وصول الإمدادات لهم من البحر. لكنهم كانوا أقل نجاحًا عندما حاولوا الاتجاه شرقًا. فالرها هى الإمارة الوحيدة فى وادى دجلة والفرات التى وقعت فى أيديهم، لكن مما له دلالة أن هذه أول إمارة استعادها المسلمون حربيًا.

والعلامات الأولى على الصحوة الإسلامية تمثلت فى جهود زنكى الذى استعاد الرها من الصليبيين سنة ١١٤٤م. وسقوط الرها فى أيدى المسلمين يمكن اعتباره أول صحوة للمسلمين بعد الغزو الصليبى الأول.

لكن زنكى قُتل على يد أحد عبيده عام ١١٤٦م، وكان هذا العمل سندًا لاشك للفرنجة.

لكن نورالدين (ابن زنكى) استطاع فى المرحلة التالية أن يجمع بين السياسات القوية والحماسة الدينية، وأدرك بثاقب فكره أن تحقيق النصر على الصليبيين يتطلب توحيد مصر وسوريا. وبدأ فى حصار إمارة إنطاكية.

إن فقدان الفرنجة للرها وتهديد نورالدين لإنطاكية قد أدى إلى قيام الحملة الصليبية الثانية تحت قيادة كونراد الثالث (إمبراطور ألمانيا) ولويس السابع (ملك فرنسا). ولم تنجح هذه الحملة وفشلت فى الاستيلاء على دمشق. وقد استولى نورالدين على دمشق عام ١١٤٥م وأعلن نفسه الحاكم الأعلى لسوريا. ثم تحول اهتمامه إلى مصر التى كانت تشهد صراعًا عنيفًا بين الفاطميين أنفسهم. وعندما طلب بعض رجال البلاط الفاطمى المعونة من نورالدين أرسل لهم جيشًا بقيادة القائد شيركو عام ١١٦٨ لمنع استيلاء الصليبيين على مصر، وبموت شيركو تولى القيادة مكانه ابن أخيه صلاح الدين.

وبذلك تحققت الوحدة بين مصر وسوريا وتأكدت شرعية الخلافة العباسية السنية. وربما كان من الممكن وقوع الخلاف بين صلاح الدين ونورالدين. لكن وفاة نورالدين قضت على هذا الاحتمال.

فى السنوات ١١٧٤ - ١١٩٣م اتجهت جهود صلاح الدين لإخضاع خصومه وخلق جبهة متحدة بين مصر وسوريا ضد الصليبيين. وفى النهاية هزم الصليبيين فى معركة حطين ٤ يوليو ١١٨٧. ثم اتبع هذه الاستيلاء على القدس فى ٢ أكتوبر ١١٨٧م وبنهاية ١١٨٧م لم يبق فى يد الصليبيين إلا صور. وقد عين صلاح الدين العديد من أقربائه فى مدن الشام الرئيسة خالقًا بذلك اتحادًا كونفيدراليًا هو على رأسه واستمر هذا من بعده فى حكم أسرة الأيوبيين.

عندما استولى الصليبيون على بيت المقدس وضعوا صليبًا كبيرًا على قبة الصخرة. وحولوا المسجد الأقصى إلى مسكن لإقامة فرسان المعبد. وبالطبع كان أول ما فعله صلاح الدين عندما دخل بيت المقدس انتزاع الصليب من على قبة الصخرة وإعادة الاعتبار إلى المسجد الأقصى.

إن هزيمة حطين وسقوط القدس فى يد المسلمين قد دفع بثلاثة من أقوى الملوك الأوروبيين: فردريك بارباروسا من الإمبراطورية الرومانية المقدسة، فيليب ملك فرنسا، وريتشارد قلب الأسد ملك بريطانيا لقيادة الحملة الصليبية الثالثة التى استولت على عكا عام ١١٩١. ورغم هذا ورغم انتصارات أخرى على جيش صلاح الدين فقد انتهت الحملة الثالثة بهدنة عام ١١٩٢، اتفق فيها على أن يحكم الصليبيون الشريط الساحلى للشام بينما تظل القدس فى يد المسلمين.

وبعد ذلك بعام مات صلاح الدين، وعادت الصراعات من جديد بين السنة (دمشق) والشيعة (مصر)، وركز الصليبيون على مهاجمة مصر معتقدين أنها مفتاح استعادة القدس.

وأصبحت مصر هى الهدف الأول من الحملة الرابعة عام ١٢٠٢م. لكن هذه الحملة لم تحارب المسلمين بل انتهت بالاستيلاء على القسطنطينية عام ١٢٠٤م وهكذا نشأت الإمبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية خلال الفترة من ١٢٠٤م - ١٢٦١م.

أما خلفاء صلاح الدين من الأيوبيين فلم يتجهوا إلى محاربة الصليبيين بل اتجهوا للمهادنة معهم. وكان سلطان مصر (الملك العادل) أخو صلاح الدين هو الحاكم فى القاهرة عندما بدأت الحملة الصليبية الخامسة عام ١٢١٨م بالهجوم على مصر والاستيلاء على دمياط. ثم مات العادل فى نفس العام وتولى بعده ابنه الملك (الكامل) الذى استعاد دمياط عام ١٢٢١م.

وفى عام ١٢٢٨م وصل فردريك الثانى (ملك صقلية) على رأس حملة على فلسطين وفضَّل الملك الأيوبى (الكامل) عقد معاهدة معه بدلاً من محاربته. وبمقتضى هذه المعاهدة استرد الصليبيون القدس وبيت لحم والناصرة ومناطق أخرى، وأثار هذا الاستسلام من السلطان الكامل غضبًا واسعًا فى العالم الإسلامى.

لكن قوات خوارزمية آتية من آسيا الوسطى بعد الاكتساح المغولى لها قد استغلت ضعف قوات الصليبيين التى كانت تحمى القدس فهاجمتها واستولت عليها. وهكذا عادت القدس إلى الحكم الإسلامى من جديد. ومع ذلك استطاعت حملة لويس التاسع غزو مصر والاستيلاء على دمياط عام ١٢٤٩م ومنها اتجهت إلى القاهرة. لكن لويس التاسع حوصر فى المنصورة ووقع فى الأسر وفشلت الحملة.

وهكذا بدأت المرحلة الأخيرة من وجود الصليبيين فى المشرق العربى! بسقوط الحكم الأيوبى فى مصر واستيلاء المماليك على الحكم عام ١٢٥٠م، الأمر الذى أدى إلى تدعيم القوى المضادة للصليبيين واتخاذ الإجراءات الضرورية للقضاء عليهم. إن مجرد توحيد مصر وسوريا من جديد قد سلب من الصليبيين القدرة على النصر. والسلطان المملوكى الظاهر بيبرس ذو الإرادة الحديدية كان هو الشخصية الرئيسية التى قضت على الصليبيين. وخلال سنوات ١٢٦٥ - ١٢٧١ استرد بيبرس العديد من المدن التى كانت فى أيدى الصليبيين.

وقد استمرت هذه الانتصارات من بعده على يد قلاوون واستولى على مرقاب وطرابلس، ثم قام ابنه الأشرق فى ١٢٩٣م بالقضاء النهائى على الصليبيين والاستيلاء على صيدا وصور وبيروت وكانت هذه هى نهاية الحروب الصليبية.

يبقى أن نشير إلى بعض النقاط المهمة فى الكتاب. من هذه النقاط نظرة المسلمين كما تبدت فى كتاباتهم آنذاك إلى الفرنجة وعاداتهم الاجتماعية. وتعتمد المؤلفة فى هذا الصدد على مرجعين عربيين: كتاب أسامة بن منقذ (كتاب الاعتبار). ثم كتاب ابن جبير وهو أندلسى، تعود على علاقات حميمة مع المسيحيين وبالتالى كان قادرًا على اتخاذ نظرة أكثر موضوعية فى هذا السياق.

لكن يمكننا إجمال نظرة المسلمين للفرنجة آنذاك فى صفتين: قلة النظافة والانحلال الجنسى.

ويحكى أسامة بن منقذ أن الصليبيين عندما اكتشفوا الحمَّامات العامة فى المشرق بدأوا ينتظمون فى التردد عليها، بينما ادعى أنهم فى أوطانهم الأصلية لم يكونوا يستحمون إلا مرة واحدة أو مرتين فى العام وبالماء البارد. ويحكى أسامة القصة التالية نقلاً عن سليم بن معرة النعمان الذى كان يعمل فى حمَّام والد أسامة، يقول سليم: «أقمت حمَّامًا كمصدر للرزق، وقد جاء إلىَّ فارس من الفرنجة الذين لم يتعودوا على تغطية النصف الأسفل من الجسم عند دخول الحمَّام بينما كنت أغطى النصف الأسفل من جسمى بغطاء. ومد الفارس يده وانتزع الغطاء ورماه ووجد أنى قد حلقت شعر عانتى. فقال لى: «سليم، بأمانة ديانتى افعل لى نفس الشىء». ففعلت ما طلبه. ثم قال الفارس لخادمه، أخبر زوجتى أن تأتى إلى هنا، وعندما جاءت نامت على ظهرها وصنعت لها ما صنعت لزوجها، وأخيرًا شكرنى وأعطانى نقودًا مقابل خدماتى».

الأمر الثانى هو مشكلة اللاجئين التى ترتبت على الحروب الصليبية فقد هرب آلاف اللاجئين من مناطق القتال إلى دمشق وحلب وإلى مصر

تمثل رد فعل المسلمين لنجاح الحملة الأولى فى الضياع وفقدان الاتجاه أو المهادنة والانشغال بقضايا داخلية، وحاول مفتى دمشق الاستنجاد بالخليفة فى بغداد دون جدوى

بعض الجروح التاريخية لا يمكن أن تلتئم

عودة إلى الحروب الصليبية!



طارق علي

والعراق. وتقول مؤلفة الكتاب أن حركة اللاجئين كانت على أشدها في السنين الأولى من الحروب الصليبية من ١١٠٦م/ ٤٩٢هـ حتى سقوط طرابلس في ١١٢٤م/ ٥١٢هـ وعلى ذلك فقد استمرت حركة اللاجئين حتى منتصف القرن الثاني عشر. وترصد المؤلفة قيام هبّات شعبية ضد الصليبيين في منطقة نابلس خصوصًا إذ قام الفلاحون بالهجوم على الصليبيين الذين احتموا في قلاعهم قبل وصول جيش صلاح الدين.

ثم تأتي النقطة الثالثة عن طبيعة المعارك والأسلحة المستخدمة. لقد تعوّد المحاربون الأتراك على الحرب وهم فوق ظهور خيولهم، ولقد لعب هؤلاء الفرسان دورًا أساسيًا في جيوش نورالدين وصلاح الدين، وسمعتهم كرماة كانت مشهورة حتى قبل وصول الصليبيين، وهم قادرون على الظهور والاختفاء ووضع الكمائن واختيار أوقات الهجوم ومكانه ثم الاختفاء قبل أن يجد الخصم الوقت للرد.

وعلى عكس الجيوش الإسلامية التقليدية المكونة من قلب وميمنة وميسرة فإن الأتراك كانوا متجمعين في مجموعات صغيرة تحاول أن تحيط بالعدو من جميع الاتجاهات، وهذه المجموعات رغم انفصالها كانت قادرة على أن تدعم بعضها البعض لزيادة الضغط على العدو.

وهناك جانب آخر ذو أهمية قصوى في معارك المسلمين ضد الصليبيين، وهو أسلوب حصار القلاع. وتقول المؤلفة أن دراسات أكاديمية في أوروبا قد أوضحت أن مفتاح انتصار المسلمين في نهاية الأمر إنما يعود إلى إعداد خطط دقيقة لحصار المواقع الصليبية، وتشير المؤلفة على وجه الخصوص إلى أن أسلحة الحصار التي اتبعت للهجوم على صفد (الظاهر بيبرس) قد صُنعت في عكا ودمشق وحملت على ظهور الجمال إلى صفد. وقد أشرف الظاهر بيبرس بنفسه على هذا العمل وكانت لديه المصادر لإقامة هذه الأسلحة بسرعة وضرب القلاع بالمنجنيق. وقد اتبع هذا في هجومه على صفد وعرسوف وقلعة شقيف وأماكن أخرى.

بقي أن نشير إلى أن الأثر الأساسي الذي تبقى بعد الحروب الصليبية، هو فتح أبواب التجارة بين الشرق وأوروبا. لقد تم توقيع عدد من المعاهدات التجارية بين سلاطين المماليك وبلدان أوروبية مثل جنوا وأراجون. وحتى أوائل القرن الحادي عشر كان مركز ثقل التجارة مع الغرب هو بغداد، لكنه انتقل بعد الحروب الصليبية إلى مصر.

أما العثمانيون فقد كانت لديهم نوايا انتقامية من أوروبا المسيحية. ووصل رد الفعل العثماني للغزو الصليبي إلى قمته في القرن السادس عشر. فقد غزا العثمانيون البلقان ثم المجر والوصول إلى أبواب فيينا. والحق أن شبح التهديد التركي ظل معلقًا في سماء أوروبا طوال القرن السادس عشر.

وهكذا فإن الانتقام الإسلامي استمر لمدة طويلة، هكذا تقول مؤلفة الكتاب. ■

■ ■ على مدى ما يقارب ٣ قرون (من ٨٠٠ حتى ١١٠٠ ميلادية) ظلت الحضارة العربية - وكانت أكثر الحضارات تقدمًا آنذاك إذا استثنينا الصين - تعتبر نفسها لا تقهر.

وقد تعين على الأوروبيين أن يتعلموا اللغة العربية لاكتساب أفضل المعارف المتاحة آنذاك خاصة في العلوم والفلك والجغرافيا، وكان ذلك من الأسس التي أقامت عليها أوروبا نهضتها بعد ذلك.

إن التأثير العربي محسوس في أبنية ومضامين الأعمال الأدبية الكبرى لسرفانتس ودانتي. كما أن عدد سكان دمشق والقاهرة وبغداد مجتمعة كان يتجاوز مليوني نسمة في نفس الوقت الذي لم يكن يقطن لندن أو باريس أكثر من ٥٠ ألف شخص.

وهذا ما جعل السلاطين والأمراء العرب يشعرون بالذهول والصدمة عندما جاءت الحملة الصليبية الأولى كالإعصار الهائل في العقد الأخير من القرن الحادي عشر لتهاجمهم في عقر دارهم. ولم يأخذ الخليفة العباسي في بغداد على محمل الجد قدرات وقوة هؤلاء الأوروبيين «البرابرة» العسكرية، ولذلك كان سقوط القدس ذا تأثير كارثي على الجميع في المنطقة خاصة السكان المحليين.

وكانت العواطف الدينية هي الوقود الذي غذى رغبات المحاربين الأوروبيين في الغزو والاستحواذ. واحتفل هؤلاء المحاربون بالنصر بأن غسلوا شوارع المدينة المقدسة بالدماء.

وتعرض يهود القدس للحرق وهم أحياء، بينما كانت النساء والأطفال المسلمون وقود المذابح التي ارتكبها جنود الحملة الصليبية. إضافة إلى ذلك تعرضت كثير من المساجد وكل المعابد اليهودية تقريبًا للدمار.

إن ما حدث كان بمثابة «ديكتاتورية الصليب» التي أدت إلى أن تخيم على المنطقة بأكملها سحابة سميكة ملوثة من الهمجية التي جلبها هؤلاء المنتصرون.

وربما جاء اعتذار الفاتيكان بعد ٩٠٠ عام عن الفظائع التي ارتكبها الصليبيون متأخرًا، لكنه مع ذلك أصاب هؤلاء الذين مازالوا يتبنون وجهة النظر الغربية بشأن هذه الحملات الصليبية بالذهول.

Warriors of God: Richard the Lionheart and Saladin in the third Crusade

(محاربو الرب: ريتشارد قلب الأسد وصلاح الدين في الحملة الصليبية الثالثة)

James Reston JR

Doubleday, 2001, 364 PP., $ 27.50

وإحدى مزايا كتاب «محاربو الرب» أنه يوضح لماذا كان هذا الاعتذار ضروريًا. ويقول المؤلف جيمس ريستون (الابن) إن الحملات الصليبية التي تواصلت على مدى مائتي عام أطلقت العنان لسعار مجنون من الكراهية والعنف غير المسبوقين في العصور التي سبقت عصر التكنولوجيا وكوارث هتلر.

وقد كتب المؤلف تاريخًا غير منحاز، بل ومنعشًا للذاكرة عن الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٧ - ١١٩٢) وهو كتاب يستحق مكانًا على رف مكتبة أي مهتم بالتاريخ.

يبدأ المؤلف عمله بالحديث عن نصر عربي وهو دخول السلطان الكردي صلاح الدين المظفر إلى القدس عام ١١٨٧. وقد حرّم صلاح الدين صراحة أعمال الانتقام وأصر على أن تعود المدينة إلى سابق مكانتها، وأن تكون مفتوحة للمتعبدين من أبناء الديانات السماوية الثلاث. وحصل اليهود على أموال من الدولة لإعادة بناء معابدهم.

إن الإسلام على مدى تاريخه، وباستثناءات قليلة، أقام علاقات ودية مع اليهودية. وكان الانتهاك الأبرز لهذه العلاقات ما حدث في منتصف القرن العشرين مع زرع دولة استيطانية يهودية هي إسرائيل في فلسطين على حساب السكان العرب المحليين. لقد عوقب الفلسطينيون على جريمة ارتكبها الأوروبيون بحق اليهود. وأدى ذلك إلى اندلاع حروب عربية يهودية. ومازال سكان المنطقة العربية ينظرون إلى القدس على أنها مدينة محتلة، وفي مساجدهم يبتهل مسلمو اليوم ويصلون من أجل أن يعود صلاح الدين لينقذهم.

ولكن كما يقول ريستون، فإن طريق صلاح الدين إلى القدس لم يكن مفروشًا بالورود، إن مهاراته السياسية هي التي مهدت الطريق للانتصارات العسكرية. لقد بدا صلاح الدين متحفظًا وفي بعض الأحيان غير حاسم، لكن استراتيجيته الهادئة والبسيطة أتت أكلها. وكان أعظم نجاحاته المهمة توحيد مصر وسوريا. وكسلطان لكلتا المملكتين أصبح أكثر قوة من الخليفة العباسي، كما أنه اكتسب القدرة والخبرة على توحيد العرب في جيش موحد وإن كان ذلك قد تم بصعوبة بالغة، وعن طريق هذا الجيش استطاع في النهاية طرد المسيحيين من القدس.

لقد كان صلاح الدين حاكمًا متواضعًا غير قابل للفساد. كما أنه كان مؤمنًا ملتزمًا، ولكن دون أثر للتطرف، وكان كثيرون من مستشاريه المقربين في ديوان حكمه في القاهرة من اليهود، كما أن الأقباط المصريين حاربوا في صفوف جيشه. إن هذه القدرة على توحيد فئات السكان المحليين هي سر نجاحه.

وخصم صلاح الدين الرئيسي في الحملة الصليبية الثالثة كان ريتشارد «قلب الأسد» الذي توجه إلى الأرض المقدسة لاستعادة القدس من أيدي الكفرة الملحدين.

وربما كان ريتشارد قلب الأسد شجاعًا في الميدان، لكنه كان على عكس الأسطورة التي أحاطت به وهو أنه روبن هود الذي يأخذ من الأغنياء لصالح الفقراء. فقد كان قاتلاً وحشيًا يقتل ضحيته بدم بارد. وفي طريقه إلى القدس ذبح أعدادًا كبيرة من اليهود الأوروبيين فيما يمكن أن يكون سيناريو مرعبًا لما كان يمكن أن يحدث منه عند دخول القدس، ولكن من رحمة الله أنه لم ينجح إطلاقًا في استعادة القدس إلا أنه استولى على عكا وأقام طريقًا من الدم هناك ولو دخل القدس لكان مصير المسلمين واليهود فيها لا يختلف عن مصير سكان عكا.

لقد تركت الحملات الصليبية، وهذا مفهوم، علامة فارقة وعميقة على الضميرين العربي والأوروبي ويستعيد المؤلف ما حدث في يوليو ١٩٢٠، عندما غزا الجنرال الفرنسي هنري جورو دمشق، حيث وقف أمام قبر صلاح الدين المجاور للمسجد الكبير وصاح.. «ها قد عدنا يا صلاح الدين. إن وجودي هنا يكرس انتصار الصليب على الهلال». ومازال هذا الحادث يصيب العرب حاليًا بحالة لا نهائية من «القرف» والاشمئزاز كلما تذكروه.

سحابة أخرى تخيم على سماء العلاقة بين الغرب والعرب وهي القصف المستمر للعراق، حيث تجاوز عمر الوجود العسكري الغربي هناك الوجود الأمريكي في فيتنام، وينظر كثير من العرب إلى هذا الوجود على أنه حملة صليبية جديدة وذلك بالرغم من عدائهم الشديد لصدام حسين.

إن بعض الجروح التاريخية لا يمكن أن تلتئم.

عن صحيفة هيرالدتريبيون الأمريكية. ■

ألغاز الفـــن التجـــريدى

محـــــاولة للفهـــم

جـــــاك فـــــلام

كـان الفن التـجـريدى فى أواخـر الخمسينيات فى أوج ازدهاره واعتُبر محور الارتكاز للفن الحديث. فى ذلك الحين كان الفن التجريدى، الذى نُظر إليه كممارسة راديكالية (أى فنًا ذا بعد سياسى) هو المعادل الموضوعى للفن الجاد.

ولقد اعتبره الكثيرون، فى ذلك الحين، الأسلوب الوحـيـد الجـاد فى الرسم. فكان الاحتفاء الكبير بالتجريديين التعبيريين والتجريديين الأوروبيين الأوائل، مثل بيت مـوندريان Piet Mondrian وفـاسلى كـاندنسكى Vasily Kandinsky، مصدره الأساسى القيم الشكلية التى عكستها أعمالهم.

وبمفهوم ورؤية عين الناقد الفاحصة أوضح كلمنت جـريـنبـرج Clement Greenberg أن الفنانين والكتاب، على السواء، قد لقوا تشجيعًا على معادلة التجريد بالتأكيد على التنظيم وانبساط السطح وإخفاء معالم النموذج الذى استلهم منه الفنان عمله. فإذا تصورت عندما تنظر إلى لوحات كاندنسكى أنك لمحت دلالات لأشجار أو جبال أو حتى أرقام أو بنية ما، فإن ذلك كان يُعتبر خطأ فى أسلوب رؤيتك للوحة كما لو كنت مثل بولونيس Polonius [١] تعتمد أن تتصور السحابة مجرد جمل.

هذه الفكرة المبالغ فيها عن النقاء والتجرد مثلت عنصرًا منهجيًا قويًا فى الفن التجريدى حيث يتم تركيز الانتباه بقوة على العناصر الشكلية فى العمل. من هنا فقد حرص جرينبرج وغيره من النقاد على منع المشاهد أو الفنان من خلق إطار ربط بين العمل الفنى والطبيعة. مثل الربط بين شبكة الخيوط فى لوحات جاكسون بلوك Jackson Pollock وبين أغصان الشجر المتشابكة.

لكن الوضع تغير الآن بصورة واضحة. فالفن التجريدى لم يعد يعتبر فنًا راديكاليًا، إذ يُعتبر حاليًا أحد تيارات ممارسات فن ما بعد الحداثة. فبالمقارنة بفن الفيديو وفن الأرض [٢] أو الفن الإدراكى والأنواع المختلفة من أساليب الأداء واستخدام التراكيب والأجهزة، أصبح الفن التجريدى يبدو تقليديًا للغاية. الأكثر من ذلك أن الفن التجريدى ذاته قد أصبح يُنظر إليه على أنه أقل تجريدية. فلقد حلل الدارسون مواضيع لوحات كاندنسكى بالتفصيل، ويعتقد الكثيرون الآن أنه يجب أن نتبين مرجعية العمل، كالجبال والأشجار والشكل. وتشير الدراسات الحديثة إلى أن لوحات بولوك التى رسمها بأسلوب التقطير كانت تبدو أحيانًا كتكوين شكلى. كما أن بعض المعارض والكتالوجات أكدت تعدد مصادر الإلهام اللاشكلية فى الفن التجريدى، حيث تبدت هذه المصادر فى الطبيعة والأفكار الفلسفية والعلمية ومذاهب الاستبطان والتامل العقلى.

والآن وبعد أن مضى وقت كاف يمكننا أن ندرس الفن التجريدى كظاهرة تاريخية مرت بمرحلتين رياديتين، الأولى أوروبية، والثانية أمريكية. مع ذلك فلايزال التساؤل حول كيفية تفسير الفن التجريدى مثار جدل حاد. ففى السنوات الأخيرة تشكك البعض فى عملية التركيز على الشكل، وظهر اتجاه يرى الرسم التجريدى كتنفيذ لدوافع مبرمجة، كأنما أراد الفنانون مجرد توضيح الأفكار فى إبداعاتهم من خلال شفرة سرية أو علامات وخطوط بيانية ـ ومن الأفكار المثيرة التى ظهرت فى هذا الإطار عدم أهمية المكونات الشكلية للوحات والتشكيك فى رد الفعل الذاتى المركب الناتج عن التحديق بدقة فى اللوحات. وقد يرجع سبب شيوع هذه الأفكار إلى أن معظم اتجاهات الفن المعاصر تركز على الأيديولوجية والسخرية والنقد الاجتماعى، بالإضافة إلى ذلك، فإن الجدية العالية للتصوير التجريدى باعتباره يطمع لنوع من الروحية المطلقة أصبح أمرًا زائلاً. فى هذا الإطار فإن كتاب جون جولدنج John Golding ـ معابر نحو المطلق ـ بكل ما يثيره من رؤى فكرية بأسلوب ذكى متدفق والذى اعتمد فيه الكاتب على الست محاضرات التى ألقاها أ.د. ملون A.W. Mellon فى المتحف القومى للفن فى واشنطن عام ١٩٩٧، كتاب يأتى فى التوقيت المناسب.

ورغم أن الكثيرين ممن يستمتعون بالفن التجريدى لايتظاهرون أو يدَّعون فهمه جيدًا، إلا أن هناك شبه اتفاق عام أن الفن التجريدى يعد واحدًا من أهم الابتكارات الفنية فى القرن العشرين. والحقيقة أن الكثير من اللوحات التجريدية تبدو وكأنها تتحدى فكرة أن تكون مفهومة. من هنا فإن إحدى القضايا التى يثيرها جولدنج فى كتابه تتلخص فى كيفية استقاء معنى أو أية دلالة ملموسة من مجرد المتعة الحسية البصرية التى تنشأ من رؤية لوحات لا تحمل مواضيع مفهومة وتزخر باشكال هندسية أو عشوائية أو مجرد لطشات لونية.. فى البداية يوضح جولدنج رؤيته بقوله:

> «إن الفن التجريدى فى أفضل وأعمق حالاته مُحمل بمعان ومضمون ولكى يصبح هذا المضمون مفهومًا يجب أن نجد ابتكارات تصويرية شكلية جديدة لتعبر عنه».

ولتوضيح رؤيته، اختار جولدنج مجموعتين من الفنانين. تتكون المجموعة الأولى من ثلاثة من رواد الفن التجريدى فى أوروبا ممن ابتكروا الفن التجريدى وحددوا معالمه قبل الحرب العالمية الأولى. وهؤلاء الفنانون هم كاندنسكى وموندريان وكازمير مالفيك Kasimir Malevich. ويخصص جولدنج النصف الثانى من كتابه لأعمال أربعة من كبار الفنانين التجريديين الأمريكيين، وهم جاكسون بولوك ومارك روثكو Mark Rothko وبارنت نيومان Barnett Newman وكليفورد ستيل Clyfford Still، الذين أسهموا فى بعث الحيوية وتجديد شباب الفن التجريدى وإثراء مفرداته وتوسيع آفاق طموحاته فى سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية.

ورغم أن اختيار جولدنج لهذه الأسماء يثير التساؤل خاصة فى النصف الثانى من الكتاب الذى أغفل فيه ذكر فنانين مثل أرشت جوركى Arshile Gorky وويلم دو كنونج Willem de Kooning وروبرت مازرويل Robert Motherwell مع ذلك فهذا لا ينتقص من أهمية الكتاب ولا قيمته. ولقد جرت العادة أن تكون كتب الفن التجريدى الموجه لغير المتخصصين، موسوعية كمحاولة لتغطية عدد كبير من الفنانين والأساليب والتيارات، الأمر الذى يؤدى إلى سطحية العمل ككل. لكن جولدنج فى كتابه اختار أن يقدم عددًا محدودًا من الفنانين ممن شعر أنهم قد قدموا بالفعل أعمالاً تعكس طموحًا حقيقيًا للوصول لجوهر الفن التجريدى وكيفية تاثيره. من هنا فإن جولدنج يبدى اهتمامًا أكثر بالقيمة الفنية من اهتمامه بتنوع الأساليب، ويركز اهتمامه على فنانين ملهمين يصفهم بقوله: «يقفون على طريق شىء جديد.. الحقيقة التصويرية اللانهائية أو محاولة الوصول لليقين باتجاه المطلق المرئى». فى هذا الإطار يندرج فنانون مثل كوننج ومازرويل اللذين تميزت أعمالهما بتنوعها وبعدها عن المنظور الأحادى.

وفى كتابه لم يلجأ جولدنج لأسلوب واحد فى التحليل، إذ يمزج الكاتب بين الاستقراء والحدس والسيرة الذاتية والمعلومة التاريخية وتحليل ما سطره الفنان نفسه عن أعماله واللوحات نفسها. والجدير بالذكر أن جولدنج شخصيًا فنان ومؤرخ، الأمر الذى يوضح عدم إغفاله لحقيقة أن ممارسة الرسم نفسها كفيلة بأن تولد أفكارها الخاصة وأنها فى حد ذاتها يمكن أن تعتبر شكلاً من أشكال التفكير. كذلك فهو يولى اهتمامًا بالتفاصيل المرئية ويمزج بين الإعجاب الشخصى والتحليل للبعد الثقافى.

ومحصلة هذا المدخل الانتقائى التجريدى الذى اختاره الكاتب، تقديم رؤية ذكية تاملية منفتحة بصورة لافتة للنظر لردود الفعل المركبة التى يستثيرها ويتطلبها العمل نفسه. والحقيقة أن كتاب جولدنج يعد واحدًا من الكتب النادرة التى تغطى أساسيات هذا الموضوع بصورة أكثر من جيدة، وهو يعتبر مدخلاً ممتازًا للأشخاص الحديثى التعرف على هذا المجال. فى نفس الوقت فإن الكتاب ثرى ومركب للدرجة

Paths to the Absolute:
Mondrian-Malevich-Kandinsky
Pollock-Newman-and Still

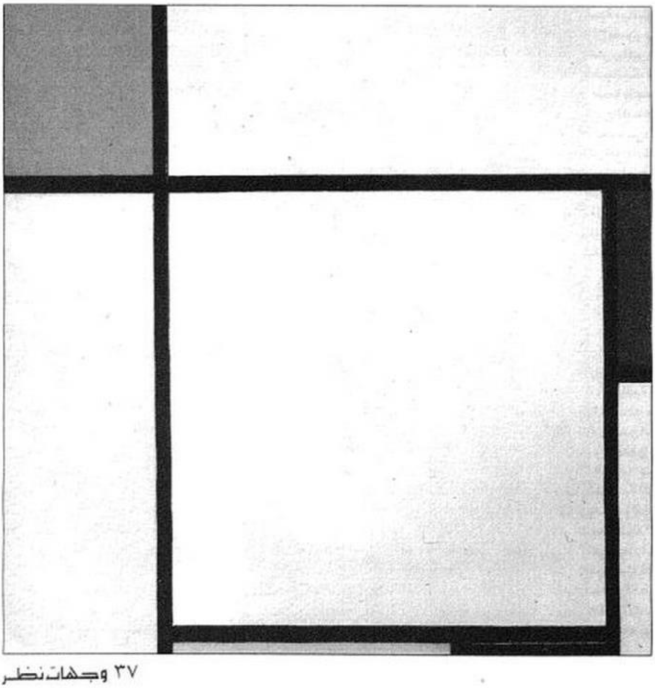
(معابر إلي المطلق: موندريان ومالفيك وكاندنسكي بولوك وستيل)

By: John Golding
Princeton University Press, 240PP., $60.00

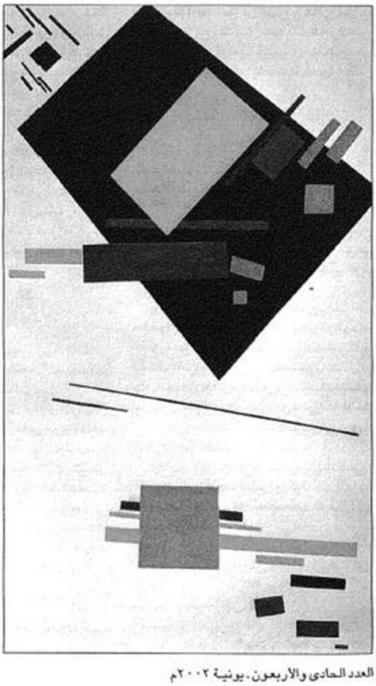


كاندنسكي

موندريان



مالفيك



رغم أن الكثيرين ممن يستمتعون بالفن التجريدى لايتظاهرون أو يدّعون فهمه جيداً، إلا أن هناك شبه اتفاق عام أن الفن التجريدى يعد واحداً من أهم الابتكارات الفنية فى القرن العشرين. والحقيقة أن الكثير من اللوحات التجريدية تبدو وكأنها تتحدى فكرة أن تكون مفهومة

التى تستثير شهية من يتصور منهم الإلمام بالموضوع بالفعل.

مرحلة الريادة الأوروبية:

يدرك جولدنج جيدًا المتناقضات والتوترات الكثيرة التى شكلت مصادر الإلهام فى الفن التجريدى منذ بدايته، خاصة التناقضات بين المعنى الخاص والمنطوق العام وظاهر وباطن العمل نفسه. بالإضافة لذلك فإن جولدنج يدرك تمامًا أن الطرق التى نفهم بها الفن التجريدى تنشأ أحيانًا من التوازن المتناقض بين متناقضات المعرفة والإدراك. وعلى سبيل المثال فقد كتب الثلاثة فنانين الأوروبيين التجريديين بتوسع عن إبداعهم. ومن خلال هذه الكتابات استطعنا أن نفهم قدرًا لا بأس به من دوافعهم والمضمون المستتر فى لوحاتهم.

وبالرغم من أن أعمال وأهداف الفنانين الأوروبيين الرواد الثلاثة تختلف، إلا أن جولدنج يشير إلى أنهم جميعًا قد استلهموا أعمالهم من العلوم والأفكار الروحية الغامضة. ورغم أن هذه التركيبة قد تبدو لنا غريبة الآن بعض الشىء، إلا أن العلم والاستبطان فى ذلك الحين قدما طرقًا للوصول إلى ما اعتُبر إدراكًا أعمق للحقيقة، وذلك من خلال تحدى أولوية العالم المادى وتأكيد أهمية القوى والعمليات فوق الأشياء.

والفن التجريدى فى هذه الصورة يمكن أن يعتبر نتاجًا طبيعيًا للفن الفرنسى فى القرن التاسع عشر، وعلى سبيل المثال فلقد أعطى التأثيريون الأولوية لتمثيل الطاقة أكثر من الأشياء الملموسة.

ولفت سيزان الانتباه لمراحل الرسم للدرجة التى تجعلها جزءًا من اللوحة نفسها.

ولقد مضى الأوروبيون نحو خطوة أبعد عندما أعطوا الأولوية لتمثيل القوى والعمليات دونما إشارة محددة للعالم المادى، وعندما جعلوا من تلك العمليات الموضوع الظاهر لأعمالهم الفنية. ويتجلى التأثير العميق للعلوم المعاصرة على نفوس الفنانين بصورة واضحة فى بيان كاندنسكى عام ١٩١٣ الذى أوضح خلاله كيف دفعه انقسام الذرة للمضى نحو الاتجاه التجريدى.. يقول:

> «لقد تساوى تقسيم الذرة، فى نفسى، مع سقوط العالم ككل. فجأة تهاوت الجدران الصلبة، كل شىء لم يعد مؤكدًا.. أصبح مشكوكا فيه، خياليا.. واهيا.. ضعيفا.. فلن أُدهش إذا ما تحلل أمام عينى حجر فى الهواء ولم يعد مرئيًا.

وهكذا شُغل كاندنسكى وغيره من الفنانين الأوروبيين بفكرة البعد الرابع والمعرفة المتسامية والاستبطان ورؤية العالم من خلال البصيرة. كذلك فقد أثرت الأفكار الغامضة والرؤى ونظريات رودلف شتاينر Rudolf Steimer - مؤسس النظرية الألمانية للتأمل والاستبطان - فى نفس كاندنسكى منذ المرة الأولى التى استمع فيها لشتاينر فى عام ١٩٠٩. ولقد اجتذبت هذه الأفكار موندريان Mondrian، ليرى أن الحياة كلها تتجه نحو التطور وأن مراحل اكتشاف الحقيقة الكامل يمكن أن تتم من خلال التوازن والتسوية بين القوى المتضادة، وهو المفهوم الذى عكسته أعماله حتى نهاية حياته. أما مالفيك Malevich الذى انبهر بالإمكانيات العلمية والخواص الهندسية الغامضة فقد كان مفتونًا بأعمال أوسبنسكى P.D. Uspensky، أحد حواريى مدام بلافاتسكى التى وضعت فكرة المجتمع القائم على الفكر الاستبطانى.

بالرغم من ذلك فقد وظف كل من كاندنسكى وموندريان ومالفيك هذه الأفكار بطرق مختلفة. فلقد تأثر كاندنسكى بأعمال ماتيس الغرفية وأعطى الأولوية للون فى لوحاته وكتاباته. كما اهتم بالعلاقة بين اللون والموسيقى وأراد أن يعطى لأعماله ثراء موسيقيًا فاصر أن يمنحها صبغة تراكيب التوزيع الأوركسترالى. وعلى عكس كل من موندريان ومالفيك كان كاندنسكى يكون عناصر لوحاته فى المساحة بأسلوب يحفظ الإحساس بالمنظور، بل وكثيرًا ما استعادت مصدر الإلهام المستور للأشياء والمناظر الخيالية المماثلة. وحلل جولدنج منابع الإلهام المراوغة وتكوينات كاندنسكى فى عام ١٩١٣ فيقول:

> «الحقيقة أنه قد نجح من حين لآخر فى أن ينأى بنفسه عن التصوير الواضح، والمصادر الفعلية التى أعطت لوحاته مادتها والتى عادة ما تفرض نفسها فى العمل الفنى بصورة لا تقاوم من خلال اللاوعى. بمعنى أوضح أن هذه الأعمال ديالوج مستمر، ثنائية بين الشكل المجرد الذى يلازمه بصورة متزايدة ومجموعة العناصر التى استثارت إلهامه منذ البداية.

وعلى النقيض من ذلك فلقد تأثر كل من موندريان ومالفيك بتكعيبية بيكاسو، فكانت تكويناتهم هندسية ومختزلة. والحقيقة أن أفكار موندريان حول التوازن الديناميكى خير تعبير عن طبيعة الواقع الذى أدى به لأن يقصر أعماله فى النهاية على شبكة من الخطوط السوداء تقطع ساحة بيضاء، تؤكدها مستطيلات من اللون الأول.

فى هذه اللوحات، أراد موندريان أن يقدم فنًا يعبر عن مستوى أعلى للحقيقة، من خلال تجربة متسامية، ومحو ما أطلق عليه الشكل التراجيدى من لوحاته. ويصف هذا الفن بقوله: «يصف نفسه بنفسه.. يعبر عما فوق البشر، ولكنه الأكثر إنسانية فى عمقه وشموليته».

ويرى جولدنج أن لوحات موندريان الناضجة قد عكست إحساسًا جذريًا جديدًا بمساحة اللوحة. ويقول: «إن شمولية سطح اللوحة حولته هو نفسه إلى صورة. فنحن لا ننظر للعناصر التصويرية فى اللوحة ولكن لسطح اللوحة نفسه ككل، ممثلاً لخيال الفنان».

وإذا كانت الواجهة الأمامية المسطحة فى لوحات موندريان - على حد قول جولدنج - قد محت التمييز بين الشكل والمسطح، بين الشىء واللاشىء، فإن مالفيك قد حافظ دائمًا على الفصل بين الصورة والخلفية، حتى عندما اختزلت لوحاته لمجرد مربعات ومستطيلات على أرضية بيضاء مسطحة. لقد أراد مالفيك هوالآخر أن يصور ما لا يمكن تصويره وإن تميز بطموح فكرى أكبر وأسلوب تشكيلى يؤكد على الأفكار الخيالية. فلقد انبهر مالفيك بالأمر، خاصة عندما يتجسد فى مفهوم البعد الرابع، الذى اعتبره المساحة التى تقع فيما وراء الفهم والإدراك الحسى، والمعادل المضاد للإدراك الفطرى للواقع والخيال. ولقد اعتبر مالفيك هذه البديهيات أصل وهم فكرة العالم الثلاثى الأبعاد الذى نعيش فيه أدنى مستويات الوعى. ولقد شُغل مالفيك بالتناقض الذى تفجره فكرة البعد الرابع.. إذ أن هذا البعد يعنى ضمنيًا اللانهائية ويمكن كذلك أن يتحول لمجرد مسطح فارغ.

وتدريجًا توصل مالفيك لأشكال المستطيلات والمربعات الطافية على أرضيات بيضاء والتى قال عنها جولدنج «تعبيرًا عن صعود الإنسان نحو الأثير، نحو الضوء الغامض الذى اعتقد العلماء والمؤمنون بالقوى الغيبية أنه يملأ المساحة الفارغة. ويشير جولدنج إلى أن أشكال مالفيك الهندسية قد اعتبرت كونية فى طبيعتها وأن المربعات والمستطيلات فى أعماله التى قدمها بعد عام ١٩١٣ كانت تعبر عن أفكار أوسبنسكى فيما يتعلق «بمكعبات البعد الرابع التى تعبر سماء فضائنا المألوف». من هنا فإن مرحلة النضج الفنى فى أعمال مالفيك يمكن أن تفسر كنقطة الاتصال ما بين العالم الثلاثى الأبعاد الذى نعيش فيه وجودنا الأرضى والفضاء اللانهائى الرباعى الأبعاد الذى يقع فيما وراء إدراكنا.

وقد أثرت أشكال مالفيك الأحادية التفكيكية المختزلة بصورة حادة فى تطور الفن المصغر والإدراكى فى مرحلة لاحقة. وشكلت أيضًا النموذج الأول لما يصفه جولدنج بـ:

> «عدد لا حصر له من التجريديين فى مراحل تالية ممن حققوا أهدافهم.. هؤلاء الفنانون وجدوا أنفسهم فى وضع تراجيدى.. فكان التساؤل كيف يصلون لنقطة أبعد وكيف يتفادون تكرار قمة إنتاجهم. ذلك التكرار الذى سيؤدى فى النهاية لاستنزاف أصالة التأثير والمعنى فى أعمالهم».

ولكن هل كان بإمكان مالفيك أن يحتفظ بحيوية إبداعه حتى حقبة الثلاثينيات مثلما فعل كاندنسكى وموندريان؟! يظل هذا السؤال مطروحًا بعد أن اختصر ستالين مستقبل مالفيك كفنان تجريدى يمنعه للفن التجريدى، مما أدى لأن يمضى مالفيك بقية حياته ممارسًا للفن الواقعى. من المدهش أن جولدنج قد تجاهل هذا الجانب من التاريخ الفنى لمالفيك فى كتابه. مع ذلك فإن هذه المشكلة والصور المختزلة كانت بمثابة التحدى للتجريديين الأمريكيين الذين خطوا بالتفكيك خطوة أبعد.

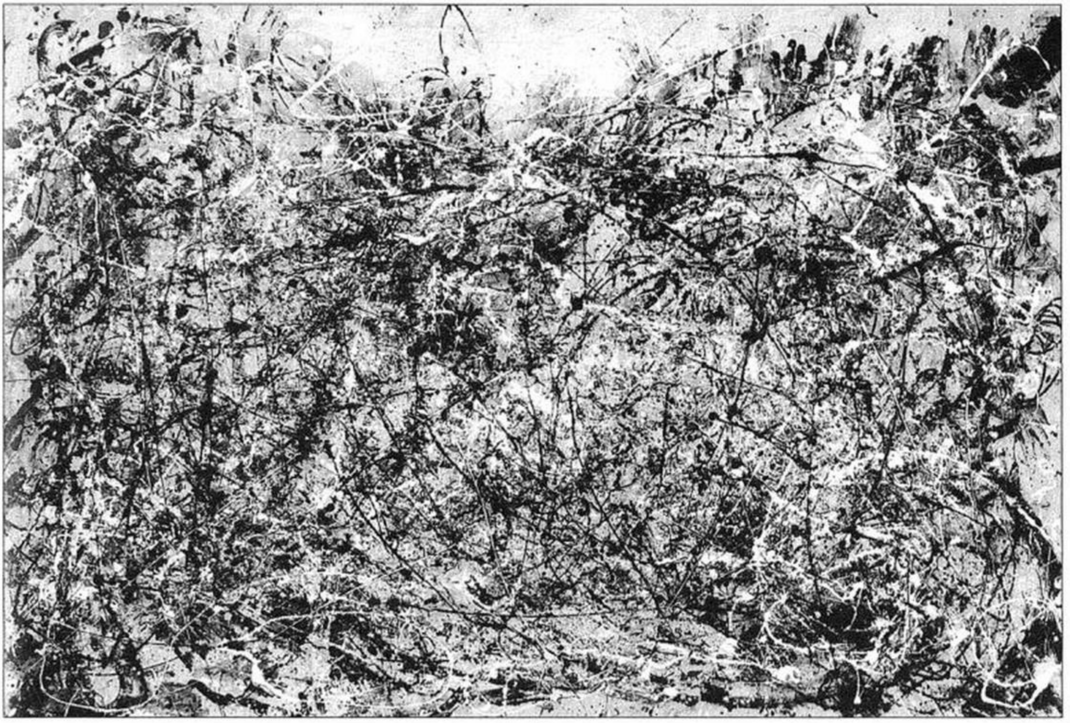
مرحلة الريادة الأمريكية:

بينما كان التجريديون الأوروبيون منشغلين بالوصول لفهم كونى موضوعى، كان الأمريكيون يسعون لتحقيق معنى كونى شامل عميق الذاتية.

ويشير جولدنج إلى أن الأوروبيين «قد حققوا المطلق وطهروا الفن بفصل ذواتهم عن الصورة، بينما حاول الأمريكيون تحقيق نفس الهدف تقريبًا بإغراق أنفسهم بالكامل فى لوحاتهم من خلال التعمق فى حقيقة أنفسهم ليتحولوا هم أنفسهم لجزء من الفن». فلقد كان الفن التجريدى بالنسبة للأمريكيين معادلاً للتعرف على الذات.

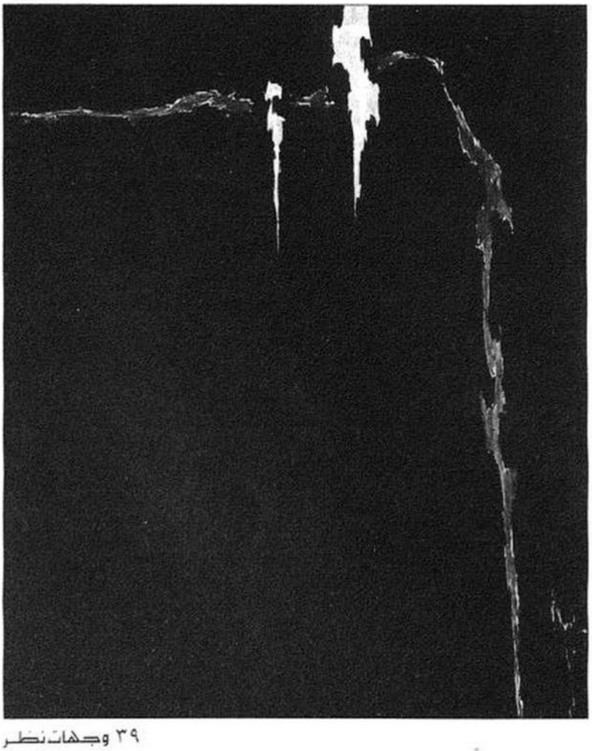
يقول كليفورد «أنا أرسم نفسى، لا الطبيعة». وعندما سألوا بولوك لماذا لا يرسم الطبيعة أجاب «أنا الطبيعة». ثم قال: «إن الرسم هو اكتشاف للذات وكل فنان جيد يرسم نفسه».

ويعرض جولدنج فى كتابه الكيفية التى خلق بها كل فنان من الفنانين الأربعة نوعًا من الخيال الخاص من المفترض أن يعبر عن المطلق وينتمى للفنان

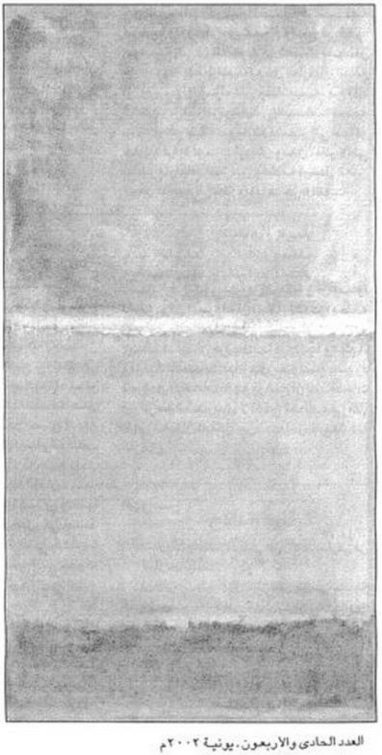


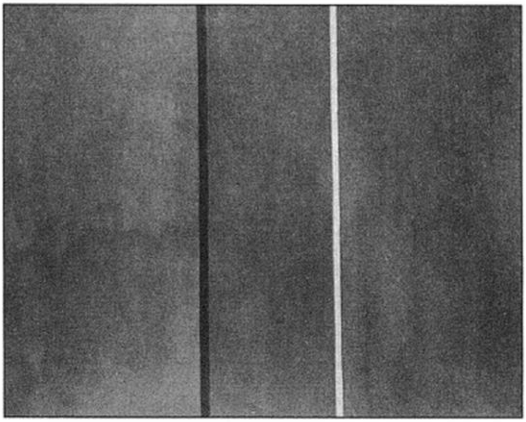
بـولــوك

سـتـيل



روثكـو





نيومان

نفسه. فشبكات بولوك من الألوان المنسالة، وحقول روثكو النابضة بالألوان، ومساحات نيومان الواسعة المحددة بالخطوط الطولية ولوحات ستيل الضخمة بأطراف الستائر المنحسرة، كل واحدة منها تعبر عن الفنان نفسه. كل واحدة تعكس خيالات الفنان الذى رأى فى عمله مملكته الخاصة التى لا يمكن لأحد أن يطأها. لكن هذا التفرد العقلى لم يكن بلا ثمن. فيرى جولدنج أن كل عمل كان معبرًا للمطلق. لكن قد يكون إحساس الفنانين بأنهم اقتربوا تمامًا من الهدف أو عدم التأكد من كيفية الانتقال لمرحلة أخرى دون السقوط فى هوة التكرار هو الذى أدى ليأس بولوك وانتحار روثكو.

وإذا كان الأوروبيون قد شغفوا بالأفكار العلمية والفكر الاستبطانى. فقد شُغل بولوك ورثكو واستيل بمنطقة اللاوعى والاستبطان والتسامى بالإضافة لتأثرهم بما أطلقوا عليه الفن البدائى، خاصة فن الهنود الحمر. وكانت السيريالية بتركيزها على التعبير عن اللاوعى من خلال الاستكشاف الذاتى للنفس وأساليب أخرى كالحركات التلقائية أثناء ممارسة الرسم، بمثابة المصدر الذى زودهم بأسس إبداعية وأدوات لتكوين الشكل. ورغم أن الفنانين الأمريكيين قد رفضوا قاموس السيريالية وتركيزها على النقد الجنسى والاجتماعى، إلا أنهم شعروا أنه يمكن تحويل تكنيك السيريالية الذاتى لتشكيل متسام غامض. كذلك فلقد أمدهم الفن البدائى بأداة أخرى للوصول للمشاعر الأولية والشمولية التى عبرت عنها فكرة Jung عن الضمير الجمعى والتى استثارت اهتمام بولوك فى أواخر الثلاثينيات.

الأكثر من ذلك، أنه وبما أن الفن الهندى يمثل الفن الأمريكى الأول، فقد منحهم ذلك الفرصة للتحرر من ثقل التقاليد الأوروبية.

شعر التجريديون الأمريكيون أن أحد أوجه قصور الحداثة الأوروبية يتمثل فى فشلها فى مواجهة مشكلة التكرار. وفى محاولتهم للتغلب على تلك المشكلة، لعب حجم اللوحة دورًا مهمًا. فبينما قدم التجريديون الأوروبيون لوحاتهم على وجه العموم بحجم حامل الرسم التقليدى، بدأ الأمريكيون فى استخدام تكوينات ضخمة خلقت علاقة مادية جديدة بين العمل والمشاهد.

ولقد أشار نيومان إلى أن المقياس يعادل المشاعر. كما أوضح جولدنج أن المقياس الضخم فى لوحات بولوك كان يمثل إحالة ليتوافق مع الجسد البشرى فيقول:

> «من الملاحظ أن نسبة كبيرة من أعمال بولوك الكاملة التى استخدم فيها أسلوب الألوان المنسالة أو المسكوبة فى عام ٤٧ والتى تعتبر من أنجح أعماله وأكثرها إثارة، عمودية التكوين وتتناسب مع المقاييس البشرية. (متوسط حجم اللوحة ٦ أقدام و٦ بوصات × ٣ أقدام و٦ بوصات). فى هذه اللوحات نشعر بقوة أن بولوك يقيس حجمه بالنسبة لسطح اللوحة مما يؤدى للإحساس بتوحده العميق مع اللوحة ـ إلى هذا الحد تتحول اللوحة لتواجهه بوجوده الذاتى ـ وهى تسمح له أيضًا أن يعبر خلالها، كما لو كانت مرآة، إلى عالم تتعالى فيه الذات. فالإيماءات عندما تترجم إلى رتم تصويرى تحل محل الفنان، بل يمكن القول إنها تصبح الرمز السحرى.. فالإيماءة شىء رائع ويمكن توظيفها فى إطار الشكل لتكبر ولتفوق الفنان الذى وضعها».

واحد المتناقضات التى نشأت عن هذا الأسلوب فى التصوير الضخم الحجم الذى تبناه الفنانون الأمريكيون أنهم قد أصبحوا أكثر عمومية وفى نفس الوقت أكثر خصوصية من التجريديين الأوروبيين. لقد كان هدفهم أن يجسدوا الحس التراجيدى والمتسامى فى نفس الوقت، وأن يكسبوا التعبير عن الكون لمسة شخصية عميقة. ولقد اعتمدت مراحل تحقيق ذلك، كما لاحظ جولدنج، «على الفروض الميتافيزيقية التى تحولت إلى رؤى خرافية عن الفن لتحوله إلى تظاهرية أو فعل سحرى».

وعلى غرار أسلافهم الأوروبيين، أراد الأمريكيون أن يخلقوا صورًا تجريدية تستعيد وتحفظ الإحساس القوى بالموضوع. ولقد أوضح بولوك أن «الفن التجريدى تجريدى»، ولكنه قال أيضًا وبنفس القناعة «إننى لست تجريديًا تمامًا فى بعض الأحيان وتجريدى فى أحيان أقل» وعن التجريد فى المعرض الخامس عام ٤٧ والذى حمل عنوان Full Fathom Five يكتب جولدنج قائلاً:

> قد يبدو الأمر فى البداية كتكوين لشكلين، خاصة ونحن نعرف أن كثيرًا من أعمال بولوك بدأت بخيال مفهوم. ولكن عنوان العمل يوحى أن الخيال قد غاب وتمزق فى طبقات الألوان التى تجرى هنا وهناك لتتداخل وتتشابك، وفى ظل هذا يضيع العمل فى الألوان الزيتية رغم أن السطح مُحمل بمواد غير تقليدية مثل الأزرار والمفاتيح والأمشاط والسجائر وما شابه ذلك من البقايا التى تشى بوجود الإنسان. بحياة عاشها الفنان خلال ممارسته الفنية.

بل إن الفنانين اللاوصفيين مثل روثكو ونيومان قد استخدموا أشياء لتمثل نقطة ارتحال، حيث أرادوا لأعمالهم أن تعبر عن التجربة الحياتية. فكتب روثكو أن معظم أشكاله لا علاقة لها مباشرة بأى تجربة مرئية خاصة، فمن خلال لوحاته يدرك الفرد القواعد والأحاسيس الانفعالية للكائن الحى.

أما نيومان فقد درس علم النبات والجيولوجيا وبُهر بعلم الطيور، وشعر أن الشكل التجريدى يمكن أن يكون كيانًا حيًا، عربة للأفكار المجردة المركبة، ناقلاً للمشاعر المرعبة وبالتالى فهو واقع.

كذلك فقد حمل نيومان أعماله بالأفكار القبلانية، واستخدم رموزا يهودية فى أبعاد ومساحات لوحاته. ومن الواضح أنه وإن كان مضمون العمل لا يتبدى على الفور أمام عينى المشاهد، إلا أن وضوحه أمام الفنان أمر حيوى للغاية. فهو المرشد الذى يمد الفن بما يطلق عليه جولدنج «الإحساس بالفخامة والغرض الانفعالى».

ويمثل المضمون المستتر الذى يرتبط بالفن التجريدى عنصرًا مهمًا فى كيفية استيعاب العمل. ففى بعض الأحيان يمثل الشفرة أو شرح الصورة المرئية التى يعبر عنها العمل. فى نفس الوقت فبمجرد أن يدرك المشاهد هذا المضمون المستتر لا يمكنه تجاهله. ويوضح جولدنج فى تحليله لما كتبه الفنانون عن أعمالهم أنه يحلو لنا أن نتصور أن ردود أفعالنا تجاه العمل التجريدى ما هى إلا ردود فعل بصرية، لكن الحقيقة أن عددًا من العوامل المنطوقة تلعب دورًا فى هذا. وهذه العوامل لا توجد داخل الصورة الخيالية التى ينقلها الفنان مثلما يحدث فى التصوير السردى التقليدى، ولكنها تتارجح فى مكان ما خارج العمل، فى جسد كبير متنوع مكون من الأفكار التى يقدمها الفنانون فى لوحاتهم ونصوصهم التى خطوها عن أعمالهم وقراءات الآخرين للوحات، وبالطبع أسماء اللوحات.

وإطلاق الأسماء على اللوحات أمر يختلف من فنان لآخر وحتى فى أعمال الفنان الواحد. وعلى سبيل المثال، فقد كان بولوك فى العادة ينمُر لوحاته متتبعًا الموازير الموسيقية وأحيانًا كان يعطيها أسماءً مثل «نغم الخريف». وهذه الأسماء تؤثر على التجربة البصرية وتحدد منظور اللوحة. ففى كثير من الأحيان يطلق الفنان أسماءً على أعماله بعد انتهائه منها بغرض أنها تساعد على تشكيل رد فعل المشاهد. ويشير جولدنج إلى أن نيومان كان يفعل ذلك دائمًا مؤكدًا أن عناوين لوحاته مجرد استعارات، الهدف منها وصف مشاعره وهو يرسم اللوحة.

ويطرح جولدنج فكرة أن إدراك العناصر البصرية المجردة فى الفن التجريدى تحدده إلى درجة كبيرة التقاليد التى تحدد عملية الرؤية ـ ويشير إلى مصداقية هذه الفرضية عندما يرتبط الأمر بالطرق المختلفة التى تحول اللمسة الفنية لجزء مهم فى مضمون اللوحة. فعندما ندرك علامات أو نماذج معبرة فى اللوحة فمرجع ذلك بدرجة كبيرة، أننا تعلمنا أن نقرأ الفن بأسلوب معين. فالخيوط المنسالة فى أعمال بلوك قد تُفسر كتعبير عن التلقائية والعشوائية وعادة ما يتم إدراكها كتعبير عما أطلق عليه الفنان، تجسيد للطاقة والحركة. كما أنه يمكن فهمها كرابطة بين الأفكار والحالة النفسية، مثل غضب الفنان الداخلى.. كتجسيد لمراحل التذكر أو للتعبير عن قوى الطبيعة.

وفى لوحات نيومان، تصبح الخطوط الراسية أو الاندفاعات، التى تقسم المناطق الواسعة الهادئة للألوان الباردة، أحيانًا أوضح مناطق اللوحة تصويريًا، فيصبح التناقض بين اللمسات اللونية المختلفة فى حد ذاته موحيًا وذا معنى. ويشير جولدنج فى فقرة موحية إلى أن الخطوط فى أعمال نيومان تؤدى مهمة الخط المستقيم ذى الطرفين، الدافع أو المُقسم للأجزاء على جانبيه. مع ذلك فالخطوط تتزامن وتعكس إحساسًا بجمع جزءى اللوحة سويًا. ثم يشير إلى أننا لو حاولنا قراءة لوحات نيومان ونحن ننظر لأعلى نشعر بارتباط الجزءين وعندما ترتحل العين لأسفل تنفصم الرابطة ويتباعد جزءا اللوحة.

لقد أراد التجريديون الأمريكيون أن يمثلوا المطلق. ومن المعروف أن المطلق لا يمكن وصفه إلا بطرق ذاتية. ولكى نسبر أعماق لوحاتهم لابد للمشاهد أن يرتبط بها عاطفيًا وعقليًا، وهذا بالتحديد ما فعله جون جولدنج بصورة تستحق الإعجاب. فهو يوضح أن التناقضات فى الرسم التجريدى لا تلغى قدرته على نقل المعنى، هذا إن لم تكن جزءًا مهمًا من طبيعة هذا الفن. ■

الهوامش

(١) إشارة لشخصية رئيس الوزراء الدانماركى فى مسرحية هاملت.

(٢) فن الأرض يعتمد فيه الفنان على عناصر الطبيعة مثل وضع ستارة على جبل أو تكوين بجوار نهر.

بترتيب خاص مع:
The New York Review of Books
ترجمة: سناء صليحة



كراون بلازا
CROWNE PLAZA HOTELS · RESORTS

Holiday Inn HOTELS · RESORTS

انتركونتيننتال
فنادق ومنتجعات

الفنادق المشاركة	السعر	وجبات الطعام
شرم الشيخ		
منتجع هوليدى إن أمفوراس شرم الشيخ	١٢٠جنيهاً	الإفطار والعشاء (صباح عائلى)
منتجع هوليدى إن شرم الشيخ	١٣٠جنيهاً	الإفطار والعشاء
منتجع كراون بلازا شرم الشيخ	١٤٠جنيهاً	الإفطار والعشاء
الغردقة / سفاجه		
منتجع هوليدى إن سفاجه بالاس	١٢٠جنيهاً	٣ وجبات
منتجع وكازينو الغردقة إنتركونتيننتال	١٣٠جنيهاً	الإفطار والعشاء
القاهرة		
منتجع بيراميدز بارك إنتركونتيننتال	١٤٥جنيهاً	وجبة الإفطار
سميراميس إنتركونتيننتال القاهرة		
متاح فى نهاية الأسبوع - من الخميس إلى السبت	١٩٠جنيهاً	وجبة الإفطار
متاح فى باقى أيام الأسبوع - من الأحد إلى الأربعاء	٢٤٠جنيهاً	وجبة الإفطار

ترقبوا إفتتاح

هيليوبوليس إنتركونتيننتال القاهرة	ديسمبر ٢٠٠٢
منتجع شرم الشيخ إنتركونتيننتال	النصف الثانى من ٢٠٠٢

للحجز: يرجى الإتصال بالفندق الذى تختارونه أو بوكيل سفركم المحلى.

للتمتع بهذا العرض الرائع والمزايا التالية العديدة ذات القيمة المضافة العالية يرجى تعبئة بيانات هذه القسيمة وإبرازها لدى وصولك إلى أى من الفنادق المشاركة*:

- **أقم ليلتين واحصل على قسيمة تتيح لك الإقامة لمدة ليلة واحدة مجاناً فى المرة المقبلة**
- **إقامة مجانية للأطفال**
- **خصم قدره ٢٥ ٪ على مختلف الأنشطة الرياضية**
- **خصم قدره ١٠ ٪ على العرض للذين تجاوزوا الستين من العمر.**

الإسم:

تواريخ الإقامة: من

الفندق:

* مزايا إضافية محدودة فى فندق سميراميس انتركونتيننتال القاهرة

SIX CONTINENTS

www.sixcontinents.com

الأحكام والشروط: يعطى السعر إقامة شخص واحد لليلة واحدة فى غرفة بسريرين شاملاً الضرائب ورسوم الخدمة. يسرى العرض حتى ٣٠ يونيو ٢٠٠٢ بإستثناء الإجازات الرسمية. وهو رهن بتوافر الغرف. تصرف قسائم ليالى الإقامة المجانية لدى مغادرة الفندق. ويمكن الإستفادة منها لفترة إقامة لاحقة فى أى من الفنادق المشاركة قبل ٣٠ سبتمبر ٢٠٠٢. تحتفظ فنادق القارات الست بالحق فى تعديل هذا العرض من دون إشعار مسبق. هذا العرض خاص بالمصريين والأجانب المقيمين فقط. إقامة مجانية للأطفال أصغر من ١٥ سنة عند مشاركتهم الغرفة مع ذويهم


QUALITY ASSURED FIRM
ISO 9001
SGS
ماك
سجاد ماك لكل الأغراض.. لكل الأجيال
قطع موكيت
دواسات حمام
سجاد أطفال
مشايات
مطبوع
شرقى
ماك على الإنترنت
www.maccarpet.com

مراكز البيع:

بواقي التصدير والرواكد

مصر الجديدة: ١٢ ش محمد المهدى . نبيل الوقاد أرض الجولف ت: ٤١٤٧١١٢

مدينة نصر: أرض المعارض بوابة (٩) شارع القنجرى ت: ٤٠١٦٢٣٠

الزيتون: ١٣ ش عين شمس . ميدان حلمية الزيتون ت: ٢٤١١٣٤٧

عين شمس : ش أحمد عرابى من أحمد عصمت أمام مزرعة الزهراء للخيول ت: ٢٩٦٦٥٦٤

الشرابية: ٤٠ شارع الآلايلى ت: ٢٣١٤٣٤٦

المرج: ش ترعة السلطوحية عمارة سعيد شاهين ت: ٠١٠/٥٢٠٠١٩٠

الحرفيين: ميدان الحرفيين عمارة الربيع ت: ٢٨١٧٨٨٠

شبرا: ٦٤ ش روض الفرج . دوران شبرا ت: ٤٣٢٦٨١٠

ناهيا: ١٠٧ش ناهيا بولاق الدكرور ٠١٠/١٧١٠٣٨٩

الزاوية الحمراء: ٦ شارع منشية الجمل عمارة العمدة ٠١٠/١٤٥٥١٠٦

العمرانية: ٢ ش عبدالرحمن مطر ت: ٥٦٤٠٨٦٢

إمبابة: ٦٣ ش الوحدة ت: ٢١٠٧٧٢٦

الهرم: ٤٥٦ أول ش الملك فيصل ت:٧٧٥٧١٦٨

مصر القديمة: ٦ ش أثر النبى ت: ٥٣٤٠٩٨٧

المعادى: ٢ طريق مصر حلوان الزراعى محطة المطبعة ت: ٥٢٤٦١١٦٥

حدائق القبة: ١٤٥ ش مصر والسودان . محطة الجراج ت: ٠١٠/١٤٥٥١٠٧

القلعة: ١ ش سوق السلاح ت: ٠١٢/٣٤٣١٦٠٥

بهتيم: ٣٢٩ ش ١٥ مايو أمام حى شبرا الخيمة ٢٢٢٩٧٠٨

صفط اللبن: سنتر الصاوى . شارع التحرير ٧٢٠٧٦٩٢

مكرم عبيد: ٣٥ شارع أبو داود الظاهرى . مكرم عبيد ت: ٢٨٧٢٦٣١

فيصل التعاون: ٣٥٧ شارع الملك فيصل . محطة التعاون . الهرم٠١٠/١٧١٠٤٩٠-

الصحفيين : ٣ ش النيل الأبيض متفرع من شارع أحمد عرابي ت: ٣٠٣٩٤١٢

السيدة زينب: ٣٨ شارع مراسينا ٠١٠/٦١٨٦٩٤٥

حلوان: ٢٧ ش أحمد بدوى من رايل ت: ٥٥٥٩٨٨٧

الأوبرا : ١٠ ميدان الأوبرا محلات إسماعيل علي ت: ٣٩١٤٩٩٩

المنزلة: شارع عبدالمنعم رياض عمارة الدكتور الخريبى

دار السلام: شارع الفيوم أمام مجمع المدارس

العباسية: ١٥ ش العباسية . ميدان الجيش ت: ٥٨٩٣٨٥٠

أرقام تليفونات معارض مدن القناه والوجه البحري

العاشر من رمضان: الحى الأول ت: ٣٦١٢٢٤

العاشر من رمضان: المجاورة ٩ ت: ٣٦٦٧٧٨

العاشر من رمضان: دوار العاشر . طريق الإسماعيلية

دكرنس: ش مجلس المدينة عمارة م التميمى ٠١٠/١٧١٠٣١٢

بلقاس: ش طريق الحرية . خلف المحكمة ٠١٠/٦٦٩٨٥٧٧

محرم بك: الإسكندرية ٦ شر أبيدوس من شارع مسجد الحضرى ت: ٠٣-٣٩١٨٤٧٠

دمنهور: ١٢ ش الشيخ عبدالكريم ت: ٠١٢/٣٤٢١٦٠٦

ميت غمر: ٥٢ ش الحرية متفرع من ش بور سعيد ٠١٠/١٧١٠٤٧٠

القناطر الخيرية: ٢٥ ش البقلى متفرع من ش ١٤ ٠١٠/١٧١٠٤٧٩

شبين القناطر: ٩ ش الدلتا ٠١٣٧٢٢٠٣٣

بنها: ش الكوبرى ت: ٢٥٣٩٧٠

السويس: ٣٦٦شارع الجيش ٠١٠/١٧١٠٤٥١

المحلة الكبرى: ش شكرى القوتلى من ش الجيش ٠١٠/١٧١٠٤٦٨

طنطا: ٨٧ ش سعد الدين من ش النحاس ت: ٤٠٨٢٧٤

المنصورة: ش الجمهورية أمام كلية العلوم ت: ٣٧٢٦٤٧٤

كفر الشيخ: ٤ ش الشهيد محمد الدمرداش الشيتانى ت: ٢٢٣٠٨٥

الإسكندرية: ٥٠ ش مصطفى كامل أمام كلية التربية الرياضية . فلمنج ت: ٥٨٠٤٧٩٧

رمادا: برج رمادا بالإسكندرية ت: ٥٥٧٩٧٤٨

العصافرة : ش عثمان إبن عفان بجوار المعهد الديني ٠١٠١٠٠٤٧٣٩

الزنانيرى الإسكندرية ١٠٢ ش الزنانيرى - سيدى جابر ت: ٥٤٦٠٩٩٩

العامرية : ش مجمع سيدي مسعود الإستهلاكي عمارة خميس الهواري ٠١٢/٢٧٥٨٥٠٠

الزقازيق: ش المديرية عمارة العقدين الكبيرة المنتزة ت: ٣٢٢٣٢٩

منوف: ٨ ش ترعة الحشاشة . طريق التأمين الصحى ت: ٦٦٠٠٧٣

دسوق: ش الجيش . أمام عمر أفندى ٥٦٥١٥٣

الإسماعيلية: شارع شحتة - السكة الحديد سابقا ٣٥٥٧٦٥

شبين الكوم: ٣ شارع صلاح الدين أبو الخير من شارع الجلاء البحرى

بورسعيد : ميدان المسلة - برج المسلة ت: ٠١٠٥١٣٤١١٤

دمياط: ش جنينة سرور أمام الفرن الآلى ت: ٣٢٨٠١٣

كفر الدوار: ١ ش أحمد عرابى ت: ٠١٢/٣٤٣٦٠٧

أبو حماد: ٣٠ ش التحرير برج العزازى ت: ٣٤٠٩٥٤٤

السنبلاوين: ٦ الجيش المصرى ت: ٠٥٠/٦٩٨٥٧٧

كوم حمادة: ش مستشفى المواساة خلف مجلس المدينة ٠١٠/١٩٣٢٤٢٨

فاقوس: ش الساحة عمارة المتيم . خلف المحكمة ت: ٠١٠١٩٧٧٥٣٣

كفر الزيات: ش الجيش أمام نادى المعلمين ٠١٠/١٣٤٨٣٥٧

العريش: ش ٢٣ يولية أمام بنك القاهرة ٣٦٥٦٥٦

عناوين وأرقام تليفونات المعارض عن الوجه القبلي

سوهاج: ش النهضة بجوار عمر أفندى ت: ٠٩٣/٣٢٢٨٩٠

بنى سويف الجديدة: ٣ شارع أحمد عرابى ت: ٠١٢/٢٨٣٧٢٨

بنى سويف: ٥ ، ٦ ش أرض المحلج ت: ٣١٥٤١٦

قنا: ش كوبرى دندرة عمارة أحمد عامر ت: ٣٢٣٦٤٨

قنا الجديدة: ش جودى متفرع من ش الأقصر سوق ليبيا ٠١٠/١٦٦٦٨٩٥

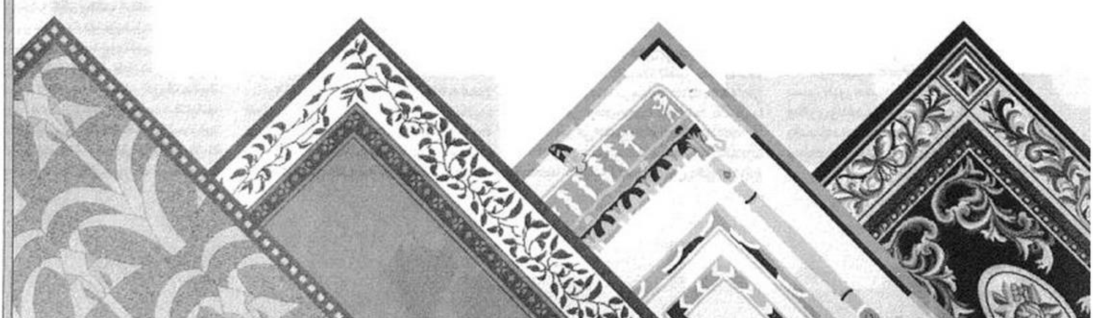
الأقصر: ش مدرسة الصنايع . السوق التجارى ت: ٣٧٢٠٨٣

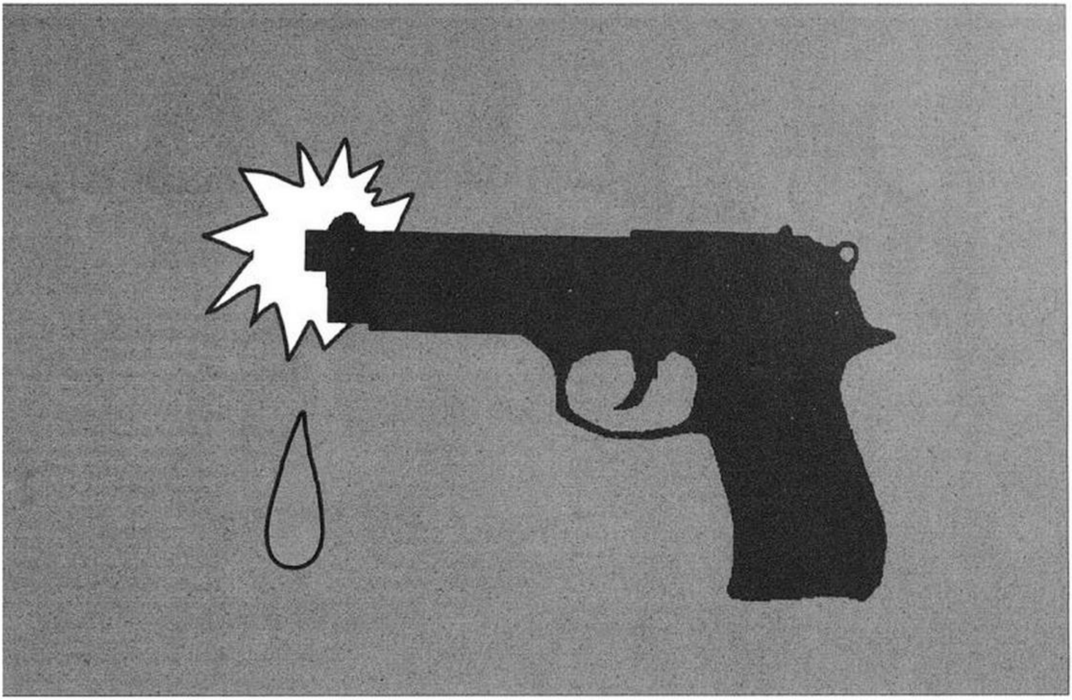
أسوان: هيميمى الجبلاوى متفرع من شارع قاضى الجداوى ٠١٠/٧٦١٨١٩

أسيوط: ١٢ ش المدينة المنورة الزهراء ٣٠٦٠٣١

المنيا: ١ ش الجمهورية ت: ٠٨٦/٣٥٢٦١٦

الفيوم: ش ٢٦ يوليو عدلى يكن سابقا ت: ٠٨٤/٣٤٤٢٢٢





محمد حسنين هيكل

"ثورة يوليو: خمسون عاما"



عندما اقتربت الحرب العالمية من نهاياتها سنة ١٩٤٥، كانت الدنيا تعيش حالة شبيهة بظواهر الطبيعة حين يؤذن الشتاء على الرحيل ويبدأ موسم ذوبان الجليد، وتتحول الكتل والمساحات البيضاء المتراكمة على القمم والسفوح إلى سيول تنحدر من مساقطها ويشتد هديرها وتكتسح أمامها ما يعترض طريقها، ثم يزيد الفيضان - فإذا هو الطوفان.

وكذلك حدث لأمم الأرض وشعوبها ما يحدث على تضاريس الطبيعة ومعالمها، فالحرب بالضرورة تجميد للحياة المدنية، وقيد على الأمل، وتعطيل لحق الاختيار، والناس يقبلون - بإدراك أن مطالب البقاء والنصر، لابد أن تكون لها أولوية تسبق ما عداها. لأن أمم الأرض وشعوبها عندما تجد نفسها فى مواجهة تحديات البقاء والنصر - تقبل تطوعا فى زمن الحرب ما لا تقبله غصبا فى ظروف عادية، ورجاؤها أنه حين تحقق التعبئة غايتها وطاقتها بالبشر والموارد، وتقدم التضحية ما عندها دون مساءلة، وتحقق الإرادة ما عزمت عليه وصممت - إذن فإنه فى ذلك الوقت وليس قبله - يذوب الجليد، وتومئ البشائر إلى ربيع آت.

والحاصل أن أمم الأرض وشعوبها التى رأت (سنة ١٩٤٥) بوادر تغيير الفصول، راحت تفتح بالطموح ما أوقفته الحرب بالتجميد، وعندها تحركت التصورات والرؤى، والأفكار والآمال، والمشروعات والخطط، تسابق بعضها بعضا، وتتدافع راغبة فى تأكيد مواقعها ومطالبها على خريطة دنيا جديدة تراها عند الأفق القريب!

ولأن الحرب العالمية الثانية بالذات كانت أقسى وأعنف صراع سجله التاريخ الإنسانى - فإن شتاءها حل طويلا وموحشا، وجليده جاء كثيفا وعميقا، وكان ذوبان الصقيع باهرا وفى بعض اللحظات مخيفا، لأن كرات ثلج فى ثقل الجبال أفلتت وانقضت على السفوح والوديان، تدهمها كأنها مقادير نازلة.

ومع نهايات الحرب العالمية الثانية كانت الظاهرة الطبيعية - الإنسانية، نشيطة وفاعلة على نحو لم يسبق له مثيل فى تاريخ الحروب، لأن ذوبان الجليد بعد هذه الحرب بالذات - فك وأطلق قوى وعناصر مهولة، منها ما كان فى موضعه من الأصل، ومنها ما استجد بفضل ما كان يتفاعل فى العمق تحت الجليد المتراكم!

● وعلى سبيل المثال - بداية - فإن الحرب العالمية الثانية كانت أول حرب فى التاريخ يمكن وصفها بأنها «حرب كل الناس»، بمعنى أنها لم تكن حرب فراعنة وقياصرة وأباطرة - ولا حرب أديان سماوية وكتب مقدسة ورسل مكلفين - ولا حرب إمارات وممالك وإمبراطوريات - ولا حرب ماريشالات وجنرالات وجيوش، وإنما كانت - بالفعل - «حرب كل الناس» - والأسباب:

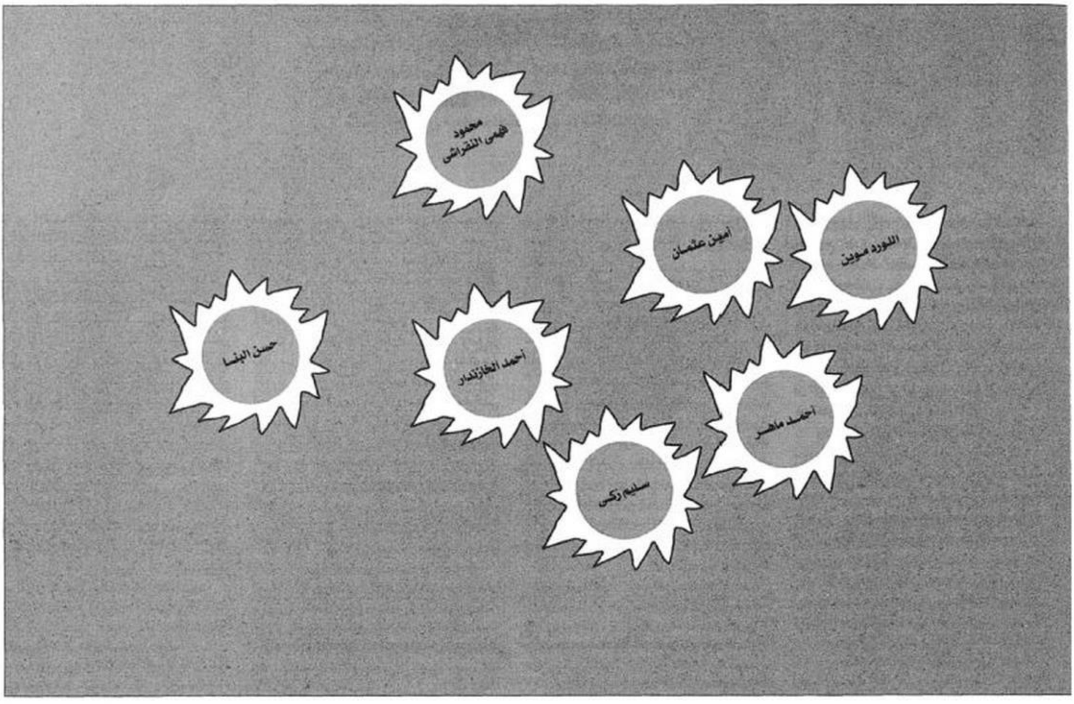
- أن الموارد المطلوبة لتمويل تلك الحرب أوسع من خزينة أى دولة بما تحصله من ضرائب، وعليه فإن ذلك المطلوب لابد أن يتوافر - بالقبول والرضى ليؤخذ من خزائن ومدخرات «كل الناس».

- والجنود الذين تحتاج إليهم المعارك - أكبر من أى جيوش حاربت من قبل، ولذلك تحتاج فى الحشد إلى تطوع «كل الناس».

- والحرب لم تعد جبهات قتال وإنما هى بسبب ظهور الطيران والصواريخ، جعلت المدن والقرى والمصانع والحقول وحتى دور العلم والبحث - أهدافا عسكرية مرصودة، وبالتالى جبهات قتال يقف عليها «كل الناس».

- وقلوب وعقول الشعوب تحولت بظهور

٧ رصاصات



السؤال الأول: هل كانت الثورة لازمة؟ ٣

الراديو ويعيدا بعيدا عن جبهات القتال، إلى مواقع حرب نفسية تختبر عليها الإرادات الوطنية، والمعنى أن الحرب فى المبتدأ والمنتهى داخل قلوب وعقول «كل الناس».

● وعلى سبيل المثال - ثانيا - فإن اشتراك الاتحاد السوفيتى - وهو دولة الطبقة العاملة المؤمنة بأنها غاية التاريخ (وإن لم تكن نهايته) - ودخول الولايات المتحدة الأمريكية (وهى المعتبرة أمل التاريخ لأنها «موطن الحرية والفرصة المتكافئة») - جعل المقاتلين ضد النازية على الناحيتين - على اختلاف ما بينهم - جندا يختلف عما عرفته ميادين القتال سابقا. والداعى أن الرجل العامل (السوفيتى)، والرجل العادى (الأمريكى)، كلاهما جاء إلى الميادين حاملا عقيدة اجتماعية: أحدهما يرفع فى يده حلم «العدل والمساواة»، والآخر يقدم «حلم الطموح والديمقراطية».

ومعنى ذلك أن الحرب نموذجان فى تنظيم وإدارة المجتمعات - كلاهما يحارب دفاعا عن وجوده ضد النازية - وفى نفس اللحظة يحارب لتأكيد وإعلان تفوقه بعد النصر.

● وثالثا - على سبيل المثال أيضا - فإن الحرب لم تظهر حاجة ماسة إلى الموارد وقوة النيران فقط، لكنها استدعت عنصرين جديدين: أولهما العلم والتكنولوجيا (قوة رئيسية وليس قوة مضافة - كما كان الحال من قبل). وثانيهما الثقافة والفكر (تأثيرا فاعلا وليس تأثيرا مساندا - كما جرى فى مرحلة سابقة)، وعندما توصل العلم فى ظروف الحرب إلى اختراقات هائلة فى مجالات غير مسبوقة مثل الفضاء والذرة، فإن الثقافة والأفكار - بالتوازى - حققت نفاذا مذهلا فى عرضها لوعد المجتمعات المتنافسة بعد نهاية الحرب المشتركة ضد هتلر.

وحين توقفت الحرب لم يكن الطوفان ما ذاب من الجليد فقط - وإنما جرف الطوفان معه عناصر صنعتها الحرب فى حد ذاتها، وتخلق كيانها الحى فى رحم ظروفها الصعبة المشبوبة بالنار والمصبوغة بالدم.

وهكذا فإنه عندما انتهت الحرب، كان المشهد الجديد مجتمعات وعقائد متنافسة، وقيما ونظما تعرض نفسها، وعلوما وثقافات وطموحات، تحرك «جموع الرجل العامل» و«الرجل العادى»، و«كتل الناس» فى كل مكان، وبالتحديد أجيالا من الشباب، هى التى حملت عبء الحرب، وهى المشغولة بالمستقبل بعدها.

وكان تدفق الطوفان قادرا على بلوغ كل القارات - مع اختلافات فى الكتلة والسرعة!

● وما حدث هو أن الطوفان وصل إلى أمريكا الشمالية هادئا طبعا لأسباب، منها أن الولايات المتحدة الأمريكية بعيدة عن ميادين النار، وبالتالى فإن ضرورات تجميد الحياة المدنية أثناء الحرب لم تكن قاسية - ومن ناحية ثانية إن وفرة الموارد لم تجعل المتأخرات المستحقة حمولات ثقيلة تضغط وتتعجل - ومن ناحية ثالثة إن الولايات المتحدة جاءت إلى الحرب متأخرة، وجاءت واثقة من النصر، فهى عندما شاركت فيها كانت الجيوش الألمانية غارقة فى الشتاء الطبيعى على طول المسافة من وارسو إلى موسكو. والمعنى أن واشنطن لم تشعر بالتوتر أو الخوف فى أى وقت!

والحاصل أنه كان سهلا على الولايات المتحدة استقبال الطوفان، لأنه وصل إلى شواطئها البعيدة موجات استنفدت عنفوانها أثناء عبور المحيط. والأهم أن الولايات المتحدة بكل ما توافر لها من ظروف - كانت جاهزة، خصوصا وقد لجأت إليها خيرة عقول العالم واحتمت بها أغلى كنوزه، وقصدت إليها القمم فيما توصل إليه العلم وتطبيقاته، كما تيقظ لديها شباب فى التجربة التاريخية وفى العمر وفى الإمكانيات المتاحة، مع طموح إمبراطورى قادر على تحقيق مشروعه إذا ملك الحكمة (وكانت تلك هى المشكلة).

● وفى أوربا (وهى ميدان القتال الرئيسى) وقع - عندما بدأ ذوبان الثلوج - أن مؤخرة جيوش الاحتلال النازى أصبحت هدفا مكشوفا، لمقاومة شعبية (فرنسية - نرويجية - هولندية) فى الغرب، و(بولندية - تشيكوسلوفاكية - يوجوسلافية) فى الشرق، وقد وجدت هذه المقاومة أن بعض ما حصلت

..وحرب!



عليه من الأسلحة الصغيرة التي تركتها الجيوش المهزومة وراءها - كالمدفع الرشاش والقنبلة اليدوية واللغم المزروع في الأرض، يسمح بنوع جديد من القتال المؤثر والفاعل. ويستحق الملاحظة فيما حدث وراء الخطوط في أوربا - أن الأسلحة الصغيرة ظهرت مع المقاومين في يد بينما اليد الأخرى تحمل منشورات من ورقة واحدة في الغالب، تدعم إطلاق النار بإطلاق الأفكار، والمثير أن الفكر الذي توافق مع سلاح المقاومة على مؤخرة الجبهات في الغرب كان من الشرق (الماركسي) معظمه، كما أن الفكر الذي توافق مع سلاح المقاومة في مؤخرة الجبهات في الشرق كان من الغرب (الديمقراطي) معظمه.

وكانت وراء ذلك دلالة مهمة - تشير إلى أن كل جانب ينادي متشوقا ما يخشى أن يضيع منه، ويبحث في أي اتجاه عما يراه مكملا لطموحه، بمعنى أن فكرة العدل الاجتماعي تبحث عن الحرية السياسية - كما أن الحرية السياسية بدورها تبحث عن العدل الاجتماعي.

وعلى وجه التحديد فقد كان ذلك مجال الحرب الباردة: الثلوج تذوب على القمة - والوديان ترتعش من الصقيع!

● وفي آسيا كان الطوفان هادرا. ومع أن بلادا مثل الصين والهند تبدت ساحات مفتوحة لذوبان الثلوج - فإن التأثير الأظهر للأحوال الجديدة بان أول ما بان في إندونيسيا، التي أصبحت أول مستعمرة ترفض العودة إلى ما كانت عليه قبلا. بل إن شعبها وقف وأمسك أقداره بيديه مطالبا بالحرية والاستقلال وباحثا عن حياة جديدة ولو بالثورة المسلحة.

وبالنسبة لإندونيسيا بالذات كانت الظروف مناسبة:

● لأن إندونيسيا بلد كبير يتناثر ويلتف حول بعضه في أرخبيل هائل يتكون من ثلاثة آلاف جزيرة.

● ولأن القوة الإمبراطورية التي كانت تستعمر إندونيسيا قبل الحرب، بلد أوربي صغير هو هولندا، فإنها اصطدمت بالحقائق عندما راودها وهم العودة إلى مستعمرتها القديمة، وعندها اكتشفت أن الزمان اختلف.

● وكان الشعب الإندونيسي مهيا لا ترهبه خرافة «تفوق الرجل الأبيض»، لأن شعب إندونيسيا من ذلك الموقع في أقاصي الشرق رأى «الرجل الأصفر» الياباني (ممثلا في قائد بحري مثل الأميرال «ياما موتو» قائد الأساطيل اليابانية في «بيرل هاربور»، والجنرال «ياما شيتا» قائد الجيوش اليابانية في غزو «الملايو») - كلاهما يطارد الرجل الأبيض ويطرده، ثم إن الرجل الأبيض لم يتصرف مثلما تتصرف الآلهة (كما كان الإيحاء الإمبراطوري)، وإنما تصرف هذا «الجبار» المتوهم - مثل كل البشر في أحوال عافيتهم وفي أحوال الوهن!

● مضافا إلى سقوط هذا الضرب من الوهم، فإن الرجل الآسيوي (الإندونيسي) وجد حوله وفرة من الأسلحة الصغيرة تركتها الجيوش اليابانية وراءها (حتى لقد قيل وقتها أن الإندونيسيين في أيديهم من قطع السلاح ما هو أكثر من أرغفة الخبز).

وكان الطوفان قد سبق الوهم الإمبراطوري - وهناك على الجسر الواصل ما بين سنة ١٩٤٤ - إلى ١٩٤٥ - فإن ثورة إندونيسيا (تحت قيادة ثائر وطني مسلم هو «أحمد سوكارنو») أعطت النموذج والمثل، وحرضت ولفتت نظر شعوب آسيا وأفريقيا، إلى أنه زمان جديد!

مصـــــــرغـــائبـــة

في لحظة من اللحظات والطوفان يكتسح ويعم - بدا وكان مصر في كوكب آخر معزول عما يجري، أو على وشك أن يجري، في هذا العالم - في هذه اللحظة.

ويوم ٨ أكتوبر ١٩٤٤ - تلقى «مصطفى النحاس» (باشا) خطاب الإقالة الذي كان قيد الإعداد منذ اليوم الأول لوزارته التي جاءت بانقلاب عسكري (بريطاني) مساء ٤ فبراير ١٩٤٢. ومع أن «النحاس» (باشا) كان يتوقع الخطاب، فإن لهجة الإهانة التي حملتها السطور زادت وفاضت، وكاد الرجل أن يفقد أعصابه مع الرسول الذي حمل إليه الخطاب وسلمه له باليد («حسن يوسف» (باشا) القائم بأعمال وكيل الديوان).

والغريب أن الأزمة التي أودت بوزارة الوفد - كانت حادثة تافهة بأي معيار (خصوصا في مناخ طوفان عالمي). فقد حدث أن الملك قصد (يوم ١٤ سبتمبر ١٩٤٤) يؤدي صلاة الجمعة الأخيرة من رمضان (الجمعة اليتيمة) في مسجد عمرو بن العاص. وتجمع حشد من الناس يهتفون له، ولمح الملك وموكبه يقترب من المسجد لافتة بعرض الطريق تحمل عبارة «يحيا الملك مع النحاس». وعندما نزل من سيارته أشار إلى مدير الأمن العام - «محمود غزالي» (بك)، وكان واقفا في انتظاره يشرف على تأمين موكبه - قائلا: «إنه لا يتصور أن يجد اسمه مقرونا باسم أحد»، وهو لا يريد - عندما يفرغ من الصلاة ويخرج من الجامع - أن يرى تلك اللافتة. واعتبر «غزالي» (بك) ما سمعه أمرا، ودخل الملك بوابة مسجد عمرو بن العاص، وتوجه مدير الأمن العام إلى حيث كان حكمدار («قائد») بوليس القاهرة اللواء (الإنجليزي) «راسل» (باشا) يقف مشرفا على تأمين الموكب الملكي - ناقلا الأمر إليه وطالبا تنفيذه. لكن مدير الأمن العام (محمود بك غزالي) لم يكد يعود إلى بيته بعد صلاة الجمعة حتى أبلغه وزير الداخلية «فؤاد سراج الدين» - أن «رفعة رئيس الوزراء» هائج بسبب اختفاء لافتة تحمل اسمه. وهو يرى أن ذلك التصرف «عدوان على الشعب»، لأن الذي كتبها واحد من المصريين له حق التعبير عن نفسه - ! - وقد طلب «رفعة الباشا» إجراء تحقيق فيما جرى، وإلى حين إتمام التحقيق فإن «مدير الأمن العام» عليه التزام بيته موقوفا عن العمل!

وتحولت الحادثة إلى أزمة لأن الديوان الملكي اتهم «النحاس» (باشا) بوقف موظف كبير في الدولة عن العمل لأنه نفذ أمرا ملكيا لم يكن في مقدوره - ولا مقدور غيره - أن يعصاه. ثم إن «الملك مصمم على إلغاء قرار إيقاف مدير الأمن العام - كما أنه يرفض التحقيق معه».

ومع تحول الحادثة إلى أزمة فإن السفارة البريطانية اهتمت، ولأن السفير نفسه كان غائبا لإجازة في جنوب أفريقيا، فقد تولى القائم بالأعمال مكانه وهو الوزير المفوض «تيرنس شون» - إخطار وزارة الخارجية في لندن، وبعثت الوزارة تطلب معلومات مفصلة، وهنا كلف «تيرنس شون» - قائد بوليس القاهرة (الإنجليزي) «راسل» (باشا) - باعتباره شاهد عيان - أن يكتب تقريرا عن الواقعة. وبالفعل كتب «راسل» (باشا) - وختم بما مؤداه «أن إيقاف «غزالي» (بك) لا معنى له، لأن الرجل كموظف في الدولة، كان ملزما بتنفيذ أمر مباشر صدر إليه من رئيس الدولة (حتى وإن لم يعجب رئيس الوزراء!)

ومن الواضح أن لندن نفد صبرها وسئمت إقحامها المتكرر في الشأن المصري، وكذلك وصل تقرير «راسل» (باشا) إلى وزارة الخارجية البريطانية في جو مهيأ لقبوله، وكتب القسم المصري إلى وزير الخارجية البريطاني «أنتوني إيدن» مذكرة مختصرة تعرض نقطا رئيسية لها معانيها:

● «لا يصح لطرف في مصر أن يستدرجنا إلى الدخول في منازعات على هذا المستوى، خصوصا إذا كان الاستدراج من حزب الوفد الذي استمرأ هذه العادة. مع ملاحظة أن هذا الحزب أعطى ما عنده ولم يعد في مقدوره أن يزيد شيئا، وبالتالي فهو عبء علينا».

● ورأينا أن الوقت حان لكي نترك الأمور تأخذ مجراها الطبيعي، مع العلم أن الملك عندما يحس بذلك سوف يبادر إلى إقالة الوزارة دون انتظار.

● واقتراحنا أن تكون تعليماتنا للسفارة في القاهرة بعدم الدخول طرفا في هذه الأزمة، وترك الفرصة لفاروق يتحمل مسئولية ما يفعله.

● وتوصيتنا أن نقف بعيدا ونتابع تأثير ما يجري على الرأي العام، وبعدها تصبح الخيارات مفتوحة أمامنا وفق ما نرى في حينه.

وقرأ «أنتوني إيدن» هذه المذكرة وكتب عليها بخط يده تأشيرة نصها: «أظن أن ذلك هو الصحيح»! **I think that this is right**.

توقيع:

أنتوني إيدن - ١٩ سبتمبر

وبحقائق الأحوال فإن القصر كان على علم باتجاه الرياح، وربما أن نص رسالة من رئيس القسم المصري في وزارة الخارجية البريطانية «بيتر سكريفنر» موجهة إلى القائم بأعمال السفير البريطاني في القاهرة «تيرنس شون» - يكشف هذا التغيير، والنص كالتالي:

لندن   وزارة الخارجية   سري جدا

٢٣ سبتمبر ١٩٤٤

عزيزي «تيرنس»

«أشكرك على تقديرك الواضح للموقف السياسي المصري كما ورد في برقيتك رقم ١٨٤٤، ومن الظاهر لنا أن العلاقات بين الملك والحكومة وصلت إلى حيث يصعب إصلاحها، وأن التغيير أصبح حتميا. وفي الحقيقة فإن أي وزارة يختارها القصر سوف تكون أقل ضررا مما تسببه الأوضاع الراهنة، وربما يكون في مقدور وزارة جديدة أن تدير شئون البلاد على نحو أكفأ، وفي كل الأحوال فإن الملك يتحمل مسئولية تصرفه».

وفي هذا السياق توجه «أحمد حسنين» (باشا) مساء يوم ٥ أكتوبر ١٩٤٤، وقابل «تيرنس شون»، بحضور المستشار الشرقي للسفارة البريطانية - ودار بين الثلاثة حديث صريح (ولو أنه مزعج) - تعرضه برقية السفارة البريطانية إلى وزارة الخارجية في لندن (تحت رقم ٣٤٦٤ - ٤١٣٣٣ / ٣٧١):

«جاء «حسنين» إلى مقابلتي هذا المساء حضر معنا المستشار الشرقي للسفارة.

تحدث «حسنين» عن ظروف حادثة «محمود غزالي»، وشرح أن «النحاس» يعرف أن الملك لم يعد مستعدا للصبر عليه، وأن الإنجليز لم يعودوا مصرين على تأييده، ولذلك فهو يرتب للخروج بذريعة موقف وطني يثير به مطالب مصرية تدغدغ أحلام الناس بعد الحرب، وذلك لا ينبغي السماح به، لأنه إحراج لأي وزارة تجيء بعد الوفد. أشار «حسنين» إلى أفضلية أن يخرج «النحاس» فورا وبدون بطولة مزيفة(!) وبذريعة تصرف خاطئ تهور فيه بما لا يليق في حق الملك (حادثة محمود غزالي)، وتكون تلك مسألة لا علاقة للإنجليز بها، ولا يستطيع أحد استغلالها ضدهم.

أضاف «حسنين» «أن هناك تفكيرا في

يوم ٨ أكتوبر ١٩٤٤، تلقى «مصطفى النحاس» (باشا) خطاب الإقالة الذى كان قيد الإعداد منذ اليوم الأول لوزارته التى جاءت بانقلاب عسكرى (بريطانى) يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ ومع أن «النحاس» (باشا) كان يتوقع الخطاب، فإن لهجة الإهانة التى حملتها سطوره زادت وفاضت

حكومة موالية للإنجليز ترعى مصالحهم وتلبى مطالب الحلفاء مع استمرار الحرب دون أن تتسبب فى مشاكل لأحد».

يعلق «تيرنس شون» فى نهاية برقيته:

«أظن أنهم يريدون إذنا للتصرف، وإذا كان هناك ما تودون إبلاغى به، فأرجو أن أتلقى تعليماتكم سريعا».

وكان سكوت لندن عن الرد، علامة رضا!

يوم ٦ أكتوبر استقر «فاروق» على تأليف وزارة جديدة - لا تكون وزارة قصر (برئاسة حسنين)، وإنما وزارة حزبية (ملكية فى نفس الوقت) - ووقع الاختيار على «أحمد ماهر» (باشا) رئيس حزب السعديين. واتصل «حسنين» بالقائم بأعمال السفارة يستطلع رأيه فى رئاسة «أحمد ماهر» للوزارة، مضيفا إلى ذلك رغبة القصر فى التصرف سريعا لأن الأخبار «وصلتهم» بأن «النحاس» (باشا) يحاول اختلاق موقف وطنى يخرج بعلته».

وأبدى «تيرنس شون» «أن القصر له أن يتصرف كما يشاء»، على أنه لم تمض غير دقائق حتى عاد «حسنين» يتصل بالقائم بالأعمال البريطانى ينقل إليه رغبة «فاروق» فى لقائه على الفور. ويتحفظ «شون» «بمظنة أن استدعاءه لمقابلة الملك فى هذا الظرف يوحى بأن السفارة تتدخل فى تغيير الوزارات المصرية». ويرد «حسنين» (باشا) بقوله: «المشكلة أن جلالة الملك لا يصدقنى قياسا على تجارب سابقة وهو يخشى أننى أبَسِّط الأمور أمامه، فإذا جاء وقت التصرف والتغيير، اكتشف أنكم غير موافقين، ولذلك يريد أن يسمع منك - وليس منى وبوضوح - أنه ليس لديكم اعتراض على تغيير الوزارة».

ويستطرد «تيرنس شون» فى رسالته إلى لندن (البرقية رقم ١٩٩١ / ٣٥٠٠): «أبلغت «حسنين» أنه يستطيع أن يؤكد للملك حريته فى التصرف كاملة، مع إعفائنا من الظهور علنا فى مقدمة الصورة».

ويستطرد «تيرنس شون» فى برقيته:

قال لى «حسنين» «إن «أحمد ماهر» تعهد أن يقوم بتنفيذ أمين لنصوص وروح معاهدة سنة ١٩٣٦ - ورددت عليه «بأننا نتوقع ذلك من أى رئيس وزراء فى مصر»!

فهمت أن عملية طرد «النحاس» سوف تتم غدا».

يوم ٧ أكتوبر قام الوزير البريطانى «تيرنس شون» بعدة إجراءات:

- بعث برقية إلى السير «مايلز لامبسون» (لورد كيلرن الآن) يخطره بما يجرى فى مصر، بينما هو يقضى الإجازة فى جنوب أفريقيا.

- استدعى «أمين عثمان» (باشا) وألمح له أن الأمور تتحرك بسرعة، واستأذنه «أمين عثمان» إذا كان يسمح له أن يقول «شيئا» للنحاس (باشا).

- تلقى رسالة من رئيس الوزراء المكلف «أحمد ماهر» (باشا) عن طريق «حسن رفعت» (باشا) وكيل وزارة الداخلية - يعرض عليه مشكلة حساسة تواجه «أحمد ماهر»: «فهو يعرف أنه سوف يصبح رئيسا للوزراء بعد ساعات، ويعرف أن السفارة لم تعترض على ترشيحه، لكنه يجد نفسه فى مأزق لأنه لا يستطيع تصور وجوده فى هذا المنصب بينما شقيقه الأكبر (على ماهر) موجود فى السجن، وهو يسأل «هل يمكن أن يطمئن عائلته أن فى وسعه «عمل شيء»». يستطرد «تيرنس شون» «كلفت «حسن رفعت» بإخطار «أحمد ماهر» أن موضوع الإفراج عن شقيقه مسألة عويصة لا ينبغى إثارتها الآن»!

- سمع من اللواء «راسل» (باشا) حكمدار بوليس القاهرة أن رئيس الديوان الملكى «حسنين» (باشا) اتصل به وأبلغه أن تغييرا وزاريا سيعلن عنه فى ساعات، وأن عليه أن يكون مستعدا بما يراه من إجراءات للمحافظة على الأمن فى العاصمة.

وصباح اليوم التالى (٨ أكتوبر) اتصل «حسنين» (باشا) بالسفارة يقول للمستشار السير «والتر سمارت» أن «المسألة سوف تتم اليوم»، وأن كل شيء معد، وأن مساعده «حسن يوسف» فى القطار الآن إلى الإسكندرية ومعه خطاب الإقالة يسلمه للنحاس (باشا) بيده!

ثم يضيف «حسنين»:

«إن «النحاس» (باشا) سوف يفرقع من الغيظ عندما يقرأ خطاب الإقالة «لكنه يستحق». ويستطرد «حسنين» قائلا «إن خطاب تكليف «أحمد ماهر» تم إعداده، وفيه إشارة صريحة إلى أهمية التعاون الوثيق مع الحليف البريطانى الكبير الذى يضحى بالدم فى سبيل حرية الأمم والدفاع عن حقوقها المشروعة»!

كانت مصر منشغلة بوزارة جديدة وبانتخابات تجريها هذه الوزارة. وحضر «النحاس» (باشا) مأدبة غداء فى السفارة البريطانية تكريما له - وتعويضا عن الإهانة الملكية. وقال للقائم بأعمال السفارة البريطانية: «إن حزبه على استعداد لدخول الانتخابات إذا جرى إيقاف العمل بقانون الأحكام العرفية فترة إجرائها. وقال له مضيفه على الغداء فى السفارة البريطانية «أن وزارته (وزارة النحاس) بعد ٤ فبراير ١٩٤٢ أجرت الانتخابات فى ظل الأحكام العرفية»، ورد «النحاس» على الفور: «لأن تلك الانتخابات جرت وروميل على الأبواب». وخطر على بال السفير استشارة لندن فى هذه النقطة، وترد لندن عن طريق وزارة الحرب برفض اقتراح وقف العمل بالأحكام العرفية فترة الانتخابات. «لأن الحرب فى أوربا لم تنته بعد». وقرر حزب الوفد مقاطعة الانتخابات رغم أن بعض رجاله دخلوها على مسئوليتهم الشخصية، وجاء مجلس نواب جديد وعلت الصيحة بين أعضائه بضرورة محاكمة «مصطفى النحاس» (باشا).

وكان الذى حدث أن «مكرم عبيد» (باشا) أُطلق سراحه من المعتقل، ودخل وزارة «أحمد ماهر» (باشا) بوصفه وزيرا للمالية (مرة أخرى) ودخل معه أربعة من وزراء حزبه (الكتلة) - قد أعد عريضة اتهام أكثر سوادا من الكتاب الأسود، وأدق توثيقا لأنه استعان بعد دخوله إلى وزارة المالية بمستندات لم يستطع أصحابها إخفاءها فى الوقت المناسب، وبينها مذكرة من السفارة البريطانية مُرسلة للعلم الشخصى لوزير المالية وقتها «أمين عثمان» (باشا)، وهى تحوى معلومات عن صفقات دخل فيها السيد «أحمد الوكيل» شقيق قرينة «النحاس» (باشا)، وصفقات أخرى لغير «أحمد الوكيل» من الأقارب والأنصار. والمذكرة توجه نظر «أمين عثمان» (باشا) إلى ضرورة إفهام رئيسه «النحاس» (باشا) أن ذلك كله يسيء إلى أبعد حد له ولسمعته ولأسرته وللسفارة البريطانية أيضا (بوصفها المسئولة فى النهاية).

وبادر «مكرم عبيد» إلى نشر هذه المذكرة البريطانية فى جريدة أنشاها تحمل اسم حزبه (الكتلة)، واعتبرت السفارة تصرفه «إفشاء سر وخيانة أمانة» - لأن «مذكرة توبيخ «النحاس» (باشا)» (كما كتب السير «والتر سمارت») كانت لعلم «أمين عثمان» (باشا)، ولم تكن للنشر العام، وفى معرض الهجوم على «النحاس» (باشا) وطلب محاكمته.

وقامت السفارة البريطانية بإبلاغ لندن. وتلقت أمرا «بلفت نظر الملك إلى أن الحكومة البريطانية لا تسمح باستعمال أوراقها على هذا النحو، ولا تسمح بمحاكمة «النحاس» (باشا) أو أى من وزرائه، فكل هؤلاء شاركوا فى وزارة تعاونت «معنا» إلى أقصى درجة فى أصعب فترات الحرب، خصوصا لحظة معركة العلمين الخطرة والحرجة».

وتلقى السفير البريطانى السير «مايلز لامبسون» (لورد كيلرن)، الذى عاد من إجازته إلى القاهرة - رسالة تقول له «أنت مفوض من وزارة الحرب بإبلاغ الملك «فاروق» ما يلى:

- إن محاكمة «النحاس» (باشا) تحمل معنى الإساءة إلى هيبة حكومة صاحب الجلالة البريطانية.

- إن حكومة صاحب الجلالة لا تسمح بذلك، لأن الرجل تعاون معنا بإخلاص فى الظروف الصعبة.

- إن حكومة صاحب الجلالة البريطانية تفضل أن لا يُحاكم أحد من وزراء «النحاس»، ومع أنه سوف يصعب علينا حماية بعضهم، إلا أن المحاولة ضرورية، لأن مثل هذه المحاكمة لأحد وزراء «النحاس» قد تجر رئيس الوزراء نفسه.

وتوقف الحديث عن محاكمة «النحاس» (باشا). وتراجع الملك «فاروق» إلى طرح «حل وسط» يعاقب به رئيس الوفد، بسحب قلادة «فؤاد» الأول منه، وبذلك يسقط عنه لقب «صاحب المقام الرفيع» - وأبدى السفير البريطانى امتعاضه، وكذلك لم تقع محاكمة، كما ظلت قلادة فؤاد الأول فى مكانها حول عنق «النحاس» - ومعها اللقب!

فى إحدى مقابلات السفير البريطانى مع «عبدالفتاح عمرو» (باشا) - أبدى نصيحته بأن «الإيطاليين» لابد أن يخرجوا من القصر. وكان رد الملك «موافق، سوف أطرد الإيطاليين عندى، إذا طرد السفير البريطانى الإيطاليين عنده» وكانت الإشارة واضحة إلى «جاكلين كاستيلانى» قرينة اللورد «كيلرن»

لكن العلاقات عادت إلى نوع من الشد والجذب بين السير «مايلز لامبسون» (اللورد كيلرن) وبين «فاروق»، ومن ذلك مثلا أن السفير تضايق عندما وقع الإفراج عن بعض موظفى القصر من الإيطاليين، وبينهم «أنطون بوللى» (الذى أصبح فيما بعد مديرا للشئون الخاصة للحياة الليلية للملك «فاروق» مع منحه رتبة البكوية)، ولم يكن ضيق السفير البريطانى من قرار الإفراج فى حد ذاته، فقد كان يسلم أن استمرار اعتقال «بوللى» وغيره - لمجرد الاحتياط زمن الحرب - لم يعد له ما يبرره باختلاف الظروف - وإنما كان ضيقه بسبب عودة «بوللى» وغيره من الإيطاليين إلى خدمة القصر. وفى إحدى مقابلات السفير البريطانى مع «عبد الفتاح عمرو» (باشا) - أبدى اللورد «كيلرن» نصيحته بأن هؤلاء «الإيطاليين» لابد أن يخرجوا من القصر. وكان رد الملك (وفى الغالب فإنه لم يتعمده، بل أبدى ملاحظة أمام قائد الطيران البريطانى فى مصر الجنرال «شولتو دوجلاس»، دون أن يخطر بباله أن «دوجلاس» قد ينقلها عنه وتصل إلى السفير البريطانى - والذى حدث أن «دوجلاس» كرر الملاحظة منسوبة إلى صاحبها) وفيها قول الملك: «أن لورد «كيلرن»



يطلب منى إخراج الإيطاليين من بيتى. موافق. سوف أطرد الإيطاليين عندى، إذا هو طرد الإيطاليين عنده!». وكانت الإشارة واضحة إلى قرينة السفير البريطانى «جاكلين كاستيلانى»، وغضب السفير. واتصل بحسن يوسف (باشا) فى الديوان يطلب منه أن يقول للملك «فاروق» «أن نكتته لم تعجبنى» I am not amused.

ـ وساله «حسن يوسف» عن مقصده، ورد السفير بأن «فاروق سوف يفهم». وعندما نُقلت الرسالة إلى الملك، أدرك أن ملاحظته أمام «شولتو دوجلاس» وصلت. وأن علاقته باللورد كيلرن عادت إلى التوتر من جديد، وأن شهر العسل بينهما انتهى. ثم إن الخلاف لم يعد فى السياسة، وإنما أصبح شخصيا. وترامى إلى علم الملك أن «كيلرن» يحكى فى مجالسه الخاصة جوانب من تفاصيل العلاقة بين «فاروق» وزوجته «فريدة»، وكان الزواج الملكى بين الاثنين قد تحول إلى فضيحة تتوالى فصولها حلقات، ووجدها السفير البريطانى فرصة لرد الجميل!

ووسط هذه المشاهد العبثية، كان الطوفان يقترب بمصر متخطيا الحواجز، متجها إلى القاهرة!

وكان بعض الطوفان دما، وهو طبيعى لأن القمم المتجمدة التى ذابت ثلوجها عبرت على ميادين القتال محملة بعوالق مع الماء حمراء قانية. وبطبيعة الحال فإن معظم الدم راح يجرى تحت أقدام الملك «فاروق» ومن حوله، باعتبار الوزارة التى خلفت الوفد كانت فى واقع الأمر «وزارة قصر»، أى وزارة «ملك».

والحاصل أن الحكومة استمرت ملكية أربع سنوات كاملة، توالى على رئاسة الوزارة خلالها أربعة رجال ـ بمعدل واحد كل سنة ـ وكانوا بغير استثناء بإرادة القصر وقراره: «أحمد ماهر» (باشا) زعيم السعديين ـ «محمود فهمى النقراشى» (باشا) خليفة لسلفه «أحمد ماهر» ـ «إسماعيل صدقى» (باشا) مستقل ـ «محمود فهمى النقراشى» (باشا) مرة ثانية ـ ثم «إبراهيم عبد الهادى» (باشا) خليفة للنقراشى.

وطوال هذه السنوات الأربع ـ كان الملك «فاروق» يحكم مصر، فهو مصدر شرعية وزارات الأقلية، والقادر على سحب البساط من تحت حزب الأغلبية الذى غاب مرتين: مرة بالإقالة، ومرة إضافية بضباب كثيف من التهم والشبهات طالت الوفد ووضعته فى موقع الدفاع عن رجاله (وحتى عن نسائه!)!

ومن المفارقات أن حكومة الأقلية التى جاءت بعد الوفد لم تكن راغبة فى الاستسلام إلى اعتبارها حكومة قصر، ومن ثم حاولت تحقيق نوع من الاستقلالية، لكنها فى ذلك ولسوء الحظ ذهبت إلى السفارة البريطانية تطلب قدرا من التفاهم «المستقل» المباشر، يوازن أو يقلل اعتمادها على القصر وحده.

لكن محاولة الاستقلال أدت إلى مزالق تسجلها الوثائق البريطانية وبينها رسالة (رقم ٣٠١ / ١٢) ـ يظهر فيها أن «أحمد ماهر» (باشا) بعث إلى السفير البريطانى يسأله «إذا كان يضايقهم» أن يتولى نائبه «محمود فهمى النقراشى» (باشا) وزارة الخارجية بدلا من وزارة الداخلية. ويوضح «أحمد ماهر» داعيه إلى الطلب بأن وجود «النقراشى» (باشا) فى وزارة الداخلية يسبب كثيرا من المشاكل، فهو «عنيد» و«متزمت»، ويعطل الكثير من «الأمور» ـ لكنه فى الخارجية لا يستطيع أن يعطل شيئا. وكان تعليق السفير البريطانى (كما ورد فى برقيته إلى لندن) «شرحت أننى لا أريد أن أقارب هذه الشئون الداخلية، لكنه إذا طلب منى إبداء رأى، فإننى أفعل ذلك شريطة أن لا يتسرب إلى العلن شىء». أضفت: «أن مشكلة «النقراشى» أنه رجل «ضيق الأفق» وذلك سبب عناده وتزمته. ورأيى بعد ذلك أننى لا أعترض على «نفيه» إلى وزارة الخارجية، لأن ظنى أنه هناك يستطيع أيضا أن يكون مشكلة. واقترحت عليهم إذا أرادوا حلا لمشكلة «النقراشى» فإنهم يستطيعون اختياره رئيسا لمجلس الشيوخ ـ وقيل لى أن هيكل («الدكتور محمد حسين هيكل» رئيس الأحرار الدستوريين) يريد هذا المنصب وأنهم وعدوه به، لإرضاء غروره، ومع ذلك فإذا كان «أحمد ماهر» يريد «النقراشى» فى الخارجية، فأنا شخصيا لا أمانع».

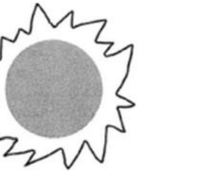
وكانت المفارقة أن الوسيط الذى حمل رسالة «أحمد ماهر» ـ هو «عبد الفتاح عمرو» (باشا) ـ رجل القصر! ـ أى أن حكومة الأقلية حين حاولت أن تعطى لنفسها قدرا ولو محدودا من الاستقلالية ـ كان سبيلها أن تفعل ذلك من خلال دهاليز القصر وأبوابه!

ومع ذلك فإن «أحمد ماهر» راح يحاول أيضا عن غير طريق دهاليز القصر وأبوابه، وحدث بعد تشكيل وزارته بأسبوعين اثنين بالضبط (٢٣ أكتوبر ١٩٤٤) ـ أن وصل إلى القاهرة وزير الخارجية البريطانى «أنتونى إيدن»، وطلب رئيس الوزراء المصرى الجديد لقاءه برجاء أن يكون اللقاء «شخصيا» أكثر منه «رسميا»، وقام الوزير المفوض البريطانى «تيرنس شون» بترتيب دعوة غداء فى بيته، يجلس حول مائدتها رئيس وزراء مصر مع وزير خارجية بريطانيا وحدهما ـ لكن الوزير البريطانى المفوض عاد يبدى لرئيس الوزراء أنه نظرا لضيق الوقت ورغبة كثيرين فى لقاء «أنتونى إيدن»، فإنه سوف يضطر إلى دعوة «أحمد حسنين» (باشا) أيضا، ومعنى ذلك أن الرجلين لن يكونا وحدهما. ولم يكن فى وسع «أحمد ماهر» أن يعترض على حضور رئيس الديوان الملكى، وكتب «تيرنس شون» تقريرا عن اللقاء (٣٧٨٨ / ٢٠٦) عارضا أهم وقائعه ـ قائلا:

«بدأ وزير الخارجية (إيدن) فأبلغ رئيس الوزراء «أحمد ماهر» أنه راض عما سمعه من تأكيدات عن التزام وزارته بتنفيذ أمين لمعاهدة الصداقة والتحالف بين مصر وبريطانيا (معاهدة ١٩٣٦)، وهو يأمل أن يتذكر الجميع أن بريطانيا فى هذه الحرب لم تعرض مصر لمخاطر دامية من نوع ما تعرضت له بريطانيا نفسها. ومن ذلك أن الحكومة البريطانية لم تصمم على ضرورة قيام مصر بإعلان الحرب، من ناحية لأنها كانت تعرف أن الجيش المصرى غير مستعد للمشاركة فى قتال. ومن ناحية أخرى ـ لأن إعلان مصر للحرب كان يعرضها ـ دون داع ـ لضرب الكبارى والجسور والموانئ والطرق بطريقة مدمرة. أضاف «إيدن» «إننا استفدنا أيضا من هذا الوضع، فقد كانت كل إمكانيات مصر تحت تصرفنا دون مخاطر كثيرة، ونحن نأخذ ذلك فى الاعتبار».

أشار وزير الخارجية إلى أن التقارير التى قرأها، لفتت نظره إلى عمليات فصل وطرد وتعيين وترقيات استثنائية ـ شملت مئات من موظفى الدولة المصرية. ورد «ماهر» (باشا) بقوله: «إن هؤلاء كانوا من الذين عينتهم حكومة الوفد، ومن أنصارها والمتعاطفين معها، وكلهم لا تستطيع الحكومة الجديدة المعادية للوفد أن تثق بهم». وقال وزير الخارجية البريطانى موجها النصح لرئيس الوزراء المصرى: «إنه يريد أن يقدم للحكومة المصرية نصيحة صديق، مؤداها «أن هذا العنف فى التعامل مع موظفى «الخدمة المدنية» بمعيار الثقة الحزبية، يكسر هذه «الخدمة المدنية» عمليا، لأنه سوف يفقد موظفى الدولة ثقتهم بأنفسهم، والتزامهم بالصالح العام، وتلك ضرورية لمؤسسة «الدولة»، لأن موظفيها المسئولين ينبغى أن يظلوا بعيدا عن التقلبات الحزبية، وإلا فإن نظام «الخدمة المدنية» فى مصر سوف ينهار بمعايير الكفاءة ومعايير الأخلاق.

ورد «أحمد ماهر»: «إن الحكومة لم تطرد من طردتهم لأنهم موظفون فى الدولة، ولكن لأنهم أنصار للوفد». ورد وزير الخارجية «إنه لا يريد التدخل فى شئون مصر، لكنه يخشى أن هناك عملية انتقام واسعة النطاق يقودها «مكرم عبيد»، الذى يبدو مصمما على وضع «النحاس»، وقرينته، و«سراج الدين» أيضا فى القفص! ■



الرصاصة الأولى:

اللورد «موين»

نوفمبر ١٩٤٤

■ ■ فى ظرف أسبوعين اثنين من اللقاء بين «أنتونى إيدن» و«أحمد ماهر» على الغداء فى السفارة البريطانية ـ أى يوم ٧ نوفمبر ١٩٤٤ ـ دوت فى مصر طلقات رصاص وسال دم، وكان الضحية هو وزير الدولة البريطانى المقيم فى الشرق الأوسط اللورد «موين» ـ ولم يكن اغتياله قتلا عاديا، وإنما اغتيالا سياسيا وراءه مشروع مجمد تحول مع موسم ذوبان الثلوج إلى مجرى سيل على طريق طوفان (مصبوغ بلون الدم).

كان قتلة اللورد «موين» شبابا من جماعة «شتيرن» الإرهابية فى فلسطين: «إلياهو حكيم» و«إلياهو بن تسورى»، وكان وراء الاغتيال مطلب خطير عطله صقيع الحرب وذوبه تغير المناخ بعدها، وهو مطلب فتح أبواب فلسطين بغير قيود للهجرة اليهودية، تمهيدا لإنشاء دولة يهودية فى فلسطين على أساس وعد بلفور!

وكانت تلك بالفعل كرة جليد أفلتت وانقضت على الشرق الأوسط:

كان قتلة اللورد «موين» شبابا من جماعة «شتيرن» الإرهابية فى فلسطين، وكان وراء الاغتيال مطلب خطير هو فتح أبواب فلسطين بغير قيود للهجرة اليهودية

● فهناك مئات ألوف من اللاجئين اليهود فى أوربا ينتظرون بعد الحرب أن يجدوا ملاذا لهم. ومع أنهم جميعا - بلا استثناء تقريبا - يطلبون الهجرة إلى الولايات المتحدة - فإن يهود الولايات المتحدة لا يريدونهم هناك، و(يعتبرون توجههم إلى العالم الجديد عبئا على الحياة اليهودية فيه، لأن الأجيال التى سبقت واستقرت فى أمريكا من اليهود لا تريد إضافة تقلق أحوالها أو تزعج آخرين) - وهنا فإن فلسطين تصبح مقصدا (منفى) مثاليا لهؤلاء الذين ينتظرون الملاذ، وخصوصا أن الحجج لتزكية الهجرة إلى فلسطين وراءها أساطير قديمة ومعتقة! وكذلك وراءها عملية تعبئة وتحيز، تقوم بها الوكالة اليهودية سواء فى ذلك جناحها الأمريكى أو جناحها الأوربى، الذى لا يريد بدوره - مثل الجناح الأمريكى - تحمل عبء لاجئين يهود فقراء لا تنتظرهم فرص عمل، فضلا عن أن استيعابهم مثير لمشاعر معادية للسامية لها جذور عميقة فى أوربا. (واليهود الأوربيون الذين «توطنوا» فى مجتمعات غرب أوربا - هم أيضا - لا يريدون أن يجدوا أنفسهم أمام عنصر إقلاق يهودى طارئ).

وبصرف النظر عما يريده الجناح الأمريكى أو الأوربى من الوكالة اليهودية، فقد كان الجناح «الإسرائيلى» لها فى فلسطين (الموشاف) يطالب على عجل بمدد بشرى من المهاجرين يعطى الدولة أساسا لوجود حقيقى فى أرض الميعاد.

(وبالتوافق مع ذلك فإن الحكومة الأمريكية بتأثير نشاط صهيونى مكثف، ونفوذ عناصر يهودية عتية وقوية، تساند هجرة اليهود إلى فلسطين (تحت الانتداب البريطانى)، وتطلب إسقاط القيود التى تفرضها بريطانيا على عدد اليهود المسموح لهم بدخول فلسطين وتحديده فى إطار مائة ألف مهاجر سنويا.

وكان الرئيس الأمريكى «فرانكلين روزفلت» مقتنعا بمنطق اليهود الأمريكيين، أو آملا فى تأييدهم له ولحزبه (الديمقراطى)، خصوصا أن يهود العالم نقلوا ولاءهم من «أوربا» إلى «أمريكا» عن اعتقاد ترسخ لديهم بأنه لم يعد فى مقدور أوربا أن تعطيهم أكثر مما أعطت، وفيه «وعد بلفور» الذى فتح الباب لإمكانية دولة يهودية فى فلسطين، والآن كان ولاء اليهود يتجه للولايات المتحدة الأمريكية، عن اعتقاد بأن تأييدها ونفوذها وقوتها قادرة على تحويل «إمكانية» دولة يهودية إلى «حقيقة» دولة يهودية!

● وكانت بريطانيا تظن أن فتح أبواب الهجرة فى فلسطين أمام اليهود بغير حدود، يمكن أن يصنع مشاكل ليس هذا وقتها - تحرجها مع نظم عربية صديقة، ضمنها الأسرة الهاشمية فى العراق وفى الأردن، وكذلك الأسرة السعودية فى نجد والحجاز، وربما العرب فى أفريقيا أيضا (وبينهم مصر).

وكانت بريطانيا وسط الحرب (١٩٤٣) قد أعطت الضوء الأخضر ببيان ألقاه وزير الخارجية (أنتونى إيدن) فى مجلس العموم، مؤداه «أن بريطانيا تتفهم أمانى العرب فى نوع من الوحدة بينهم، وهى لا تمانع عندما تنتهى الحرب فى قيام جامعة للدول العربية تجسد هذا الطموح».

وكذلك ترددت السياسة البريطانية فى فتح أبواب الهجرة إلى فلسطين، وظنها أن يكون موضوع الهجرة إلى فلسطين محل تراض واتفاق بين الأطراف فى المستقبل (كما حدث سابقا فى مؤتمر لندن قبل الحرب سنة ١٩٣٩)، وإلا تعقدت أمور كثيرة وتشابكت خطوط مختلفة، ونشأت مواقف لا يعرف أحد كيف تتطور.



اللورد موين

ولاحت تلك اللحظة احتمالات صدام بظهور مشروعين فى المنطقة جمدتهما ثلوج الحرب ثم ذوبتهما بشائر الربيع.

● أولهما مشروع الجامعة العربية - تعبيرا عن طموحات تاريخية ومستقبلية تلح على العرب - والآن وقت التحرك نحوها.

● والثانى مشروع إقامة الدولة اليهودية فى فلسطين (إسرائيل) تطبيقا لوعد بلفور، والآن وقت التنفيذ.

وكان المشروع العربى قد سبق إلى إعلان وجوده فى قلب الشرق الأوسط حين سمعت مصر نداء إنشاء جامعة للدول العربية، واستجابت للنداء، رغم أنه على الأرجح لم يكن موجها بالدرجة الأولى إليها - وإنما إلى شبه الجزيرة العربية والهلال الخصيب.

زيادة على ذلك فإن مصر لم تسمع النداء فقط، وإنما وجدت أمة عربية ترحب بها وتدعوها إلى «قدر تاريخى» يبحث عن مستقبل فى عالم متغير، وهكذا شاركت مصر مع العراق وسوريا ولبنان فى الدعوة إلى إنشاء جامعة للدول العربية، ولم تكن بريطانيا متحمسة لمشاركة مصر فيها، لكنها لم تكن معارضة. وكذلك جرى توقيع بروتوكول بإنشاء الجامعة، وحرص الملك «فاروق» على أن يكون «النحاس» (باشا) هو الذى يوقعه، وكان التوقيع فى حفل مهيب شهده قصر «أنطونيادس» فى الإسكندرية قبل أيام من إقالة وزارة «النحاس» (باشا).

كان الملك «فاروق» على وجه القطع - ووفق ما يظهر فى الوثائق، مهتما بالعمل العربى عموما، وبقضية فلسطين على وجه التحديد. مع أن عددا من خصوم الملك، وخصوصا «مصطفى النحاس» (باشا) فى ذلك الوقت نسبوا ذلك الاهتمام إلى طموح شخصى (يحاول استعادة حلم الخلافة فى شكل آخر) - أو بأنه مجاراة لرأى عام مصرى تشده روابط انتماء عربى - وربما أن الملك «فاروق» فى اهتمامه بما يجرى فى فلسطين، كان إلى حد كبير متأثرا بنظرية الأمن القومى المصرى من أيام جده «إبراهيم» (باشا) (وقبله بكثير)، وهى نظرية تعتبر أمن مصر القومى - شمال حلب.

والأرجح أن الملك «فاروق» فى مشاعره العربية والفلسطينية، كان شابا تفتح على التيارات الفكرية المؤثرة فى زمنه - ثم إنه كملك كان مستعدا وقادرا على المشاركة فى تحويل التيارات الفكرية المؤثرة إلى إمكانية فعل على الأرض، وبالتالى كان «فاروق» جاهزا لتقبل رؤى لا يستطيع رجل فى سن «النحاس» (باشا) استيعابها، بل إن «النحاس» (باشا) هاجم توجهات الملك العربية فى لقاء له مع (اللورد كيلرن) قائلا: «هذا الذى يفكر فيه «فاروق» ويتحدث عنه مسائل أكبر من «عقله» ومن «شخصيته» وكله إيحاءات مجانين مثل «عزام» (يقصد عبد الرحمن عزام باشا - أول أمين عام لجامعة الدول العربية)».

ومهما يكن فإن ملك مصر مضى يفكر فى مبادرات جريئة تحمل الوثائق البريطانية إشارات لها، وأولها رسالة من مكتب رئيس الوزراء فى لندن (١٦/٣/٢١٤٩)، تسأل السفارة البريطانية فى القاهرة بحزم:

«تلقينا معلومات بأن الملك «فاروق» يفكر فى زيارة فلسطين بدعوة من بعض وجهاء القدس العرب، وورد فى أخبار جاءتنا أن «فاروق» قام فعلا بزيارة القدس فى سرية كاملة. وتلك أخبار تدهشنا هنا، وقد سألنا اللورد «جورت» الحاكم العام، ولم نجد عنده علما، وأبلغنا أنه كتب إلى السفارة فى القاهرة يطلب تفاصيل إضافية. لقد فهمنا أن عددا من الوجهاء الفلسطينيين دعوا ملك مصر للصلاة فى «الحرم الشريف»، ونحن نطلب أية معلومات لديكم. وكذلك أى مقترحات لمواجهة مثل هذه الزيارة إذا تأكدت الحقيقة فى شأنها».

وترد بعد ذلك برقية من السفارة البريطانية فى القاهرة مرسلة إلى الحاكم البريطانى العام فى القدس (٢١٤٩ / ١٤٤١) وفيها يقول السفير:

«هناك أخبار عن اعتزام الملك «فاروق» زيارة الشام، بادئا بلبنان وسوريا وكذلك القدس فى طريق سفره من القاهرة أو عودته إليها، و«نحن نعتقد أن مثل ذلك عمل خطير من وجهة النظر الأمنية والسياسية، ومن وجهة النظر الأمنية فأنتم أقدر على قياس الخطر، وأما من الناحية السياسية فنحن نرى أن هذه الزيارة أمر غير مرغوب فيه على الإطلاق».

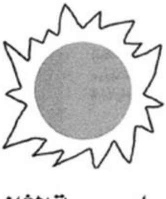
ولم تكن زيارة الملك «فاروق» إلى القدس حتى تلك اللحظة غير دعوة تحمس لها الملك، لكن الحكومة البريطانية تنبهت ومنعت. ورد «فاروق» فى ظرف شهور بخطوة درامية عندما قام بعرض اللجوء السياسى فى مصر على الحاج «أمين الحسينى» مفتى القدس - بعد أن ضاقت به السبل فى أوربا وفى العالم العربى، وجاء ظهور الحاج «أمين الحسينى» فى مصر علنا فى مؤتمر لملوك ورؤساء الدول العربية كان الأول من نوعه، وقد عقد جلساته ليوم واحد فى مقر الاستراحة الملكية فى «أنشاص»، وكانت فلسطين موضوع المؤتمر.

ولم يكن ولى العهد المصرى الأمير «محمد على» راضيا عن توجه «فاروق» نحو العالم العربى، وقصد إلى مقابلة السفير البريطانى على غير موعد ليقول له أنه غير راض لا عن جامعة الدول العربية ولا عن اندفاع «فاروق» نحو فلسطين، وهو يخشى أن تلك التيارات الخطرة قد تأخذ «هؤلاء جميعا» إلى عداء مع بريطانيا يراه «صاحب السمو خطرا». وقد أشار الأمير «محمد على» إلى وزارة «أحمد ماهر» قائلا: «إن حكومة الوفد كانت حكومة قذرة Dirty من نواح عديدة، لكنها على الأقل كانت قادرة على ضبط الأمور، وكان يشير إلى اغتيال اللورد «موين».

وبصرف النظر عن آراء ولى العهد المصرى، فإن طلقات المسدس التى قتلت لورد «موين» وزير الدولة البريطانية، كانت فى الواقع فاتحة سباق بين مشروعين: مشروع وحدة عربية، ومشروع دولة يهودية، وكلا المشروعين وجد نفسه ذات اللحظة على أمواج طوفان عال من سيول ما كان متجمدا زمن الحرب، والآن وبعد ذوبان الثلوج تدافعت السيول مصبوغة بلون الدم نحو الشرق الأوسط، وبدت تلك مقدمات مواجهة دامية قادمة بين القاهرة وتل أبيب (حتى وإن لم يتنبه أحد!).

كان المشروع العربى قد سبق إلى إعلان وجوده فى قلب الشرق الأوسط حين سمعت مصر نداء إنشاء جامعة للدول العربية، واستجابت للنداء، رغم أنه على الأرجح لم يكن موجها بالدرجة الأولى إليها - وإنما إلى شبه الجزيرة العربية والهلال الخصيب





الرصاصة الثانية: أحمد ماهر

فبراير ١٩٤٥

عندما بدأت طلائع الطوفان - من ذوبان جليد الحرب المصبوغ بالدم - تصل إلى مصر، كانت القاهرة مأخوذة بهاجس وطني يطرح نفسه ويوشك أن يتحول إلى سؤال مُلح يطلب جوابا. وقد لمع في خواطر جمع من المفكرين المصريين أن قرب نهاية الحرب تطرح على مصر سؤال مستقبلها.

وكان سؤال المستقبل قد ظهر ضمنا في سياق بيانات أصدرتها أحزاب الأقلية (السعديين برئاسة أحمد ماهر - والدستوريين برئاسة محمد حسين هيكل باشا - والوطنيين برئاسة حافظ رمضان باشا) - أيام حكم الوفد - والظاهر أن هذه البيانات صدرت بتأثير عاملين:

● عامل حزبي يقصد إلى إحراج حكومة «النحاس» (باشا) ويضغط لكشف عمق علاقتها مع الإنجليز وانصياعها لهم وتنفيذها لما تعتبره هذه الأحزاب «أوامر من السفير البريطاني (المندوب السامي - كما أسمته هذه البيانات).

● وعامل وطني مؤداه أن هذه الأحزاب، ومعها طائفة من أبرز الشخصيات المهيأة بالعلم والالتزام الوطني راحت تحاول بإخلاص أن تستكشف اللازم والممكن لحق مصر في الاستقلال والحرية.

والشاهد أن هذه البيانات التي صدرت عن أحزاب المعارضة ومعها عدد من الساسة المستقلين، وتؤيدها طائفة من نجوم الإدارة المصرية في تلك الأوقات - تأثرت بأجواء ميثاق الأطلنطي الذي أعلنه تشرشل وروزفلت (وسط المحيط سنة ١٩٤٢)، واشتمل على مجموعة مبادئ لتنظيم «العالم الحر»، وتمكين شعوب الأرض من صنع مستقبلها متحررة من الخوف والفقر والاستعباد، وكان ذلك الإعلان نداء إنسانيا عالي الصوت رفيع المقدار يبشر بعالم جديد، يذكر بما بشر به الرئيس الأمريكي «وودرو ويلسون» في النقط الأربعة عشر التي أعلنها بعد الحرب العالمية الأولى، والتي ألهمت أحزابا وطنية عديدة (منها الجومنتانج في الصين - والمؤتمر في الهند - والوفد في مصر، ثم سقط الحلم - أيامها - عاجزا عن تحقيق بشراه: لأن الولايات المتحدة انسحبت بعد مؤتمر فرساي، ولم تدخل عصبة الأمم مؤثرة عزلتها وراء المحيط، وضمن أسبابها - هكذا قيل - أن الإمبراطوريات القديمة ليست مستعدة بعد لعهد جديد يحقق لشعوب الأرض آمالها أو بعضا منها).

على أن إعلان ميثاق الأطلنطي هذه المرة قدم عهدا دوليا من نوع مختلف، فهو ليس أماني رئيس أمريكي، وإنما الحلم هو القوة الأمريكية التي جاءت من وراء المحيط مرة أخرى تنقذ أوربا المتهالكة، وتفرض ميثاق «الحرية» شراكة بين كل شعوب الأرض.

وكان ميثاق الأطلنطي مقدمة لاجتماع في «سان فرانسسكو» مطلوب منه صياغة لمبادئ ونظام «الأمم المتحدة» المنتصرة في الحرب ضد النازية والفاشية والعسكرية اليابانية (وهنا أيضا كانت الإشارة الأهم هي التركيز على أمريكا، وذلك بأن يوضع ميثاق الأمم المتحدة في سان فرانسسكو غرب الولايات المتحدة، وأن يكون مقر الأمم المتحدة مدينة نيويورك شرق الولايات المتحدة).

لكن المعضلة أن مصر لم تكن تستطيع الانضمام مع «الأمم المتحدة» المنتصرة في مؤتمر «سان فرانسسكو» لأنها ليست دولة مشاركة في الحرب. ولذلك فطريقها الوحيد أن «تعلن الحرب الآن على ألمانيا»، ويكون ذلك مجرد إجراء شكلي يضمن مقعدا لها في مؤتمر «سان فرانسسكو».

كان «أحمد ماهر» (باشا) رئيس الوزراء متحمسا لإعلان الحرب من ناحية المبدأ (وكان ذلك رأيه من قديم حتى عندما كان إعلان الحرب مخاطرة، واعتقاده أن الحرب تجربة ومدرسة تحتاجها مصر)، والآن وإعلان الحرب مجرد استمارة بطلب الدخول إلى القاعة التي تجتمع فيها الأمم المنتصرة في الحرب لكي تضع ميثاق مجتمع الدول بعد الحرب - فإن قرارا في هذا الشأن يجب اتخاذه.

والملاحظ أن الحكومة البريطانية لم تكن تعارض هذا التوجه، وحسابها «أن الكلام زاد في مصر عن ضرورة تعديل معاهدة سنة ١٩٣٦، بسبب اقتراب الموعد المقرر لإعادة النظر في بعض نصوصها، وهو عشر سنوات بعد توقيعها (أي سنة ١٩٤٦)، والأجل لم يبق منه غير سنة واحدة، وهي مدة تكفي بالكاد لعملية التفاوض من أجل نصوص قابلة للتغيير (ليس ضمنها التحالف العسكري بين البلدين لأن نصه سار بلا أجل)، وكان حساب الحكومة البريطانية أن المشاركة المصرية في مؤتمر «سان فرانسسكو» - تشغل مصر بإعطائها مقعدا على مسرح دولي واسع، تحلم أن تجد لنفسها مجالا فيه، بينما المرجح (في الحساب البريطاني) أنها سوف تتوه، وفي الحالتين فإنها قد تنشغل هناك عن الإلحاح على مفاوضات تعديل معاهدة سنة ١٩٣٦ (بتوهم بعض المصريين أنها تستكمل حلم الاستقلال) - وإذا شاركت مصر في «سان فرانسسكو» (فقد يكون ذلك تجسيدا للوهم)!.

والمدهش أن «ونستون تشرشل» رئيس وزراء بريطانيا كان هو نفسه الذي ناقش الموضوع مع الملك «فاروق» في اجتماع بينهما يوم ١٧ فبراير ١٩٤٥ (كما فعل الرئيس الأمريكي «فرانكلين روزفلت» الذي جاء على ظهر الطراد كوينسي إلى البحيرات المرة وسط مجرى قناة السويس، ليقابل الملك «عبد العزيز بن سعود» والملك «فاروق بعد انتهاء مؤتمر «يالطا» الذي رتب شئون ما بعد الحرب بين الحلفاء الكبار الثلاثة: الولايات المتحدة - والاتحاد السوفيتي - والمملكة المتحدة (بريطانيا)).

وفي ذلك السباق نحو مصر بين «روزفلت» و«تشرشل» كان باديا أن الشرق الأوسط أصبح ساحة من أهم ساحات المستقبل.

ما بين الساعة الخامسة والنصف وحتى السابعة من مساء يوم ١٧ فبراير، التقى رئيس الوزراء البريطاني الأشهر «ونستون تشرشل» - مع ملك مصر الشاب، وكان اجتماعهما في بيت الوزير البريطاني المقيم للشرق الأوسط (ليتلتون الذي خلف اللورد موين بعد اغتياله قبل شهرين).

وهناك سجل لمحضر اللقاء في محفوظات مجلس الوزراء البريطاني (يحمل رقم ٨٠١)، والمحضر يجري على النحو التالي:

تسجيل مناقشة مع ملك مصر ورئيس الوزراء في بيت الوزير البريطاني المقيم.

القاهرة: الساعة ٥,٣٠ - ٧ مساءً.

١٧ فبراير ١٩٤٥

الحضور من الجانب البريطاني:

رئيس الوزراء «ونستون تشرشل»

وزير الخارجية «أنتوني إيدن»

سفير صاحب الجلالة البريطانية «اللورد كيلرن»

الحضور من الجانب المصري:

ملك مصر «فاروق»

(الملك وحده بدون رئيس وزرائه أو رئيس ديوانه أو أي مرافق لتسجيل محضر المقابلة).

بدأ رئيس الوزراء («تشرشل») اللقاء بملاحظة عن التغيير الوزاري الذي جرى أخيرا في مصر، وخرج به «صديقنا» «النحاس» (باشا) ورد الملك «فاروق» قائلا: «إن الوقت كان قد حان للتغيير. وأنه لولا حكومة صاحب الجلالة البريطانية لكان التغيير تم مبكرا. وأضاف ملك مصر: «إنه شخصيا كان يتمنى تغيير وزارة الوفد من أول يوم، ومن حسن الحظ أنه أعطى تلك الحكومة حبل الصبر طويلا، وأنه كما توقع فإن تلك الحكومة شنقت نفسها بهذا الحبل، أضاف الملك من باب التأكيد «تلك الحكومة انتحرت!».

وتساءل رئيس الوزراء («تشرشل»):

«هناك كلام عن محاكمة «النحاس» وبعض زملائه وهذا غير مقبول».

ورد الملك «فاروق» «إنهم متهمون بالخيانة، ولكنه ليس راغبا في محاكمتهم بهذه التهمة. أضاف الملك أن لجان تحقيق برلمانية وقضائية وجدت أدلة إجرامية ضدهم، وهو يرى أن متابعة ذلك إلى نهايته الطبيعية ليس عمله هو، ولكنه مسئولية الوزارة الجديدة».

ورد رئيس الوزراء محذرا «أن الحكومة البريطانية لا تقبل محاكمة «النحاس» - مهما كانت التهم - لأنه خدم بريطانيا العظمى في زمن أزمة».

أضاف رئيس الوزراء «أن هذا على أي حال ليس الموضوع الذي يريد تضييع الوقت فيه، فتلك مشكلة يمكن متابعتها بوسائل أخرى.

انتقل رئيس الوزراء إلى المسألة المهمة

كان «أحمد ماهر» (باشا) رئيس الوزراء متحمسا لإعلان الحرب من ناحية المبدأ (وكان ذلك رأيه من قديم حتى عندما كان إعلان الحرب مخاطرة، واعتقاده أن الحرب تجربة ومدرسة تحتاجها مصر)

«قال الملك «فاروق» إنه يخشى أن إعلان مصر الحرب بعدما انتهت تقريبا وانتصر الحلفاء وانهزم أعداؤهم، يمكن أن يعطى انطباعا سيئا»

المتعلقة بانضمام مصر إلى الأمم المتحدة، وأبدى أن الحكومة البريطانية لا تمانع في دخول مصر عضوا مشاركا في إنشاء الأمم المتحدة، وعضوا مؤسسا في هذه الهيئة التي تضع الأساس لسلم عالمي دائم.

قال رئيس الوزراء «إن مصر في الواقع تستحق هذه المكافأة لجهودها في الحرب، مع أنها لم تدخلها رسميا، والآن لم يعد هناك خطر في استكمال الشكل وإعلان الحرب رسميا حتى تتمكن الحكومة المصرية من استيفاء المواصفات المطلوبة للأمم المتحدة.

وقال الملك «فاروق» «إنه يخشى أن إعلان مصر الحرب بعدما انتهت تقريبا وانتصر الحلفاء وانهزم أعداؤهم، يمكن أن يعطى انطباعا سيئا. وافق الملك عندما عرف أن تركيا سوف تفعل نفس الشيء، وهي كحال مصر لم تدخل الحرب من قبل. أضاف الملك أن مصر يمكن أن تتصرف مثل تركيا، وكذلك مثل السعودية التي أبلغه ملكها «عبد العزيز» أنهم سوف يعلنون الحرب ليكون لهم حق دخول الأمم المتحدة.

قال رئيس الوزراء لملك مصر «إنه سوف يترك وزير الخارجية «أنتوني إيدن» يرتب التفاصيل مع رئيس الوزراء المصري «أحمد ماهر».

قال رئيس الوزراء «ونستون تشرشل» لملك مصر:

«أريد أن أذكرك - بما قلته لك مرات من قبل - وألح عليه مرة أخرى اليوم وهو أن لديك فرصة رائعة لخدمة شعبك، وذلك في كل الأحوال واجبك. إن أحوال الشعب المصري تنادي من يستطيع تحسينها، فليس هناك في العالم كله مثيل لهذا التناقض الواقع في مصر بين غنى فادح وفقر مدقع».

كرر رئيس الوزراء هذه الملاحظة مؤكدا أن الشعب المصري في حاجة ماسة إلى من يخدمه. قال الملك «فاروق» إنه يحمل هذا الهدف في قلبه، لكنه مضطر أن يعمل من خلال الوزارة.

لاحظ رئيس الوزراء أن «كلا من مصر والهند لديهما عند بريطانيا أرصدة إسترلينية مقابل خدمات قدمت للمجهود الحربي. ومع أن المجهود الحربي البريطاني أنقذ كلا من مصر والهند، فإن رئيس الوزراء يرى جواز مناقشة هذه المسألة.

لم يعلق الملك «فاروق» على ذلك، ثم قال ملك مصر إنه يأسف أن رئيس الوزراء (البريطاني) ليس لديه وقت كاف في مصر، حتى يرى كيف يرحب به الشعب المصري. وأنه (الملك) كان يرغب في إقامة حفل رسمي كبير في القصر الملكي يناسب مقام «تشرشل»، ورد رئيس الوزراء «في المرة القادمة - ربما».

وراء الستار في تلك الفترة المفعمة بالشكوك وأسباب التردد كان هناك رجل يتحرك، رغم أن دوره يكاد يندثر وسط ركام الماضي، وهذا الرجل هو الفقيه القانوني «عبد الحميد بدوى» (باشا) رئيس قلم قضايا الحكومة. (وكانت الصحافة الشعبية في مصر



أحمد ماهر

تلقبه بفقيه القرية وتتهمه بتفصيل الفتاوى على هوى الطالبين، ولم يكن ذلك دقيقا بقياس ما هو باق من أعمال الرجل) - كان «عبد الحميد بدوى» (باشا) كما يبدو من قراءة مذكراته وتوصياته إلى رؤساء الوزارات المصرية كفاءة قانونية لافتة في قدرتها على تأصيل الموضوعات وعرضها، وإسناد المنطق وترتيبه، واقتراح الحلول وبدائلها، وتكشف محفوظات رئاسة مجلس الوزراء عن مذكرة بتاريخ ١٨ فبراير ١٩٤٥، قدمها «عبد الحميد بدوى» (باشا) إلى رئيس الوزراء «أحمد ماهر» (باشا)، وفي هذه المذكرة يحدد «عبد الحميد بدوى» مسارا واضحا، قانونيا وسياسيا يتوالى خطى متصلة:

(أولها ضرورة أن تكون مصر طرفا فاعلا في تأسيس النظام الدولي الجديد الذي تنشئه الأمم المتحدة، وإذا كان ذلك يقتضي أن تقوم مصر بإعلان الحرب على ألمانيا، فإن «بدوى» (باشا) يرى أن مصر حاربت فعلا، وأن مواردها وإمكانياتها شاركت في المعركة رغم غياب قوات مسلحة لها على الأرض. والمنطق أن حلفاء أي حرب مطالبون بالدرجة الأولى بإعطاء كل جهدهم لخدمة أهداف التحالف دون النظر إلى عنصر بالذات من عناصر الحرب كالسلاح أو غيره. ولهذا فإن مصر حتى رغم تأخرها في إعلان الحرب - فإنها استوفت شرطه، وعلى هذا الأساس كانت فتوى «عبد الحميد بدوى» (باشا) أن تعلن مصر الحرب على ألمانيا لأنها ساهمت في هزيمتها - لكن لا تعلن الحرب على اليابان لأن تلك معركة لم تساهم فيها مصر بشيء.

● ثانيها، أن مصر - مع أصدقاء لها - تستطيع أن تشارك في الدعوة إلى نظم إقليمية تتعاون مع بعضها لصيانة الأمن والسلام العالميين، ويكون ذلك ترتيبا موازيا لسلطة يظهر أن الحلفاء الكبار (الولايات المتحدة - والاتحاد السوفيتي - وبريطانيا) ينوون الاحتفاظ بها لأنفسهم على شكل هيئة عليا تمثل إرادة المجتمع الدولي ويجري الحديث عنها من الآن (وذلك ما سمي في الميثاق بعد ذلك بمجلس الأمن، وكان للكبار فيه تفويض بحق العضوية الدائمة وبحق الاعتراض النافذ (الفيتو).

ويستحق الانتباه أن «عبد الحميد بدوى» (باشا) في صدد نظم التعاون الإقليمي بدا وكأنه يتحدث بالتحديد عن مشروع نظام عربي، فقد أشار «إلى التواصل الجغرافي والإنساني، والقرب الحضاري اللغوي والثقافي، ومجال التفاعل مما تصنعه قرابة الجغرافيا والتاريخ».

● ثالثها: أن مصر يحق لها التحضير لمفاوضات مع بريطانيا من الآن لإعادة النظر في معاهدة سنة ١٩٣٦، والهدف من ذلك ليس إدخال تعديلات على بنود تلك المعاهدة، وإنما الهدف تحقيق توافق بين التزامات مصر المتعددة في إطار الأمم المتحدة وميثاقها، وبين دواعي التنظيم الإقليمي وإطاره، لأن العلاقة الثنائية المصرية البريطانية التي تم توقيع المعاهدة سنة ١٩٣٦ على أساسها، تغيرت من حولها الأوضاع بما يستدعي تصورات مستجدة تستجيب للأماني المصرية وتتسق مع تنظيم عالمي متجاوز لنمط العلاقات الثنائية المعروفة.

وكذلك أصبح إعلان مصر للحرب موضوعا مطروحا ومثارا أمام مجلس النواب، والرأي أنه إجراء شكلي بلا تكاليف مستجدة، مقصده تحقيق هدف مستقبلي شديد الأهمية، وهنا كان مستغربا أن تجيء المعارضة له من جانب حزب الوفد.

وكانت حجج الوفد كما جاءت في مذكرة رسمية أعلنها وقدمها (للسفارة البريطانية أيضا) «أن إعلان مصر للحرب الآن يعرضها لتضحيات جسيمة في الرجال والأموال وإلى مدى لا يعلم إلا الله مداه»، وأن بريطانيا وعدت مصر بحضور مؤتمر الصلح بعد الحرب مقابل خدمات جليلة أدتها أثناء الحرب للحليف البريطاني والحلفاء الديمقراطيين. وتأسيسا على هذا الوعد فإن مصر لها الحق أن تحضر مؤتمر «سان فرانسسكو» دون إعلان للحرب يكلفها غاليا. ومع أن «الوفد» يعرف أن الجزء الأصعب من الحرب قد انقضى، فإن المرحلة الباقية خطرة على مصر من حيث إنها سوف تؤدي إلى دمج جيشها في جيوش الحلفاء ووضعه تحت إمرة قادتهم، كما أن أسطولها التجاري في البحار يمكن إغراقه بالطائرات. كما أنها قد تصبح مطالبة بقوى عاملة ومساعدة للعمليات. هذا إذا لم يطلب منها أن تبعث بقوات وأسلحة وعتاد وذخائر تشارك في حروب هجومية! وفضلا عن ذلك فإن قيام مصر بإعلان الحرب لا يتفق مع كرامتها، وكان المعقول أن تعلن مصر الحرب عندما كانت أرضها معرضة للاحتلال أيام كان الخطر داخل حدودها فعلا. أما الآن وقد ابتعد الخطر عن حدودها فإن إعلان الحرب يبدو منافيا للكرامة».

ولم يكن الوفد وحده في معارضة إعلان الحرب، وإنما تبعه الحزب الوطني وكذلك جماعة الإخوان المسلمين. واضطربت الخواطر في مصر بين فريق يرى الأمر ظاهرا بحيث لا يحتاج إلى عناء، وبين فريق آخر يشكك ويتخوف، وبالتالي يعارض ويحرض!

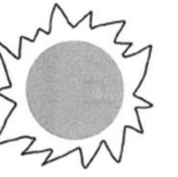
ويوم ٢٤ فبراير ١٩٤٥ كان مجلس النواب مدعوا لاجتماع استثنائي يعرض فيه رئيس الوزراء «أحمد ماهر» قرار إعلان الحرب حتى ينفذ مفعوله بموافقة البرلمان عليه. وتحدث «أحمد ماهر» (باشا) وشرح وجهة نظره أمام قاعة مشحونة بالأعضاء وبالمشاعر. ثم خرج بعد الجلسة يلتقي نواب حزبه، وفيما هو يمر بالبهو الفرعوني، تقدم منه شاب مد يده إليه مصافحا. وظن رئيس الوزراء أن الشاب نائب لا يعرفه، أو موظف في المجلس يحييه، أو ضيف من شرفات الزوار جاء إلى البهو الفرعوني. وكذلك مد يده، وفي تلك اللحظة كان الشاب وهو «محمود العيسوى» يسحب من جيبه مسدسا ويعاجل «أحمد ماهر» (باشا) بطلقات رصاص ترديه قتيلا على الفور.

وكان «محمود العيسوى» شابا متحمسا تتوزع ولاءاته ما بين الحزب الوطني وجماعة الإخوان المسلمين.

وكانت تلك هي الرصاصة الثانية بعد رصاصة أولى قتلت اللورد «موين» - وبين الرصاصتين ثلاثة شهور لا تزيد! ■

«كانت حجج الوفد كما جاءت في مذكرة رسمية أعلنها وقدمها (للسفارة البريطانية أيضا) «أن إعلان مصر للحرب الآن يعرضها لتضحيات جسيمة في الرجال والأموال وإلى مدى لا يعلم إلا الله مداه»





الرصاصة الثالثة: أمين عثمان

يناير ١٩٤٦

فور اغتيال «أحمد ماهر» كان اختيار خلف له قضية محسومة، فلم يكن على الساحة عقلا وعاطفة، خيار آخر غير تكليف نائبه «محمود فهمى النقراشى» (باشا). وفى الواقع فإنها كانت نفس وزارة «أحمد ماهر» ـ و«النقراشى» (باشا) على رأسها بدلا منه.

ووجد رئيس الوزراء الجديد نفسه فى وضع شديد الصعوبة، فالملك «فاروق» لا يفهمه، ثم إن السفير البريطانى ضيق الصدر به وقد وصفه فى تقاريره وكرر أكثر من مرة: إنه «عنيد إلى حد الغباء وضيق الأفق إلى حد التعصب». بل إن السير «رونالد كامبل» (وهو وقتها وكيل الوزارة المسئول عن الشرق الأوسط) ـ كتب إلى وزير الخارجية الجديد يقول: «إذا أردنا أن نفهم «النقراشى» فلابد أن نتذكر دائما مهنته، فقد كان فى الأصل «مدرسا» ولا يزال حتى الآن يتصرف مع مجلس وزرائه ومع موظفى الدولة كأنهم فصل مدرسة!

يضيف «رونالد كامبل» «أن «النقراشى» بعد الاشتغال بالتدريس انضم إلى الحركة الثورية المصرية، وشارك فى العمليات السرية لمقاومة «وجودنا» فى مصر وبينها عملية اغتيال السير «لى ستاك» مفتش الجيش المصرى. لكن «النقراشى» الآن وفى رغبته للتفاهم معنا «ينفى بشدة أنه شارك فى اغتيال السير «لى ستاك»، ونحن لا نظن أنه أمسك سلاحا وصوبه، لكنه كان ضالعا فى التحضير والتخطيط لحوادث الشغب التى جرت فى تلك الفترة. والسمعة الشخصية للرجل طيبة، فهو لا يقامر ولا يذهب إلى سباق الخيل مثل سلفه، وهو رجل مستقيم فى علاقاته العائلية. ولم يحدث أن أثير شك حول ذمته المالية، وإن كان «أمين عثمان» قد ذكر مرة «أن الرجل أمين لأنه لا يعرف كيف تكون الوسائل إلى شىء آخر»!»

وعندما ذهب السفير البريطانى إلى بيت «أحمد ماهر» ليعزى أسرته بعد ساعات من اغتياله، كان الملك «فاروق» هناك أيضا يعزى الأسرة، وكذلك كان «النقراشى» الذى أسندت إليه مقاليد الوزارة، كما كان هناك «مكرم عبيد» (باشا) الذى لم يكن راضيا من أول لحظة عن اختيار «النقراشى» (باشا) لرئاسة الوزارة بتأثير رواسب قديمة عندما كان كلاهما فى حزب الوفد قبل خروج السعديين برئاسة «أحمد ماهر» ـ وقبل انشقاق «مكرم عبيد» (باشا) والكتلة المحيطة به.

وروى السفير البريطانى فى تقرير له إلى لندن: «أن «مكرم عبيد» (باشا) كان ثائر الأعصاب، وقد قال للسفير البريطانى «إن «محمود العيسوى» (قاتل «أحمد ماهر» (باشا)) ـ اعترف من بداية التحقيق أن هناك عشرين شابا مثله يحملون مسدساتهم، وسوف يفرغون طلقاتها فى عشرين سياسيا مصريا إذا هم ترددوا فى هذه اللحظة أو تقاعسوا».

ويذكر اللورد «كيلرن» فى نفس التقرير «أن «مكرم» (باشا) أثار أمامه ـ وفى ذلك الموقف ضرورة محاكمة «النحاس» (باشا)، قائلا: «هناك لجنة تحقيق فرغت من جمع الوقائع والوثائق ولابد من تحويل تقريرها إلى مجلس النواب للتصرف فيه، لأن البلد لا يقبل الميوعة، وها نحن رأينا نتائجها فى اغتيال «أحمد ماهر»».

وفى تقرير لاحق فى نفس اليوم كتب اللورد «كيلرن»: «وجدت لازما أن أحذر «النقراشى» من أى تفكير فى محاكمة «النحاس»، فلست أريده أن يتخذ خطوة فى الاتجاه الخطأ ثم يعتذر عن الخطأ بأنه لم يعرف بما كان بيننا وبين سلفه من اتفاقات. وقمت بالفعل بطلب مقابلته وإخطاره «أن موضوع محاكمة «النحاس» (باشا) ـ ليس مطروحا على المائدة، وهذا تعهد أخذناه من «أحمد ماهر» (باشا) والملك «فاروق» على علم به، وكذلك رئيس وزراء المملكة المتحدة «ونستون تشرشل»».

وبمقدار ما كان اختيار «النقراشى» لخلافة «أحمد ماهر» ضرورة ظروف ـ فإن مهام «النقراشى» كانت بنفس ضرورة الظروف امتدادا لشواغل «أحمد ماهر» وأولها ما حدده «عبد الحميد بدوى» (باشا):

● الإعداد لمؤتمر سان فرانسسكو حيث يوضع ميثاق الأمم المتحدة، والآن كانت تلك المهمة التى أعطى «أحمد ماهر» (باشا) حياته لتحقيقها، التزاما مضاعفا باعتباره مطلبا مصريا يطمح للمشاركة فى تنظيم عالم بعد الحرب، ثم وفاءً لزعيم السعديين الذى اتخذ الإجراء اللازم حتى تكون مصر ضمن الأمم المتحدة، وهو (إجراء إعلان الحرب) ثم تلقى الرصاص فى صدره!

● ثم وهذه هى المهمة الثانية، الإعداد لمفاوضات مع الحكومة البريطانية فى شأن إعادة النظر فى معاهدة سنة ١٩٣٦ (وهو موعد يحل سنة ١٩٤٦) ـ وهنا فإن «عبد الحميد بدوى» (باشا) راح يؤسس لقواعد ظلت ملزمة للسياسة المصرية سنوات طويلة، فقد كان رأيه أن أى تعديل لمعاهدة سنة ١٩٣٦ لابد أن يأخذ فى اعتباره عنصرين:

ـ عالم جديد تنشئه الأمم المتحدة ويحكمه ميثاقها ـ ومصر عضو مؤسس فى الاثنين: النظام والميثاق.

ـ وإقليم لابد من ترتيب شئونه على أساس روابط مشتركة تجمع بين أطرافه ـ وجامعة الدول العربية هى الشكل الراهن لطموحات الإقليم وضمنها أمنه المشترك.

وفى أسابيع قليلة استطاع «عبد الحميد بدوى» (باشا) تشكيل مجموعة من أفضل كفاءات مصر القانونية، وظنه أن «المفاوض المصرى» يحتاج إلى قاعدة علمية يتكئ عليها فى وقت تتقرر فيه مصائر. ولعل المشكلة الوحيدة كانت أن «بدوى» (باشا) بتأثير تجربته، جعل الحقوق مجال المعركة، والقانون الدولى سلاحها، وشجعه أن رئيس الوزراء الجديد مدرس سابق، يريد أن يضبط الأمور بحزم فى فصل من التلامذة المشاغبين، وكذلك راح يأخذ الأمور جدا.

وفى ظرف شهور قليلة كان الملك «فاروق» نفسه يسأل «عبد الفتاح عمرو» (باشا) الذى جاء إلى القاهرة يتولى أمر الاتصالات بين القصر والسفارة بسبب مرض رئيس الديوان «أحمد حسنين» (باشا) ـ قائلا: «يظهر أننا غلطنا باختيار «النقراشى» لكنه لم يكن أمامنا غيره».

ثم ذكر الملك «فاروق» لعمرو (باشا) واقعة مهمة (ترد إشارة غامضة لها فى الوثائق البريطانية)، ومؤدى هذه الواقعة «أنه عندما كان «تشرشل» فى مصر قبل شهور (وفى أعقاب مؤتمر يالطا، وقبل اغتيال «أحمد ماهر»)، أخذ (الملك فاروق) «تشرشل» على جنب وقال له ما مؤداه «أنه ليس هناك داع للإلحاح باستمرار على أهمية «النحاس» (باشا) بالنسبة لهم. فقد فرضوه على (الملك) رئيسا للوزراء، وتركوا أقاربه وأنصاره ينهبون البلد، ثم منعوا محاكمته واعتبروها إهانة لهم. وذلك كله (من وجهة نظر الملك) مسلسل أخطاء لابد أن يتوقف، وهو الآن يطلب فرصة يدير فيها أمور مصر على مسئوليته لمدة خمس سنوات، ثم يحاسبونه بعدها». وقال الملك لعمرو (باشا) ما مؤداه: «أن «تشرشل» وافق على إعطائه يدا طليقة لخمس سنوات». وطبقا لرواية «عمرو» (باشا) (مسجلة بصوته) يستطرد الملك بما مؤداه «أنه أخذ الأمور على مسئوليته» ـ والآن وبعد اغتيال «أحمد ماهر» لم يكن أمامه غير «النقراشى» وقد عينه رئيسا للوزراء، لكن الرجل يعمل حتى دون أن يقصد على وضعنا فى «خناقة» مع الإنجليز». ويستطرد الملك «فاروق» طبقا للرواية «إننى أول من يريد أن يتخانق مع الإنجليز، ولكن الخناق معهم يجب أن يكون بـ: «شطارة»! «ويضيف الملك «لقد مضى من السنوات الخمس التى طلبتها عدة شهور قليلة، لكنى الآن «زهقت» من إمكان عمل شىء!»».

وجد رئيس الوزراء الجديد «النقراشى» (باشا) نفسه فى وضع شديد الصعوبة، فالملك «فاروق» لا يفهمه، ثم إن السفير البريطانى ضيق الصدر به وقد وصفه فى تقاريره وكرر أكثر من مرة: إنه «عنيد إلى حد الغباء وضيق الأفق إلى حد التعصب»

فى ذلك الوقت كتب القسم المصرى فى وزارة الخارجية البريطانية مذكرة لوزيرها جاء فيها بالنص: «بصرف النظر عن كل محاولات التمويه التى يقوم بها المصريون فإن طلباتهم تبدو واضحة من خلال النداءات التى تتردد فى محافل القاهرة، فهم يريدون ما يلى:

● جلاء كل جندى أجنبى عن مصر.

● سيطرة مصرية كاملة على قناة السويس.

● وحدة أو اتحاد مع السودان.

والذى يزعمه بعض القانونيين المصريين (إشارة إلى بدوى باشا) أن ذلك كله يتسق مع إعلان الأطلنطى ومع مجموعة المبادئ التى توجه مؤتمر سان فرانسسكو المكلف بوضع ميثاق الأمم المتحدة. وفى ذلك فإن المصريين لا يدركون حقائق الحياة الأولية، وعلى سبيل

> فى لحظة من خريف سنة ١٩٤٥ بدا أن اللورد «كيلرن» يقترح عودة «النحاس» (باشا) و«الوفد» إلى الحكم، ولو أدى الأمر إلى تدخل آخر بالدبابات، ولم تكن لندن مستعدة

المثال فإنهم لا يعرفون أن مصر لا تستطيع أن تدافع عن نفسها لأن ذلك يحتاج إلى موارد لا تقدر على احتمالها. والحقيقة أن طيرانا عصريا يستطيع تحويل القاهرة إلى ركام، بالإضافة إلى ذلك «فإن العالم لن يسمح لمصر بأن تكون مسئولة عن قناة السويس لسبب واضح، وهو أن إدارة القناة موضوع لا يخطر فى حلم أحد أن مصر مؤهلة له!».

ويتوجه السفير البريطانى اللورد «كيلرن» ويقابل رئيس الوزراء «محمود فهمى النقراشى» (باشا) ثم يكتب تقريرا إلى لندن (رقم ٧٢/ ١١١٦ ـ ١٧ مارس ١٩٤٥)، يعرض فيه وقائع اللقاء فيقول:

«ذكرت لرئيس الوزراء أننى أتحدث إليه اليوم بغير تعليمات من لندن، لكنى قررت مجرد التفكير معه بصوت عال merely thinking aloud - قلت له «إننا نسمع كثيرا عما تسمونه «الأمانى الوطنية المصرية» ولا نعرف بالضبط ماذا تقصدون؟ ولا ماذا تعرفون عن حقائق الدنيا بما فى ذلك حقائق الحرب. قلت له إن دخل مصر القومى الآن هو فى حدود ٨٠ مليون جنيه، ولو أن هذا الدخل خُصص بالكامل للدفاع عن مصر لما كفى. والمسئولون المصريون لا يصح لهم أن ينساقوا وراء كلمات معزولة عن الحقائق!».

ولم يعلق «النقراشى» على ما قلت مباشرة ولا يبدو لى أنه يعرف ما فيه الكفاية لكى يخوض فى مناقشة مفيدة، وحاولت أن ألفت نظره إلى أن «الشعارات» لا يمكن أن تكون فى حد ذاتها «سياسة»، لكنى أشك أن فى مقدور الرجل أن يفهم بأكثر مما تسمح به ملكاته»!

لم تكد تمر أيام على هذا الحديث حتى تسجل الوثائق البريطانية (٨٧ / ١٢٣٨) لقاء بين «حسين سرى» (باشا) رئيس الوزراء السابق (حتى يوم ٤ فبراير ١٩٤٢) ـ وبين السفير البريطانى اللورد «كيلرن». وفى تقريره عن اللقاء يقول اللورد «كيلرن» بالحرف:

«إن «سرى» (باشا) متشائم من الأوضاع الحالية، ورأيه أن «النقراشى» رجل ضيق الأفق لا يصلح أن يكون رئيسا للوزراء، وبدوى (يقصد عبد الحميد بدوى باشا) يقف وراءه ويحرك خطواته وهو أسوأ منه. و«مكرم عبيد» يقوم بدور الروح الشريرة فى الوزارة.

وفى رأى «سرى» (باشا) أن الوزارة الحالية غير قادرة على البقاء أكثر من ثلاثة أشهر. يضيف «سرى» (باشا) أنه على تمام الاقتناع بأن البلد ليس جاهزا للحكومة البرلمانية، وليس هناك بد من تأجيل البرلمان سنة كاملة على الأقل حتى إذا كان ذلك تعطيلا للدستور، لكن المشكلة أن الملك ليس متزنا، فهو فى شهر يتعامل معه (مع سرى باشا) كصديق، وفى الشهر التالى يتعامل معه كعدو».

وتشير وثائق رئاسة الوزارة فى بريطانيا أن رئاسة أركان الحرب الإمبراطورية أصبحت مشغولة بكل هذه «الشوشرة» التى تدور فى مصر حول معاهدة سنة ١٩٣٦، والتحالف



أمين عثمان

العسكرى بين مصر وبريطانيا (وهو على عكس البنود السياسية فى المعاهدة ليس قابلا للتعديل) ـ وفوق ذلك ما يتردد حول قاعدة قناة السويس، ومستقبل القناة ذاتها!

ويجىء اللورد «آلان بروك» رئيس أركان حرب الإمبراطورية إلى مصر ـ يقابل الملك «فاروق»، ويشرح له «حقائق القوة» فى هذا العالم، بصرف النظر عن المواثيق السياسية وإعلانات المبادئ وعملية تأسيس الأمم المتحدة الجارية الآن فى «سان فرانسسكو».

ويقابل اللورد المارشال «آلان بروك» أيضا رئيس الوزراء «محمود فهمى النقراشى» (باشا) ويشرح له.

لكن المفاجأة أن «أمين عثمان» (باشا) أبلغ السفير البريطانى أنه يريد لقاء مع رئيس أركان حرب الإمبراطورية ليعرض عليه وجهة نظر «النحاس» فى الموقف، لأن المارشال بالطبع لا يستطيع أن يقابل رئيس الوفد ـ لكن «آلان بروك» يعتذر عن اللقاء لأنه لا يريد التورط فى الشئون الداخلية المصرية! (رغم أنه مع الملك «فاروق» أشار إلى ضرورة استبعاد فكرة محاكمة «النحاس» (باشا)، لأن ذلك يؤدى إلى قلاقل فى الداخل تؤثر على التوازن العسكرى فى مصر وحولها).

ولم تكد مهمة المارشال «آلان بروك» تنتهى، حتى عُززت بمهمة قام بها ماريشال آخر هو المارشال «سمطس» وهو السياسى الأقوى نفوذا فى جنوب أفريقيا، وكان يعتبر فى تلك الأيام من دعامات الإمبراطورية. وجاء المارشال «سمطس» إلى القاهرة وقابل الملك وقابل «النقراشى» ليقول للاثنين: «إن تحقيق الأمانى المصرية يحتاج إلى إدخال إصلاحات اجتماعية على أوضاع الناس فى مصر أكثر مما يحتاج إلى إخراج القوات البريطانية منها!».

كان «أمين عثمان» مازال يتحرك وظنه أن الحكومة البريطانية نفد صبرها سريعا من وزارات القصر، وأنها الآن جاهزة لتدخل «من نوع ما» حتى لا تفلت الأمور إلى أبعد مما يمكن السيطرة عليه، ويسجل اللورد «كيلرن» فى تقرير إلى وزارة الخارجية البريطانية (رقم ١٦٦٢) ما نصه: «جاء «أمين عثمان» إلى الإسكندرية ليقابلنى، قال لى أن «النحاس» (باشا) يشعر بالقلق، فالأمور فى مصر تتحرك بينما هو مقيد، وهو يخشى أن اللحظة سوف تفلت إذا ظل متخلفا وراء الرأى العام فى قضية لها أهمية مثل تعديل معاهدة سنة ١٩٣٦، وتقدير «الباشا» أن التعديلات المطلوبة على المعاهدة يمكن تسويتها بطريقة هادئة وهو يعرف كيف، لأنه كان رئيس الجبهة الوطنية التى فاوضت سنة ١٩٣٦، وهو الذى وقع على المعاهدة. والآن فإن المسائل المطروحة للبحث هى: مواد التحالف العسكرى وما يتصل بها (وهو يعتقد بإمكانية التفاهم حولها) ـ ثم مشكلة السودان. ويوضح «أمين عثمان» وتسجل التقارير: أن («النحاس» (باشا) لا يرى السودان مشكلة، والحقيقة أن السودان لا يهمه كثيرا لأنه يسلم بأن فى السودان الآن حقائق جديدة) ـ تتبقى بعد ذلك مشكلة الأرصدة الإسترلينية لمصر، هى مشكلة يمكن الاتفاق عليها بروح من التعاون الودى نقدر عليه معا أى هو «النحاس» وأنا («لورد كيلرن»)، وبذات الروح التى تفاوضنا بها معا أول مرة سنة ١٩٣٦.

وبدأ اللورد «كيلرن» يجمح فى تصوراته، خصوصا وقد علت أصوات تقول أن «النقراشى» (باشا) «ليس رجل الساعة»، ولبعض الوقت بدا أن الملك «فاروق» يراجع نفسه، أى أنه على استعداد لتغيير «النقراشى» ولكنه لا يريد أن يذهب «النقراشى» لكى يجىء «النحاس» ـ وفى نفس الوقت فإن نشاط «أمين عثمان» يزيد، ولاحظت وزارة الخارجية فى لندن (وهو ظاهر فى ملفاتها) أن اللورد «كيلرن» يوشك على تضييع التوازن الضرورى لسفير صاحب الجلالة البريطانية فى مصر، لأنه عاد إلى تكرار عدم صلاحية «فاروق» لدور ملك دستورى.

وفى لحظة من خريف سنة ١٩٤٥ بدا أن اللورد «كيلرن» يقترح عودة «النحاس» (باشا) و«الوفد» إلى الحكم، ولو أدى الأمر إلى تدخل آخر بالدبابات، ولم تكن لندن مستعدة.

ويستحق الملاحظة أن أول مسألة جرى سؤال وزير الخارجية العمالى الجديد عنها كانت متعلقة بالشئون المصرية، وتمثلت فى تقرير من القاهرة عن الاستعدادات الجارية للاحتفال فى مصر بعيد ميلاد ملك بريطانيا. وفى التقاليد فإن هذه الاحتفالات كان بين مراسمها عرض عسكرى تخرج فيه القوات البريطانية من ثكنات قصر النيل لتمر فى طابور يتقدمه العلم البريطانى أمام السفير البريطانى واقفا على منصته وسط ميدان الخديو إسماعيل (ميدان التحرير الآن) ليتلقى تحية القوات ممثلا لصاحب الجلالة البريطانية. وفى هذه الأجواء المصرية الملبدة بالغيوم كان رأى وزير الخارجية البريطانى (نجم العمل النقابى «أرنست بيفن») أن مثل هذا الاستعراض «استفزاز لمشاعر الشعب المصرى»، وبالتالى فإنه يلزم إخطار السفير البريطانى فى القاهرة بذلك، والتنسيق مع رئاسة أركان الحرب الإمبراطورية بإلغاء الاستعراض البريطانى على ساحة ميدان عام فى قلب القاهرة، وإذا كان لابد من استعراض، فالأفضل إجراؤه داخل الثكنات وليس خارجها، وإذا لم تكن الثكنات مناسبة فإنه يمكن نقل الاحتفال إلى نادى الجزيرة!

وكانت تلك إشارة مشجعة، وفسرها الملك على أنها بداية عهد جديد، تقبع فيه القوة البريطانية داخل حدودها. وعاودت الملك ثارات قديمة وظنه أن الوقت مناسب الآن للرد عليها، وهكذا دوى الرصاص فى القاهرة مرة أخرى.

ويوم ٥ يناير ١٩٤٦ وفى شارع عدلى، كان الحرس الحديدى للملك «فاروق» يرتب لاغتيال «أمين عثمان» (باشا) بواسطة مجموعة قتل يقودها اليوزباشى «أنور السادات».

وحين عرف وزير الخارجية البريطانى «أرنست بيفن» بخلفيات اغتيال «أمين عثمان» (باشا)، كان تعليقه فى اجتماع أمام لجنة الأمن الإمبراطورى العليا يوم ١٠ يناير، كان قوله «إننى عاجز عن تصور قيام رجل هو الرئيس الأعلى للدولة فى بلاده بقتل أحد مواطنى دولته لأنه يعارض سياسته أو يكرهه شخصيا».

وكانت نوازع الانتقام أقوى ـ وكان صوت الرصاص فى القاهرة ـ مرة ثالثة ـ أعلى!

> حين عرف وزير الخارجية البريطانى «أرنست بيفن» بخلفيات اغتيال «أمين عثمان» (باشا)، كان تعليقه فى اجتماع أمام لجنة الأمن الإمبراطورى العليا «إننى عاجز عن تصور قيام رجل هو الرئيس الأعلى للدولة فى بلاده بقتل أحد مواطنى دولته لأنه يعارض سياسته أو يكرهه شخصيا!»



الرصاصة الرابعة: سليم زكي

ديسمبر ١٩٤٧

كان اغتيال «أمين عثمان» (باشا) بداية تداعيات لعلها لم تخطر ببال الملك «فاروق» وهو يعطي للدكتور «يوسف رشاد» (طبيبه الخاص ومسئول الحرس الحديدي في شكله الهجومي المستجد) - إشارة البدء في تنفيذ عمليات الانتقام المسلح من خصومه. وأن تكون التجربة الأولى ضد «أمين عثمان» (باشا) بالذات - فهو فضلا عن الثأر القديم (٤ فبراير ١٩٤٢) يريد إزاحته عن الساحة الآن، لأنه يتحرك بنشاط زائد غرضه إعادة «النحاس» (باشا) إلى الحكم مع وزارة وفدية، حتى وإن اقتضى الأمر تكرار حصار القصر بالدبابات.

وقد رأى الملك «فاروق» أن يسبق الحوادث ويضرب ولو إنه انتظر قليلا لعرف أن محاولات اللورد «كيلرن» لا تجد في لندن الآن - خصوصا في عهد حكومة عمال جاءت بها الانتخابات العامة في بريطانيا - مسئولا مؤيدا أو مستعدا للتأييد. والحقيقة أن وزير الخارجية العمالي الجديد «أرنست بيفن» كان قد اتخذ قرارا بالفعل بأن اللورد «كيلرن» استهلك مدة صلاحيته في مصر؛ لأنه غرق في عداواته الخاصة وصداقاته الخاصة، وتلك آفة السفراء دائما عندما تطول خدمتهم في موقع، وتكون دولهم صاحبة نفوذ عميق حيث يخدمون. وكذلك تقرر نقل اللورد كيلرن من القاهرة إلى منصب آخر (في جنوب أفريقيا)!

على أنه حين ضرب الملك «فاروق» بسلاح الحرس الحديدي «أمين عثمان» (باشا) مضرجا بدمه (أمام العمارة رقم ٨ بشارع عدلي وسط القاهرة) - فإن السر لم يعد خافيا على رجلين من أقرب الناس إليه.

● أولهما: رئيس ديوانه (ورائده أيام الصبا وزوج أمه وقت الشباب) «أحمد محمد حسنين» (باشا) - وكان «حسنين» على علم بوجود الحرس الحديدي بالطبع لأنه كان في إطار خطته الأساسية للانتقام من ٤ فبراير ١٩٤٢ (على طريقة «الكونت دي مونت كريستو» - حسب تعبير الملك فاروق). ومع أن «حسنين» (باشا) شعر أن دخول الدكتور «يوسف رشاد» إلى الدائرة القريبة من الملك، نقطة تحول لابد من متابعتها باهتمام. إلا أن رئيس الديوان لم يتوقع أن «تتدحرج» المسائل بهذه السرعة. وقد أدرك «حسنين» (باشا) حتى قبل أن يتحقق من الوقائع، وبمجرد علمه باغتيال «أمين عثمان» أن أصابع الملك «فاروق» كانت هي التي ضغطت على الزناد. وتوقع أن يعرف الإنجليز، وتوقع أنه سوف تترتب على ما جرى مضاعفات، على أن «حسنين» (باشا) لم يعش ليرى هذه المضاعفات.

● وأما الرجل الثاني الذي عرف فهو رئيس الوزراء «محمود فهمي النقراشي» (باشا)، وقد تأخرت معرفته أياما حتى أحس أن تصرفات البوليس والنيابة العامة في قضية مقتل «أمين عثمان» (باشا) - تتعرض لضغوط محسوسة، كما أن الإعلام الموالي للقصر (وفي طليعته صحف أخبار اليوم) راح يحول القضية إلى نوع من «أفلام رعاة البقر» (حسب تعبير نسبه «حسن يوسف» (باشا) إلى «النقراشي (باشا)). ولم يكن رئيس وزراء الملك معجبا بأمين عثمان، بل إنه يكرهه، لكن ذلك «المدرس القديم» الذي تعود أن يعاقب تلاميذه في الفصل كان يضربهم بمسطرة، لكنه لا يضربهم بمسدس. وكان «النقراشي» حائرا فيما ينبغي أن يكون عليه موقفه، فهو يتصور أمامه مهام وطنية:

- فيها أن مؤتمر «سان فرانسسكو» يواصل أعماله لوضع ميثاق الأمم المتحدة، والوفد المصري هناك تحت الرئاسة الفعلية لعبد الحميد بدوي (باشا) يشارك بجهد مؤثر في صياغة الميثاق، خصوصا فيما يتعلق بالضمانات التي يمكن كفالتها للدول الصغرى.

- وفيها أن هناك استعدادا للتمهيد لمفاوضات مع الإنجليز تستهدف تعديل معاهدة سنة ١٩٣٦ - على نحو أقرب إلى تحقيق ما أصبح يطلق عليه «الأماني الوطنية».

على أن الملك «فاروق» أعفى رئيس وزرائه من التردد، لأن الكاردينال الملكي أقنعه بأنه لا يستطيع أن يتحمل مشكلتين في نفس الوقت مع الإنجليز:

● مشكلة «أمين عثمان» (باشا) - كما سماها (دون أن يصرح بما هو أكثر).

● ثم تشدد «النقراشي» الذي يوشك على إغضاب الإنجليز (بما يجعل أزمة اغتيال «أمين عثمان» مضاعفة).

والحل في رأيه: أن يخرج «النقراشي» لتغطية اغتيال «أمين عثمان» وأن تجيء وزارة جديدة كان مرشحه لها هو «إسماعيل صدقي» (باشا).

وفي الوقت الذي كلف فيه «صدقي» (باشا) بتشكيل الوزارة، وشكلها فعلا يوم ١٧ فبراير ١٩٤٩ - ذهب «النقراشي» إلى بيته مقهورا ممرورا، ولم يمض يومان، حتى كان ذلك الكاردينال الملكي «أحمد محمد حسنين» (باشا) يلقى مصرعه (١٩ فبراير ١٩٤٦) عندما اصطدمت سيارته مع ناقلة جنود بريطانيين فوق كوبري قصر النيل. وكان تأثير غياب «أحمد حسنين» (باشا) هائلا على الملك «فاروق». وعلى نحو ما فإن هذا الغياب حرر ملك مصر من عقد غائرة في الأعماق، ومن قيود تحد انطلاقه، فهو بعد «حسنين» بغير «رائد» يرى له الناس تأثيرا عليه - وبغير «زوج أم» خان والده واحتمى بالملكة «نازلي» - وبغير رئيس ديوان يحتل موقعا قويا في البلاط يشير منه ويوجه في الأزمات، بما يجعل الملك نفسه يتردد أحيانا ويعيد النظر في عوارض خطرت على باله أو سمعها من خاصته الأقربين.

وكان رئيس الوزراء الجديد شخصية غير عادية، فالرجل (وهو من مؤسسي حزب الوفد القدامى والخارجين عليه مبكرا) - شديد الذكاء، واسع الطموح، قوي الأعصاب، قادر على المناورة وعلى القسوة، وغير مقيد بشعبية تحكم تصرفاته، خصوصا إزاء الرأي العام الذي اعتبره «صدى صوت رعاع»!

ومع ذلك فقد كانت لصدقي (باشا) نقاط ضعف خطرة: فمعرفة الرجل بشئون الاقتصاد، شابها اهتمام زائد بشئون المال. ثم إن الرجل كانت له عين تلمح الجمال وتتعقبه، والمشكلة أن معظمه كان جمالا يهوديا، وذلك وضعه في دائرة علاقات اجتماعية تغطيها الظلال (وإن كان لابد من ملاحظة أن الوثائق البريطانية والفرنسية والإسرائيلية لم يرد فيها ما يدعو أحدا إلى القطع بأن علاقة «صدقي» (باشا) مع اليهود امتدت إلى علاقة مع إسرائيل، وتلك مسألة ثارت حولها شكوك عندما وقف الرجل في مجلس الشيوخ معارضا لدخول مصر حرب فلسطين فيما بعد).

....

....

[وقد أتيحت لي الفرصة للقاء «صدقي» (باشا) عدة مرات، ضمنها مرة في يناير ١٩٤٦، حين أجريت معه حديثا صحفيا لمجلة «آخر ساعة» تضمن نقدا شديدا لوزارة «النقراشي». وحدث أن كانت المجلة في المطبعة فعلا أن اتصل بي «صدقي» (باشا)، طالبا تأجيل نشر حديثه رغم علمه أن الوقت تأخر لهذا الطلب. ولم أكن أعرف وقتها أن داعيه إلى هذا الإرباك الشديد لمجلة تحت الطبع، لكنه - كما اتضح فيما بعد - عرف أن رئاسته للوزارة احتمال قريب، ولم يشأ أن يربط نفسه بحديث صحفي أجراه مسبقا. واتصلت برئيس تحرير المجلة وهو الأستاذ «محمد التابعي»، ويبدو أنه كان أكثر اطلاعا على مجريات الأمور، لأنه أعطى موافقته على تأجيل الحديث، رغم أن تلك عطلة تؤثر على عمل المطبعة وتحمل معها تكاليف إضافية. واتصلت بصدقي (باشا) أقول له إن الحديث سوف يؤجل رغم كل الصعوبات. وبدا «صدقي» (باشا) شديد العرفان، واعدا «أنه سيعوض ما ضاع على آخر ساعة أضعافا مضاعفة». ووفى الرجل بوعده فلم يكد يصبح رئيسا للوزراء بعد أيام، حتى اتصل مكتبه يدعوني للقاء معه، وكان اللقاء في وزارة الداخلية، وكان «صدقي» (باشا) قد احتفظ بها إلى جانب رئاسته للوزارة - لكنني في يوم ذلك اللقاء مع الرجل رئيسا للوزراء، أحسست بحاجز يقوم بينه وبيني، فقد جلست أمامه وجاءه تليفون، فهمت أنه من «سليم زكي» (باشا) (حكمدار بوليس القاهرة الجديد بعد اعتزال «راسل» باشا) - وأن هناك مظاهرات في شوارع القاهرة تتجمع في ميدان الخديو إسماعيل (التحرير الآن)، ثم سمعت بأذني «صدقي» (باشا) يأمر بالسيطرة على المظاهرات حتى وإن اقتضى الأمر أن «تضربوا في المليان». وكنت جالسا أمامه، وقد التفت إلي يستأنف حديثه معي من حيث تركه قبل أن يقاطعه تليفون حكمدار بوليس القاهرة!]

....

....

كان الشارع المصري في حالة فوران طوال مدة رئاسة «إسماعيل صدقي» للوزارة، فطلقات

> كان رئيس الوزراء الجديد «صدقي» (باشا) شخصية غير عادية، فالرجل (وهو من مؤسسي حزب الوفد القدامى والخارجين عليه مبكرا). شديد الذكاء، واسع الطموح، قوي الأعصاب، قادر على المناورة وعلى القسوة، وغير مقيد بشعبية تحكم تصرفاته، خصوصا إزاء الرأي العام الذي اعتبره «صدى صوت رعاع»!

> كانت لحسن البنا صلات بالقصر الملكى، الذى حاول فى أكثر من مناسبة أن يستخدم الإخوان لمقاومة الوفد فى الشارع، وأن يجعل الجماعة احتياطيا شعبيا للمؤسسة الدينية الرسمية التى يمثلها الأزهر

الرصاص وسط العاصمة (قتلت أربعة شباب فى ميدان الخديو إسماعيل) ونبهت كل الناس، خصوصا مع اليقظة التى أحدثها الصدام بين مشروعين أطلقهما ذوبان ثلوج الحرب: المشروع القومى العربى معبرا عن نفسه فى جامعة الدول العربية - والمشروع الصهيونى ضاغطا بشدة لإقامة دولة يهودية فى فلسطين.

وبدا الشارع المصرى تلك الفترة مشهدا مختلفا، ذلك أن العادة جرت أن الشارع المصرى وفدى، لكنه بعد كل ما جرى من ٤ فبراير ١٩٤٢ إلى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ - فإن الوفد بدا محاصرا وصوته فى الشارع خافتا، وسرى إحساس بأن هناك تغيرا طرأ على روح الحزب وفكره. والشاهد أن الحزب تلك الأيام لم يعد يخاطب المأمول والمرغوب فيه، وإنما أصبح خطابه موجها إلى ضرورات الأمر الواقع. وبهذا الغياب الوفدى عن الشارع المصرى، فإن الفراغ أصبح حقيقيا - وبقوانين الطبيعة تدافع كل ما كان على هامش الحياة السياسية المصرية يشق طريقه إلى القلب.

هكذا زاد بشدة نشاط الإخوان المسلمين رغم أن موقفهم فى تلك الظروف كان شديد الالتباس، بسبب خيارات متعارضة داخل الجماعة، دفع كل منها إلى اتجاه رغم وجود مركز سيطرة فى ذلك الوقت، وهو المرشد المؤسس («حسن البنا» بنفسه قائما على التنظيم):

● وكانت لحسن البنا صلات بالقصر



سليم زكى

الملكى، الذى حاول فى أكثر من مناسبة أن يستخدم الإخوان لمقاومة الوفد فى الشارع، وأن يجعل الجماعة احتياطيا شعبيا للمؤسسة الدينية الرسمية التى يمثلها الأزهر (وكانت تلك نظرية «على ماهر» وبعض رجاله وأهمهم فى هذه المسألة «صالح حرب (باشا) الذى رأس بعد خروجه من الوزارة جمعية الشبان المسلمين، وكانت هذه الجمعية تنظيما إسلاميا ظاهرا على عكس الإخوان الذين كان بعض نشاطهم يجرى تحت الأرض فى غموض).

● ولعل الإحساس بالغموض كان يؤكده اليقين بأن الإخوان لديهم جناح مسلح يجرى إعداده وتدريبه ليوم حاجة تنشأ له. وكان ذلك حقيقيا لأن «النظام الخاص» للإخوان تحرك إلى أنواع من النشاط جرى رصدها وتسجيلها، وذلك أثار شكوكا تعددت دواعيها من «حجم» هذا النظام الخاص - إلى علاقته بالمرشد العام الذى كان متكرا لوجوده على الدوام - إلى نوع سلاحه - إلى شروط عملياته - إلى غير ذلك مما يثيره فى العادة وجود تنظيم سرى مسلح.

● ولفت النظر بشدة فى تلك الأوقات أن الإخوان المسلمين كانوا يصرفون بسعة، حتى أنهم بدءوا فى إصدار جريدة يومية (أشرف على إصدارها الأستاذ «عبد الحليم الغمراوى» وهو وقتها رئيس قسم الأخبار فى الأهرام)، ولم تكن جريدة الإخوان المسلمين (كذلك اسمها) قادرة على تغطية نفقاتها، على أن خسائرها - فيما بدا - لم تكن تسبب أرقا لأحد.

● ومن الواضح أنه كانت هناك مصادر تمويل سخية بعضها لا يخطر على البال، ومن ذلك ما تسجله وثيقة بريطانية فى تقرير من السير «والتر سمارت» المستشار الشرقى للسفارة البريطانية. وفيها يظهر الأمير «محمد على» ولى العهد وهو يقول للمستشار الشرقى «أنه قدم مساعدات مالية للإخوان المسلمين، لأنهم فى رأيه التنظيم الشعبى الذى حل محل الوفد فى الشارع، وهم بذلك يقدرون على وضع بعض القيود على جموح الملك «فاروق» الذى فقد صوابه تماما، لكنه من المثير أن هناك شواهد على أن الملك «فاروق» نفسه كان يساعد الإخوان المسلمين، كما أن ملفات وزارة الداخلية فى زمن «صدقى» (باشا) تشير إلى مائة ألف جنيه سلمها «صدقى» (باشا) بنفسه إلى أحد أقطاب الجماعة (وتلك دفعة واحدة وقع رصدها).

وبصرف النظر عن أى التباس، فقد كان من الواضح أن الفراغ الكبير الذى أحدثه غياب الوفد، أعطى للإخوان ميدانا فسيحا خاليا، كما أنه سمح بتواجد عناصر أخرى غيرهم تستطيع أن تثير وتحرض مثل (مصر الفتاة).

وكان «صدقى» (باشا) قد توصل إلى مشروع معاهدة مع الإنجليز - سُميت باتفاقية «صدقى - بيفن»، وتم التوصل إليها فى محادثات جرت فى لندن (أكتوبر ١٩٤٦) - وعاد «صدقى» (باشا) يعرضها على مجلس النواب، لكن المعارضة ضدها تصاعدت، وشهدت القاهرة والإسكندرية وعواصم الدلتا والقناة والصعيد مصادمات عنيفة بين المتظاهرين والبوليس.

ومرة رابعة دوى فى القاهرة صوت الانفجار، ولم يكن بالضبط طلقة رصاص وإنما كان قنبلة يدوية قذف بها شاب مجهول من سطح كلية الطب فى القاهرة، ووقعت وانفجرت تحت أقدام «سليم زكى» (باشا) حكمدار بوليس القاهرة الذى نُقل من حيث سقط، ولكنه فارق الحياة!

الرصاصة الخامسة:
أحمد الخازندار

مارس ١٩٤٨

وظلت وزارة «إسماعيل صدقى» (باشا) فى الحكم عشرة شهور بالضبط (من ٩ فبراير إلى ٨ ديسمبر ١٩٤٦) - لكنها عشرة شهور باهظة التكاليف على أحوال السياسة العامة فى مصر وممارساتها، فرئيس الوزراء القائم على الحكم لم تكن له قاعدة شعبية لها نواة صلبة تتمدد من حولها أو حتى تتقلص - وفق مجريات الحوادث وتوجهات المزاج الشعبى (مثل الوفد) - ولا كان ذلك الرئيس للوزارة يمثل جماعات الصفوة الاجتماعية من أبناء كبار الملاك الزراعيين مع جمهور محدود يؤيدها أحيانا فى موقف (مثل الأحرار الدستوريين أو السعديين) - ولا كان يمثل قوة مقاتلة تدافع عن مبدأ (حتى وإن أوقعتها الظروف فى الدائرة المفرغة لطلب الانتقام مثل الكتلة)، وإنما كان الرجل فى أحسن الأحوال يمثل مجموعة تضم عددا من أصحاب المصالح المالية الكبرى معظمهم من اليهود والأجانب، كما أن نظرته إلى الشأن العام كانت متأثرة بفكر «أوتوقراطى» يعتقد أن الحاكم القوى أعرف بالمصلحة العامة من الشعب الضعيف، ولعل خروج «صدقى» (باشا) القديم من الوفد وإحساسه بالانسحاق الكامل أمام قوة «سعد زغلول» الطاغية ترك لديه نوعا من الكراهية لفكرة «الشعب»، حتى أنه كان يعتبر أن مجرد التوجه العام بخطاب للناس ضعف لا يصح لحاكم - ولا يزيد عن كونه تملقا لغرائز قطيع لا يعرف لنفسه اتجاها ولا يعى صالحه!

وعلى أى حال فإنه فى تلك الوزارة التى رأسها «صدقى» لعشرة أشهر لم يكن له سند غير رغبة الملك أن يرى «راجل جدع» حسب تعبيره أكثر من مرة أمام «عبد الفتاح عمرو» (باشا). وعلى أى حال فإن المهمة التى عهد بها الملك إلى «صدقى» (باشا) كانت محددة: بالتوصل إلى اتفاق مع الإنجليز يرتب علاقة المستقبل معهم على أساس مقبول، يعفى الملك من تدخلهم فى الشأن المصرى بين وقت وآخر، وتريحه من إلحاح الناس على ما يسمونه «الأمانى الوطنية»، وذلك حتى يكون لديه الوقت لتحسين أحوال المصريين ومكافحة ما كان يسمى ثلاثى «الفقر والجهل والمرض». لكن «صدقى» (باشا) أسرف فى استعمال العنف، وكانت أشد ممارساته للعنف باسم حملة «مكافحة الشيوعية». وكان الملك «فاروق» يؤيد هذه الحملة، لكن مفهوم الملك للشيوعية والشيوعيين اتسع فأصبح «النحاس» (باشا) «بلشفيا» - كذلك رأى الملك وجاهر برأيه - حتى أنه ذكر للسفير البريطانى السير «رونالد كامبل» أن الأيام سوف تثبت أن «النحاس» هو زعيم البلاشفة فى مصر، والآخرين كلهم مثله، وضمن هؤلاء الآخرون كان رئيس وزرائه (إسماعيل صدقى) يضع النقابات المهنية والعمالية، وهيئات التدريس واتحادات الطلاب، والنتيجة أنه برغم ذكاء «صدقى» (باشا)، وبرغم قدر كبير من المعرفة والخبرة، فإن الشهور العشرة التى رأس فيها الوزارة كانت فترة قمع متجاوز، وعندما أحس أنه يفقد معركته فى تمرير مشروع المعاهدة الذى توصل إليه مع «أرنست بيفن» - فإن «صدقى» (باشا) مشى يدوس على الخط الأخلاقى الذى يفصل العام عن الخاص فى الممارسة السياسية.

وقبل أن يخرج «صدقى» (باشا) من الوزارة بشهر واحد، اتصل صباح يوم (من الأسبوع الأخير من شهر



نوفمبر ١٩٤٦) ـ بحسن يوسف (باشا) (وهو وقتها القائم بأعمال رئيس الديوان)، يطلب موعدا عاجلا مع «جلالة الملك» لأمر مهم، وتحدد له الموعد نفس اليوم في الساعة الواحدة ظهرا، وبقى فى مكتب الملك ما يقارب ثلاثة أرباع الساعة، ثم فوجئ «حسن يوسف» (باشا) بأن الملك يطلبه للانضمام إليه وإلى رئيس الوزراء، وتوجه «حسن يوسف» (باشا) إلى حيث دُعى، وأشار إليه الملك فجلس، وعلى الفور قال «فاروق» موجها كلامه إلى «صدقى» (باشا) قائلا له: «احكى له».

وبدأ «صدقى» (باشا) يحكى «أن فى حوزته الآن ما يكفى للقضاء على الوفد و.....».

وكان «حسن يوسف» (باشا) كعادته يصغى فى صمت، واستطرد «صدقى» (باشا) يروى «أن المباحث الخاصة» التى تسلمت أجهزة الرقابة على التليفونات (وهى المعدات التى جاء بها ووضعها فى مصلحة التليفونات واستعملها الجنرال «هوليس» رئيس M.I 5 البريطانية زمن الحرب، والتى آلت إلى السلطات المصرية بعد ذلك، والتى تقوم الآن على تسجيل بعض المكالمات بطلب من «القلم السياسى» ـ تمكنت من تسجيل حديثين، وصله تقرير كامل عنهما قدمه الآن إلى «مولانا».

وكان «حسن يوسف» مازال يصغى فى صمت، و«صدقى» (باشا) يحكى له بتوجيه من «فاروق»:

هناك تسجيلان لحديثين تليفونيين:

أولهما، مدته دقيقة ونصف دقيقة بين السيدة «زينب (هانم) الوكيل» قرينة «النحاس» (باشا) وبين «فؤاد سراج الدين» (باشا)، والثانى، مدته ست وخمسون دقيقة بين السيدة «زكية (هانم) البدراوى» وبين شقيقها «عبد العزيز البدراوى» (بك).

وواصل «صدقى» (باشا) الحكاية، فعرض «أنه يمكن ترتيب نشر بعض التفاصيل وبعض النصوص مما ورد فى هذين الشريطين، وتدخل الملك «فاروق» مقاطعا بأنه «يمكن لكريم (يقصد كريم ثابت مستشاره الصحفى) أن يتصرف فى الموضوع مع «الجماعة بتوعه» (يقصد الصحفيين) على أساس أن نظل نحن بعيدين، حتى الوزارة نفسها تبقى بعيدة!

وكان إحساس «حسن يوسف» (باشا) بما يسمعه ثقيل الوطأة على أعصابه، وقد أمسك نفسه عن أى تعليق مباشر ومتعجل، خصوصا وهو يعرف ما فيه الكفاية عن شخصية «فاروق» (يعاند إذا عورض!)، وتدخلت الظروف لإعطائه لحظة يستعد فيها، لأن الملك تلقى تليفونا جاءه على الجهاز الخاص الوحيد على مكتبه، وقد رد عليه باقتضاب مكررا ثلاث مرات «نعم» باللغة الفرنسية، ثم التفت إلى «حسن يوسف» الذى راح يعلق وهو يحسب حسابا لكل لفظ، فيقول «إنه يظن أن الأمر يستحق التفكير على مهل، ونستطيع أن ننام عليه يوما أو يومين، وبعدها يكون «مولانا» قد حسبها بحكمته ورأى فيها رأيه».

والتفت الملك إلى «صدقى» (باشا) وتعليقه أن «حسن يوسف «خواف» وعلى أى حال فأنا سوف أفكر حتى «بكره»، ويمكن أن نسأل «كريم» (يقصد كريم ثابت) ـ وأبدى «حسن يوسف» ملاحظة مؤداها أنه يتمنى على جلالة الملك أن يسأل أحدا آخر غير «كريم»، وقاطعه الملك: «وماله «كريم»». ورد «حسن يوسف»: «كريم (بك) رجل كفء» لكن الخشية أنه بالمهنة كصحفى قد يغلب جانب النشر على ما عداه، والموضوع سياسى أكثر منه صحفى». وساله الملك «نسأل مين يعنى»؟، وطرح «حسن يوسف» (باشا) اسما بسرعة هو اسم «لطفى السيد» (باشا)، وكان عضوا فى هيئة المفاوضات مع «صدقى» (باشا) (وكان قد ابتعد عن مسار المفاوضات ولم يشأ إحداث أزمة، رغم أنه كان وزيرا للخارجية)، ولم يظهر أن الملك اقتنع، وإن عبر عن رأيه بتقاطيع وجهه، ثم قال بعد قليل «نشوف»!

ومضت أيام والشارع السياسى يغلى، والمظاهرات لا تنقطع، والعنف يزيد، وأصوات الانفجار تسمع فى القاهرة، واستقالت وزارة «صدقى» (باشا) ـ بينما المحاولات لاحتواء العنف تفشل رغم مخاوف لم تساور السلطة فقط، لكنها ساورت قطاعات فى المجتمع أيضا، لأن المجتمعات تصاب بالقلق عندما يعلو صخب العنف كلاما وفعلا، ثم يغيب صوت الحوار الهادئ فى أزمنة تتقرر فيها مصائر.

وكان القضاء المصرى فى تلك الظروف ملاذا، وفجأة صباح ذات يوم (من مارس ١٩٤٨)، دوى الرصاص فى القاهرة مرة أخرى، وسقط المستشار «أحمد الخازندار» رئيس محكمة الاستئناف ـ قتيلا، وذنبه أنه أصدر أحكاما بسجن شبان من الإخوان المسلمين تورطوا فى إلقاء متفجرات على منشآت وسط القاهرة مملوكة لمصريين ولأجانب، ورأى «النظام الخاص» فى الجماعة أن يعاقب القضاء، وحكم بالموت فعلا على واحد من أهم رجاله فى ذلك الوقت.

وكان الرصاص هذه المرة متجاوزا لمجال السياسة، نافذا فى قلب فكرة القانون.



الرصاصة السادسة: محمود فهمى النقراشى

ديسمبر ١٩٤٨

في الأجواء المكفهرة التى صاحبت خروج وزارة «صدقى» (باشا)، لم يكن أمام الملك «فاروق» سوى خيارين:

ـ إما الاستمرار فى «طابور» الوزارات الملكية، مع تفضيل أن تكون لها أمام الرأى العام صفة سياسية حزبية.

ـ وإما التفكير فى حكومة وحدة وطنية تواجه الفوران الذى حركه موضوع «الأمانى الوطنية» (فى ظروف طوفان يزحف على القارات مثقلا بحمولات متناقضة) ـ وكان معنى التفكير فى وزارة وحدة وطنية أن «مشاركة الوفد» واردة (فى لحظة شديدة الحساسية يظن فيها الملك أنه يستطيع الخلاص نهائيا من الوفد، فيما بعض رجاله يدعونه إلى إمعان التفكير وإعمال الروية).

وتغلب الخيار الأول وعاد «محمود فهمى النقراشى» (باشا) إلى رئاسة الوزارة فى ظروف مضطربة، مثقلة بمطالب عارمة فى الاستقلال والحرية جاء الآن أوانها.

وبعد أسبوع واحد من تشكيل الوزارة توترت العلاقة بين الملك وبين رئيس وزرائه العائد للتفاوض على اتفاق جديد مع الإنجليز على شىء مختلف عن اتفاقية «صدقى بيفن» التى سقطت، أو تعديل بعض شروطها لكى تصبح أكثر قبولا لدى الرأى العام.

كان «النقراشى» (باشا) على موعد مع الملك يعرض عليه سياسته، وطالت المقابلة أكثر مما قدر المسئولون فى الديوان، ثم خرج «النقراشى» (باشا) متوجها إلى مكتب «حسن يوسف» (باشا) وهو يومها مكلف برئاسة الديوان بالنيابة، وبدا رئيس الوزراء مقطب الوجه ـ حزين التقاطيع.

واكتشف «حسن يوسف» (باشا) أن الملك فاتح رئيس وزرائه فى موضوع التسجيلات التليفونية الذى عرضه عليه «صدقى» (باشا) قبل أسبوعين، ثم أبلغه أنه قرر النشر، وأن «كريم ثابت» تصرف (مع أخبار اليوم)، والشرائط بالفعل هناك الآن «عندهم».

وكان «النقراشى» قاطعا وهو يقول لحسن يوسف «إنه أبلغ جلالة الملك أنه لا يستطيع تحت أى ظرف من الظروف أن يقبل هذه «المسألة»، وأن من أشار عليه بها «لا يعرف مصلحة العرش»، وأنه ليس فى وسعه غير وضع استقالته تحت تصرف «مولانا»، وأن الملك طلب منه أن يفكر فى الأمر بمنطق «السياسة»! وليس بمنطق «التزمت»!

ومضى «النقراشى» يقول: «إنه وعد أن يفكر، وهو لا يظن أنه سوف يغير رأيه أبدا، لأن هناك من وجهة نظره «معقول» فى السياسة و«لامعقول»، وهو يرى نفسه أمام اللامعقول، ولا يستطيع هنا أن يساير مهما كان، ويأسف إذا كانت استقالته فى مثل هذه الظروف تحرج الملك، ولكنه فى الحقيقة لا يستطيع. وكرر «النقراشى» عدة مرات قوله: «لا يمكن... لا يمكن».

وانقطع الحديث عندما جاء أحد الأمناء يدعو رئيس الديوان بالنيابة لمقابلة «مولانا»، واستأذن رئيس الوزراء، وتوجه «حسن يوسف» (باشا) مهرولا إلى مكتب الملك ليجده غاضبا يبادره «كنت أقول لكم دائما أن «النقراشى» قِفْل ولم تصدقونى، والآن يثبت لكم أننى كنت على حق». ثم سمع «حسن يوسف» مرة ثانية ـ ومن وجهة نظر الملك ما جرى بينه وبين «النقراشى»، ولم يكن هناك خلاف كبير بين الروايتين، ولكنه اختلاف وجهات النظر. وفى النهاية كان تعليق «حسن يوسف» (باشا) رجاءه إلى «مولانا» «أن يعطى رئيس الوزراء العائد فرصة لأنه يرتب لمفاوضات مع الإنجليز، وهو كما عرض على «مولانا» على

«خطر للملك «فاروق» وربما بسبب تأثير بعض العسكريين البريطانيين من أصدقائه، أنه يستطيع أن يتولى بنفسه عملية التفاوض مع الإنجليز، لأن «النقراشى» تنقصه المرونة الكافية للوصول إلى اتفاق معقول»

استعداد لأن يذهب بقضية مصر إلى الأمم المتحدة. ورد الملك بقوله «نشوف».

....

....

[وبعد خمس سنوات وفى ظروف مختلفة عاد الشريطان إلى الظهور - وفى ظروف ملتبسة يجىء دورها فيما بعد.]

....

....

ومضى «النقراشى» (باشا) يفاوض الإنجليز على الجلاء مع ترتيبات للأمن تضمن لهم وجودا فاعلا فى قاعدة قناة السويس، ضمن نظام دفاع إقليمى - لكن الأمور تعثرت لأن مدة الجلاء ظلت موضوع خلاف، وكذلك كانت مسألة شكل وحجم الوجود البريطانى الذى يبقى فى القاعدة للدفاع عن قناة السويس. وزادت حدة المشاعر الوطنية إلى درجة الحُمى، لأن «القضية الوطنية» أصبحت الوعاء الذى احتوى كل مطالب الشعب المصرى، السياسى منها والاجتماعى، وبدا أن الحركة الشعبية تأخذ منحنى ظاهرا إلى اليسار، وكانت تلك هى الفترة التى ظهر فيها جناح تقدمى فى الوفد نفسه يناهض استيلاء اليمين على فكر وقلب الحزب، وكانت طلائع هذا اليسار الوفدى شبابا من أمثال الدكتور «عزيز فهمى» (نجل قطب الوفد الكبير «عبد السلام فهمى جمعة» (باشا) - والدكتور «محمد مندور» (أستاذ الجامعة والناقد الأدبى المرموق)، والتف حول الاثنين جمع من الشباب استفزه أن قلب الوفد وفكره فى حاجة إلى «مخلِّص» ينقذ الاثنين ويعود بالحزب إلى ممارسة دوره التاريخى فى قيادة الحركة الوطنية فى أجواء عالمية مفعمة بضرورات التغيير.

وفى تلك الأجواء المتقلبة كانت الحركة الشيوعية المصرية تحاول التقاط الأنفاس والعودة إلى الساحة بعد أن خفت عنها أثقال الضربات الموجعة التى وجهها إليها «إسماعيل صدقى» (باشا) طوال الشهور العشرة التى رأس فيها الوزارة. وكانت الحركة الشيوعية تلك الأيام تعيش مخاضا عسيرا، لأن قضية فلسطين - التى طرحت نفسها بشدة - أوجدت حالة من الانفصام الحاد بين القيادات الثلاث لتلك الحركة. وكان مصدر التناقض أن هذه التنظيمات الثلاثة كان على رأسها قيادات من اليهود، بينما كان الصف الثانى من الوطنيين المصريين المنتمين إلى الطبقة المتوسطة والطبقة العاملة. ونقطة التمزق أن القيادات اليهودية على رأس الحركات الشيوعية المصرية لم تر فى قضية فلسطين إلا رأسمالية عربية متعاونة مع الرأسمالية العالمية التى هى فى حالة عداء مع الطبقة العاملة العربية واليهودية معا، وبالتالى فإن فلسطين صراع بين الرأسمالية والطبقة العاملة: عربية ويهودية، أى أن هذا النزاع المتفجر فى فلسطين جزء من صراع أممى وليس مقدمة لصراع قومى. وبدت الأفكار مختلطة ومرتبكة.

على أن الاتجاه العام إلى اليسار جعل السير «والتر سمارت» المستشار الشرقى للسفارة البريطانية يكتب فى تقرير إلى لندن (٢٣١٤) قائلا:

«من قبل بداية المفاوضات فإن عملية التهييج «الشيوعى» ضد بريطانيا ظلت ولا تزال حملات متواصلة تلقى تأييد جماعات وطنية عديدة. وقد زاد هذا التهييج وتكثف فى الفترة الأخيرة، إذ إن المصريين يظنون أنهم عندما يذهبون بقضيتهم ضدنا إلى الأمم المتحدة وإلى مجلس الأمن - أن الاتحاد السوفيتى هناك سوف يناصر قضيتهم، وذلك يأخذهم إلى انجراف عام نحو اليسار يظهر جليا حتى فى صفوف حزب الوفد».

لكن الذهاب بالقضية المصرية إلى الأمم المتحدة وإلى مجلس الأمن استولى على أعصاب الجميع وإن كان قد أخذ صورة ذهاب إلى المحكمة (تنظر بالقانون وتحكم بالعدل. وكان ذلك اجتهاد «عبد الحميد بدوى» (باشا) وقد ظل إلى زمن طويل يحكم تصورات مصر - وربما كل الدول العربية - فى شأن قضاياها الوطنية والقومية).

فى هذا كله كان الملك «فاروق» يشعر أن التيار الجارف يجر البلاد إلى حافة خطرة، ولم يكن متأكدا من قدرة «النقراشى» (باشا) على منع الانحدار. وفى نفس الوقت لم يكن قادرا على التفكير فى بديل، فأى بديل قد يصبح الآن خطوة تمهد لعودة الوفد.

وخطر للملك «فاروق» وربما بسبب تأثير بعض العسكريين البريطانيين من أصدقائه، أنه يستطيع أن يتولى بنفسه عملية التفاوض مع الإنجليز، لأن «النقراشى» تنقصه المرونة الكافية للوصول إلى اتفاق معقول.

ويسجل السفير البريطانى السير «رونالد كامبل» فى برقية له إلى لندن (٤٧/٢٧/ ٢٤٠)، أن مصدرا مقربا من القصر («كريم ثابت» (باشا) وهو المستشار الصحفى لفاروق)، سأل السير «والتر سمارت» - (وهو فى نفس الوقت زوج ابنة خاله إيمى فارس نمر) - سؤالا محددا: «هل الحكومة البريطانية على استعداد لإعطاء تنازل واضح للملك «فاروق» يمكنه من الأمر بتوقيع اتفاق معهم وبطريقة حاسمة وقاطعة»؟

- وبقية السؤال:

«أن الملك يعتقد أنه إذا استطاعت الحكومة البريطانية أن تتفق على أن يتم جلاء القوات البريطانية عن مصر فى ظرف سنة واحدة - فإنه قادر على ضمان الباقى كله، وضمنه أى ترتيبات فى شأن قاعدة قناة السويس. وظن الملك أن فكرة «الجلاء فى ظرف سنة» بعد احتلال سبعين سنة صيغة سحرية كفيلة بأن تجعل الرأى العام يوافق الملك على أى اتفاق بشأن قاعدة قناة السويس».

والإضافة بعد ذلك:

«إذا كانت الحكومة البريطانية على استعداد للموافقة، فإن الملك يستطيع أن يتصرف وأن يعفى «النقراشى» من الوزارة، ويجىء بوزارة تنحصر مهمتها فى مجرد التوقيع»!

على أن الملك اشترط أن يظل ذلك العرض سرا، سواء وافقت الحكومة البريطانية عليه أو اعتذرت!

ولم تقتنع الحكومة البريطانية، ورأيها أن مدة السنة التى يطلبها «فاروق» «كصيغة سحرية» ليست كافية، كما أنه من المشكوك فيه أن الملك قادر على توفير مطالب بريطانيا وتأكيد الضمانات المطلوبة لقاعدة فى قناة السويس. ثم إن التفاوض مع الملك مشكلة صعبة، خصوصا إذا كان من الضرورى أن تبقى سرا، وفى كل الأحوال فإن الملك لا يستطيع أن يضمن موافقة شعبية على مشروع اتفاق مع بريطانيا، والنتيجة مشاكل جديدة تضاف إلى مشاكل سبقتها.

ومع تعثر المفاوضات مع «النقراشى» (باشا) وحكومته، والتردد فى التفاوض مع القصر الملكى وسيده - بدا ظاهرا أن الخلاف بين مصر وبريطانيا فى طريقه إلى الأمم المتحدة وإلى مجلس الأمن، وأن «النقراشى» (باشا) لا يجد أمامه خيارا آخر. ثم إن هناك ضغطا هائلا يتمثل فى نوع من الجبهة الوطنية يضم كل قوى الشعب المصرى، لكن المأزق فى العواطف المتأججة - هو أن الأمم المتحدة ليست محكمة قانون، وحتى إذا كانت كذلك فإن القانون عاجز إذا لم تكن هناك قوة تكفل احترامه، ثم إن القوة معطلة إذا لم تكن هناك إرادة لها كرامة الشرعية.

وانهمك «محمود فهمى النقراشى» (باشا) ومعه مجموعة من أفضل العقول القانونية المصرية فى مهمة ترتيب أوراق الدعوى المصرية أمام مجلس الأمن، وكان القانونى المتميز «عدلى أندراوس» هو المكلف بصياغة عريضة الدعوى الأساسية، لكنه وراء الأوراق والملفات والدراسات، كانت الصورة الحقيقية موجعة:

● من البداية فإن الملك «فاروق» راح يبعث الرسائل واحدة بعد الأخرى إلى السفارة بأن ذهاب رئيس وزرائه بالقضية المصرية لعرضها على مجلس الأمن «ليس عملا عدائيا». وطبقا لبرقية من السفارة (٢٦٦٣/ ٥٩٣٢٢) - قام «حسن يوسف» (باشا) بإبلاغ الوزير المفوض فى السفارة «جيمس بوكر» بأن صاحب الجلالة يريد أن تذهب مصر وبريطانيا إلى مجلس الأمن صديقين، ثم تعودان من هناك صديقين، وإنه بمناسبة الصداقة، فقد يكون ممكنا عندما يذهب الوفد المصرى إلى نيويورك لعرض القضية المصرية على مجلس الأمن أن يظهر للطرفين صديق ثالث يتوسط بينهما.

● وكان الأمين العام لجامعة الدول العربية «عبد الرحمن عزام» (باشا) - وهو مقرب من القصر الملكى المصرى، وفى نفس الوقت من القصر الملكى السعودى - موجودا وقتها فى نيويورك، يحضر بقية الدورة العادية للجمعية العامة للأمم المتحدة قبل بدء عطلتها الصيفية. وعندما بدا أن «القضية المصرية» فى طريقها إلى نيويورك، فإن «عزام» (باشا) مدد إقامته. وفى لقاء أجراه «عزام» (باشا) مع المندوب البريطانى المناوب لدى الأمم المتحدة السير «هارولد بيلى» (وقد أصبح فيما بعد سفيرا لبريطانيا فى مصر مرتين)، طرح «عزام» (باشا) ونقل عنه السير «هارولد» (١٥٢٨ / ٦٢٩٧٢) قوله:

- إنه لابد من وقف التدهور فى العلاقات بين مصر وبريطانيا.

- إنه قد لا يكون هناك مفر من طرح قضية مصر أمام الأمم المتحدة ولو لمجرد تهدئة مشاعر مصرية مستثارة، مع أنه يعلم أن هناك محاولات للتأثير على «النقراشى».

- بعد العرض على مجلس الأمن ففى الإمكان صدور بيان عن المجلس بتكليف صديقين لمصر ولبريطانيا (المملكة العربية السعودية عن مصر - والولايات المتحدة الأمريكية عن بريطانيا) - وذلك للعمل على إيجاد نقط التقاء بين الطرفين.

- إنه إذا لم يتيسر إصدار قرار بالدعوة إلى وساطة، فالبديل الممكن أن يصدر عن المجلس قرار يدعو مصر وبريطانيا للعودة إلى التفاوض وإخطار مجلس الأمن بما يتوصلان إليه.

● أنه طبقا لرسالة من الشيخ «يوسف ياسين» مستشار الملك «عبد العزيز آل سعود»، فإن الأمير «فيصل» وزير الخارجية السعودية يقوم الآن بجهد لجس نبض الحكومة السورية لمعرفة ما إذا كانت مستعدة بالتعاون مع المملكة (العربية السعودية) للقيام بوساطة بين مصر وبريطانيا تحول دون وقوع صدام بين الطرفين فى مجلس الأمن يعقد القضايا العربية ولا يفيدها.

ظن الملك أن فكرة «الجلاء فى ظرف سنة» بعد احتلال سبعين سنة صيغة سحرية كفيلة بأن تجعل الرأى العام يوافق الملك على أى اتفاق بشأن قاعدة قناة السويس

● أن الملك «فاروق» استدعى «واصف غالى» (باشا) وهو وزير خارجية وفدى سابق، ورجل يملك خبرة دولية لها قيمتها ليسأله عن احتمالات عرض القضية المصرية على مجلس الأمن. وكان رأى «واصف غالى» أن عملية الذهاب بالأمانى المصرية إلى مجلس الأمن سوف يكون فشلا محققا "flop".

واقتنع الملك «فاروق» بما سمعه من «واصف غالى» (باشا) إلى درجة أنه أخبر به «النقراشى» (باشا) ولم يقتنع رئيس الوزراء، لكن «أعصابه تعبت» لأنه أحس بضعف ثقة الملك فى سياسته.

وكان موقف حزب الوفد فى تلك الظروف لافتا للنظر. ففى برقية من السفارة البريطانية (٢٨٠٥ / ٥٩٣٢٢) بتاريخ ١٥ يونيو ١٩٤٧ يرد بند يقول فيه السفير البريطانى فى مصر السير «رونالد كامبل» ما نصه:

«لا يخالجنى شك فى أن الوفد المصرى سوف يبعث برسالة إلى مجلس الأمن مؤداها أن الحكومة المصرية الحالية لا تمثل الأمة المصرية، وأن الأمة المصرية لا تتحمل مسئولية أى شىء يقوم به الوفد الممثل لهذه الحكومة فى مجلس الأمن».

وبعد أكثر من شهر (أى ٢٠ يوليو ١٩٤٧) كان «مصطفى النحاس» (باشا) يبعث رسالة باسم الوفد المصرى إلى رئيس مجلس الأمن يقول فيها: «إن حكومة «محمود فهمى النقراشى» (باشا) لا تمثل الشعب المصرى. وأن الدعوى التى يتقدم بها إلى المجلس قاصرة فى تعبيرها عن المطالب المصرية. وأن حزب الوفد المصرى قرر إرسال ممثلين عنه إلى نيويورك ليتحدثوا هناك باسم «مصر الحقيقية».

وأُعلن فى القاهرة أن وفدا يمثل «النحاس» (باشا) شخصيا. تقدم إلى السفارة الأمريكية فى القاهرة بطلب تأشيرة دخول تتيح له التواجد فى نيويورك، وكان هذا الوفد برئاسة «فؤاد سراج الدين» (باشا) ومعه نقيب المحامين وقتها وهو وفدى معروف - الأستاذ «كامل يوسف صالح».

وراح القصر على الفور ينسى موقفه الأصلى ويحاول استغلال موقف حزب الوفد بتحريض الصحف الموالية له على استنكار رسالة «النحاس» إلى رئيس مجلس الأمن باعتبارها «خنجرا فى الظهر» ضد الوطنية المصرية مما يقتضى محاكمة «النحاس» (باشا) بتهمة الخيانة العظمى. وفى نفس الوقت بعث الشيخ «حسن البنا» مرشد الإخوان المسلمين برسالة إلى رئيس مجلس الأمن يستنكر فيها رسالة «النحاس» (باشا) إليه باعتبارها خروجا عن المبادئ والحقائق.

ويوضح تقرير (فى محفوظات قصر عابدين) - أن مكتب رئيس الديوان الملكى اتصل بحسن رفعت (باشا) وكيل وزارة الداخلية، يسأل عن موعد سفر «فؤاد سراج الدين» (باشا) ومرافقيه إلى نيويورك، وبعد إجراء التحريات اللازمة عاد «حسن رفعت» (باشا) إلى رئيس الديوان بجواب على سؤاله مؤداه: «إن التحريات أظهرت أن «النحاس» (باشا) وقرينته و«فؤاد سراج الدين» (باشا) أيضا يرتبون لقضاء شهر أغسطس فى «مونت كاتينى» (شمال إيطاليا) للراحة والاستشفاء!

والغريب أن «حسن رفعت» (باشا) أخطر السفارة البريطانية بنفس المعلومات مع إضافة زائدة لها معناها. وفى برقية السفارة (٣١٤٠ / ٦٢٩٧٦) يكتب السفير البريطانى السير «رونالد كامبل» ما نصه: «أبلغنا «حسن رفعت» (باشا) - وفى الغالب بإيحاء من القصر - أن «النحاس» (باشا) مسافر إلى أوربا وأن هناك عملاء سوفييت يحتمل أن يتصلوا به هناك، وأن هناك تيارات شيوعية قوية داخل الوفد». ويضيف السير «رونالد كامبل» أننى لست ميالا لتصديق ذلك. لكنه نظرا إلى تنامى قوة الجناح اليسارى فى حزب الوفد. فقد يكون من اللازم وضع «النحاس» (باشا) تحت مراقبة دقيقة خلال رحلته إلى أوربا».

وبالفعل فإن «النحاس» (باشا) وقرينته ومعهما «فؤاد سراج الدين» (باشا) سافروا إلى «مونت كاتينى»، وكان العذر الذى قدم لتفسير ذهاب «فؤاد سراج الدين» (باشا) إلى «مونت كاتينى» بدلا من نيويورك هو أن «النقراشى» (باشا) رفض السماح لممثلى الوفد بالسفر إلى نيويورك».

وذهب «النقراشى» (باشا) إلى نيويورك وعاد منها إلى القاهرة مرة أخرى يتعثر فى أزمات اشتد زحامها وزاد عنفها.

فقد واجهت وزارته إضرابا (قل أن تشهده دولة فى العصر الحديث) قام به البوليس المصرى، وكان غريبا على المواطنين أن يروا أقسام البوليس مغلقة، والضباط المسئولين عن الأمن ممتنعين عن العمل.

وأصبح الخوف مضاعفا حين اندفعت جماعة الإخوان المسلمين فى قلب هذه الفوضى لتقوم بعمليات تفجير ونسف لبعض المنشآت الأجنبية فى مصر (بما فيها دور للسينما ونواد).

كانت هناك أزمة داخلية لاشك فيها، والأخطر أن قضية فلسطين فى تلك اللحظة بالتحديد راحت تطرح نفسها بشدة على كل شعوب الأمة العربية، خصوصا مع إعلان الحكومة



محمود فهمى النقراشى

البريطانية أنها سوف تسحب قواتها من فلسطين مع انتهاء مدة انتدابها عليها مساء ١٤ مايو ١٩٤٨ - وتماشيا مع قرار تقسيم فلسطين الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة بتاريخ ٢ نوفمبر ١٩٤٧.

وارتفعت فى العالم العربى أصوات تنادى بتدخل الدول العربية عسكريا لملء الفراغ فى فلسطين، وإلا استغلت الوكالة اليهودية الفرصة واحتلت بقواتها المجهزة أجزاء فلسطين المقررة لليهود بمقتضى قرار التقسيم، ثم توغلت وجارت على الجزء المخصص للدولة العربية فى القرار.

وكان الملك «فاروق» مع التدخل (وضمن أسبابه - مع التزامه العربى الواضح - رغبة خفية - ربما - فى الهرب إلى الأمام من مشاكل مصر الداخلية). لكن رئيس الوزراء المصرى «محمود فهمى النقراشى» (باشا) كان معارضا للتدخل، ومنطقه «أن الجيش غير مستعد وأنه لا يريد أن يكشف ضعفه وإلا سقطت حجته أمام العالم، فقد أعلن أمام مجلس الأمن أن الجيش المصرى قادر على ملء الفراغ على قناة السويس إذا انسحبت القوات البريطانية من المنطقة. وإذا ظهر أن الجيش المصرى غير قادر على مواجهة «عصابات يهودية فى فلسطين» فكيف إذن نواجه العالم بادعاء أننا قادرون على الدفاع عن قناة السويس ضد قوى عالمية تطمع فيها؟».

لكن الملك حقق ما أراد واضطر رئيس وزرائه إلى تغيير موقفه (مطمئنا إلى تعهدات ملكية مضمونها أن لديه مصادر أسلحة وذخائر للجيش تكفيه لتحقيق هدفه، وكان التلميح واضحا إلى مصدر بريطانى على صلة بالملك.

وفى الواقع فإن تطمين الملك «فاروق» لرئيس وزرائه - لم يكن من غير أساس وذلك ما تظهره وثائق هيئة أركان الحرب الإمبراطورية من القيادة العامة للقوات البريطانية فى مصر، خصوصا فى الأيام ما بين ١٥ إلى ١٨ مايو ١٩٤٨.

● وبداية فإنه كان فى مقدور الحكومة البريطانية أن ترد مصر عن الدخول إلى فلسطين إذا كان ذلك مرادها.

● وثانيا فإن القوات المصرية مرت فوق كوبرى «الفردان» على قناة السويس، إلى سيناء، ثم إلى فلسطين وتحركت فى منطقة عسكرية بريطانية بغير اعتراض.

● وثالثا فقد حدثت واقعة غريبة مسجلة بتفاصيلها فى تقرير بتاريخ ٢١ مايو ١٩٤٨، ومؤدى الواقعة أن الطائرات المصرية أخطأت فى غارة جوية شنتها على مطار عسكرى وقد حسبته لإسرائيل، ثم اتضح أنه مطار بريطانى لا يزال عاملا فى النقب. وتسببت الغارة المصرية فى تحطيم ثلاث طائرات من طراز سبيت فاير، وفى قتل جنديين بريطانيين وإصابة أربعة، لكن الغريب فى الأمر أن السلطات العسكرية البريطانية أبلغت القيادة المصرية أنها سوف تكتم نبأ الحادث عن الصحافة البريطانية حتى لا يشوش على سمعة الطيران المصرى. وكل ما تطلبه لتسوية الموضوع اعتذار مكتوب للسجلات، والأغرب أن السلطات البريطانية ساعدت على صياغة الاعتذار بحيث يتبدى الخطأ مبنيا على أساس فنى مقبول.

وبالطبع فإن هذه الأجواء كان من شأنها تأييد تلميحات الملك بأن لديه اطمئنانا إلى ضمان، وبالتالى تشيع نوعا من التقبل لقراره بدخول الحرب على مستوى الوزارة وعلى مستوى قيادة الجيش! - ثم استحكم المأزق حين ظهر أن الملك «فاروق» وقع فى خديعة من نوع ما).

وكذلك بدأت حرب فلسطين وتوقفت وقامت دولة إسرائيل واحتلت ٧٨٪ من أرض فلسطين. (وتلك قصة أخرى).

ووسط معارك تشتعل بهدير المدافع، وتخمد بقرارات دولية تفرض على الأطراف هدنة بعد هدنة - كان النظام الخاص للإخوان المسلمين يتحرك فى الداخل المصرى: يحرض ويلقى القنابل ويهاجم المنشآت. وأصدر «النقراشى» (باشا) قرارا بحل جماعة الإخوان المسلمين.

ويوم ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨، قامت القوات الإسرائيلية باختراق الحدود المصرية، وطوقت قيادة الجيش الميدانى المصرى فى العريش. وفى القاهرة دوت طلقات وسقط رئيس الوزراء «محمود فهمى النقراشى» (باشا) مضرجا بدمه أمام مصعد وزارة الداخلية (وكان مسئولا عنها إلى جانب رئاسته للوزارة). وكان القاتل عضوا فى التنظيم الخاص للإخوان صدر إليه الأمر بالقتل انتقاما من «النقراشى» على أساس مسئوليته عن حل الجماعة، وقد ارتدى القاتل «عبد المجيد أحمد حسن» بذلة ضابط بوليس وانتظر رئيس الوزراء فى مدخل وزارة الداخلية وأطلق النار عليه. ■

واجهت وزارة «النقراشى» إضرابا (قل أن تشهده دولة فى العصر الحديث) قام به البوليس المصرى، وكان غريبا على المواطنين أن يروا أقسام البوليس مغلقة، والضباط المسئولين عن الأمن ممتنعين عن العمل!!

> خلال رئاسته للديوان الملكى - سنة كاملة - قابل «إبراهيم عبدالهادى» (باشا) الملك «فاروق» مرتين لم تزد إحداهما عن نصف الساعة، وأما بقية المدة كلها فقد كان تعامله عن طريق «كريم ثابت»، وأحيانا عن طريق «محمد حسن» المكلف بالخدمة الخاصة لجناح «فاروق» الشخصى

الرصاصة السابعة: حسن البنا

فبراير ١٩٤٩

وتكرر المشهد مرة أخرى فى مصر، فمن قبل - ويوم مصرع رئيس الوزراء «أحمد ماهر»، تقرر أن يخلفه «محمود فهمى النقراشى»، ونفس الشىء تكرر عندما اغتيل «النقراشى»، ووقع الاختيار على خلفه السابق فى الحزب «إبراهيم عبد الهادى» (باشا) رئيسا للوزراء. ولم يكن «إبراهيم عبد الهادى» فى الحزب عندما اغتيل رئيسه يوم ٢٨ ديسمبر ١٩٤٩، وإنما كان الملك قد استعاره من «النقراشى» رئيسا للديوان، متصورا أنه بذلك يقيم جسرا مع رئيس الوزراء دون أن يضطر للتعامل معه مباشرة فى أى قرار، لأن رأسه ناشفة والملك يريد بديلا له ولا تساعده الظروف، لأن أى خطوة غير محسوبة فى هذا الاتجاه قد تفتح الطريق لعودة الوفد.

وكانت تجربة «عبد الهادى» (باشا) فى القصر محزنة، فالرجل جاء من خارج الدائرة الملكية وعومل فى القصر على أنه «غريب» و«دخيل»، والمزعج أنه باعتراف «إبراهيم عبد الهادى» (باشا) نفسه - أنه خلال رئاسته للديوان الملكى - سنة كاملة - قابل الملك «فاروق» مرتين لم تزد إحداهما عن نصف الساعة، وأما بقية المدة كلها فقد كان تعامله عن طريق «كريم ثابت»، وأحيانا عن طريق «محمد حسن» المكلف بالخدمة الخاصة لجناح «فاروق» الشخصى.

وكان «حسن يوسف» (باشا) تلك الأيام شبه معتزل، فقد ضايقه فى الغالب أن الملك لم يفكر فى ترقيته من قائم بأعمال رئيس الديوان إلى رئيس مكلف به رسميا، وبدلا من ذلك جاء بإبراهيم عبد الهادى (باشا) لشغل المنصب، بعد أن ظل خاليا بعد مصرع «أحمد حسنين» (باشا).

ودخل «إبراهيم عبد الهادى» (باشا) إلى رئاسة الوزارة ولديه مهمتان هما أساس تكليفه:

● المهمة الأولى إيجاد طريقة للتعامل بسرعة، وبأى وسيلة مع الاختراق الإسرائيلى للحدود المصرية وتطويق قيادة الجيش الميدانى فى العريش.

وكان «عبد الهادى» (باشا) قد أراد الاستعانة بالإنجليز، لكنهم طرحوا عليه سؤالا بما إذا كان يطلب مساعدتهم على أساس ترتيبات الدفاع المشترك الواردة فى معاهدة سنة ١٩٣٦ - وتوجه الملك بنفسه ووراءه «عبد الهادى» (باشا) إلى الحكومة الأمريكية، وتدخل الرئيس الأمريكى «هارى ترومان» بالفعل لتحقيق انسحاب يعقبه اتفاق على هدنة تمهد للسلام، وذلك جرى التمهيد له تحت رعاية الأمم المتحدة (يمثلها الدكتور «رالف بانش» وهو أمريكى أسود يعمل مساعدا للسكرتير العام للأمم المتحدة) وتقرر بالفعل أن تكون هناك محادثات علنية لاتفاقية هدنة فى جزيرة رودس.

● وأما المهمة الثانية فهى الانتقام لمقتل «النقراشى» (باشا) والأخذ بثاره، وقد أحس الشيخ «حسن البنا» أنه مُطارد ومطلوب، وحاول إصدار بيان بإدانة اغتيال «النقراشى» (باشا)، نشره فعلا بعنوان اختاره الشيخ بنفسه «ليسوا إخوانا وليسوا مسلمين»، كما



حسن البنا

أبدى استنكاره لما جرى من تحول النظام الخاص للإخوان المسلمين عن المهمة التى أنشئ من أجلها، وهى قتال الإنجليز إلى مهمة لا علاقة لها بالإنجليز وهى اغتيال رئيس الوزراء المصرى.

....

....

[وشاءت مصادفات أن ألتقى أكثر من مرة بالأستاذ «حسن البنا» فى تلك الظروف، وأن يطلعنى على بيان أعده ليسلمه إلى «عبد الرحمن عمار» (بك) وكيل وزارة الداخلية لينقله إلى رئيس الوزراء. (وكان الأستاذ البنا يرغب فى نشر البيان كاملا فى أخبار اليوم، وفى تلك الظروف رأيت الرجل واستمعت إليه ساعات طويلة.]

....

....

لكن محاولات الأستاذ «البنا» كلها لم تصل لنتيجة ويوم ١٢ فبراير ١٩٤٩ دوى الرصاص فى القاهرة مرة سابعة، وسقط الشيخ «حسن البنا» غارقا فى دمه على حافة سيارة تاكسى، استوقفها أمام جمعية الشبان المسلمين حيث كان لتأخذه إلى بيته، وبدلا من ذلك فإن سيارة التاكسى هرعت به إلى قصر العينى، وهناك تبين أن الرجل لم يفارق الحياة بعد. لكن المشرف على عملية الاغتيال وهو القائمقام «محمد وصفى» (بك) قائد حرس الوزارات أمر بتعقبه و«التخليص عليه» حيث هو، تنفيذا للأوامر (الملك «فاروق» ورئيس الوزراء «إبراهيم عبد الهادى»).

(وقد آثر القائمقام «محمد وصفى» أن يطلق رصاص مسدسه على رأسه وينتحر - عندما عرف فيما بعد فى أعقاب ثورة يوليو - أن سره انكشف، وأن هناك أمرا صدر بالتحقيق معه على أساس وثائق تم ضبطها فى أوراق القسم المخصوص للبوليس السياسى).

....

....

وكان طوفان الثلوج الذائبة قد وصل إلى المنطقة مثقلا بعوالق دم من معارك الحرب العالمية الثانية. وفى مصر بدا أن هذا الطوفان الزاحف قد تحول إلى مستنقع دم تفور وسطه فتن مصرية داخلية يفرقع على سطحها دوى الرصاص!



تأثير الثقافة العربية فى الحضارة الغربية الحديثة

شوقى ضيف



شوقى ضيف

ورثت الثقافة العربية فى القرون الإسلامية الأولى الثقافات العالمية الهندية والفارسية واليونانية، وابتدأ ميراثها للثقافة الهندية الرياضية فى زمن مبكر، إذ أخذت عنها أرقام العدد، وأضافت إليها الصفر وكان لذلك أثره البعيد فى نظام العدد العالمى، إذ عُرفت فيه العشرات والمئات والآلاف، ونقل الغرب النظام العربى للعدد عن الأندلس إذ نزل به جريرت الذى تقلد البابوية باسم سيلفستر الثانى فى القرن العاشر الميلادى وعرف نظام الأرقام العربية الإسبانية ونقله إلى الغرب وأدخله فى مدارسه، ونقل الغرب النظام العربى للعدد، وشاع فى كل بلدانه، ودفعهم إلى إنشاء بنوكهم وأسواقهم المالية، ولولا العرب وما أخذه الغرب من أرقامهم ما كانت بنوك ولا أسواق مالية فى العالم إلى اليوم.

وقدم وفد هندى فى خلافة المنصور العباسى فى منتصف القرن الثانى الهجرى وفيه رجل ماهر فى معرفة حركات الكواكب وحسابها وسائر أعمالها على مذهب كتاب هندى لهم يسمى جزؤه الأخير «سيد هانت» فأمر المنصور بنقل الكتاب إلى اللغة العربية، ليتخذه العرب أصلاً فى حساب حركات الكواكب، وظل العرب يعملون به إلى أيام المأمون إذ نُقل إليهم كتاب بطليموس فى الحساب والجداول الفلكية المسمى المجسطى فعملوا به. وأمر المنصور بنقل كتب أرسطو إلى العربية ونقل كتاب الأصول لإقليدس وهو فى الأشكال الهندسية أمهاتها ومركباتها.

ومنذ هذا التاريخ أكبَّ العرب على ترجمة الثقافة اليونانية وجميع ما تحمله من علوم وفلسفة. وأسس الرشيد دار الحكمة ووظف بها طائفة كبيرة من المترجمين وخاصة لكتب الثقافة اليونانية وجُلبت كتب كثيرة من بلاد الروم وعمورية وأنقرة، وتبلغ هذه الموجة الحادة للترجمة أقصى غاياتها فى عهد المأمون وعرف أن فى جزيرة قبرص مكتبة تحتفظ بنفائس الكتب الفلسفية والعلمية اليونانية. فالتمس من حاكم قبرص أن يرسلها إليه، فأرسلها، وعهد المأمون إلى طائفة كبيرة من المترجمين فنقلوها إليه.. واستأذن ملك بيزنطة فى أن يرسل إليه وفدًا من كبار المترجمين ليحملوا إلى بغداد روائع الكتب اليونانية، وأجابه إلى ذلك. وأقام المأمون مرصدًا كبيرًا لعلم الفلك وزيجاته، فازدهر هذا العلم الهندى لعهده، وكان من القائمين عليه محمد بن موسى الخوارزمى واضع علم الجبر الذى يفتتح به فى بغداد عصرًا جديداً فى الرياضيات، وعُنى علماء العرب حينئذ بعلم الكيمياء واستعانوا فيه بالترجمة عن اليونانية، وظلوا يزدادون فيه علمًا حتى نبغ فيه جابر بن حيان، فخلف فيه كثيرًا من النظريات فى الإكسير وخواصه، وهو المؤسس الأول لعلم الكيمياء عند العرب. وكان يوحنا بن ماسوريه يعكف على تشريح القردة ويعد المؤسس للأبحاث الطبية عند العرب، وكانوا قد أكبوا على ترجمة ما لأبقراط وجالينوس من بحوث طبية ونقلوها إلى العربية.

ونمضى بعد المأمون فنجد الخلفاء يغدقون على المترجمين من اليونانية إغداقًا كبيرًا ويكفى أن نذكر ما أغدقه المتوكل على حنين بن إسحق كبير المترجمين من اليونانية حتى سنة ٢٦٤ للهجرة وقد أهداه ثلاث دور وحمل إليها كل ما تحتاجه من الأثاث والفرش وأقطعه بعض الإقطاعات وجعل له راتبًا شهريًا خمسة عشر ألف درهم.

ووراء الخلفاء أثرياء كانوا يعدون أنفسهم حماة للترجمة والمترجمين وينفقون عليهم أموالأ طائلة مثل ثلاثة إخوة من بنى شاكر وكان اثنان منهم يشغفان بالهندسة وكتبها ويشغف الثالث بعلم الحيل (الميكانيكا).

وكوّن حنين بن إسحق مدرسة كبيرة للترجمة كان من تلاميذها ابنه إسحق وابن أخته حبيش وغيرهما.

ويذكر لحنين أنه ترجم من اليونانية نحو مائة كتاب ورسالة وكان يعنى أشد العناية بالكتب الطبية اليونانية لجالينوس وغيره، وكان مثله ابنه بينما كان ابن أخته حبيش يعنى بترجمة الكتب الفلسفية لأرسطو وغيره، وجعل المتوكل لحنين طائفة من شباب المترجمين يكتبون بين يديه، ويمرنهم على إتقان الترجمة الدقيقة، ومنهم اصطفن بن باسيل اليونانى الأصل مترجم كتاب ديسقوريدس فى النبات والصيدلة لزمن المتوكل.

وتكاثر المترجمون فى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى عن اليونانية كثرة مفرطة، وأكبوا على المأثورات الإغريقية العلمية والفلسفية ينقلونها إلى العربية وكادوا لا يبقون كتابًا لليونان بدون ترجمة أو بدون شرح أو تلخيص حتى ليظن أن جميع كتب اليونان المهمة ترجمت إلى العربية فى القرنين الثانى والثالث للهجرة. ومن يرجع إلى كتاب طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة تهوله الكثرة الغامرة مما ترجم من عشرات الكتب والرسائل اليونانية.

ولما أوشكوا على الانتهاء من نقل التراث اليونانى العلمى والفلسفى أخذوا يراجعون نقل أسلافهم له، وما وجدوه يستحق

تكاثر المترجمون ـ فى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى ـ عن اليونانية كثرة مفرطة، وأكبوا على المأثورات الإغريقية العلمية والفلسفية ينقلونها إلى العربية وكادوا لا يبقون كتابًا لليونان بدون ترجمة أو بدون شرح أو تلخيص حتى ليظن أن جميع كتب اليونان المهمة ترجمت إلى العربية فى القرنين الثانى والثالث للهجرة

المراجعة وإعادة النقل أعادوه، وهذا هو السر فى أننا نجد بعض الكتب يذكر لها أكثر من مترجم، حتى عند بعض المترجمين الكبار لدى الأسلاف مثل ثابت بن قرة المتوفى سنة ٢٨٨ للهجرة، فقد نقح ترجمة كتاب أرسطو فى النبات من عمل إسحق بن حنين، ونقّح نقله لكتاب أصول إقليدس فى الأشكال الهندسية ويقول ألدو ميبلى صاحب كتاب العلم عند العرب: إن هذا التنقيح يصلح الأصل اليونانى فى غير موضع. ونلتقى بعده مباشرة بخاتمة هذا العصر من المترجمين: متى بن يونس، وكان من أصل يونانى ونقّح جميع الكتب المنسوبة إلى أرسطو فى المنطق وغيره.

وبذلك ينتهى عصر نقل التراث اليونانى العلمى والفلسفى المزدهر إلى الثقافة العربية، بحيث أصبح جزءًا لا يتجزأ منها، وبحيث يتم العرب ما كان له من ازدهار فى ديارها إذ كان قد أخذ منذ القرن الثالث الميلادى فى الانهيار والتدهور ولم يعد شىء منه معروفًا إلا فى ركن منعزل فى أوروبا ببيزنطة وفى مصر بالإسكندرية، وكان يعانى فيهما مما أصابه من التدهور الشديد، أما فى أوروبا فقد كانت الثقافة اليونانية مجهولة جهلاً تامًا، فلم يكن يعرفها الإيطاليون والفرنسيون والإنجليز والألمان ولا أحد من أوروبا الغربية والشرقية مما وراء بيزنطة يعرفها، إنما يعرفون فقط ما يستمعون إليه من التعاليم الدينية المسيحية على لسان الرهبان والأساقفة، وما قد يقرءونه عندهم من كتب الإيمان المسيحى وحياة القديسين، وليست لهم أى صلة بالثقافة اليونانية وعلومها وفلسفتها التى بلغت غاية الازدهار عند أرسطو، بينما كان العرب ينقلون إلى ثقافتهم فى القرنين الثامن والتاسع للميلاد الثقافة اليونانية، بكل أصولها وفلسفتها وعلومها، وهو أول فضل للعرب على الغرب المسيحى واحتفاظهم له بالثقافة اليونانية، وأضافوا إلى هذا الفضل فضلاً ثانيًا بما زودوا الفلسفة اليونانية والعلم اليونانى به من زاد وَفْر فى النمو والتطور مما يعد معجزة للعرب بجانب المعجزة اليونانية، وانتفع الغرب عن طريق المعجزتين ويبنى عليهما ثقافته وحضارته الحديثة.

ونقف أولاً عند الفلسفة، فقد احتفظ لها أصحابها باسمها اليونانى، وهو الفلسفة، وأضافوا إليه صفة عربية تميزه، هى الإسلامية، لأنها تمزج بين الفلسفة والإسلام، وأول فلاسفة العرب الكندى يعقوب بن إسحق وهو عربى أصيل من قبيلة كندة، وعاش فى القرن الثالث حتى أواخر العقد السادس، وله كتب ورسائل تعد بالعشرات، وتبلغ فى كتاب الفهرست لابن النديم نحو مائتين وأربعين، وتتناول الإلهيات والعلوم الرياضية والهندسية والفلكية والجغرافية والطبيعية والمنطق وهو أول فيلسوف إسلامى وفّق بين الفلسفة والإسلام وله فى إثبات النبوة كتاب. وكان يرى أن العالم محدث مخالفًا بذلك أرسطو القائل إنه قديم، وأهم نظرية فلسفية له نظريته فى أن العقل مصدر المعارف وتقسيمه إلى عقل فاعل هو الله جل جلاله، وعقل بالقوة فى داخل الإنسان، وعقل بالملكة هو عقل الإنسان بعد حصول المعلومات فيه وعقل مبين يؤدى للغير معقولاته.

ويقول ألدو ميلى إن دى كريمونا الإيطالى كبير المترجمين فى إسبانيا بالقرن الثانى عشر ترجم للكندى كثيرًا من كتبه، وأن لها تأثيرًا عميقًا فى الشعوب اللاتينية الأوروبية.

ونلتقى بعد الكندى بفيلسوف إسلامى كبير هو الفارابى المولود فى فاراب من بلاد الترك وراء خراسان ويقال أنه فارسى، وتلقى فى نشأته علوم الأوائل، وشغف بها فى بغداد، وأكبّ على كتبها واستوعبها، وأخذ يحاضر فيها عن فهم دقيق وبصيرة وعُنى بشرح كتب أرسطو فى علم المنطق وغيره وقارن بين الفلسفة والإسلام وذهب إلى أن كل موجود إما واجب الوجود وإما ممكن، والله وحده.. هو واجب الوجود وما عداه ممكن الوجود، ولا جنس له ولا تركيب فيه ولا يمكن حدّه إذ لا يتحيز فى مكان. ونوّه بالعقل طويلاً، وقال إن الله فيض عنه منذ الأزل مثاله وهو العقل الأول الذى يفيض عنه الفلك. ولروعة أعماله سمّاه معاصروه المعلم الثانى بعد أرسطو، ومن كتبه البديعة «فصوص الحكم» ولخص فى أوراق منه فلسفته واتخذه ماكس هورتن موضوع دراسة ضخمة، وعنى بوضع موسوعة للعلوم فى عصره سماها «إحصاء العلوم» ترجمها إلى اللاتينية ديتريشى ودى كريمونا الذى ترجم له رسالته فى المدينة الفاضلة وفيها يحاول وضع نظام دولة مثالية، وللدكتور إبراهيم مدكور عنه دراسة قيِّمة، وكانت وفاته سنة ٣٣٩ للهجرة.

وجاء بعده الفيلسوف الإسلامى العظيم ابن سينا المولود بالقرب من بخارى سنة ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م والمتوفى بهمذان سنة ٤٢٨هـ.

أكبّ فى فواتح حياته على إيساغوجى وإقليدس فى الهندسة والمجسطى فى الفلك، واستغلقت عليه الإلهيات حتى قرأ فيها كتابًا للفارابى فاتضحت له. وتمتزج الفلسفة عنده بالروح الإسلامية، ولقب بالشيخ الرئيس. وينحو فى فلسفته نحو الفارابى، ويتفق معه فى الإلهيات وتفاريع علم المنطق، وكان يرى ـ مثله ـ أن المادة لا تصدر عن الله، لأنه منزه عن كل مادة وجسم، وكان يرى أن الله لا يصدر عنه إلا عقل واحد، وعن هذا العقل يصدر عقل يدير الفلك، وخطا بفلسفته الإسلامية خطوة نحو التصوف.

وأهم كتب ابن سينا الفلسفية كتاب «الشفاء» وهو دائرة معارف كبرى فى المنطق والطبيعيات والميتافيزيقا أو الإلهيات، ويذكر ألدوميلى ترجمة له وترجمة أقسام منه إلى اللاتينية فى العصور الوسطى، وبالمثل عنوا بترجمة كتاب النجاة ودراسته، وهو تلخيص كامل لكتابه «الشفاء»، وأيضًا بكتابه «الإشارات والتنبيهات» وترجم إلى الفرنسية سنة ١٨٩٢. ومما شغل به الغربيون من كتبه كتابه فى الرمد باسم «علاج العين». ولم يكن ابن سينا فيلسوفًا إسلاميًا فقط، بل كان أيضًا طبيبًا عظيمًا، ومعجمه فيه الذى سماه «القانون» شاعت طبعاته فى المدن الغربية شيوعًا كبيرًا حتى ليقال أنه طبع بالغرب فى القرن الخامس عشر ست عشرة طبعة، وطبع فى القرن السادس عشر عشرين طبعة وأول مترجميه دى كريمونا فى القرن الثانى عشر، وتشغل ترجمته ومؤلفاته وترجماتها عند ألدو ميلى ثلاث عشرة صفحة.

ونضم إلى الفلاسفة الإسلاميين الثلاثة السابقين فيلسوف الأندلس فى إسبانيا ابن رشد أهم فلاسفتها، وقد وضع شروحًا مطولة ومتوسطة وموجزة لكثير من مؤلفات أرسطو.

وكل شروحه تُرجمت إلى اللاتينية، وترجم إليها أيضًا كتابه «تهافت التهافت» الذى يرد فيه على كتاب الغزالى «تهافت الفلاسفة» مدافعًا بحرارة عن الفلسفة وأرسطو، كما ترجم كتابه «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال» ويريد بالحكمة الفلسفة، ومن قوله فيه: «الحكمة أى الفلسفة صاحبة الشريعة وأختها الرضيعة، وهما مصطحبتان بالطبع ومتحابتان بالجوهر والغريزة، والفلسفة تخاطب الخاصة والدين يخاطب العامة». وحاول أن يوفق بين أرسطو وعلماء الإسلام بالقول بقِدم العالم وحدوثه، فقال إن قدمه بالقوة وحدوثه بالفعل وهو قديم محدث معًا، ومنذ نقل دى كريمونا الإيطالى وميشيل سكوت الإنجليزى (١٢٣٥م) وهرمان الألمانى (١٢٧٢م) أعماله أخذت تدرّس فى الجامعات الأوروبية بإسبانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وإنجلترا وانتشرت أفكاره الرشدية على الرغم من مقاومة رهبان الدومينيكان، ولفلسفته وتعاليمه أنصار كثيرون وكان لأفكاره أثر كبير فى قيام حركة التحرير والإصلاح الدينى فى النهضة الأوروبية، وهو يعد بحق خاتمة الفلاسفة الإسلاميين العظام.

وقد جعل ألفونس السابع (١١٢٦ ـ ١١٥٧) طليطلة فى إسبانيا المركز الذى تنتشر منه الثقافة العربية فى أنحاء إسبانيا وأوروبا، وقد دعا

فى أوروبا كانت الثقافة اليونانية مجهولة جهلاً تامًا، فلم يكن يعرفها الإيطاليون والفرنسيون والإنجليز والألمان ولا أحد من أوروبا الغربية والشرقية مما وراء بيزنطة يعرفها، إنما يعرفون فقط ما يستمعون إليه من التعاليم الدينية المسيحية على لسان الرهبان والأساقفة



إلى مدينته المترجمين من أنحاء الغرب، وأدخل الثقافة العربية فى مناهج المدارس المسيحية يساعده فى ذلك أسقف طليطلة رايموندو الذى حفز مدرسة المترجمين الطليطليين على نقل المؤلفات العربية فى الفلك والرياضيات والطب والكيمياء والطبيعة وما وراء الطبيعة وفلسفة أرسطو وشروح الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد، وترجمت مؤلفات إقليدس وبطليموس وأبقراط وجالينوس بشروح أعلام العرب وبلغت طليطلة الذروة فى عهد ألفونس الحكيم (١٢٥٢ ـ ١٢٨٤) وهرع إليها المتعطشون إلى مناهل العلم اليونانى والعربى من أمثال سكوت الإنجليزى الذى ترجم بعض كتب أرسطو ولابن سينا والبطروجى وكتب ابن رشد وشروحه على أرسطو إلى اللاتينية، ومثله هرمان الألمانى فى كثرة الترجمة لكتب الثقافة العربية إلى اللاتينية، وقد نقل إليها كتب ابن رشد والفارابى.

وبجانب طليطلة ومدرستها الكبيرة فى ترجمة الثقافة العربيةكانت مدرسة سالرنو فى جنوب إيطاليا، وقد نشأت فى القرن العاشر الميلادى، وأتيح لها فى القرن الحادى عشر الميلادى قسطنطين الأفريقى من قرطاجة التونسية، وكان قد ثُقّف العربية وعلوم الأوائل، وعرض على روجار الأول ملك صقلية ترجمة الكتب العربية. فشجعه، فرجع إلى تونس واختار له أنفس ما كتبه أطباؤها، كما اختار له روائع ما كتب العرب فى الفلك والرياضيات، وكان قد أصبح أسقفًا، فأسس له ديرًا فى جبل كاسينو بالقرب من سالرنو، فاغرى رهبان الدير بتعلم العربية وترجمة ما حمله من الكتب العربية، واشترك معهم فى الترجمة، ودُرس ما ترجموه فى مدرسة سالرنو ومنها نقل إلى الجامعات الأوروبية، وبذلك أصبحت مدرسة الترجمة فى سالرنو مركزًا كبيرًا لنقل الثقافة العربية إلى الغرب منذ القرن الحادى عشر الميلادى.

ونقل الغرب عن العرب علوم اليونان والأمم القديمة وما أضاف العرب إليها من نظريات علمية قيمة، وأبدأ بالرياضيات وبعلم الفلك من علومهما. فقد صاغ لهم الفزارى فى القرن الثانى الهجرى ما للهند فيه ولم يلبثوا أن نقلوا إلى لغتهم ما ذكره بطليموس الإسكندرى من نظريات الفلك وتنشأ عندهم مراصده منذ عهد المأمون وزيجاته وآلاته. ومن كبار علماء الفلك فى منتصف القرن الثالث الهجرى ابن كثير الفرغانى ويقول ألدو مييلى إن لكتابه أصول الفلك ترجمات كثيرة إلى اللاتينية وأثر تأثيرًا محسوسًا فى الغرب وله كتب متعددة فى الأسطرلاب، ومن الفلكيين بعده أبو معشر البلخى المتوفى سنة ٢٧٢ للهجرة، وله تأثير واسع عند مسيحيى الغرب فى العصور الوسطى. ومن كبار الفلكيين فى المشرق بعده البتانى فى أوائل القرن الرابع الهجرى. وكان له مرصد على نهر الفرات وترجم زيجة إلى اللاتينية وضمنه أرصاد النيرين وإصلاحه لحركاتهما فى كتاب بطليموس، ولنالينو كتاب عنه.

وينشط علم الفلك وكل ما يتصل بالرياضيات فى جميع البلاد العربية. وخير من يصور ذلك فى مصر أبو كامل شجاع بن أسلم فى أواخر القرن الثالث الهجرى ويشتهر بتنقيحه لعلم الجبر، ويذكر ألدو مييلى أن له رسالة فى المضلع ذى الزوايا الخمس ترجمت إلى الإيطالية والألمانية، مما يدل على أنه كان حاذقًا فى الرياضيات والهندسة. ومن كبار علماء الفلك المصريين ابن يونس، ويقول ألدوميلي: كان راصدًا للفلك عالمًا رفيع المنزلة للظواهر السماوية، وبدأ يعمل زيجًا فى عهد الخليفة العزيز الفاطمى وأتمه فى عهد الخليفة الحاكم، وكان كبيرًا ويشغل أربعة مجلدات ضخام، ويدل على زيادة النشاط الرياضى بمصر والدراسات الفلكية والهندسية والفلسفية حينئذ أن عالمًا رأى خزانة القصر الفاطمى سنة ٤٣٥ وكان بها فى تلك الدراسات ستة آلاف وخمسمائة جزء وكرة نحاس من عمل بطليموس الإسكندرى.

واشتهر فى عهد الأيوبيين قيصر بن أبى القاسم المتوفى سنة ٦٤٩ للهجرة وكان مهندسًا كبيرًا. وأقام لأمير حماة فى الشام نواعير نهر العاصى، وتنحدر إليها المياه من علو شاهق إلى اليوم، وأنشأ كرة سماوية عظيمة وهى محفوظة إلى الآن فى المتحف الوطنى لمدينة نابولى بإيطاليا. ويؤلف البيرونى سنة ٤٢١ كتابه القانون المسعودى فى الفلك والتنجم ويقال إنه يتفوق على كل كتاب فيهما. وترجم إلى اللاتينية.

ويزدهر علم الفلك فى الأندلس منذ مسلمة المجريطى فى أواخر القرن الرابع الهجرى، ويفتتح سلسلة الرياضيين العظام هناك وترجم إلى اللاتينية شرحه لقبة الفلك لبطليموس ورسالة له عن الإسطرلاب. ومن كبار علماء الفلك هناك الزرقالى المتوفى سنة ٤٧٢، وله زيجات أو جداول فلكية واخترع للإسطرلاب أجهزة دقيقة وابتكر فى الفلك نظرية جديدة عن كواكب السيارة والحركات الدائرية للنجوم، وأعماله مترجمة إلى اللاتينية ويشتهر بعده جابر بن أفلح الإشبيلى بكتابه فى علم النجوم الذى سماه إصلاح المجسطى وترجمه دى كريمونا إلى اللاتينية. ويتالق اسم البطروجى فى النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى بكتابه فى علم الهيئة الذى قوّض فيه نظرية بطليموس فى كتابه عن الكواكب السيارة ذاهبًا إلى أنها تتحرك فى مدارات إهليلجية أو بيضاوية حول الشمس، وكانت نظرية بطليموس قد ظلت تتنقل قرونًا بعد قرون وجيلاً بعد جيل إلى أن هدمها البطروجى، وترجم ميشيل سكوت كتابه إلى اللاتينية سنة ٦١٤هـ ـ ١٢١٧م وبذلك أدخل نظرية البطروجى الفلكية مبكرًا إلى العالم الغربى، وبدون شك اطلع عليها كبلر الألمانى (١٥٧١ ـ ١٦٣٠م) وصاغ على أساسها نظريته الفلكية المشهورة فى مدارات الكواكب السيارة وعُدَّ بها أبا لعلم الفلك الحديث، وهو ليس أباه الشرعى، فأبوه الشرعى البطروجى الإشبيلى العربى. ويلقانا فى الهندسة الفضل بن حاتم وله شرح على كتاب الأصول فى الهندسة ترجمه إلى اللاتينية دى كريمونا وله شرح على كتاب بطليموس فى الفلك. وكما عُنى الغربيون بمباحث الهندسة العربية عنوا بعلم العدد وحساب المثلثات. ومن العلوم اليونانية التى نهض بها العرب نهضة كبيرة الطب وقد نقل العرب عن اليونان لبقراط وجالينوس كل ما ألفاه فيه من كتب ورسائل، وازدهرت دراسة هذا العلم عند العرب ازدهارًا عظيمًا، ومن أكبر أطبائهم محمد بن زكريا الرازى المتوفى سنة ٣٢٠ للهجرة رئيس بيمارستان بغداد وأهم كتبه فى الطب كتاب الحاوى وهو موسوعة طبية ضخمة، وترجم كاملاً ـ وترجمت أجزاء منه ـ إلى اللاتينية، واستخرج منه مايرهوف ٣٣ ملاحظة إكلينيكية مهمة وفيه وصف لكثير من الأمراض، ومن أشهر مؤلفاته رسالة فى الفروق بين الجدرى والحصبة، وهى بحث طبى عالمى وترجمت إلى اللاتينية واليونانية واللغات الحية. ويلى كتابه الحاوى فى الشهرة كتاب المنصورى ترجم مرارًا فى العصور الوسطى وعصر النهضة، وطبع الجزء الأول منه الخاص بالتشريح طبعة فرنسية، وترجم بروند القسم الخاص بالرمد.

وكانت مصر تعنى بالطب منذ عصر الفراعنة وعنيت به فى مدرسة الإسكندرية لعهد البطالسة، وظلت عنايتها متصلة بعد احتراق مكتبة الإسكندرية، أجيالاً بعد أجيال، ونرى عمر بن عبد العزيز حين صار خليفة يستدعى منها طبيبه ابن أبجر، ويلزمه، كما نرى هارون الرشيد يستدعى منها طبيبًا مشهورًا لعلاج إحدى جواريه هو بليطيان، وكان بطريركا لها فى القرن الثامن الميلادى، وكانت كثرة أمراض العيون فى مصر سببًا فى نبوغ أطبائها فى الرمد، ولخلف الطولونى فى القرن الثالث كتاب النهاية والكفاية فى تركيب العينين وأدويتهما، وتالق اسم عمار بن على طبيب العيون فى عهد الخليفة الفاطمى الحاكم، واشتهر بنجاحه فى إجراء عملية ماء العين «الكاتاراكت» وابتكر لها الإبرة المجوفة التى تمتص ماء العين كما يقول ألدو مييلى، وله المنتخب فى علاج أمراض العين. ومن الأطباء الكبار فى مصر علاء الدين أبو الحزم بن نفيس القرشى المصرى فى العصر المملوكى

بجانب طليطلة ومدرستها الكبيرة فى ترجمة الثقافة العربية كانت مدرسة سالرنو فى جنوب إيطاليا، وقد نشأت فى القرن العاشر الميلادى، وأتيح لها فى القرن الحادى عشر الميلادى قسطنطين الأفريقى من قرطاجة التونسية، وكان قد ثقف العربية وعلوم الأوائل، وعرض على روجار الأول ملك صقلية ترجمة الكتب العربية

طبيب الظاهر بيبرس المتوفى سنة ٦٨٧ وكان رئيسًا لأطباء مستشفى قلاوون واكتشف لأول مرة الدورة الدموية الثانية مسجلاً بذلك كشفًا طبيًا مهمًا، ويقول ألدو ميلي إن سرفيتو نقله عنه فى القرن السادس عشر كلمة كلمة. ومما يدل على شهرة مصر فى الطب أن نجد السلطان العثمانى يرسل فى سنة ٧٩٥ إلى السلطان برقوق المملوكى رسالة يسأله فيها أن يرسل إليه بطبيب مختص بأمراض المفاصل، وأرسل إليه رئيس الأطباء ابن صغير ومعه أدوية كثيرة لعلاجه.

ويزدهر علم الطب فى الأندلس منذ عهد عبد الرحمن الناصر فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى، ولا يلبث هذا الازدهار أن يتوَّج بالزهراوى أبى القاسم خلف بن عباس طبيب ابنه المستنصر المتوفى سنة ٤٠٤ للهجرة وهو أعظم الأطباء الجراحين من العرب، وله موسوعة طبية فى ثلاثين جزءًا سماها «التصريف لمن عجز عن التأليف» وجعلها ثلاثة أقسام: قسمًا فى الطب العام والأمراض، وقسمًا فى الصيدلة، وقسمًا فى الجراحة، أرفق به صورًا كثيرة لآلاتها. وتُرجم جميعه وأجزاء منه إلى الغرب مرارًا، وانتشرت ترجماته فى البلدان الأوروبية، ويقول ألدو ميلى إنه نال أسمى درجات التقدير فى أنحاء أوروبا، وظل يدرس فى جامعاتها من القرن الحادى عشر الميلادى إلى القرن السابع عشر كما ظل الأطباء فى الغرب يعدونه إمامهم فى جراحة العظام وحصاة المثانة وتفتيتها وعمليات الفتق والدوالى، وبذلك يعد أبًا للجراحة العالمية كما عد البطروجى أبًا لعلم الفلك وابن رشد أبًا لحركة التنوير الفكرى فى الغرب. ومنذ القرن الخامس الهجرى تشتهر أسرة بنى زهر بأطبائها، مثل عبد الملك الذى طبع كتابه التيسير فى الغرب مرارًا ويقول ألدو ميلى: يعد عبد الملك أعظم طبيب إكلينيكى عند العرب ولابن رشد فى الطب كتابه الكليات وفيه يعرض التشريح ووظائف الأمراض وأعراضها والأدوية وعلاجها، وطبعاته تكررت فى الغرب.

وكما ازدهر الطب عند العرب ازدهرت الصيدلة منذ ترجمة كتاب ديسقوريدس فى الحشائش والأدوية، ويشتهر كتاب فيها لسابور بن سهل فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى، وتكثر الصيادلة شرقًا وغربًا، وتشغل الصيدلة القسم الثانى من كتاب الزهراوى السالف، ويشتهر فيها بالقرن السادس الهجرى كتاب الغافقى الأندلسى عن الأدوية المفردة فى العقاقير وقد ترجم إلى اللاتينية. وأهم صيادلة العرب على مر العصور ابن البيطار الأندلسى الذى جعله السلطان الكامل الأيوبى رئيسًا للصيادلة بمصر، وأهم كتبه «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» وبه «٣٣٠» دواء عن اليونان والعرب وزاد عليها ٣٠٠ دواء، وترجم إلى الفرنسية والألمانية.

وترجم مبكرًا إلى العربية كتاب الأصول لإقليدس فى الأشكال الهندسية ودفع إلى نشاط كبير فى علم الهندسة وللكندى فيه كتاب ترجمه دى كريمونا إلى اللاتينية، وله ترجمة فرتسية، ويقول ألدو ميلى إنه أثر تأثيرًا ملحوظًا فى: بيكون ووايتلو. ومن كبار الرياضيين وأهمهم أبو الوفا البوزجانى المتوفى سنة ٣٨٨، ويقول ابن خليكان هو أحد الأئمة المشهورين فى علم الهندسة، وله فيه استخراجات عربية لم يسبق بها ويقول فيه ألدو ميلى: شارح إقليدس وبطليموس عالم أصيل رفيع المنزلة ويقترن اسمه بتنمية حساب المثلثات والمسائل الهندسية. وأعظم المهندسين الرياضيين عند العرب الحسن بن الهيثم البصرى نزيل القاهرة والمتوفى بها سنة ٤٣٠ وقد ظل بها ثلاثين سنة، وفيها ألف كتابه «المناظير فى علم الضوء والعدسات وفيه يذهب إلى أن الضوء ينشأ من المرئيات لا من العين، كما كان يظن سابقوه، ويدرس ظاهرة الانكسار الجوى والرؤية المزدوجة بالعينين، وهو أول من استعمل الغرفة المظلمة وتحدث ألدو ميلى عن ترجماته وعمَّن تُعَدّ مؤلفاتهم مقتبسة من كتابه البصريات أو مأخوذة منه.

وفى القرن الحادى عشر الميلادى استدعى الملك روجار الثانى ملك صقلية من غرناطة إلى بالرمو عاصمته الشريف الإدريسى ليؤلف له كتابًا جغرافيًا، ويقول ألدو ميلى إنه من علماء العرب الذين اشتركوا فى نقل كنوز العلم العربية إلى الغرب واستجاب لروجار، وظل عنده، وألف له كتابه الباهر: نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، وألحق به كرة فضية تزن ثمانمائة أوقية رسم عليها خريطة الأرض وأقاليم شعوبها المعروفة مثبتًا عليها خطوط الطول والعرض لأول مرة فى الخرائط العربية ويقوم الكتاب من الخريطة مقام الشرح والتكملة، وهما بحق كما يقول ألدو ميلى عملان علميان باهران نقلا إلى الغرب كما نقلت الأعمال الباهرة السابقة لأعلام العرب فى العصور الوسطى، وانتفعوا بها انتفاعًا عظيمًا.

ولعلى فى هذه الكلمة الموجزة أكون قد أوضحت تأثير الثقافة العربية فى الثقافة الغربية الحديثة وما أتمت للعلم العالمى من اكتمال دوره الثانى إذ رعته ونمته صورًا متنوعة من النمو وطورته أطوارًا شتى انطلق الغرب بها ينشئ للعلم العالمى دوره الثالث للنهوض بالثقافة الغربية الحديثة.■

كتاب الزاوية

حالة حصار
(٢)

أيُّها الواقفون على العتّبات ادخلوا،
واشربوا مَعَنا القهوةَ العربيَّةَ
(قَدْ تَشْعُرونَ بأنَّكُم بَشَرٌ مثلنا)
أيُّها الواقفونَ على عتَباتِ البيوتِ،
اخرجوا من صباحاتنا،
نطمئنَّ إلى أنَّنا
بَشَرٌ مثلكُمْ!
نجدُ الوقتَ للتسلية:
نلعب النَّردَ، أو نتصفَّحُ أخبارَنا
فى جرائدِ أمسِ الجريحِ،
ونقرأ زاويةَ الحظِّ: فى عامِ
ألفينِ واثنينِ تبتسمُ الكاميرا
لمواليدِ بُرجِ الحصارْ

* * *

كُلُّ مَوْتٍ،
وإنْ كانَ مُنْتَظَراً،
هُوَ أوَّلُ موتٍ
فكيف أرى
قمراً
نائماً تحت كُلِّ حَجَرْ؟

الحمَّامات فى ألف ليلة وليلة

محمد عبدالرحمن يونس

يبدو الحمّام فى ألف ليلة وليلة جنة مصغرة، وفضاء مليئا بالمتعة، ولذا كان قبلة لشخوص ألف ليلة وليلة: الملوك والوزراء والأمراء الأثرياء والتجار وكبار القوم. وهو فضاء مهم يكاد يضاهى فضاء القصر، بل يفوقه فى بعض الأحيان

يُعتبر الحمّام من أهم الفضاءات المعمارية فى المدينة العربية الإسلامية، كونه يؤدى دورًا وظيفيًا فى خدمة المسلم، من حيث نظافته وطهارته، تمهيدًا لأداء واجب دينى مهم يأخذ طابع القداسة، وهو فرض الصلاة الذى فُرض على كل مسلم ومسلمة فى المدينة الإسلامية. وقد كثرت الحمّامات «فى المدينة الإسلامية كثرة واضحة، وتكلفت سلطات المدينة إنشاءها وما يتصل بذلك من تزويدها بمصادر الماء وقنوات الصرف»[١].

ويمكن عد الحمّام مظهرًا حضاريًا من مظاهر الحياة فى المدينة الإسلامية، فالقرآن الكريم والسنة النبوية يحضّان على ضرورة النظافة الشخصية، والاهتمام بالوضوء والاستحمام واستعمال السواك. وتقرر السنة النبوية أن على المسلم أن يستحم مرة على الأقل فى الأسبوع، وبخاصة فى يوم الجمعة. وقد أوصى الرسول الكريم محمد ﷺ المسلمين بالاستحمام فى مناسبات معينة: بعد الجنابة والجماع وفى يوم الجمعة، وعند الحجامة، وبعد غسل الميت. ونظرًا لأهمية الحمّامات، فقد حث رجال السلطة فى المدينة الإسلامية على بنائها. وكان بعض الحمّامات فى المدينة الإسلامية لا يبنى إلا بإذن من والى المدينة. ففى مدينة البصرة كان يتعين على من يبتى حمّامًا أن يأخذ إذنًا رسميًا من الوالى، حتى يستطيع البناء[٢].

وقد ارتأى المعمار الإسلامى أن تبنى الحمّامات مجاورة للمساجد، فعلى سبيل المثال: كانت أكثر حمّامات مدينة البصرة العراقية قائمة بجوار مساجدها. وعلى مستوى التشكيل المعمارى الهندسى، فقد عمد المعمار الإسلامى إلى إضفاء طابع الأبهة والفخامة على الحمّامات، إذ أُنشئت «لهذه المرافق واجهات ضخمة وزخارف فخمة، واستخدمت فيها أحدث أساليب الإنشاء وأدق الحيل الفنية المعروفة»[٣]. إلا أنه من الملاحظ أن الأساليب المعمارية فى إنشاء الحمّامات الإسلامية ليست إسلامية صرفًا، فهذه الحمّامات مثلها مثل المنشآت العمرانية الإسلامية الأخرى، كالقصور والمنازل الكثيرة وقباب المساجد، متأثرة بالأساليب المعمارية للحضارات التى سبقت الحضارة الإسلامية، وتزامنت معها فى آن. فالحمّام الإسلامى وإن كان مؤسسة اجتماعية صحية إسلامية بالدرجة الأولى، إلا أنه «من حيث البناء والتقليد متأثر بالحمّام الرومانى السابق له».

ولقد حرص المعماريون الإسلاميون على أن تكون الحمّامات فضاء جماليًا تستريح إليه نفس من يدخله، إذ جعلوها كثيرة الأضواء، ومرتفعة السقوف، عذبة المياه، طيبة الرائحة. لأن أبخرة الحمّامات رديئة وكثيرة. ومن مهمة هذه السقوف المرتفعة أن تعين على تخفيف حر أبخرتها. وقد ذكر أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م)، فى رحلته المعروفة برحلة ابن جبير، أن حمّامات بغداد كانت «مطلية بالقار مسطحة به، فيُخيل للناظر أنه رخام أسود صقيل، وحمّامات هذه الجهات أكثرها على هذه الصفة لكثرة القار عندهم، لأن شأنه عجيب، يجلب من عين بين البصرة والكوفة».

وعلى مستوى التخطيط المعمارى الداخلى للحمّامات فى المدينة الإسلامية، فقد كان الحمّام، وبشكل عام، يتألف من ثلاث حجرات: باردة ودافئة وساخنة. فالباردة تطل على الفناء الخارجى، والدافئة تتوسط بين الباردة والساخنة، وماؤها أقل حرارة من الساخنة، أما الساخنة فهى التى يتم الاستحمام بها، وتعلوها قبة قليلة الارتفاع مثقوبة بعدة ثقوب، يكسوها زجاج ملون، من مهمته أن يُضفى على الحجرة جوًا جماليًا مشعًا، لأن أشعة الشمس تنفذ منه، وتشع فى الحجرة عاكسة ألوان الزجاج المختلفة. وكان الماء الساخن يجرى من القدور الساخنة إلى أحواض المياه الموجودة فى الحجرة. وتحتوى الحجرة الدافئة فى بعض الحمّامات على حوضين مائيين، أما الساخنة ففيها أربعة أحواض وجرن، ومغطس مفروش بالرخام.

لقد كانت الحمّامات فى المدينة الإسلامية خاصة وعامة، وكانت الخاصة مقصورة على أفراد السلطة الأثرياء جداً، إذ من غير المعقول أن يخرج هؤلاء إلى حمّامات العامة كلما احتاجوا إلى الاستحمام، نظرًا لمكانتهم السلطوية العالية. وقد اعتاد خاصة الناس، من أفراد السلطة السياسية، وبعض التجار الأثرياء جداً، على بناء هذه الحمّامات داخل قصورهم. أما العامة فإنهم لم يألفوا الاستحمام فى منازلهم على الرغم من كبر بعضها. ويذكر الفقيه ابن الحاج الفاسى (أبو عبد الله محمد العبدرى، ٧٣٧هـ/١٣٣٦م) أن «الواحد يشترى الدار أو يبنيها بنحو الألف، ولا يعمل بها موضعًا للوضوء أو للغسل».

وتشير الدراسات إلى أن سلطات المدن الإسلامية أشادت الحمّامات العامة، نظرًا لوظيفتها الدينية من جهة، ونظرًا لاستحالة أن يحتوى كل بيت من البيوت العامة على حمام خاص به، لأن الكثير من هذه المدن كانت تقع فى مناطق أقرب إلى الجفاف الجغرافى ولقد درت هذه الحمّامات العامة على مالكيها أرباحًا كثيرة، نظرًا لكثرة مرتاديها. وها هو أحد أصحاب الحمّامات فى مدينة البصرة يُصرح بمقدار دخله من حمامه قائلاً: «إنى أغتل من حمامى هذا فى كل يوم ألف درهم وطعامًا كثيرًا». وقد كثرت الحمّامات العامة فى المدينة الإسلامية، وعُرف عن بعض هذه الحمّامات أنها كانت طائفية. فعلى سبيل المثال شهد العصر الفاطمى (٢٩٧ ـ ٥٦٧هـ/٩٠٩ ـ ١١٧١م) حمّامات خاصة بالمسلمين وأخرى بالطائفة اليهودية، وثالثة خاصة بالنصارى.

وتشير الإحصائيات فى الأدبيات التاريخية إلى أن المدينة الإسلامية كانت غاصة بالحمّامات العامة، وتثبت أرقامًا لا يُستغرب أن يكون فيها كثير من المبالغة. فيذكر ابن خلدون[٤] (ت٨٠٨هـ/١٤٠٦م) نقلاً عن الخطيب البغدادى (ت٤٦٣هـ/١٠٧١م)، أن الحمّامات العامة بلغ عددها فى مدينة بغداد، وتحديدًا فى عهد المأمون ابن هارون الرشيد، خمسة وستين ألف حمام. ويذكر أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبى (ت٢٨٣هـ/٨٩٧م)، أن الجانب الشرقى فى بغداد وحده، كان به فى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى، خمسة آلاف حمام. وجاء فى تاريخ بغداد للحافظ أبى بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى أنه كان بمدينة بغداد فى القرن الرابع الهجرى عشرة آلاف حمام. ويذكر تقى الدين أحمد بن على المقريزى أن أقل عدد للحمّامات فى بغداد كان فى أيام الخليفة العباسى الناصر لدين الله (٥٧٥ ـ ٦٢٢هـ/١١٧٩ ـ ١٢٢٥م)، إذ بلغ نحو الألفى حمام. وقد حدد على بن الحسن بن عساكر (ت ٥٧٠هـ/١١٧٥م) فى أيامه ـ فى القرن السادس الهجرى ـ عدد حمّامات دمشق بسبعة وخمسين حمّامًا. ويذكر جمال الدين بن حسن بن عبد الهادى المعروف بابن المبرد (ت ٩٠٩هـ/١٥٠٣م)، أن عدد حمّامات دمشق وأحيائها التى كانت قائمة فى عهده تقدر بحدود المائتى حمام، وقد روى المقريزى عن ابن عبد الظاهر أن حمّامات مصر (الفسطاط، والعسكر، وأطلال القطائع) قد بلغت فى سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٦م نحو ثمانين حمامًا، فى حين أنها بلغت فى عهده (أى عهد المقريزى، ت٨٤٥هـ/١٤٤١م) ألفًا ومائة وسبعين حمامًا.

إن هذه الأرقام مؤشر واضح على أهمية الحمّامات العامة فى المدينة العربية الإسلامية، باعتبارها تؤدى خدمات كثيرة لعدد كثير من أفراد المدينة الإسلامية الفقراء الذين لا يستطيعون بناء حمّامات خاصة فى دورهم.

هذا وقد سجلت بعض الأدبيات الإسلامية ما قيل فى الحمّامات من أوصاف وأشعار، ونقتطف منها ما يأتى: «قيل للفضل الرقاشى صف الحمّام. فقال: نعم البيت الحمّام، يُذهب القشاف، ويُعقب النظافة، ويهضم الطعام، ويجلب المنام، وينفى الغضب، ويقضى الأرب». ووصف أحدهم حمامًا خاصًا يمتلكه أحد أولاد الوزراء بمدينة بغداد، قائلاً: «فطاف بى (أى سائس الحمّام) وأبصرت مياهه وشبابيكه وأنابيبه المتخذ بعضها من فضة مطلية بالذهب وغير مطلية وبعضها على هيئة طائر إذا خرج منها الماء صوّت بأصوات طيبة، ومنها أحواض رخام بديعة الصنعة والمياه تخرج من سائر الأنابيب إلى الأحواض ومن الأحواض إلى بركة حسنة الإتقان، ثم منها إلى البستان، ثم أرانى نحو عشر خلوات، كل خلوة «منها» صنعتها أحسن من صنعة أختها».

بعد هذا المدخل ننتقل إلى أهم المقاطع السردية فى حكايات ألف ليلة وليلة التى ذكرت الحمّام، وسجلت بعضًا من أخباره، وأخبار جواريه الحسان، والشخوص الداخلين إليه.

يبدو الحمّام فى ألف ليلة وليلة جنة مصغرة، وفضاء مليئًا بالمتعة، ولذا كان قبلة لشخوص ألف ليلة وليلة: الملوك والوزراء والأمراء الأثرياء والتجار وكبار القوم. وهو فضاء مهم يكاد يضاهى فضاء القصر، بل يفوقه فى بعض الأحيان. ولأنه فضاء من فضاءات المتعة فإنه يجب أن يكون على درجة عالية من الزخرفة الجمالية. وهذه هى حال حمام التاجر الثرى (أبو محمد الكسلان). إذ يذكر الراوى أن ضيوف أبى محمد الكسلان دخلوا حمامه، «فرأوا حيطانه ورخامه من الغرائب وهو مزركش بالذهب والفضة وماؤه ممزوج بماء الورد». ولأن حمّامات المدينة الإسلامية عبر تاريخها كانت مزركشة، ومزينة بالصور، فقد امتنع بعض المسلمين المتشددين، فى بداية الأمر «عن دخول الحمّامات التى قامت فى مداخلها التماثيل وزينت جدرانها بالصور التى تنم عن الكبرياء والجبروت».

إن الحمّام فى ألف ليلة وليلة فضاء للانتعاش الجسدى، والترويح عن النفس، وهو أكثر الفضاءات التصاقًا بالحياة اليومية «وخاصة بأوجه المتعة فيها. إذ يتوقف عدد غير قليل من الحكايات عند الحمّام (العام) الذى يؤكد رواة الحكايات وشخصياتها أنه «زينة المدينة» وشرط أساسى من شروط اكتمالها». وتتعدد وظائفه فى ألف ليلة وليلة، ولعل أهم وظائفه هى وظيفته التزيينية التجميلية للشخوص: الإناث والذكور، تمهيدًا لليلة الطقس الجنسى الأولى، وبخاصة عند النساء. فالعروس قبل أن تُزف إلى رجلها يجب أن تدخل الحمّام. وها هى السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد، عندما تزف إحدى جواريها إلى عشيقها، تأمر بدخول هذه الجارية الحمّام ـ لا يذكر الراوى اسمًا لهذه الجارية ـ قبل أن يدخل عليها الزوج العشيق. يقول الراوى[٥]: «فأرسلت السيدة زبيدة إلى القاضى والشهود وكتبوا كتابى عليها «على الجارية»، وبعد ذلك عملوا الحلويات والأطعمة الفاخرة ومكثوا على هذه الحال عشرة أيام أخرى، وبعد العشرين يومًا أدخلوا الجارية إلى الحمّام لأجل الدخول بها».

وللحمام قدرة سحرية على جعل المرأة المستحمة فيه جميلة مشعة، ومثيرة جنسيًا. ومن هنا نفهم لماذا كان رجال السلطة فى ألف ليلة وليلة يلجئون إلى إدخال الجارية الحمّام وتزيينها، قبل الصعود بها إلى قصر السلطان، وإهدائها له تقربًا منه، وكسبًا لمودته، واتقاء

لشره. يقول أحد النخاسين إلى أحد وزراء ألف ليلة وليلة: «خلها «أى الجارية» عندك فى القصر عشرة أيام حتى تستريح فيزداد جمالها. ثم أدخلها الحمّام وغسلها غسيلاً جيدًا وألبسها أحسن الثياب واطلع بها إلى السلطان فيكون لك فى ذلك الحظ الأوفر. فتامل الوزير كلام النخاس فوجده صوابًا».

لقد كان دخول الجوارى الحمّام واجبًا مفروضًا عليهن، وذلك قبل أن يدخلن مقاصير ملوك ألف ليلة وليلة وأمرائها، ليشعلن طقوس الجنس والمسرات تقديسًا وولاء لهؤلاء الملوك والأمراء. وها هو أحد ملوك ألف ليلة وليلة يأمر خدمه وجواريه «أن يقوموا بخدمتها «أى خدمة الجارية المُحتال عليها والمجلوبة إلى قصره» ويدخلوها الحمّام ويجهزوا لها الحَلْى والحلل(...)، ثم ألبسوها حللاً من ملابس الملوك ووضعوا فى عنقها عقدًا من الجوهر، وساروا بها إلى الحمّام، وخدموها ثم أخرجوها من الحمّام كأنها بدر التمام. ولما وصلت إلى الملك سلمت عليه وقبلت الأرض بين يديه، فحصل للملك بها سرور عظيم». وها هو أحد تجار الرقيق، وبعد أن يشترى نزهة الزمان يُدخلها الحمّام، ويحضر لها إحدى البلانات لكى تقوم بتجميلها، أملاً فى أن يبيعها بسعر باهظ إلى أحد الملوك أو الأثرياء. يقول الراوى عن هذا النخاس: «ثم أدخلها الحمّام «أى أدخل نزهة الزمان» وأتى لها ببلانة، وقال لها: إذا فرغت من غسل رأسها فألبسيها ثيابها(...) فلما فرغت البلانة من تنظيفها ألبستها ثيابها(...) ثم أمرها التاجر أن تتزين بأحسن الزينة. ومشت ومشى التاجر قدامها، فلما عاينها الناس بهتوا فى حسنها، وقالوا تبارك الله أحسن الخالقين، هنيئًا لمن كانت هذه عنده».

وعبر تاريخها الطويل شهدت الحمّامات فى المدن الإسلامية تطورًا حولها إلى مراكز تجميل متخصصة، فبعد أن تخلع المرأة ملابسها فى المقصورة الملحقة بالحمّام، تمضى إلى غرفة البخار، ثم تأتى بعدها المدلكة أو البلانة لتنظيفها وتدليكها. إذ تقوم هذه البلانة بإزالة الشعر عن مختلف الأعضاء، مستعملة بذلك مرهمًا فعالاً مكونًا من الزرنيخ الأصفر والشمع، وأحيانًا تكتفى بالسكر المنعقد بالليمون. فالمرأة فى المدن العربية الإسلامية ـ ومنها بطبيعة الحال كثير من مدن ألف ليلة وليلة ـ كان عليها أن تتعرى أمام البلانة، لكى تدلكها وتزيل عنها الشعر. ومن هنا ليس غريبًا أن يندفع بعض الفقهاء فى المدينة الإسلامية، للنفور من الحمّام، واعتباره بؤرة للفساد. فجلال الدين عبد الرحمن السيوطى (ت٩١١هـ/١٥٠٥م) قال إنه مكروه للنساء. أما الفقيه ابن الحاج فقد نصح معاصريه من العلماء بعدم السماح لنسائهم بدخول الحمّام «لما اشتمل عليه هذا الزمان من المفاسد والعوائد الرديئة». ويُروى عن رسول الله ﷺ أنه قال[٦]: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخلن الحمّام إلا بمئزر. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخلن حليلته الحمّام. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقعدن على مائدة يشرب عليها الخمر، أو يدار عليها الخمر». أما الشاعر الفضل الرقاشى، بعد أن كان قد مدح الحمّام، كما أشير إلى ذلك سابقًا، عاد وعدّه هاتكًا للأسرار، وحارقًا كالنار، حين ذمه قائلاً: «بئس البيت الحمّام، يهتك الأستار، ويُؤلف الأقذار، ويحرق كالنار».

إذا كان العرف الاجتماعى فى المدينة الإسلامية ألف دخول النساء الحمّام قبل أن يدخل أزواجهن عليهن، فإنه ألف أيضًا أن يدخل الرجال الحمّام ليستحموا ويتزينوا استعدادًا لطقوس الجنس. وفى حكايات ألف ليلة وليلة كانت المرأة السلطوية تطلب من خدمها أن يأخذوا عشيقها إلى



الحمّام قبل دخوله عليها، ليتهيأ على أكمل وجه جمالي، استعدادًا لأن تشعل له بخور جسدها ومجامره. فزمرد الجارية، وبعد أن تتوجها المصادفات السحرية ملكة على إحدى المدن، وبعد أن تلتقي بعشيقها على شار بعد سنوات طويلة، تأمر بأن يدخلوه الحمّام، ويزينوه، ويلبسوه أفخر الملابس. يقول الراوي: «ثم أمرت الحاجب أن يمضي به إلى الحمّام ويلبسه بدلة حسنة من ثياب الملوك ويركبه فرسًا(...) ويمضي به بعد ذلك إلى القصر».

وقد لعب المفهوم الإسلامي دورًا أساسيًا في ضرورة التهيئة التي تقرب بين المحبين، فعلى الزوجة المطيعة والمخلصة، في المفهوم الإسلامي، أن تُرضي طموح زوجها الجنسي، وأن تهيئ له نفسها وجسدها أحسن تهيئة، وكان على الرجل أيضًا أن يستعد لمثل هذه التهيئة أحسن استعداد وبتهيئة مماثلة، حتى يجد لديها قبولاً واستعدادًا نفسيًا وفيزيولوجيا، وبالتالي يجعلها تحبه وتقتنع به بعلاً ولا تخونه في فراشه. يقول أحد الفقهاء: «... نعم إن التهيئة، مما يزيد في عفة النساء، ولقد ترك النساء العفة بترك أزواجهن التهيئة. ثم قال: أيسرّك أن تراها على ما تراك عليه إذا كنت على غير تهيئة؟ قلت لا، قال: فهو ذلك، ثم قال من أخلاق الأنبياء (عليهم السلام): التنظيف والتطيب وحلق الشعر وكثرة الطروقة». وسُئل رسول الله ﷺ ما زينة المرأة للأعمى فقال[٧]: «الطيب والخضاب فإنه من طيب النسمة».

وتشير حكاية «الملك عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان» إلى أن حمّامات ألف ليلة وليلة - مثلها مثل حمّامات المدينة الإسلامية في أوج ازدهارها - كانت فضاء تجميليًا بالنسبة للرجال أيضًا، إذ يتم بها تجميل الرجال وتنظيفهم وإزالة الشعر عن أجسادهم، وهي بهذا تؤدي للرجال الوظيفة التي تؤديها النساء. فالوقاد في الحكاية يأخذ الأمير ضوء المكان - الذي كان تائهًا وغريبًا في مدينة القدس - إلى الحمّام ليزيل عنه هيئته الرثة، وينظفه. يقول الراوي: «فمضى إلى السوق «أي الوقاد» وأتى له بمكاري وأركبه حمارًا(...) ثم دخل معه الحمّام وأجلسه في داخله ومضى إلى السوق واشترى له سدرًا ودقاقًا، وقال لضوء المكان يا سيدي بسم الله أغسل لك جسدك. وأخذ الوقاد يحك لضوء المكان رجليه وشرع يغسل له جسده بالسدر والدقاق، وإذا ببلان قد أرسله معلم الحمّام إلى ضوء المكان فوجد الوقاد يحك رجليه(...) فشرع البلان يحلق رأس ضوء المكان، ثم اغتسل هو والوقاد».

إذا كان من مهمة البلان في الحمّامات الإسلامية، في ألف ليلة وليلة، تنظيف المستحم وإزالة الشعر عن جسمه، فإن على المستحم أن يكون شبه عارٍ أو عاريًا أمام هذا البلان، حتى يستطيع أن يؤدي وظيفته. ومن هنا فقد عاب الفقيه ابن الحاج علي رجال عصره «كشف عاناتهم للبلان في الحمّام لإزالة الشعر منها». ويبدو أنه كان لكل حمام في المدينة الإسلامية مدلك خبير في تدليك عضلات الجسم. ومع زيادة إقبال الرجال على الحمّامات أُلحق بها «حلاق أو حجام، خبير في حلاقة الشعر، بواسطة أمواس مصقولة لامعة مضمخة بالطيب. وكان يبذل قصاري جهده للعناية باللحى فعليه غسلها وتقليمها وصبغها وتطييبها».

لقد لعب الحمّام في ليالي ألف ليلة وليلة دورًا محرضًا ومثيرًا لشهوة الرجال والنساء، فهو فضاء حامل لأسباب الإثارة، ففيه الماء

الحمّامات في ألف ليلة وليلة



حرص المعماريون الإسلاميون على أن تكون الحمّامات فضاء جمالياً تستريح إليه نفس من يدخله، إذ جعلوها كثيرة الأضواء، ومرتفعة السقوف، عذبة المياه، طيبة الرائحة. لأن أبخرة الحمّامات رديئة وكثيرة. ومن مهمة هذه السقوف المرتفعة أن تعين على تخفيف حر أبخرتها

الساخن المنعش، وفيه روائح العطور، وفيه المدلكون الذين يبعثون النشاط والحيوية في الجسم. وتشير الليالي إلى أن النساء الخارجات من الحمّام كن يظهرن ألقات شهيات مثيرات جنسيًا للرجال الهائجين الذين لا يستطيعون ضبط شهواتهم المتفجرة، فيندفعون طائعين وراء إغواء أجساد هاته النساء. ففي حكاية «علي نور الدين وأنيس الجليس»، تخرج جارية الوزير الفضل بن خاقان من الحمّام متألقة، وقد «لبست الثياب الفاخرة فتزايد حسنها وجمالها». وعندما تسمع صوت ابن سيدها علي نور الدين الذي حذروها منه تخرج من مقصورتها لتشاهده، وعندما يشاهد جمالها الأخاذ يهتاج ويندفع معانقًا لها. يقول الراوي: «ثم إنها نهضت على قدميها وهي بأثر الحمّام وتقدمت جهة باب المقصورة ونظرت إلى علي نور الدين فإذا هو صبي كالبدر في تمامه(...)، وإذا به تقدم من الباب، وفتحه ودخل على الجارية، وقال: أنت التي اشتراك لي أبي، فقالت له: نعم، فعند ذلك تقدم الصبي إليها وكان في حالة سكر وأخذ رجليها وجعلها في وسطه وهي شبكت يدها في عنقه واستقبلته بتقبيل وشهيق وغنج، ومص لسانها ومصت لسانه، فأزال بكارتها».

وإذا كان الراوي يقرن حالة الاغتصاب بفعل السكر، فإنه يمكن القول: إن أهم دوافع الاغتصاب، في بنيته العميقة، عائدة إلى شكل الجارية المثير جنسيًا بعد خروجها من الحمّام، وقد زادها الحمّام بهاء وألقًا. وتتكرر حالة اغتصاب الجارية المثيرة الخارجة من الحمّام في حكاية «غانم بن أيوب وقوت القلوب». إذ يشاهد العبد بخيت ابنة سيده الصبية الجميلة - لا يذكر الراوي اسمًا لها - وقد خرجت معطرة من الحمّام، وكأنها القمر في ليلة أربعة عشر، - بتعبير راوي الحكاية - فينفلت وحش جوعه الجنسي، وينقضّ عليها، ويغتصبها.

وليس غريبًا أن يصف الراوي وجه الصبية الخارجة من الحمّام، بأنه كالقمر في ليلة أربعة عشر، هذا إذا عرفنا مدى مهارة مزينة الحمّام، وخبرتها العميقة في فن تجميل وجوه زبونات الحمّام، بعد انتهائهن من الاستحمام. فقد شهدت حمّامات المدينة الإسلامية مزينات ماهرات في تجميل وجوه النساء، إذ كان وجه المرأة المستحمة يدلك بعناية، ثم يزال الشعر المتناثر عليه، ثم تبدأ التزيين بتبييض الأسنان بقشر البيض أو مسحوق الكربون، ثم تقوم المرأة بمضغ قشر الجوز أو التامول لاحتوائه على رائحة طيبة ولقدرته على شد الشفاه والحنك بفعل طبيعته القابضة، وقدرته على أن يُضفي على اللثة لونًا قرمزيًا لطيفًا. ثم تنثر المزينة على وجه المرأة مسحوق الأرز الممزوج ببياض البيض، ثم تقوم بنزعه، وبعد ذلك تضع مسحوقًا قرمزيًا لإضفاء لون زهري على الوجنتين، ثم تزجّج المزينة حاجبي المرأة بمسحوق من البخور والقار والزرنيخ الأصفر. وأخيرًا يأتي دور العينين، إذ تُكحلان بالكحل الأصفهاني. وبعد هذه العملية التجميلية المعقدة تضفي المزينة آخر اللمسات الجمالية على وجه المرأة، بأن تستخدم مسحوقًا معطرًا، وتشكل به نقاطًا جميلة، أو رسومًا خاصة على الجفون أو على جانب الأنف، وأحيانًا في وسطه، وعادة ما يُنثر على الوجنتين. وللقارئ أن يتساءل بعد عملية تجميلية كهذه، أو مقاربة لها، كيف سيستطيع رجال مدن ألف ليلة وليلة الإسلامية وغير الإسلامية المهتاجون دائمًا، أن يضبطوا هيجاناتهم الغريزية؟

ولا يهتاج رجال ألف ليلة وليلة حين رؤيتهم للجواري المثيرات الخارجات من الحمّام فحسب، بل يهتاجون وهم في فضاء الحمّام الداخلي، وبعد أن يستحموا، وبعد أن تكون النساء الجميلات قد غادرن هذا الفضاء، نظرًا لانتهاء دورهن في الاستحمام. ففي حكاية «الملك عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان»، يدخل أحد الحشاشين إلى حمام نظيف، ويستحم بالماء الساخن، ثم يخرج إلى الحوض البارد، وبعد أن يكون جسده قد انتعش بأجواء الحمّام، يأخذ قطعة حشيش، وينام مستمتعًا بنظافة جسده. عندها يبدأ نشاط عقله الجامح، وتخيلاته صوب الثراء وامتلاك الجواري. ويغفو على وقع هذا النشاط، مستحضرًا العبيد وخدم الحمّام، والمماليك، والثياب الجميلة وفوط الحرير، والبلان وهو يدلكه، والناس من حوله يخاطبونه مخاطبة الوزراء: «يا مولانا الصاحب»، ثم يخرجونه ويضعونه على فراش عظيم لا يصلح إلا للملوك، ويأتي إليه الغلمان ويكبسونه. وبفعل جو الحمّام السحري المنعش رأى في منامه صبية «فباسها، ووضعها بين فخذيه، وجلس منها مجلس الرجل من المرأة».

إن الحمّام في تخطيطه البنائي يثير في أذهان الداخلين إليه، رجالاً ونساءً، مزيدًا من التخيلات والأحلام اللذيذة، وبمجرد الدخول إليه «ينساب المرء في رواقه المتجه إلى أسفل حيث توقظ الغرف الدافئة عالمًا كاملاً من الأحلام، فالاندفاع في أروقته لهو الاندفاع نحو السخونة المتزايدة، ومن ثم الانعزال التدريجي عن العالم الخارجي بمساعدة انتشار البخار الساخن والبارد». ومن شأن البخار الساخن أن ينشط الدورة الدموية عند المستحم، وبالتالي يُنشط الجانبين النفسي والفيزيولوجي عنده، فيجد نفسه مثارًا، ومهتاجًا، ومندفعًا لتفريغ طاقاته النشطة، عندها تندفع أحلامه ورغباته صوب المرأة المُشتهاة، سواء أكانت هذه المرأة واقعية أم تخيلية.

وإذا كان من طبيعة فضاء الحمّام الداخلي أنه عامل مساعد على تهييج النشاط الجنسي وإثارته عند الرجل والمرأة على حد سواء، فإن رجال المدينة العربية الإسلامية، وبخاصة رجال السلطة، عمدوا إلى إضفاء محفزات جديدة على هذا الفضاء، ليزداد قدرة على تعزيز النشاط الجنسي لدى الداخلين إليه. وتتجلى هذه المحفزات في الصور العارية التي شوهدت في حمّامات رجال السلطة، ملوك وأمراء ووزراء، فقد «انتقل التصوير إلى الحمّامات فصوّروا داخلها وخارجها وكانت هذه الصور ترمي إلى إثارة الغرائز الجنسية».

وتذكر المصادر أن بعض خلوات حمّامات الطبقة الحاكمة في المدينة الإسلامية كانت مليئة بالمثيرات الجنسية، من صور النساء والرجال العراة المنقوشة بإتقان جمالي على أرضية الخلوة. وينقل المقّري التلمساني وصفًا لإحدى هذه الخلوات الموجودة في حمام أحد أولاد الوزراء بمدينة بغداد العباسية، كان قد وصفه سائس هذا الحمّام:

«ورأيت من العجائب في هذه الخلوة أن حيطانها الأربعة مصقولة صقالاً لا فرق بينه وبين صقال المرآة، يرى الإنسان سائر بشرته في أي حائط شاء منها، ورأيت أرضًا مصورة بفصوص حمر وصفر وخضر ومذهبة وكلها متخذة من بلور مصبوغ بعضه أصفر وبعضه أحمر(...) وتلك الصورة في غاية الحسن والجمال، على هيئات مختلفة في اللون وغيره، وهي بين فاعل ومفعول به، إذا نظر المرء إليها تحركت شهوته. وقال لي الخادم السائس: هذا صُنع على هذه الصنعة لمخدومي، حتى إنه إذا نظر ما يفعل هؤلاء بعضهم من بعض من المجامعة والتقبيل ووضع أيدي بعضهم على أعجاز بعض تتحرك شهوته سريعًا، فيبادر إلى مجامعة من يحبه(...) وهذه الخلوة دون سائر الخلوات التي دخلت إليها «وهي» مخصوصة بهذا الفعل، إذا أراد «سيدي» الاجتماع في الحمّام بمن يهواه من الجواري الحسان والصور

الحمّـامـات في ألف ليلة وليـلـة



الجميلة والنساء الفائقات الحسن لم يجتمع به إلا في هذه الخلوة، من أجل أن يرى كل محاسن الصور الجميلة مصورة على الحائط ومجسمة بين يديه، ويرى كل منهما صاحبه على هذه الصفة».

إن للحمام وظيفة إعلامية مهمة بالنسبة للنساء الجميلات الداخلات إليه، وللغرباء الذين يقصدونه، لأنه فضاء مُباح لاستعراض جمال المرأة أمام زميلاتها، والتباهي عليهن بهذا الجمال، فعندما كانت تدخل المرأة المتفوقة جماليًا كان يشيع خبر جمالها في أنحاء المدينة، فيعشقها الناس، وتُحاك الحكايات حولها، وترغب النساء المهمات في المدينة في مشاهدتها. وهذا ما حدث مع منار السنا زوجة الصائغ حسن البصري التي تفوق نساء بغداد جمالاً، باعتبارها ابنة ملك جزائر واق الواق. فما إن تدخل هذه السيدة الحمّام، وتنزع ثيابها، حتى تتأملها نسوة الحمّام، وسرعان ما ينقلن أخبارها إلى بيوت بغداد. يقول الراوي: «وقامت وهيّأت حوائج الحمّام التي يحتاجان إليها، وأخذتها «أي أم زوجها حسن البصري» وراحت إلى الحمّام فلما دخلت قلعت ثيابها فصارت النساء جميعًا ينظرن إليها ويسبحن الله عز وجل، ويتأملن فيما خلق من الصورة البهية، وصارت كل من جاءت من النساء على الحمّام تدخل وتتفرج عليها، وشاع في البلد ذكرها وازدحمت النساء عليها وصار الحمّام لا ينشق من كثرة النساء اللواتي فيه».

ووفقًا لمنطق التجسس الذي يتحكم في معظم العلاقات الإنسانية، في مدن ألف ليلة وليلة بكل فضاءاتها، يصل خبر جمال منار السنا إلى قصر الخليفة هارون الرشيد بوساطة تحفة العوادة، جارية السيدة زبيدة. فما كان من السيدة زبيدة إلا أن أرسلت في طلب هذه المرأة التحفة الجميلة. تصف الجارية تحفة العوادة منار السنا لسيدتها زبيدة قائلة: «يا سيدتي رأيت أعجوبة ما رأيت مثلها في الرجال ولا في النساء، وهي التي شغلتني وأدهشت عقلي وحيرتني حتّى أنني ما غسلت رأسي! فقالت: ما هي يا تحفة؟ فقالت يا سيدتي رأيت جارية في الحمّام(...) ما رأى أحد مثلها، لا قبلها ولا بعدها، وليس مثل صورتها في الدنيا بأسرها». وعندما تحضر منار السنا إلى قصر الخليفة هارون الرشيد، لا تستطيع السيدة زبيدة، أمام هذه المرأة الجميلة، ضبط دهشتها وإعجابها الشديدين، فتقوم وتضم المرأة إلى صدرها تقديرًا لجمالها الأخاذ. مع ملاحظة أن نساء الخليفة والسلطة في ألف ليلة وليلة قلّما يتنازلن عن مكانتهن السلطوية، ويحتضن المرأة القادمة إلى قصورهن، سواء أكانت جارية، أم وصيفة، غريبة، أم ضيفة عالية الشان.

ويبدو أن السلطة السياسية في مدن ألف ليلة وليلة كانت تبث الجواسيس في الحمّامات، لينقلوا لها ما يجرى داخلها، وليبحثوا لها عن الأشخاص المطلوبين، من خلال علامات فارقة على أجسادهم. ففي حكاية «حاسب كريم الدين وملكة الحيّات»[8]، يُصاب الملك كرزدان بمرض الجذام الخطير، ويعجز أطباء المملكة جميعهم عن شفائه، فيستدعي المنجمين لاكتشاف سر مرضه. ويؤكد هؤلاء، من خلال كتب التنجيم، أن شفاءه يكون على يد شخص يُدعى حاسب كريم الدين، ولا يمكن العثور عليه إلا في فضاء الحمّام، وبعد أن يتعرى، لأن بطنه سوداء كما يؤكد المُنجمون. عندها يبث وزير الملك جواسيسه في حمّامات المدينة جميعها ليكتشفوا الشخص المطلوب وهو في حالة استحمام، ثم يأخذوه إلى قصر الملك. يقول الراوي: «واجتمع عمال الحمّام وكل من كان فيه على حاسب كريم الدين وتكاثروا عليه، ونزعوا عنه الثياب «محبة واحتفاء به» وأدخلوه الحمّام، فبمجرد ما دخل الحمّام وقعد بجانب الحائط وسكب على رأسه من الماء، أقبل عليه عشرون رجلاً وقالوا له: قم أيها الرجل من عندك، فأنت غريم السلطان».

وعلى مستوى البنية الحكائية في ألف ليلة وليلة، فإن الحمّام يلعب دورًا وظائفيًا ليكون أداة مساعدة على تنمية الوحدات السردية، ومن ثم ارتحالها إلى مدن أخرى تمهيدًا لبناء أحداث حكائية جديدة، كما في حكاية «حسن الصائغ البصري»، فدخول منار السنا الحمّام في هذه الحكاية كان سببًا لنمو الوحدات السردية، وانتقالها إلى قصر الخلافة ببغداد. وكان فيما بعد سببًا لانتقال منار السنا إلى بلادها جزائر واق الواق. ثم أدى هذا الدخول إلى ارتحال زوجها حسن البصري إلى واق الواق للبحث عن زوجته، وبالتالي أدى هذا الارتحال إلى تشكيل وحدات حكائية جديدة، وأحداث تخيلية مفعمة بالسحر والغرابة، وحروب الجان والسحرة فيما بينهم، في واق الواق، ومن هنا يمكن القول: إن على كل حكاية من حكايات الأدب الشعبي «أن تخلق جديدًا في داخلها بالذات، لكي تستطيع شخصياتها أن تعيش»، فالدخول إلى الحمّام في الحكاية السابقة، هو الذي شكل الوظائف الجديدة التي تقوم بها الفضاءات المكانية الجديدة في واق الواق، وهو الذي شكل الأبطال الثانويين الجدد الذين ساعدوا حسنًا البصري، وقدموا له كل الوسائل المساعدة للوصول إلى هذه الفضاءات، لأن الحكاية بكل فضاءاتها المكانية «لم تُصنع قط إلا من الوظائف. فكل شيء فيها يحمل دلالته على مستويات مختلفة».

ويكون الحمّام في بعض حكايات ألف ليلة وليلة فضاءً صحيًا يدخله الشخوص، احتفاءً بالشفاء من الأمراض الطويلة والمزمنة. فقد تعارفت المدن الإسلامية في ألف ليلة وليلة، على أن تحتفي بشفاء أبنائها المرضى، من الملوك والأمراء والتجار، وبقية أفراد الطبقات الاجتماعية الأخرى، وذلك بأخذهم إلى الحمّام تعبيرًا عن فرحتها بشفائهم، وتفاؤلاً بهذا الشفاء. ففي حكاية «هارون الرشيد مع الصياد»، يقول أحد أبطال الحكاية لهارون الرشيد عن زوجته: «فلما مرضت مرضًا شديدًا فأحضرت لها الأطباء حتى حصلت لها العافية، فأردت أن أدخلها الحمّام».

إن للحمام في ألف ليلة وليلة قدرة على تبديد الهموم والأحزان، فهو فضاء تدخله الشخوص - في بعض الأحيان - لتنسى مصائبها، وتستعيد توازنها النفسي مع ذاتها، والاجتماعي مع مجتمعها وإلى الحمّام تدخل المرأة كئيبة ورثة، وتخرج منه مشرقة، وقد «ظهرت عليها آثار النعمة». وها هي قوت القلوب تُدخل عشيقها غانم بن أيوب، وأمه، وأخته فتنة، احدَ حمّامات بغداد. وعندما يخرجون يبدون وقد تبددت أحزانهم، و«رُدّت إليهم أرواحهم».

وفي حكايات ألف ليلة وليلة تقترح العجائز على العشّاق المفجوعين في حبّهم، وتطلعاتهم الجنسية، بعد أن فقدوا عشيقاتهم، أن يستعيدوا توازنهم العاطفي بالذهاب إلى الحمّام. وها هي إحدى عجائز الليالي تطلب من علي شار أن يدخل الحمّام، ويقوى عزيمته بعد أن خطف الشطار جاريته زمرد التي أرقته طويلاً، نظرًا لمحبته الشديدة لها. وهنا يصبح الحمّام محفزًا سحريًا لهؤلاء الداخلين فيه، وقادرًا على إضفاء البهجة عليهم، ومدّهم بالقوة، والعزيمة الجديدة، التي تدفعهم للانتصار على فجائعهم.

ويصبح دخول الحمّام في بعض الأحيان إيذانًا بانتهاء فترة العزاء والحزن على الأهل والأحباء الذين أخذهم هازم اللذات ومفرق الجماعات، بمفردات رواة ألف ليلة وليلة. ففي حكاية «تودُد الجارية»، يحزن أبو الحسن على وفاة والده التاجر البغدادي الثرى حزنًا شديدًا - لا يذكر الراوي اسمًا له - فيقيم العزاء في بيته أيامًا وليالي طويلة، فيدخل عليه أصحابه ويأخذونه إلى الحمّام، ويقدمون له الطعام والشراب والجواري الجميلات، وبذلك يُنهي طقس الأحزان ليبدأ طقس المسرّات والملذات.

يذكر ابن خلدون، أن الحمّامات العامة بلغ عددها في مدينة بغداد، وتحديداً في عهد المأمون، خمسة وستين ألف حمام. ويذكر أحمد بن واضح اليعقوبي (ت٢٨٣هـ/ ٨٩٧م)، أن الجانب الشرقي في بغداد وحده، كان به في القرن الثالث الهجري خمسة آلاف حمام

ويتزامن دخول الحمّام في بعض حكايات ألف ليلة وليلة مع طقوس الاحتفاء بلقاء الأحبة والأصدقاء والأقرباء الذين باعدتهم الشخصيات الشريرة. ففي حكاية «سيف الملوك وبديعة الجمال»، يلتقي ساعد ابن الوزير فارس مع صديقه الحميم سيف الملوك ابن الملك عاصم بعد غياب طويل، واحتفاءً برجوع فارس يأخذونه إلى الحمّام، ويلبسونه الثياب الفاخرة.

وفي الحمّام يسترخي التجار المنكوبون، بعد أن تكون الرياح الهوجاء قد مزّقت أشرعة مراكبهم، وأغرقت بضائعهم، فهو بالنسبة إليهم فضاء للأمل والرجاء ونسيان المصائب والخسائر المالية، وإعادة المسرّات. فالسندباد البحري في السفرة السابعة تقذفه الأنواء إلى مدينة عظيمة بعد أن تحطمت سفينته، فينتشله سكانها، ويأخذه شيخها إلى الحمّام. يقول السندباد: «فسقطت بينهم وأنا مثل الميت من شدة الجوع والسهر والخوف، فتلقاني من بين هؤلاء الجماعة رجل كبير السن وهو شيخ عظيم، ورحب بي ورمى علىَّ ثيابًا كثيرة جميلة، فسترت بها عورتي، ثم أخذني وسار بي وأدخلني الحمّام وجاء بالأشربة المنعشة والروائح الزكية».

إن الحمّام فضاء جماليّ حرٌ لأنه يمنح الحرية لبعض النساء، فهو يسهم في خروج المرأة من فضاء دار زوجها، ومن رتابته، ومن علاقاته المحكومة بمجموعة من القيم والضوابط العائلية، إلى فضاء الأسواق بحركتها التجارية، وصخبها الاجتماعي، وانفتاحها على شرائح اجتماعية عديدة، لأنه كان على النساء المتجهات إلى الحمّام في المدينة الإسلامية، أن يدخلن الأسواق حتى يصلن إلى الحمّامات، لأن هذه الحمّامات كانت تقع وسط هذه الأسواق، وبجوار المساجد. وهناك في الحمّام تتحرر المرأة من عبء الضوابط والأعراف السائدة في منزل زوجها، إذ يسترخي جسدها وسط هالات من البخار، وتفرد روحُها أحلامها العريضة صوب كل ما لذ وطاب. ومن هنا فقد وعى بعض رجال ألف ليلة وليلة خطورة الخروج من المنزل إلى الحمّام، فحذروا نساءهم، ومنعوهن من الذهاب إليه، كما في حكاية «حسن الصائغ البصريّ»، إذ يمنع حسن البصري زوجته منار السنا من الخروج من منزلها والذهاب إلى الحمّام، ويوصي والدته بأن لا تسمح لها بذلك.

وعمومًا يبقى الحمّام فضاءً أساسيًا وحضاريًا مهمًا في مدن ألف ليلة وليلة. ونظرًا لأهميته، فإنه يجب أن تتوافر فيه عدة شروط. وها هي تودّد الجارية تحدد بعضًا منها عندما يسألها الطبيب الممتحن، وبحضرة الخليفة هارون الرشيد: «فأي الحمّامات أحسن؟». فتجيبه: «ما عذُب ماؤه واتسع فضاؤه وطاب هواؤه. بحيث تكون أهويته أربعة خريفي وشتوي وربيعي وصيفي». وحتى تتأكد فاعليته العلاجية صحيًا يجب ألا «يدخله شبعان». على حد تعبير تودّد الجارية. وهذا الرأي يتفق مع رأي بعض الفقهاء الإسلاميين الذين يؤكدون أن «دخول الحمّام على الشبع» يعدّ «من المهلكات». ويبدو أن على المستحم أن يكون دقيقًا في مراعاة شروط دخول الحمّام والخروج منه حتى لا يصيبه الأذى والمرض. ففي حكاية «علي نور الدين وأنيس الجليس»، يدخل الوزير الفضل بن خاقان، والد علي نور الدين، الحمّام، ويخرج منه مبللاً بالعرق، فيصيبه الهواء، ويلزم الوساد، ويطول به السهاد، ويتسلل إليه الضعف، ويشهق شهقة ويموت. وإذا كان

الحمّامات فى ألف ليلة وليلة



يبدو أن السلطة السياسية فى مدن ألف ليلة وليلة كانت تبث الجواسيس فى الحمّامات، لينقلوا لها ما يجرى داخلها، وليبحثوا لها عن الأشخاص المطلوبين، من خلال علامات فارقة على أجسادهم

الراوى يريد أن يقول إنه على المستحم ألا يسرع بالخروج من الحمّام، وهو عرقان، بل يجب عليه أن ينتظر فى بهو الحمّام الخارجى فترة زمنية حتى يجف، وحتى لا يتعرض لتأثير التباينات الحرارية الكبيرة، بين فضاء الداخل المشبع بالحرارة، وفضاء الخارج الأقل حرارة، فإن هذا الرأى يبدو صائبًا على مستوى الصحة الجسدية، لأن هذه التباينات الحرارية التى يتعرض لها الجسم تسهم فى فقدانه لمناعته وقدرته على مقاومة الأمراض. فعلى المستحم، وحتى لا يُؤذى من هذه التباينات الحرارية أن يتدرج فى الخروج من الحمّام، وذلك من الغرفة الساخنة إلى الغرفة الباردة المسماة بـ «غرفة بيت أول»، وهناك فى الغرفة الباردة يقضى بعض الوقت فلا يغادر الحمّام مباشرة إلى الفضاء الخارجى معرضًا نفسه للهواء البارد.

وعلى الرغم من مهاجمة الفقهاء الإسلاميين المتزمتين للحمام، واعتباره فضاءً هاتكًا للأسرار، ومفسدًا لأخلاق النساء، وكاشفًا للعورات، فإنه يبقى فى رأى بعض المؤرخين والباحثين فضاءً لا غنى عنه فى حياة المدينة الإسلامية، فهو من أهم اللذات الأربع فى حياة المسلم. وإذا كانت الحياة مبهجة فى المجتمعات العربية، على الرغم من مآسى مواطنيها، واستبداد خلفائها وسلاطينها، فإن الفضل فى وجود هذه البهجة يعود إلى الحمّام.

ويشير بعض المؤرخين إلى أن الحمّام كان فضاءً ممتعًا للهو، إذ يلعب فيه الولاة ويتسابقون مع خدمهم فى الجرى. ولم يتوان بعض خلفاء الدولة العباسية فى توظيف الحمّام لإشباع نزواتهم الجنسية، والاحتيال على نساء زمانهم الجميلات، وإدخالهن الحمّام، ثم اغتصابهن.

هذه أهم وظائف الحمّامات فى المدينة الإسلامية وملامحها كما جاءت فى بعض نصوص ألف ليلة وليلة الحكائية، وبعض نصوص التراث العربى. وإذ أكتفى بدراسة هذه الوظائف والملامح، فلأنها القاسم المشترك بين جميع حكايات ألف ليلة وليلة التى احتفت بالحمّام، وشكلته، واعتبرته فضاءً مهمًا لنمو أحداثها، وحركة وحداتها السردية. ■

الهوامش

(١) عثمان، د. محمد عبد الستار: المدينة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت العدد ١٢٨، الطبعة الأولى، ذو الحجة ١٤٠٨م/آب (أغسطس)، ١٩٨٨م، ص ٢٤٦.

(٢) البلاذرى، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م): من كتاب فتوح البلدان، اختار النصوص وقدم لها: د. شوقى أبو خليل، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، طبعة ١٩٩٧م، ص ٤٤٦.

(٣) جرابار، أوليج: وآخرون: تراث الإسلام، تصنيف جوزيف شاخت، وكليفورد بوزورث، ترجمة د. حسين مؤنس، ود. صدقى العمد، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد الثانى عشر الطبعة الثانية، رمضان ١٤٠٨هـ/ مايو ١٩٨٨م. القسم الثانى من الجزء الأول، ص ٣٩٠

(٤) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م): كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر «مقدمة ابن خلدون»، تحقيق وشرح: د. على عبد الواحد وافى، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، الطبعة الثالثة، محرّم ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م، ٢/ ٨٤٤.

(٥) ألف ليلة وليلة، ١/ ١٤٢.

(٦) ابن الجوزى، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن على بن محمد (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م): كتاب أحكام النساء، تحقيق: زياد حمدان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص ٤٥.

(٧) عن/ السعدى، صباح: الحياة الجنسية فى الإسلام، ص ٣٤

(٨) نظرًا لأن طبعة دار مكتبة الحياة، وهى الطبعة التى اعتمدتها فى دراستى، لا تضع اسمًا لكل حكايات ألف ليلة وليلة، فقد وضعت اسمًا لكل هذه الحكايات التى اقتبست منها، معتمدًا أسماء أبطال هذه الحكايات، وأسماء بعض الشخوص الواردة فيها. وإن لم يكن بعض الرواة قد سموا أسماء أبطال الحكايات، فإنى اكتفيت بوضع إحدى صفات هؤلاء الأبطال، كأن أقول مثلاً: «حكاية خالد بن عبد الله القسرى مع الشاب الجميل»، وما شابه ذلك.



مـؤامـرة الانـقـلاب

■ ٤٨ ساعة فقط هزت أمريكا اللاتينية واحتبست خلالها أنفاس قادة منظمة أوبك. فقد عاشت «فنزويلا» خلال يومين (١١ - ١٣ أبريل ٢٠٠٢) أسرع انقلابين في التاريخ.

الانقلاب الأول «عسكري» أطاح بالرئيس «هوجو شافيز» المنتخب من الشعب عن طريق صناديق الاقتراع. والانقلاب الثاني «مدني» أعاد الرئيس مرة أخرى إلى قمة السلطة وقيادة البلاد.

كانت لحظة جديدة ومختلفة في تاريخ عالمنا المعاصر والذي يتشكل على نحو آخر منذ سقوط حائط برلين واختفاء الاتحاد السوفيتي وانهيار المعسكر الاشتراكي.

عندما جاء جنرال المظلات «شافيز» إلى مقعد الرئاسة في فنزويلا، انقسمت الآراء حول الحدث.

فالفقراء هللوا لنجاحه وقد سحرهم خطابه الصادق الحماسي وشخصيته الجذابة وبرنامجه الانتخابي الذي تعهد فيه بإجراء إصلاحات جذرية هدفها تحقيق العدالة الاجتماعية وإحداث توازن طبقي من خلال حسن توزيع الثروة البترولية.

جزء من «الإنتلجنتسيا» راهن على التوجهات الاجتماعية للرئيس المنتخب، بينما رأى الجزء الآخر فيه.. زعيما ديماجوجيا شعوبياً له ميول انتهازية.

أما طبقة الأغنياء ورجال الأعمال فقد اعتبروا «شافيز» مجرد نسخة مكررة من جنرالات أمريكا اللاتينية، الذين يحسنون التحدث للجماهير ويحبون مظاهر السلطان، وسرعان ما ينغمسون في نعيم الأبهة والفساد السياسي.. ناسين أحلام الفقراء.

بدت شخصية «شافيز» محيرة ومثيرة للتساؤلات، وباتت تجربته هي محك الحكم على أصالته أو زيفه.

الصحفيان روبرتو فيشيانو باستور وروبن مارتينيز، تتبعا «التجربة» باهتمام شديد، خلال ثلاث سنوات، ونشرا نتائج التجربة في كتاب صدر العام الماضي، قدما من خلاله تحليلاً عميقاً وموثقاً لتفاصيل التجربة، لأنها وضعت علامة فارقة في النظام السياسي الفنزويلي.

إن انتخاب «شافيز» كان تعبيراً عن إرادة جزء مهم من الجسم الاجتماعي وخاصة الفئات الشعبية المهمشة، والتي عانت من الفساد وانعدام المساواة والعدالة الاجتماعية نتيجة وجود نظام سياسي متجمد يقوم على تعددية مقيدة بقيادة حزب سياسي واحد يسيطر على السلطة منذ أربعين عاماً.

وهذا التجمد أحبط آمال الفقراء وحاصر أحلام الطبقة الوسطى وعطل من تحققها رغم توافر عدة فرص، لم يكتب لها النجاح بسبب غياب الرؤية والإرادة السياسية للنخبة الحاكمة، بينما تمكن شافيز، خلال ثلاث سنوات فقط، كما يروي المؤلفان.. من إجراء تغييرات سياسية واقتصادية ودستورية سريعة ومنظمة ووفقاً لبرنامج محدد، استطاع من خلاله تكوين «الكادر المدني» الضروري لمشروع الثورة السلمية وتحقيق الديمقراطية بالمشاركة.

كان رهان «شافيز» في نجاح برنامجه للتغيير على البترول وعلى المجتمع المدني.

واعتمد في ذلك على تراث فنزويلا الطويل في تحقيق الاستقلالية والتحرر على الصعيد الداخلي وعلى المستوى الخارجي، وهو الجنرال المثقف الواعي بتاريخ بلاده، حيث تأثر منذ نعومة أظفاره بشخصية محرر أمريكا اللاتينية «الجنرال سيمون بوليفار» والذي خاض معارك ضارية مع كافة أنواع الاستعمار الخارجي، وقد غير شافيز اسم فنزويلا من «الجمهورية الفنزويلية» إلى «الجمهورية الفنزويلية البوليفارية» في إشارة موحية ولفتة تقدير أيضاً لمحرر أمريكا اللاتينية.

والشخصية الأخرى التي تأثر بها، كانت لوزير البترول الفنزويلي الشهير الدكتور «بيريس ألفونسو» أستاذ القانون ومؤسس منظمة أوبك.

وهو رجل صاحب رؤية يدرك مدى سيطرة الشركات البترولية العملاقة على سعر البرميل من البترول، وأن أي تغيير لهذا الوضع كان يستدعي قيام جبهة للدول المنتجة له. ويقول ألفونسو: كانت رؤيتي تعتمد على ضرورة التعاون والتضامن بين المنتجين من خلال كيان يحافظ على مصالحهم ويدافع عنها أمام جبهة الدول المستهلكة والاحتكارات البترولية.

ويقول ألفونسو: «إن الفكرة اختمرت في ذهني بعد أن قام جمال عبد الناصر بتأميم قناة السويس وتصديه للاستعمار في تلك الفترة الحساسة من تاريخ العالم، فقد اكتشفنا إمكانية تحقق السيادة الوطنية على مواردنا لأول مرة».

وبالفعل كان ميلاد منظمة أوبك بالقاهرة عام ١٩٦٠ بعد عدة اجتماعات سرية بين ألفونسو وبين عبد الله الطريقي وزير النفط السعودي في نادي اليخت بضاحية المعادي جنوب القاهرة.

الرئيس شافيز عندما جاء للسلطة عام ١٩٩٨، تولى في نفس الوقت رئاسة منظمة أوبك، ولم يغب عن ذهنه الدور التأسيسي الذي لعبته «فنزويلا» في حياة المنظمة. وكان المشهد البترولي في منتهى الخطورة. فقد تدهور سعر البترول إلى ثمانية دولارات للبرميل، وتوقفت الكرة في ملعب جبهة الدول المستهلكة والتي تمكنت عبر آليات كثيرة من تكثيف درجة التعاون فيما بينها.. ومن خلال تفعيل جهود الوكالة الدولية للطاقة.. في حين تعثرت الأوضاع داخل منظمة أوبك لتفشي الغش في حصص الإنتاج وسيادة الروح الفردية في التكالب على الأسواق، ولم يعد هناك حد أدنى للتنسيق والتعاون من أجل موقف متماسك يحافظ على سعر عادل لبرميل البترول يغطي تكلفة الإنتاج مع هامش ربح يستوفي احتياجات برامج التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

ويقول المؤلفان باستور ومارتينيز.. إن برنامج شافيز للتغيير اعتمد على عامودين أساسيين.. البترول والمجتمع المدني، فلقد أدرك أن القضايا واحدة ومترابطة.. وسعر عادل لبرميل النفط يساهم في تحقيق التنمية.. ووجود مجتمع مدني قوي يدعم نجاح التنمية.

بالنسبة للقضية الأولى، فإن السعر العادل للبرميل يجب أن يتعدى عشرين دولاراً، ويحتاج الأمر لخطة تحرك فعالة.. وبفضل ديناميكية شخصيته وتحركاته السريعة، قام «شافيز» بزيارات متعددة للمملكة العربية السعودية وليبيا والجزائر ونيجيريا وإندونيسيا والكويت والعراق والمكسيك والنرويج وروسيا.. داعياً إلى إعادة التضامن على مستوى منظمة أوبك وعلى صعيد العلاقة مع الدول المنتجة من خارج المنظمة.. ودافع بقوة عن ضرورة إيجاد سعر عادل لبرميل النفط واعتمد في خطته على تكوين ترويكا متفاهمة مع المملكة العربية السعودية والمكسيك تمثل المحرك الدافع للآخرين.

وبعد أن توصلت الترويكا لرؤية محددة فإنها طرحت إنشاء «آلية لسعر البرميل» تقوم على سعر مركزي وهو خمسة وعشرون دولاراً، وهو سعر عادل للطرف المنتج والطرف المستهلك. وهذا السعر يرتبط بمؤشر الإنتاج، فلو أن السعر ارتفع عن ذلك يقوم المنتجون أوتوماتيكياً بزيادة الإنتاج بمقدار ٥٠٠ ألف برميل.. وعلى نحو آخر، لو انخفض سعر البرميل عن اثنين وعشرين دولاراً، يقوم المنتجون بخفض الإنتاج أوتوماتيكياً بمقدار ٥٠٠ ألف برميل حتى يعود السعر لحالته الطبيعية.

في ذات الوقت «كان شافيز» يقوي من قواعد المجتمع المدني في البلاد ويبني الكوادر الضرورية لتيسيره والدفاع عنه لتتدعم أسس الديمقراطية بالمشاركة، وليتمكن من تنظيم الجهود الشعبية والفئات القاعدية لتنفيذ برنامجه السياسي للتغيير والقضاء على الفساد بواسطة الثورة من أسفل.

والفكرة من مفهوم «المجتمع المدني» أنه البوتقة التي تضم «المبادرات الذاتية والجماعية للمواطنين في إطار التنظيمات التطوعية الحرة التي تملأ المجال العام بين الأسرة والدولة ولتحقيق مصالح أفرادها ملتزمة في ذلك بقيم الاحترام والتراضي والتسامح والإدارة السليمة للتنوع والاختلاف».

وعندما أتى خريف عام ٢٠٠١ اتخذ «شافيز» عدة خطوات تنفيذية لبرنامجه عن طريق إصدار ٤٩ قانوناً جديداً، بمثابة عملية ثورية متكاملة على المستوى الدستوري تضمنت إجراء إصلاحات زراعية وإعادة هيكلة قطاع البترول وتقوية دور الدولة بالاشتراك مع المجتمع المدني في إدارة عملية التنمية.

وبدأت شخصية «شافيز» ودوره التاريخي يثيران حفيظة وضيق الإدارة الأمريكية.. وإذا كانت الثورة من أسفل قد بدأت في فنزويلا.. فإن الثورة المضادة كانت تتهيأ للانطلاق ومن خلال عملية تآمرية شديدة الإحكام.

بدأت قصة الانقلاب الأول «العسكري»



كان ميلاد منظمة أوبك بالقاهرة عام ١٩٦٠ بعد عدة اجتماعات سرية بين وزير البترول الفنزويلي ألفونسو وبين عبد الله الطريقي وزير النفط السعودي في نادي اليخت بضاحية المعادي جنوب القاهرة

Cambio Politico Y Proceso
Consitituyente
En Venézuela (1998 - 2000)

(التغير السياسي والدستوري في فنزويلا (١٩٩٨-٢٠٠٠)
برنامج الرئيس هوجو شافيز للتغيير السلمي)
تأليف: روبرت فيشيانو باستور وروبين مارتينيز
دار ألو للنشر - فالينسيا، أسبانيا سنة ٢٠٠١

الفاشل فى فنزويلا

عمرو كمال حمودة

بمقدمة استغرقت شهرين، عندما أجرى «الرئيس شافيز» تغييرات إدارية فى الصفوف الأولى لشركة «بتروليوس دى فنزويلا» وهى شركة البترول الوطنية المملوكة للدولة، عندما ازاح كبار الموظفين الذين طالبوا بضرورة إدخال استثمارات أمريكية فى الصناعة البترولية، وكانوا على تفاهم مع رئيس رابطة رجال الأعمال «بيدرو كارمونا» وله صلة صداقة وثيقة مع الرئيس الأمريكى جورج دبليو بوش.

بدأت الاحتجاجات من مجتمع رجال الأعمال تصل لمقر الرئاسة، ولم يثن ذلك الرئيس عن عزمه.. إلى أن قررت نقابة العمال الرئيسية فى فنزويلا بدعم من أصحاب الأعمال إعلان إضراب عن العمل تضامناً مع كوادر شركة «بتروليوس دى فنزويلا» مطالبين باستقالة الإدارة الجديدة التى عينها الرئيس «هوجو شافيز».

تحركت المظاهرات بفعل فاعل فى العاصمة كاراكاس وتبنت محطة تليفزيون محلية يملكها رجال أعمال بث بيانات وأخبار تحريضية ضد الحكومة.. وبدأ الاهتياج يعم الشوارع وحدثت مواجهات بين أنصار شافيز ومعارضيه أسفرت عن مقتل عشرة أشخاص وإصابة ٩٥ آخرين.. وإذا بالإدارة الأمريكية تعلن فى بكائية للمتحدث الرسمى لوزارة الخارجية عن دكتاتورية «شافيز» وتحطيمه للديمقراطية فى البلاد وشاركهم فى ذلك «بيدرو كارمونا» رئيس رابطة رجال الأعمال فى داخل فنزويلا..

ورغم تحالف اتحاد العمال مع رجال الأعمال فإن «الرئيس» كان ممسكاً بزمام السلطة، تدعمه جماعات المجتمع المدنى. ثم جاءت الخيانة من «الجيش».

بعض الجنرالات، اتضح فيما بعد تحالفهم الوثيق مع رابطة رجال الأعمال.. قاموا يوم ١١ أبريل بتمرد لطرد الرئيس المنتخب من الحكم.

ثم وقف الجنرال «لوكاس رينكون» القائد العام للقوات المسلحة أمام شاشات التليفزيون الحكومى ومن ورائه بعض قادة الجيش، ليعلن تخلى الرئيس عن الرئاسة بعد إجباره على الاستقالة.

بعد ذلك تم اصطحاب «شافيز» إلى قاعدة «تيونا العسكرية» بضواحى العاصمة كاراكاس حيث احتجز هناك تمهيداً لمحاكمته والنظر فى أمره.

فى نفس الوقت ذهب «بيدرو كارمونا» إلى مبنى التليفزيون ليعلن والابتسامة تعلو وجهه، سقوط الدكتاتورية! وأنه سيرأس حكومة انتقالية، وأنه «يتحمل المسئولية أمام هذا البلد وأمام التاريخ».

وبعد ذلك أصدر عدة قرارات فورية:

* إيقاف العمل بالقوانين التى أصدرها «شافيز».
* إقالة رئيس البرلمان ورئيس المحكمة الدستورية العليا.
* إقالة المدعى العام ورئيس ديوان المحاسبات.
* طرد مجلس الإدارة الذى عينه شافيز لشركة بتروليوس دى فنزويلا.

وفى يوم ١٢ أبريل تحدث إلى الصحفيين الرئيس الجديد لقطاع التسويق فى شركة «بتروليوس دى فنزويلا» قائلاً بالحرف الواحد.. «إن الشركة ستتبع سياسة تصديرية جديدة وفقاً لاحتياجات السوق وليس وفقاً لحصة فنزويلا فى منظمة أوبك».. وقد أفزع هذا التصريح كافة منتجى النفط لأن من شأنه إشعال حرب أسعار بترولية وإغراق الأسواق بالبترول والعودة للمربع رقم واحد الكئيب الذى كانت عليه حالة السوق البترولية عام ١٩٩٨ عشية وصول «شافيز» إلى مقعد الرئاسة.

حلف «بيدرو كارمونا» اليمين الدستورية كرئيس للحكومة الانقلابية يوم ١٢ أبريل وسط انتقادات دولية واتهامات بأن النظام الفنزويلى الجديد غير شرعى.

وبدأت أول أزمة حقيقية عندما أصر المدعى العام «إسياس رودريجيز» على أن الرئيس المخلوع كان ضحية انقلاب عسكرى وأنه لا يزال الرئيس الشرعى باعتبار أن الدستور ينص على قبول «البرلمان» لاستقالة الرئيس.. وهو ما لم يحدث.

وعلى الصعيد الخارجى قام رؤساء «مجموعة ريو» التى تضم تسع عشرة دولة فى أمريكا اللاتينية والمجتمعون بكوستاريكا، بإدانة الانقلاب الذى أطاح بالرئيس المنتخب، ورفضت المجموعة فى بيانها المشترك الاعتراف بحكومة كارمونا ووصفوها بأنها غير شرعية.

وبينما جلس «شافيز» فى قاعدة «فورتيونا» العسكرية وحيداً يفكر فى مصيره.. وقد أصابه الذهول مما حدث.. كان «المجتمع المدنى» يتحرك فى شبه سيمفونية كاملة أذهلت العالم أجمع لتعيد الشرعية للبلاد خلال ٢٤ ساعة فقط.

وكان سلاح الجماهير.. «التليفون المحمول».

والغريب أن فنزويلا تتمتع بأكبر نسبة تستخدم الهاتف المحمول لكل نسمة على مستوى العالم! وعن طريق الاتصال بين الشبكات المدنية انتظمت حركة الجماهير من جمعيات وروابط ومنظمات أهلية ومجموعات شعبية.. وتدفق الأنصار من هنا وهناك إلى أماكن تم تحديدها بعناية.

فإلى قاعدة «فورتيونا العسكرية» حاصر الألاف محبس «شافيز» منددين بالانقلاب.. وأدى ذلك إلى انسحاب قطاعات معينة من الجيش من مساندة حكومة «كارمونا» وخاصة قوات المظليين الذين أتى منهم شافيز ويعرفون معدنه جيداً.

كما حاصر الألاف قصر رئاسة الجمهورية «ميرا فلورس» ليمنعوا وصول نائب الرئيس إليه..

واشتبك الفقراء فى أحياء كاراكاس الفقيرة مع قوات الشرطة فسقط عشرة من القتلى وأصيب ما يقرب من أربعين شخصاً.

تراجع الانقلابيون أمام سطوة الجماهير المنظمة.. وأعلنت أقسام من الجيش رفضها لحكومة كارمونا.. وذهب الجنرال رنكون قائد الجيش إلى محبس شافيز وأطلق سراحه ثم اصطحبه إلى قصر «ميرا فلورس» لأن شبح الحرب الأهلية غطى البلاد.

تولت قوات الحرس الجمهورى القبض على قادة الانقلاب الفاشل، ورفض شافيز إيداعهم السجن ولكن تحفظ عليهم فى منازلهم. وأعلن فى حديثه التليفزيونى للشعب.. «يتعين على المعارضة أن تدرك بوعى أن السلطة تأتى بإرادة الشعب وليس بواسطة الانقلاب العسكرى».

ولم تتمكن السيدة «كونداليزا رايس» مستشارة بوش للأمن القومى من كبح جماح سخطها لفشل الانقلاب، فوجهت تحذيرات علنية للرئيس شافيز، والذى أصبحت واشنطن تعتبره العدو الإقليمى الثانى لها بعد الزعيم الكوبى فيدل كاسترو.. وأشارت «رايس» إلى سياسة شافيز غير المهادنة إزاء مساعى واشنطن للسيطرة على قطاع النفط فى بلاده.

عاد «الرئيس المنتخب» إلى الحكم.. واتخذ قرارين.

الأول: إقالة مجلس الإدارة الجديد الذى عينته الحكومة الانقلابية لإدارة شركة «بتروليوس دى فنزويلا».

والثانى: بدء التحقيقات فى ظروف ووقائع الانقلاب.

ومع مضى عشرة أيام من رجوعه للسلطة أجرت معه قناة الجزيرة التليفزيونية مقابلة مطولة يوم ٢٤ أبريل أفصح فيها «شافيز» عن وجود تدخل خارجى فى الانقلاب فى إشارة لدور الولايات المتحدة الأمريكية.

كما تحدث «شافيز» عن أجندة الانقلاب التى وجدوها، حيث كان القرار الأول: خروج وانسحاب فنزويلا من منظمة أوبك وعدم الالتزام بأى حصة إنتاجية ووقف ضخ أى نفط لكوبا.



هوجو شافيز

لقد تساءل الصحفيان روبرتو باستور وروبن مارتينيز فى آخر صفحة من كتابهما الصادر عام ٢٠٠١ عن مصير تجربة «شافيز» وهل سيتمكن الرئيس من المحافظة على ثقة الطبقات الشعبية والمجتمع المدنى؟

لم يتأخر الرد كثيراً.. لقد وقفت الجماهير المنظمة فى شبكة فعالة من الأنساق وراء الرئيس المنتخب وأعادته للسلطة عندما أحست مدى الفزع الذى أثاره لدى «الأعداء» بمواقفه الصادقة المخلصة وبجهده الفائق المضنى لتحسين الاقتصاد الفنزويلى.. فهو الذى ساهم فى رفع سعر النفط من ثمانية دولارات عام ١٩٩٨ إلى ٢٥ دولارًا عام ٢٠٠٢، وهو الذى شدد على دعم الفئات القاعدية فى المجتمع لتدير شئونها بمبادراتها الذاتية والجماعية.. فهى صاحبة رأس المال الاجتماعى وعلى الدولة فقط أن تحافظ عليه ولا تعبث به.

أما الولايات المتحدة الأمريكية، فلم تكتشف التغيرات التى جرت فى العالم.. وأن تجربة الإطاحة برئيس الوزراء الإيرانى مصدق عندما أمم النفط.. غير قابلة للتكرار لأن فنزويلا أصبحت تملك مجتمعاً مدنياً قوياً.. وأنها ليست بالتأكيد إحدى جمهوريات الموز!

عروض موجزة

كتب عربية

مستقبل الديمقراطية فى الجزائر

عدد من الباحثين

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية ٢٠٠٢، ٣٢٤ صفحة



تأتى هذه الدراسة ضمن مشروع أشمل لدراسة الديمقراطية فى الوطن العربى، تأكيدًا على أنها ـ الديمقراطية ـ هى المدخل الصحيح للخروج من مأزق الصراعات التى تعوق مسيرة التقدم فى الوطن العربى، والسبيل إلى تأسيس نظام حكم يرتضيه الجميع ويشكل قاعدة للممارسة السياسية والانتقال السلمى للسلطة.

والدراسة فى سعيها لاستشراف مستقبل الديمقراطية فى الجزائر، بدأت بمعالجة تاريخ التجربة السياسية الجزائرية وتحليل البنى السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية وانعكاساتها على عملية التحول الديمقراطى، وقد لاحظت الدراسة أن الشعب الجزائرى لايزال متمسكًا بتجسيد أهداف ثورة نوفمبر ١٩٥٤ التى سعت إلى التحرير السياسى والاقتصادى وتحقيق التنمية الشاملة وتلبية الحاجات الأساسية للشعب، وتحقيق الوحدة الوطنية ومناصرة قضايا التحرر الوطنى، وإقامة دولة ديمقراطية فى إطار المبادئ الإسلامية، ثم تحقيق العدل والمساواة وسيادة القانون.

وتؤكد الدراسة على أن نجاح التحول الديمقراطى فى الجزائر يقتضى توافر عدة شروط: فهم عميق للأبعاد الاجتماعية وليبرالية متفهمة للعصرنة واعتزاز بمقومات الشخصية الجزائرية وخصوصيتها الحضارية وقابلية للعالمية، وجميع هذه الشروط دعمته وأكدت عليه حركات وأحزاب أسهمت كلها فى مرحلة الكفاح ضد الاستعمار وقدمت تضحيات هائلة مهدت الطريق نحو التحرير والاستقلال.

وتلاحظ الدراسة أن هذه التوليفة مازالت موجودة فى المجتمع الجزائرى، لكنها فى حالة تبعثر، ولم شتاتها بما تمثله من تراث خصب للتراكم الحضارى يعيد بناء المعالم الأساسية لمستقبل الديمقراطية فى الجزائر، وهو ما انتهت إليه ندوة الوفاق الوطنى فى سبتمبر ١٩٩٦ والتى دعت إلى احترام مكونات الهوية الوطنية (الإسلام ـ العروبة ـ الأمازيجية) ورفض وإدانة اللجوء إلى العنف للوصول إلى السلطة أو الاحتفاظ بها، واحترام قوانين الجمهورية، واحترام الحريات الفردية والجماعية، واحترام الاختيار الحر للشعب وقبول مبدأ تداول السلطة.

□ □ □

شرفات بحر الشمال

واسينى الأعرج

بيروت: دار الآداب، ٢٠٠٢، ٣٢٠ صفحة



لا يمكن التمييز بحسم بين الواقعى والمتخيل فى نسيج الرواية التى تحكى فترة مريرة ودامية من حياة الجزائر، حين يقرر الراوى ـ أو المؤلف لا فرق ـ أن يترك المدينة التى عاش فيها عمره أو أضاعه، بعد ما صارت تحاصره بالموت والنكران والجحود، إلى مدينة أخرى «لوس أنجلوس»، يجرب سماء غير السماء وناسًا غير الذين ألفهم وحكايات غير التى سمع.. «الأرض التى عرفتها منذ سنوات تغيرت كثيرًا وسقطت تربتها من يدى كورقة محروقة، أجرب الآن هذه السماء ربما كانت أكثر دفئًا، لقد نسيت ـ أو كدت ـ بأن هناك سماء يمكن أن ندفن فيها بعضًا من الأشواق التى نخاف عليها من العطب».

اللغة الشاعرية لا تغيب أبدًا عن صفحات الرواية، ومنذ أن تقلع الطائرة بالراوى فى اتجاه حياته الجديدة تعاوده الذكريات حانية وثقيلة الوطأة فى آن معًا، يستدعى ياسين «فتنة»، وهى كيان يترنح بين الأسطورة والواقع، بين الرمز ودلالاته، ما يجعلها تعبيرًا صادقًا عن الجزائر الوطن المثخن بجراحه وإراقة دماء أبنائه بدعاوى الأصولية والقبلية ونزعات استبدادية وتسلطية موازية.

وفى أمستردام التى كانت معبره إلى أمريكا تتخلق شخوص وتتداعى ذكريات وتتبعثر مصائر، وجميع من يرد ذكره تنتهى حياته بين منتحر «ميمون» وميت كمدًا مثل زليخة ونوارة، أو غائبة فى متاهة أسطورية لا يعرف إن كانت ماتت أو تلاشت فى غياهب الضياع. وكما هو واضح فإن هذا هو المصير ذاته الذى يرى فيه الراوى مصير وطنه وشعبه.. «الجزائر، هو الكائن الأرضى الوحيد الذى يتمنى لو تظل الشمس معلقة فى مكانها طوال السنة وأن لا تغيب أبدًا حتى لا يضطر كل مساء إلى أن يتحول إلى جرذ يبحث له عن أكثر المآوى أمنًا (..) صرنا نكتفى بالأفراح الصغيرة لمواجهة الأوجاع التى تحرقنا من الداخل كالحطب اليابس».

ترى ما الذى رآه الراوى حين أطل على وطنه من شرفات بحر الشمال؟ أوجاعًا وأسى وأحلامًا مجهضة ومسرات صغيرة تعشش فى الذاكرة سرعان ما تتلاشى تحت وطأة واقع قائم.

□ □ □

إغاثة الأمة بكشف الغمة

تقى الدين أحمد بن على المقريزى

القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٩٠ صفحة



ما رمى إليه المقريزى من حصره المجاعات التى شهدتها مصر منذ عصورها الفرعونية وحتى عام تأليفه لكتابه (٨٠٨هـ)، هو التذكير بأن هذه الحوادث التى شهدها عصره كان لها ما يشابهها وربما ما هو أقسى منها فى أزمنة مضت، بما يعنى أن على الناس المقاومة والصبر واحتمال المكاره إلى أن تنقشع الغمة، أو بحسب قوله: «لا يزال الحاضر منقوصًا حقه مجحودًا قدره، لأن القليل من شره يرى كثيرًا، إذ القليل من المشاهدة أرسخ من الكثير من الخبر، وإذ مقاساة اليسير من الشدة أشق على النفس من تذكر الكثير مما سلف منها».

وهو يبدأ بأول غلاء شهدته مصر فى زمن الملك السابع عشر من ملوك مصر قبل الطوفان، ويعدد بعضًا من حوادث القحط والمجاعات، وسنلاحظ أن المقريزى يسميها «غلوات» جمع «غلاء»، وإن كان الجمع على هذا النحو ليس صحيحًا، لكنه يشير إلى ما قصد إليه المقريزى، واعتباره ما يحل بالناس من كرب وقلة غذاء «غلاء» وليس «مجاعة»، وفى هذا إشارة إلى أن البعد الاجتماعى والسلوكى لا يغيب عن تحليله للنوائب، فهو وإن أشار إلى ندرة الأمطار أو هطولها الغزير الذى يغرق الزرع والحرث باعتبارها مسببات أساسية، فإنه لا يغفل فساد الحكم وشيوع الرشوة والنفاق واحتكار التجار للسلع وتخزينها ليزيدوا سعرها وحجب الكثير منها عن الناس بل وابتعاد الناس عن الأخذ بالأسباب وافتقارهم إلى جوهر الإيمان والتسليم، باعتبار أن هذه كلها أسباب رئيسية للـ«غلوات» كما يسميها.

فهو فى تحليله لأسباب المجاعة التى حلت بمصر فى أوائل عهد الفاطميين (٣٥٨هـ)، يشير إلى الإجراءات التى اتخذها القائد جوهر الصقلى.. «كان مما نظر فيه أمر الأسعار، فضرب جماعة من الطحانين، وجمع سماسرة الغلات فى مكان واحد، ولم يجعل لمكان البيع غير طريقة واحدة.

وفى أيام الحاكم بأمر الله وقعت مجاعة مشابهة.. «وكظ الناس بالجوع فاجتمعوا بين القصرين واستغاثوا بالحاكم فى أن ينظر لهم وسألوه أن لا يهمل أمرهم، فركب حماره وخرج من باب البحر ووقف وقال: أنا ماض إلى جامع راشدة، فأقسم بالله لئن عدت فوجدت فى الطريق موضعًا يطؤه حماره مكشوفًا من الغلة لأضرب رقبة كل من يقال لى إن عنده شيئًا منها ولأحرقن داره وأنهبن ماله، فلما عاد الحاكم بأمر الله كانت الغلة فرشت الطريق، «فانحل السعر وارتفع الضرر».

وقد اتخذ عديد من الأمراء والسلاطين إجراءات مشابهة، منها أن يلتزم السلطان وأمراء المقاطعات وكبار التجار بإطعام المحتاجين من مخزونهم، أو تعيين محتسبين لضبط الأسواق ومنع الاحتكار، أو أن يوكل إلى الجهابذة أى «الصيارفة» ضبط العملات وتحسين قدراتها الشرائية.. إلخ.

وفى أحيان أخرى استخدم السلطان الحيلة لمقاومة «الغلوات»، منها ما فعله «المستنصر» فى واحدة من أشد وأقسى المجاعات التى مرت بمصر والتى عرفت بالشدة المستنصرية. حين جمع بعضًا من المسجونين المحكوم عليهم بالإعدام وألبسهم هيئة التجار وجمعهم فى مجلس عظيم وسألهم عن سوء أفعالهم وأصدر عليهم أحكامًا سريعة بالقتل فارتدع التجار الحقيقيين وهرعوا جميعًا إلى مخازنهم وأخرجوا ما فيها وعمرت الأسواق بالخبز وخفضت الأسعار على الناس وزالت الشدة.

والحكايات التى يرويها المقريزى عن معاناة الناس فى سنوات القحط متشابهة وإن كانت بالغة الضراوة والقسوة، ففى كل «الغلوات» أكل الناس القطط والكلاب، بل أكلوا لحوم بعضهم، والأدهش ـ والأقسى ـ أن يأكل الناس صغارهم! وكان ذلك فى عام (٥٩٦هـ) فى عهد السلطان العادل أبى بكر بن أيوب، حيث كان الناس يتساقطون من الجوع، وانتشرت الأمراض والأوبئة، وساد الظلم والاجتراء على حدود الله. وكما أشرنا فى البداية، فإن المقريزى مال إلى التحليل الاجتماعى لما جرى ولم يكتف برد الأمر كله إلى ظواهر الطبيعة، فتحدث عن ولاية الأعمال بالرشوة والفساد.. «فتخطى لأجل ذلك كل جاهل ومفسد وظالم وباغ إلى مالم يكن يؤمله من الأعمال الجليلة والولايات العظيمة لتوصله بأحد حواشى السلطان»، كما أشار إلى الزيادات المطردة فى قيمة الضرائب والمتحصلات المفروضة على المزارعين والتى أرهقتهم ورفعت أسعار المحاصيل.

عروض موجزة

والكشف المهم الذى يشير إليه المقريزى هو أن مجىء الفاطميين إلى مصر كان طلبًا واستجداء من المصريين الذين أرهقتهم مجاعات متتالية جرت فى زمن الإخشيديين، وكما نرى فبعض ما يجرى - أو جله - من شرور أنفسنا.

□ □ □

التحالف الأسود، وكالة الاستخبارات المركزية والمخدرات والصحافة

ألكسندر كوكبرن - جيفرى سانت كلير
ترجمة: أحمد محمود
لندن ونيويورك: دار نشر فيرسو



يقول المؤلفان ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير عن هذا الكتاب: «هذه إلى حد كبير قصة سلوك إجرامى، هو فى جزء كبير منه من فعل وكالة الاستخبارات المركزية CIA. إنها قصة عدد ممن تواطأوا فى الصحافة الأمريكية فى تغطية آثار الوكالة. وعندما يجبر هؤلاء الصحفيون على الرضوخ لأنشطة الوكالة الإجرامية، فإنهم كثيرًا ما يلجئون إلى فكرة «العملاء المارقين»، أو على الأقل إلى «الوكالة المارقة» كملاذ أخير. ونحن لا نقبل هذا الفصل بين أنشطة وكالة الاستخبارات المركزية وسياسات الحكومة الأمريكية وقراراتها. وسواء أكان تدخل ترومان فى الصين - الذى أوجد ملوك الأفيون البورميين - أو فكرة قتل كاسترو التى تسلطت على الإخوة كنيدى، أو أوامر نيكسون بـ «مزيد من الاغتيالات» فى فيتنام، فقد كانت وكالة الاستخبارات المركزية على الدوام المُنَفِّذ المطيع لإرادة الحكومة الأمريكية التى تبدأ بالبيت الأبيض».

ويتناول الكتاب تاريخ التحالف الذى يجمع بين وكالة الاستخبارات المركزية وتجارة المخدرات والصحافة؛ حيث تكرر نمط استغلال الوكالة لأرباح المخدرات لدعم الجماعات المناهضة للسلطات الحاكمة، وذلك باستخدام أموال المخدرات لشراء الأسلحة وشراء ذمم الكثيرين، ثم تأتى الصحافة وتكذب ذلك. وفى حالات عديدة كانت الوكالة تحمى تجار المخدرات، بل وتدعمهم بأساطيل من الطائرات التى تقدمها لهم لنقل المخدرات والسلاح. وبلغ الأمر حد السكوت عن تهريب المخدرات إلى داخل الولايات المتحدة نفسها والتغاضى عن أثرها المدمر على الشباب الأمريكى، إرضاء لتجار المخدرات الذين كانوا يتولون نقل السلاح من أمريكا إلى نيكاراجوا، لتعود طائراتهم محملة بالكوكايين والماريجوانا. وإذا سقط أى من هؤلاء فى أيدى جهة أخرى من جهات تنفيذ القانون فى أمريكا أو خارجها، كذلك الوكالة تتدخل على الفور لتحول دون التحقيق معه وإدانته، بحجة أن التحقيق معه يعرِّض أمن الولايات المتحدة القومى للخطر، بينما هى تخشى فى الواقع فضح ممارساتها غير المشروعة داخل الولايات المتحدة وخارجها.

وكانت الوكالة فى كل مرة تنكر الاتهامات الموجهة إليها من خلال الصحافة الموالية لها طبعًا - حيث تدعى الصحف أن تلك اتهامات «لا أساس لها» أو «مبالغ فيها» أو «غير مؤكدة» أو «حكايات قديمة». ثم تعود بعد فترة - ولكن بنبرة خفيضة تكاد لا تُسمع - لتعترف بما قيل. حدث ذلك فى تجنيدها للعلماء النازيين، وإجراء التجارب على المواطنين الأمريكيين السود، والسعى لاغتيال كاسترو، والتحالف مع أمراء الأفيون فى بورما وتايلاند ولاوس ومؤامرات أخرى كثيرة.

ويقع الكتاب فيما يزيد على خمسمائة صفحة ويضم خمسة عشر فصلاً من بين عناوينها «تاريخ البارانويا السوداء» و«مشبك الورق: العلوم النازية تتجه غربًا» و«كلاوس باربى وانقلاب الكوكايين» و«حرب الأفيون الأمريكية: الصين وبورما ووكالة الاستخبارات المركزية» و«جيوش ومدمنون: فيتنام ولاوس» و«الحياة الخفية للتجارة الحرة: المكسيك» و«كشف المستور».

وسبق للمترجم أحمد محمود أن قدم للقارئ العربى ترجمات منها «طريق الحرير» و«عالم ماك» و«صناعة الثقافة السوداء» و«تشريح حضارة» - وجميعها ضمن المشروع القومى للترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة - و«الناس فى صعيد مصر» عن دار عين.

□ □ □

آفاق فى الإبداع الفنى

أحمد عكاشة
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١، ٢٦٧صفحة



يبحث الكتاب فى المنطقة الملتبسة بين العبقرية والجنون، بين الإبداع والمرض النفسى الذى قد يصل إلى حد الشذوذ.

وللعبقرية كما يصفها المؤلف معدلان: الذكاء والقدرة على تغيير المجتمع، والشخص العبقرى هو الذى يتجاوز ذكاؤه ١٤٠ نقطة بحسب التصنيفات العلمية التى تشير إلى أن معدل الذكاء فى المتوسط لدى الأشخاص العاديين يتراوح بين ٩٠ و ١١٠ درجات، وفى كل الشعوب - حسب الإحصاءات العلمية - فإن ١٪ فقط من الشعب يتجاوز ذكاؤه ١٤٠ درجة، والعبقرى فى اتجاه ما هو الشخص الذى يقدم للإنسانية انتصارًا لم تحرز مثله الغالبية العظمى من أبناء المجتمع.

وفيما يتصل بالفن، فإن ثمة رأيين فى تكوين العبقرى: إما أنه شخص ملهم بقوى غيبية مجهولة، أو أنه شخص غير طبيعى أو مجنون.

وحسب دراسة أجريت على ٣٠١ من عباقرة الإنسانية من بينهم بيرون وجوته وداروين وآخرون، اكتشف «كوكسى» أن أكثر العباقرة ذكاء هم الفلاسفة إذ يبلغ متوسط ذكائهم ١٧٠ درجة، يليهم الأدباء والشعراء والساسة ١٦٠، يليهم العلماء والموسيقيون والمصورون والنحاتون. ولاحظ الباحث أن الاضطرابات النفسية برغم أنها لم تكن غالبة فى طفولة هؤلاء العباقرة، إلا أنها كانت بشكل عام أعلى نسبة بين رجال الفن والمصلحين الاجتماعيين وأقل نسبة فى العلماء، ولاحظ الباحث أيضًا ترابطًا بين بعض أنواع الصرع والعبقرية، وكثير من عباقرة التاريخ من أمثال الموسيقار هاندل ونابليون وتشايكوفسكى وموليير وتشارلز ديكنز وابن سينا وديستوفيسكى والإسكندر ويوليوس قيصر وبايرون عانوا من الصرع بدرجات متفاوتة، كما أن كثيرًا من الموسيقيين عانوا من الاكتئاب والأمراض النفسية وانعزلوا عن المجتمع مثل بيتهوفن وبرامز وشوبان وهايدن وشوبير. وقد أهدى رحما ننيوف طبيبه النفسى الكونشيرتو الرابع للبيانو اعترافًا منه بفضله عليه وعلاجه من الاكتئاب، كما أصيب المؤلف الأوبرالى روسين باكتئاب حاد بعد تلحينه ٣٦ أوبرا، وتوقف ٢٧ سنة عن العمل بعد أن فقد أمه وثروته، وكان فاجنر سيكوباتيًا بامتياز، وقد لاحظ الكثير من الأطباء النفسيين الذين درسوا حياته أنه كان شخصية هستيرية نرجسية عاشقًا لذاته، يميل إلى السمات ضد الاجتماعية، ووصف بأنه شخص أنانى قاس عديم التهذيب يفتقر إلى المشاعر الإنسانية والتعاطف مع الآخرين.

ويقرر المؤلف أن كثيرًا من علماء الموسيقى الذين عاشوا فى القرن التاسع عشر أصيبوا بزهرى الجهاز العصبى الذى كان منتشرًا دون أن تعرف أسبابه وطرق علاجه آنذاك، وهو مرض يصيب المخ وبعض أجزاء من الجهاز العصبى وتظهر أعراضه بعد عشر سنوات أو أكثر من الإصابة الأولى التى تحدث مباشرة بعد العلاقة الجنسية.

ويقدم المؤلف دراسة تحليلية ونقدية لكتاب فرويد عن ليوناردو دافنشى، وكان هذا الكتاب هو أول محاولة يطبق فيها فرويد نظرياته فى التحليل النفسى على شخصية من المشاهير، وقد ركز فيها على ذكريات ليوناردو المبكرة ليقرن إنجازه الفنى والعلمى بالتحليلات الجنسية التى قامت عليها نظريته فى التحليل النفسى، وهى نظرية لاقت اعتراضًا ونقدًا شديدًا من جانب كثير من النقاد الفنيين والمحللين النفسيين.

ويقدم المؤلف دراسة نقدية أخرى عن فان جوخ بوصفه صورة معبرة عن «المناخوليا» أو المزاج السوداوى.

العلاقة بين العبقرية والجنون أو المرض النفسى ليست سوى جزء من الأفكار المهمة التى يثيرها الكتاب، ومنها التشريح النفسى للشخصية المصرية والعلاج بالموسيقى والأدب والطب النفسى ومخ الإنسان ذلك المجهول، ثم موضوعات ذات صلة وثيقة بالمجتمع المصرى وتنميته مثل كيفية علاج ظاهرة التطرف والآثار النفسية والاجتماعية لتدهور البيئة الحضرية والريفية، والنظام التعليمى المصرى وأثره على الصحة النفسية للمرأة، ثم الإيمان والصحة النفسية على عتبة قرن جديد.

□ □ □

سنوات مع الملك فاروق

حسين حسنى
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١، ٣٨٢ صفحة



التحق صاحب هذه المذكرات بخدمة القصر الملكى منذ عام ١٩٣٠، وظل منذ هذا التاريخ قريبًا من فاروق والأسرة المالكة، وسعى منذ البداية إلى أن يغرس فيه - أى فاروق - مبادئ الحزب الوطنى التى كان يؤمن بها ويدين لزعمائه ورموزه بالولاء التام، وكان فاروق - حسبما تشير المذكرات - مستجيبًا لتلك المبادئ التى دفعته إليها فطرته السليمة لولا بطانة السوء التى أحاطت بالملك الشاب منذ البداية، والتى بدأت بأحمد حسنين رائد الملك، ثم رئيس الديوان الملكى فيما بعد، وكريم ثابت مستشاره الصحفى وعلى ماهر، وقد كان لكل منهم دور فى إفساد الملك وإقامة الحواجز بينه وبين كل من يمكن أن يسدى إليه نصحًا أو يرشده إلى ما فيه الخير له ولشعبه.

عــــروض
مـــوجـــزة

ويسهب المؤلف فى شرح الدور الفاسد الذى لعبه كل منهم لإفساد الملك وجرِّه إلى طريق الانحراف، وخصوصًا أحمد حسنين صنيعة الإنجليز ورجلهم فى مصر. فقد درس فى إنجلترا وتطوع فى الجيش الإنجليزى فى الحرب العالمية الأولى وحين عاد من بعثته الدراسية فى أكسفورد عمل سكرتيرًا خاصًا للجنرال ماكسويل قائد جيش الاحتلال.

كان أحمد حسنين طموحًا، وعرف منذ البداية أن تحقيق طموحاته لن يتحقق إلا بالاقتراب من القصر الملكى والارتباط به بأواصر النسب. وبالفعل تزوج من لطيفة هانم كريمة الأميرة شويكار الزوجة الأولى للملك فؤاد. وبعد وفاة الملك فؤاد أيقن حسنين أن الطريق إلى ملك مصر القادم (فاروق) يبدأ من أمه (الملكة نازلى) التى كان يبجلها ويسعى دومًا لنيل رضاها. فنصب شباكه حولها، وكانت الفريسة مستعدة تمامًا للوقوع فى شبكة الصياد، بعد سنوات عاشتها سجينة الملك فؤاد الذى كان يكبرها بأكثر من عشرين عامًا، وكان يغار عليها بشدة، فلم يسمح لها بالخروج أو زيارة أحد، أو حتى استقبال أحد دون إذنه، ونشر حولها البصاصين والجواسيس فى كل ركن، وما أن مات حتى انطلقت خارج سجنها تعب من متع الحياة، وتعوض ما فاتها.

وحكاية أحمد حسنين ونازلى تحتل حيزًا مهمًا من الكتاب، ليس فقط لأنها مثيرة وينبغى أن تروى، وإنما لأثرها بالغ السوء على الملك الشاب الذى كما كانت أمه ضحية غيرة زوجها وطيشه، كان هو أيضًا ضحية طيشها وطموح رئيس ديوانه وعدم أمانته، وهى العلاقة التى يرى صاحب المذكرات أنها قوضت إلى حد كبير المثل العليا ومبادئ الأخلاق القويمة التى كانت تمثلها أمه ورائده، فخاب ظنه وضاع أمله.. «ومن ثم ليس بمستبعد أن تكون قد انهارت فى نفسه - على أثر توالى الصدمات - أركان نوازع الخير ونوايا الإصلاح التى كان يعتز ويؤمن بها إيمانًا عميقًا».

وبعيدًا عن حكاية حسنين ونازلى فإن صاحب المذكرات الذى التزم بألا يروى إلا ما كان شاهدًا عليه أو مشاركًا فى صنعه، لا يعفى زعماء الأمة مما آل إليه حال الملك وحال البلاد، بل إنه يحمل النحاس باشا ومحمد محمود باشا وحسين سرى باشا مسئولية ما جرى فى فبراير ١٩٤٢، إذ أرسلوا إلى السفير البريطانى رسائل يؤكدون فيها أن إنقاذ البلاد لن يتحقق إلا بتغيير الحكومة.

ويقول إن مصطفى النحاس باشا وجه أكبر لطمة لكرامة مصر حين قبل الوزارة على أسنة رماح الإنجليز.. «بل إنه لا يرى فى ذلك أى بأس ولا حائل دون إشاعة الابتهاج بين أنصاره والاعتزاز بما نال من فوزه بالحكم، مما دعا أعوانه المحتشدين إلى التهليل للسفير الذى داس على سيادة الوطن وحملوه على أكتافهم وهتفوا بحياته».

إدانة حزب الوفد والتنديد بمواقف زعمائه وديماجوجيتهم وإيثارهم مصالحهم الحزبية والشخصية على المصلحة العامة، سمة واضحة فى المذكرات، وهو أمر طبيعى من شخص ظل وفيًا لمبادئ الحزب الوطنى القديم وحريصًا على تمثلها، ومذكراته فى النهاية، مهما كانت حيدتها ونزاهة كاتبها، تبقى رؤية تعوزها رؤى أخرى كى يكتمل المشهد التاريخى.

□ □ □

المعلومات وتكنولوجيا الاتصال

محمود علم الدين

محمد تيمور عبدالحسيب

٢٠٠٢، ٢٠٠ صفحة



منذ البدء، قام الإعلام على ركيزتين أساسيتين هما المعلومات والاتصال. وطوال عقود تطورت سبل الحصول وتوفير المعلومات، كما تطورت من ناحية ثانية وسائل الاتصال حتى قارب تطورهما الثورة. وبتأثير ثورة الاتصالات والمعلومات صارت احتمالات التطور والتنويع فى وسائل الإعلام ومنها الصحافة لا نهائية، وهذا الكتاب يعالج فى جزءيه هذين المفهومين، فيتناول فى الجزء الأول المعلومات، ويتعرض للمفاهيم والمصطلحات الأساسية المتداولة بشأنها وكذلك نظم المعلومات ومهارتها وبنيتها التحتية وسبل تدفقها، ثم يعرض فى الوحدة الثالثة من الجزء الأول للتوثيق المعلوماتى وتطبيقاته فى المجالات الإعلامية والصحفية. ويعرض فى الوحدة الرابعة لمعنى تكنولوجيا المعلومات وهى فى أحد تعريفاتها «خليط من أجهزة الكمبيوتر ووسائل الاتصال من تزاوجهما يوجد مجتمع المعلومات».

ويتناول الجزء الثانى تكنولوجيا الاتصال فى وحدتين، فتعرض الوحدة الأولى منه للمرتكزات الأساسية لتكنولوجيا الاتصال ومنها الميكروويف والأقمار الصناعية وأشعة الليزر والألياف البصرية (الضوئية) والحاسبات الالكترونية والاتصالات السلكية واللاسلكية. ثم تعرض الوحدة الثانية لمجالات تكنولوجيا الاتصال فى الإذاعة والتليفزيون والتليفون.

□ □ □

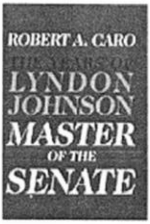
كتب أجنبية

Master of the Senate: The Years of Lyndon Johnson

(سيد مجلس الشيوخ: سنوات ليندون جونسون)

Robert A. Caro

KnopF, 1167PP, $ 35, 2002



لا يتذكر العرب سنوات ليندون جونسون فى رئاسة الولايات المتحدة إلا وهى مرتبطة بهزيمة يونيو ١٩٦٧ وبالانحياز الكامل لإسرائيل. وهذا الكتاب هو الجزء الثالث من دراسة ضخمة قام بها المؤرخ روبرت كارو وتتبع فيها حياة ليندون جونسون مما جعله يقضى سنوات طويلة للغاية فى إخراج هذا العمل الذى أشاد به النقاد والسياسيون والمؤرخون على السواء. لقد أصدر كارو الجزء الأول من الكتاب عن سيرة حياة جونسون عام ١٩٨٢، ثم نشر الجزء الثانى عام ١٩٩٠ ثم جاء هذا الجزء الذى خصصه فقط لسنوات جونسون فى مجلس الشيوخ التى بلغت ١٣ عامًا.

ويقول المؤلف إن جونسون لم يكن يتمتع بالنبل أو الصدق، فقد دخل مجلس الشيوخ للمرة الأولى عام ١٩٤٨ بتزوير واسع النطاق للأصوات وخداع وشراء للأصوات، أى أسوأ ما فى العملية الانتخابية على الإطلاق، ثم ظل بعد ذلك يدافع عن مصالح رجال البترول فى تكساس الذين يمثلهم واستخدم أحط الوسائل للإطاحة برئيس اللجنة الفيدرالية للطاقة لبلاند أولدز، وهى الوسائل التى استخدمها بعد ذلك السيناتور جوزيف مكارثى لتشويه سمعة رجال شرفاء باتهامهم أنهم خونة وشيوعيون. وقد تمكن جونسون بعد ٤ سنوات فقط من وجوده فى مجلس الشيوخ من رئاسة إحدى اللجان، فمارس سلطات واسعة النطاق واستطاع أن يخدم من خلال الرجال الكبار الذين ساعدوا فى وصوله إلى مجلس الشيوخ. ويفضح المؤلف أفعال جونسون خلال تلك الفترة مدعمًا كل ما يقول بالوثائق والمعلومات التى أجهد نفسه أشد الإجهاد لكى يحصل عليها.

ومن المفارقة الكبيرة أن جونسون الذى أصبح الرئيس السادس والثلاثين ارتبط اسمه داخليًا بإنجازات كثيرة خاصة على صعيد إنهاء التمييز العنصرى ربما لم يكن هو يحلم بها. ويمكن مقارنة طموحه لإحداث هذا التغيير بنفس طموح الرئيس الأمريكى الراحل فرانكلين روزفلت عندما قدم للأمريكيين ما عُرف باسم الصفقة الجديدة.

إن الكتاب الذى يزيد على ١١٦٧ صفحة يمثل كما وصفه جوردون براون وزير الخزانة البريطانى إنجازًا غير مسبوق فى كتابة سير الزعماء، وقد بذل فيه المؤلف جهدًا هائلاً بحيث يمكن القول حسب بعض النقاد إنه أعاد اكتشاف جونسون من جديد من جميع الوجوه سواء الإيجابية أو السلبية.

□ □ □

Treason by the Book

(خيانة بالكتاب)

Jonathan Spence

London, Penguin, 2002, 314PP., £7.99



بعد الظهر بقليل فى يوم ٢٨ أكتوبر ١٧٢٨ فى مدينة كشيان بإقليم شمال غرب الصين قدم شخص ما رسالة إلى الجنرال «يو زون جوبى» أعلى مسئول فى ذلك الإقليم. لقد كانت الرسالة دعوة للخيانة تتمثل فى مناشدة للجنرال أن يقود تمردًا ضد الإمبراطور يونج زينج رئيس سلالة كوينج الحاكمة. وكان الجنرال «يو» يعلم أن مجرد تسلمه الرسالة يعنى بالنسبة له على أقل تقدير إمكانية نفيه إن لم يكن قتله لو وصلت أنباء تسلمه الرسالة إلى الإمبراطور أو أى من رجال القصر.

وقد قرر الجنرال ماذا ينبغى أن يفعله. إن ما فعله الجنرال ورد فعل الإمبراطور والبحث عن واضع تلك الرسالة شغل الصين وإمبراطورها آنذاك لمدة ٧ سنوات.

وخلال كتابه يقوم المؤرخ الصينى جوناثان سبنس بتتبع كل صغيرة وكبيرة فى هذه الواقعة المثيرة والتى كانت من أكبر الأحداث فى الصين فى ذلك الوقت. وقد قدم المؤلف كتابه بشكل أدبى تاريخى جيد بحيث يجد القارئ نفسه أمام قصة شيقة أجاد المؤلف عرضها واستخدم كل قدراته فى تقديمها معتمدًا على وثائق سرية باعتباره متخصصًا فى تاريخ الصين فى القرن التاسع عشر.

عــــروض مـــوجـــزة

ويمثل الكتاب واجهة جديدة للعالم عن الصين ذلك البلد «القارة» المجهول حتى الآن لكثيرين حتى بين المثقفين والمهتمين بشئون العالم.

□ □ □

Stupid White Men

(رجال بيض أغبياء)

Michael Moore

Regan Books, 2002, 297PP., £18.99



احتل هذا الكتاب لأسابيع عديدة قائمة أعلى المبيعات للكتب فى الولايات المتحدة، ولم يكن المؤلف يتوقع ذلك على الإطلاق، فقد كتب مجموعة من المقالات ثم جمعها فى كتاب يتحدث عن الرئيس الأمريكى جورج بوش الذى يرى فيه المؤلف مايكل مور سارقًا بدرجة رئيس، فهو الرجل الذى سرق البيت الأبيض من آل جور البرىء. ويكتب مور مخاطبًا الرئيس الأمريكى: عزيزى جورج.. هل أنت قادر على أن تقرأ أو تكتب كما يفعل البالغون.. هل أنت مدمن؟

ولا يكتفى المؤلف وهو أيضًا مقدم لبرنامج وثائقى شهير فى الولايات المتحدة بالهجوم على بوش وإدارته بل على المؤسسة السياسية بأكملها فى واشنطن.

ويقول إن أمريكا بلد كل ما فيه يرشح ويمتلئ بالثقوب، وهذه خطيئة النخبة البيضاء الغنية التى استغلت العمال وسممت البيئة. ويستطرد قائلاً: لقد خطفوا الانتخابات ووضعوا رئيسًا ساذجًا بلا عقل يقوم أركان إدارته بوضع أياديهم فى جيوب أباطرة شركات الطاقة.

ولا يكلف المؤلف نفسه بالحديث سوى نادرًا عن حرب بوش ضد الإرهاب، وهو أمر غير متصور حدوثه فى أمريكا حاليًا، لأن كل شىء يؤدى ويخرج من الحرب على الإرهاب. والكتاب كلماته حادة للغاية فى الهجوم على بوش وما فعله، فهو يشير إلى تلك الانتخابات المسروقة المخطوفة التى نشلها بوش وأنصاره من أيادى الشعب الأمريكى.

ولكن رغم ذلك فأسلوب الكتاب ظريف ويجذب القارئ إليه مع أنه يمضى فى فكرته دون أن يوقفه أى شىء، وعلى سبيل المثال يرى أن كل الأمريكيين غير مقتنعين حتى الآن بأى عمل قام به بوش رغم أن استطلاعات الرأى جعلت بوش لمدة طويلة الأعلى شعبية بين الرؤساء الأمريكيين منذ سنوات. ومن الواضح أن المؤلف قد أصدر حكمه شبه النهائى على بوش وأنه رئيس فاشل لا يصلح لشىء، وجاء فقط نتيجة مؤامرة قادها اليمين الأمريكى للإطاحة بآل جور والديمقراطيين. مع العلم بأن حكم بوش مازال أمامه حوالى العامين وهى فترة يمكن أن يتغير فيها الكثير.

□ □ □

La Strategie du Cameleon

(استراتيجية الحرباء)

Jean-Francis Bouoet

Paris: 190 Pages



هناك من الأساليب والتكنولوجيا الجديدة التى تسمح لنا بمعرفة كيف تنظر الحيوانات للعالم الذى يحيط بها وكيف تتكيف معه وكيف تتصرف فيه:

لسنا وحدنا من نتمتع بالذكاء بل لسنا وحدنا من له لغة اتصال متكاملة. إن أنثى القرد المولودة فى الأسر من فصيلة البونوبو فى جامعة جورجيا لديها مخزون لغوى يبلغ ٣ آلاف كلمة بواسطة ماكينة خاصة بالمعلومات. وهى تكلم وليدها بلغتها الجديدة وتترجمها لوالدتها التى لا تجيدها.

وفى كتاب صغير رائع يستعرض جون فرانسوا بوفيه كتالوجًا مسليًا للخديعة فى العالم مستخدمًا مفردات معبرة كعناوين لفصول الكتاب، مثل: يكذب، يتوارى، يخفى، يتظاهر، يغش.

«لو كانت الطبيعة عيدًا، كما يقول بوفيه، لكان الاحتفال بزى التنكر».. وهو كما نرى يفضل الجمل الرنانة، ففى كتابه السابق تكلم عن المعرفة ذات الصبغة العلمية، ويروج لها على أنها سر قوته.

وفى هذا الكتاب نراه يقدم لنا مهرجانًا عالميًا لما هو خطأ وغير صحيح كما لو أن الطبيعة بأكملها لكى تؤدى وظيفتها لابد لها أن تتبع مقولة مكيافيللى: «إن الذى يخدع سيجد دائمًا من يريد أن يُخدع» وهنا أيضًا لا يوجد خط فاصل بين النبات والحيوان والإنسان. وذلك يمتد من أنثى الحرباء التى تحدد للذكر متى يمكن التقدم واختبار حظه إلى الفتيات الإنجليزيات اللائى تملأ حمرة الخجل وجوههن واللاتى كان داروين منذ سنة ١٨٧٢ يلاحظهن بانبهار.

كـتـاب الـزاويـة

حالة حصار

(٤)

عندما تختفى الطائراتُ تطيرُ الحماماتُ،
بيضاءَ، بيضاءَ، تغسلُ خدَّ السماء
بأجنحة حُرَّة، تستعيدُ البهاءَ وملكيَّةَ
الجوِّ واللَّهْوِ. أعلى وأعلى تطيرُ
الحماماتُ، بيضاءَ بيضاءَ، لَيْتَ السماءَ
حقيقيَّةٌ (قال لى رجلٌ عابرٌ بين قنبلتين)
يقولُ لها: انتظرينى على حافة الهاويهْ
تقولُ: تَعَالَ.. تَعَالَ! أنا الهاويهْ

* * *

لنا إخوةٌ خلف هذا المدى
إخوةٌ طيِّبون، يُحبُّوننا، ينظرون إلينا
ويبكون، ثُمَّ يقولون فى سرِّهمْ:
«ليت هذا الحصار هنا عَلَنيٌّ...»
ولا يُكْمِلُون العبارةَ: «لا تتركونا
وحيدين.. لا تتركونا»

إدارة

Execution: The Discipline of Getting Things Done

(التنفيذ: الالتزام بإنجاز الأهداف)

Larry Bossidy and Rom Charon

Crown Business, 2002, 288PP., $27.50

كيف تحوّل استراتيجية أى شركة إلى واقع؟ يؤكد المؤلفان وأحدهما رئيس مجلس إدارة هانيول انترناشيونال، أن عدم القدرة على تحويل الأهداف إلى واقع - أى التنفيذ - هو أكبر مشكلة تواجه المنظمات.

يبدأ الكتاب بتوجيه اللوم للمديرين الذين يعتقدون خطأ أن جميع أوجه التنفيذ يمكن تفويضها. أما الأسلوب الأمثل الذى ينصحان به المدير فهو أن يقوم أولاً بتحديد أهداف واضحة وواقعية، ثم مساعدة العاملين على تحقيق هذه الأهداف بتوفير المصادر الكافية، والإشراف اللازم، ومحاسبة الموظفين إذا فشلوا ومكافاتهم إذا نجحوا.

يوفر الكتاب أمثلة عملية من شركات معروفة مثل لوسنت وأى تى آند تى، وجنرال إلكتريك وغيرها.

■■■

What Management Is: How it Works and Why It's Everyone's Business

(ماهية الإدارة: كيف تعمل ولماذا تخص الجميع؟)

Joan Magretta, Nan Stone

Free Press, 2002, $ 25.00

فى هذا الكتاب تقوم المؤلفة وهى المحررة السابقة لمجلة «هارفارد بزنس ريفيو» بتلخيص أهم دروس الإدارة، التى جاءت فى كتب آباء علم الإدارة الحديثة مثل مايكل بورتر وبيتر دراكر، وتقدمها فى شكل بسيط يناسب المدير المبتدئ أو المدير المتمرس الذى لم يدرس الإدارة.

أدب

The Child that Books Built: A Memoir of Childhood and Reading

(الطفل الذى صنعته الكتب: ذكريات عن الطفولة والقراءة)

Francis Spufford

Faber, 2002, 214PP., £ 12.99

نال هذا الكتاب إعجاب النقاد منذ أن صدر فى أبريل الماضى. مؤلفه الكاتب الإنجليزى فرانسيس سبافورد قدم فيه صنفًا أدبيًا جديدًا: مزيجًا من السيرة الذاتية وأدب الرحلات والسيرة الأدبية وعلم النفس والنقد الأدبى. باختصار يكتب فرانسيس سبافورد عن ولعه المرضى بالقراءة وهو طفل لأسباب عائلية معينة، ثم ينتقل لمناقشة ما كان يقرأه فى ذلك الوقت من قصص وروايات وعلاقتها بذاته وتأثيرها على مشاعره ووعيه.

فصول الكتاب تتخذ عناوين مثل «الغابة» و«الجزيرة» و«الحفرة» و«المدينة».. وهى تنصرف إلى نوعية القصص التى كان يقرأها ومعناها بالنسبة له.. فمثلاً الغابة تمثل عالم المجهول الموجود فى القصص الخيالية. أما المدينة فهى القصص التى شكلت وعيه بالمجتمع، بينما «الحفرة» هى تلك القصص التى كانت تستسلم فيها نفسه للرغبات المدمرة للذات مثل القصص الجنسية.

■■■

Letters to A Young Novelist

(رسائل لروائى شاب)

Mario Vargas Llosa

Translated by: Natasha Wimmer

Farrar, Strous & Giroux, 2002, 128PP., $16.00

يكتب روائى بيرو الشهير ماريو فارجاس للوسا اثنى عشر مقالاً عن الكتابة وعلاقتها بالحياة فى هذا الكتاب الذى يشبه فى منهجه كتاب ريلكه الذى صدر منذ مائة عام بعنوان «رسائل لشاعر شاب».

يتحدث للوسا متأملاً عن الأدب، وطبيعة مهنة كتابة الروايات، وعن آرائه فى أدباء آخرين، والروايات المفضلة عنده، وما يجب أن تتصف به الرواية الجيدة من وجهة نظره. الكتاب مترجم للإنجليزية من اللغة الإسبانية.

إعلام

مدخل إلى الفن الإذاعى والتليفزيونى والفضائى

ماجى الحلوانى

القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠٢

عن تاريخ الإذاعة وأهم فترات تطورها وكذلك التليفزيون، ثم نشأة الفضائيات والدور الكبير الذى لعبته فى ظل ثورة الاتصالات وزمن العولمة.

■■■

Al-Jazeera: How the Free Arab News Network Scooped the World and Changed the Middle East

(الجزيرة: كيف تقدمت شبكة الأخبار العربية الحرة العالم وغيرت الشرق الأوسط)

Mohamed El-Nawawy and Adel Iskander

Westview, 2002, 240PP., $24.00

الكتاب يتناول كيف بدأت قناة الجزيرة، وكيف يتم تشغيلها، ونوعية البرامج التى تذاع عليها، وتأثيرها على المشاهدين العرب، وردود فعل الدول العربية والغربية على مواقفها.

عمل المؤلف محمد النواوى، صحفيًا فى وكالة أنباء الشرق الأوسط بالقاهرة وفى مكتب الأسوشيتايد بريس فى القاهرة أيضًا. وهو مصرى مقيم الآن فى الولايات المتحدة الأمريكية ويدرس الصحافة فى جامعة وست فلوريدا. أما المؤلف الثانى، عادل إسكندر فهو مصرى/كندى وباحث متخصص فى الإعلام الشرق أوسطى وهو يدرس الاتصالات فى جامعة كنتاكى.

اقتصاد

مصادر الطاقة فى مصر وآفاق تنميتها

محمد منير مجاهد

القاهرة: المكتبة الأكاديمية، ٢٠٠٢

يعرض المؤلف للسياسات الحكومية فى قطاعى البترول والكهرباء بما فيها سياسات البحث واستكشاف مصادر جديدة للطاقة الموجودة بالفعل. كما يتناول عمليات تكرير وتصنيع البترول والتجارة الخارجية وإحلال الغاز الطبيعى محل المنتجات البترولية، وسبل ترشيد الطاقة وحماية البيئة، كما يعرض للبدائل التكنولوجية كاستخدام الطاقة النووية فى توليد الكهرباء وتحلية مياه البحر.

■■■

Reinventing the Bazaar: The Natural History of the Markets

(إعادة اختراع البازار: التاريخ الطبيعى للأسواق)

John McMillan

W.W. Norton & Co, 2002, $ 25.95

السوق هو موضوع هذا الكتاب. يصف المؤلف الأسواق الكبيرة والأسواق الصغيرة ويشرح كيفية عملها، وهو يأتى بأمثال متنوعة: من أسواق الجمال فى الهند وأسواق السمك فى طوكيو إلى المزادات التى تعقد على مواقع شبكة الإنترنت. كذلك يتناول المؤلف دور الحكومة التى يرى أن يدها الخفية أداة أساسية لا غنى عنها فى توفير السلع العامة ووضع القواعد ولعب دور الحكم، وذلك فى أفضل اقتصادات العالم المبنية على السوق.

تاريخ

القضية الأرمنية فى الدولة العثمانية

محمد رفعت الإمام

القاهرة: دار نوبار للطباعة، ٢٠٠٢

يتناول المؤلف تاريخ الأرمن فى مصر وفى الدولة العثمانية وكيف مثلوا عقبة فى سبيل قيام دولة عثمانية موحدة، وهو ما أدى إلى اضطهادات عنيفة وترحيلات جبرية ومذابح دموية، وكيف تعاملت الدولة العثمانية مع المسألة الأرمنية.

■■■

Automobile: How the Car Changed Life

(أوتوموبيل: كيف غيرت السيارة الحياة)

Ruth Brandon

Mac Millan, 2002, 468PP., $20.00

التاريخ الاجتماعى للسيارة وتطور تلك الآلة التى غيرت أسلوب حياة البشر هو موضوع هذا الكتاب. تتناول المؤلفة أثر السيارة على المجتمع والمدينة والبيئة. فالسيارة هى السلعة الاستهلاكية الأولى فى العالم، وقد أدى انتشار السيارات إلى إمكانية إنشاء ضواحٍ سكنية خارج المدينة المكتظة لا تصلها المواصلات العامة. وتذكرنا المؤلفة بأننا نكرر الشكوى من الآثار الصحية والبيئية لعوادم السيارات وننسى كيف أتت السيارة لتنقذنا من تلال المخلفات التى كانت تسببها الخيول وغيرها من الدواب، والتى كانت تمتلىء بها جميع الشوارع والميادين فى أكبر مدن العالم.

■■■

The Rescue of Jerusalem: The Alliance Between Hebrews and Africans in 701 B.C.

(إنقاذ القدس: تحالف العبرانيين مع الأفارقة فى ٧٠١ قبل الميلاد)

Henry T. Aubin

Soho, 2002, 424PP., $30.00

فى بداية القرن الثامن قبل الميلادى، واجهت مدينة القدس جيشًا قويًا من الآشوريين دمر فى طريقه كل ما صادفه من حصون ومدن وجنود. ولكن ما حدث أن الآشوريون تراجعوا بعد أن كانوا قد دخلوا بالفعل إلى القدس، فيما يعتبر واحدًا من أكبر ألغاز التاريخ. فى العهد القديم يفسر هذا التراجع بانه كان نتيجة لتدخل إلهى. أما المؤرخون، فبعضهم يقول إن وباء ما كان سبب إنقاذ القدس والبعض الآخر يرجع الأمر لإعلان الاستسلام.

يقدم مؤلف هذا الكتاب تفسيرًا آخر، وهو أن الذى تصدى للدفاع عن القدس وشعبها العبرانى فى ذلك الوقت كان ملكًا نوبيًا من قبائل الكوشيين التى تسكن جنوب مصر (من الأسرة الخامسة والعشرين) جاء بجيش من الجنود السود وردع هجمة الآشوريين.

تراث

مواقع الأفلاك فى وقائع تليماك

ترجمة. رفاعة الطهطاوى

القاهرة: دار الكتب والوثائق، ٢٠٠٢

إعادة إصدار لكتاب من كتب أحد رواد النهضة الذى أسهم بجهد أساسى فى طرح إشكالية الشرق والغرب على نحو ريادى ومستنير فى آن معًا. وهذا الكتاب يتناول ملحمة فرنسية دينية تحكى قصة كتبها الأب فينلون واستهدف منها إصلاح الأوضاع فى المجتمع والكنيسة فى النصف الثانى من القرن السابع عشر.

تعليم

تكنولوجيا التعليم فى عصر المعلومات والاتصالات

كمال عبد الحميد زيتون

القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠٢

دخل مصطلح تكنولوجيا التعليم قاموس الحياة التعليمية مع التطورات الهائلة فى تكنولوجيا المعلومات والاتصالات التى تميز زمن العولمة، وانتشرت وسائل الإيضاح كالفيديو التفاعلى والتليفزيون التعليمى والكمبيوتر،

وصارت مؤثرة جدًا فى العملية التعليمية والتربوية.

■■■

Classroom Behavior

(سلوكيات الفصل)

Bill Rogers

Paul Chapman, 2002, 175PP., £16.99

بيل روجرز مستشار تعليم ذائع الصيت فى أستراليا وبريطانيا، وهو يلقى المحاضرات فى المدارس والجامعات والدورات التدريبية فى مجالات إدارة السلوك، وضبط النفس، وأساليب التدريس الفعالة، وحقوق المدرس. وتعرف آراؤه بالتركيز على الأساليب والمهارات العملية وتعاطفه مع حاجات واهتمامات المدرس.

يضم هذا الكتاب أفكاره وكتاباته فى هذه المجالات بالإضافة إلى القضايا المتعلقة بكيفية إدارة الغضب، والتعامل مع التلاميذ الذين يهوون الجدال وتحدى المدرسين، والتلاميذ الذين يعانون من اضطرابات سلوكية عاطفية.

"دوريات"

زوايا

مجموعة من المحررين

بيروت: شركة الضفاف، ٢٠٠٢

دورية جديدة صدر عددها الأول فى الشهر الماضى وهى تعنى بالعلاقة بين الإنسان والمكان والاشتباك بين الفرد ومجتمعه وسبل صياغة علاقات جديدة وفق رؤى شابة تقدمية بعيدًا عن الثنائيات المفتعلة التى أفسدت الواقع الثقافى.

"روايات وقصص"

اعترافات ناس طيبين

فاضل السباعى

دمشق: دار أشبيلية، ٢٠٠٢

مجموعة قصصية تخاطب أحلام البسطاء وتغزلها معهم وتعيد الاعتبار إلى القيم النبيلة التى يمثلها وتتمثل فى هؤلاء الناس الطيبين فى عالم تحاصره المادية وتوشك أن تزهق روحه.

■■■

أقنعة الصحراء

فتحى إمبابى

القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٢

تدور أحداث الرواية فى عوالم مخنوقة مسلوبة الإرادة، عوالم وأجواء الحرب العراقية الكويتية وما نتج عنها من توابع هزت المنطقة والعالم، وضياع كثير من الأحلام العربية وتفتيت القوة العراقية التى كان يمكن أن تمثل إضافة للقوة العربية لو وجهت فى اتجاهها الصحيح.

■■■

عودة الرجل السابع

إبراهيم سليمان نادر

العراق: دار الشئون الثقافية، ٢٠٠٢

مجموعة قصصية تعنى أساسًا بالحروب ومآسيها، وكذلك البطولات التى تكشف عنها والضحايا الذين تخلفهم من مدنيين وعسكريين وتأثير الحروب على حياة الناس.

■■■

Family Matters

(مسائل عائلية)

Rohinton Mistry

Faber, 2002, 487PP., $16.99

تدور الرواية فى مدينة بومباى التى يصفها المؤلف بأنها «مدينة تحتضر وتتعفن بفعل التلوث والقمامة والفساد». وتتركز حول الحياة الصعبة التى تعيشها أسرة كبيرة وفقيرة، تتعقد حياة كل فرد فيها وينزلق أحدهم إلى التعصب الدينى الجنونى، حيث تتخذ الرواية من المشكلات الطائفية الراهنة فى بومباى خلفية لأحداثها.

■■■

The Brothers

(الإخوة)

Milton Hatoum

Translated by: John Gleason

Farrar, Strous & Giroux, 2002, 240PP., $23.00

هذه الرواية مترجمة إلى الإنجليزية من اللغة البرتغالية، ومؤلفها برازيلى من أصل لبنانى، فازت أولى رواياته بأهم جائزة أدبية فى البرازيل عام ١٩٩٠.

هذه الرواية التى تعد الثانية له تدور أحداثها بين مجتمع المهاجرين اللبنانيين فى مدينة ماناوس البرازيلية وهى قصة أخوين توأمين؛ يعقوب وعمر، ينجح أحدهما اجتماعيًا ومهنيًا والأخر ينحدر إلى حياة السكر والعربدة فى قاع المدينة.

"رياضة"

Futebol: Soccer, The Brasilian Way

(كرة القدم على الطريقة البرازيلية)

Alex Bellos

Bloomsbury, 2002, 400PP., $25.95

المؤلف يعمل مراسلاً لجريدة الجارديان البريطانية فى العاصمة البرازيلية، ووظيفته تغطية كل مكان فى البرازيل لمعرفة تأثير البرازيل على كرة القدم، وتأثير كرة القدم عليها.

ينقسم الكتاب إلى خمسة عشر فصلاً، كل منها يركز على جماعة أو شخص معين وعلاقته بهذه الرياضة الشعبية من كبار نجوم اللعبة والساسة الكبار إلى الصبية الهواة الذين يلعبون فى الأزقة.

■■■

Channel Four Racing: Complete A-Z Horse Racing

(الدليل الشامل لسباقات الخيل)

Sean Magee

Channel 4 Books, 2001, 320PP., $14.99

دليل شامل لسباقات الخيل فى بريطانيا والعالم. يحتوى على أقسام عن جميع السباقات الرئيسية وتاريخ كل منها، إلى جانب طبيعة السباق، ونوع الحصان الذى يلزم للفوز، وقائمة بالفائزين السابقين.

كذلك يحتوى الدليل على أهم معاهد سباق الخيل فى العالم وأهم خيول السباق ولغة التسابق، وغيرها من المعلومات ذات الصلة بهذا المجال.

"سياسة"

العالم على حافة الهاوية

عبد المنعم سعيد

القاهرة: نهضة مصر، ٢٠٠٢

ثمة إجماع بين المراقبين والمحللين السياسيين على أن عالم ما بعد أحداث سبتمبر ليس هو العالم قبلها، وقد أثبتت الأحداث التى تلت سبتمبر صدق هذا الحدث، ويتأكد ذلك يومًا بعد آخر. المؤلف يرصد مقومات ما جرى واحتمالات المستقبل.

■■■

أنا عائد من جنوب الجزيرة العربية

أحمد السقاف

الكويت: على نفقة المؤلف، ٢٠٠٢

يعنى الكتاب بالتاريخ للمسألة اليمنية منذ عام ١٩٥٥، والدور الخليجى فى التعامل معها وخصوصًا الدور الكويتى والمساعدات التى قدمتها الكويت لليمن ثقافيًا وسياسيًا واجتماعيًا وماديًا.

■■■

بيت بين النهر والبحر

نورى الجراح

بيروت: عمان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢

حوارات أجراها الشاعر السورى مع عدد من المفكرين والأدباء والنقاد والسياسيين بينهم فيصل دراج ومحمود درويش وحيدر عبد الشافى وحنان عشراوى وإلياس صنبر وآخرون، والحوارات فى مجملها تركز على القضية الفلسطينية والأوضاع الراهنة فى الشرق الأوسط وتأثيرها على مستقبل القضية.

■■■

تطوير العلاقات المصرية الإيرانية

تحرير: محمد السعيد إدريس

القاهرة: مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، ٢٠٠٢

مرت العلاقات المصرية الإيرانية بفترات من المد والجزر امتدت منذ نهاية السبعينيات وحتى اليوم، غير أن هذه العلاقات تشهد انفراجات حقيقية خلال السنوات الأخيرة يسهم فيها مثقفون وسياسيون رسميون وغير رسميين، والمؤلف يقدم سبلاً لتطوير هذه العلاقات بين دولتين مهمتين يمكن أن تلعبا دورًا بالغ التأثير فى تدعيم الاستقرار بمنطقة الشرق الأوسط.

■■■

كراسات السجن

تحرير: ميشيل بروندينو، الطاهر لبيب

ترجمة: كاميليا صبحى

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢

يضم الكتاب الدراسات والأبحاث التى قدمت فى ندوة عقدت بتونس عن المناضلين القدامى وأساليبهم فى الكفاح، وتذكرنا بجيفارا وجرامشى، وتعيد قراءة فكرهم وتأثيرهم على الأجيال الجديدة.

■■■

Elvis in Jerusalem: Post-Zionism and the Americanization of Israel

(إلفيس فى القدس: ما بعد الصهيونية وأمركة إسرائيل)

Tom Segev

Hoh/Metropolitan, 2002, 192PP., $23.00

«لقد كانت الصهيونية ناجحة، ولكن زمنها قد مضى.. إسرائيل الآن على أعتاب عصر ما بعد الصهيونية». هكذا يقول توم سيجيف الذى يعد من طائفة المؤرخين الإسرائيليين الجدد، وهو فى هذا الكتاب يقدم رؤية جديدة للمجتمع الإسرائيلى المعاصر. إسرائيل الآن من وجهة نظره مجتمع متامرك إلى درجة احتلال الثقافة الفردية والاستهلاكية محل الهوية الجماعية الصهيونية القديمة.

فالهوية الإسرائيلية التقليدية أصبحت الآن متصدعة بسبب الانقسامات الدينية والعرقية. وقد تحطمت كثير من الأساطير الصهيونية على أيدى المؤرخين من أمثال سيجيف نفسه والأثريين الذين لم يجدوا الدلائل الأثرية التى تدعم القصص الواردة فى التوراة. والإسرائيليون يملؤهم الغضب والارتباك، والحروب الثقافية أصبحت على أشدها.

■■■

The Reckoning: Iraq and the Legacy of Saddam Hussein

(العراق وتركة صدام حسين)

Sandra Mackey

Norton, 2002, 416PP., $27.95

تتحدى المؤلفة الاعتقاد السائد فى الغرب بأن إسقاط صدام حسين من السلطة سوف يحل مشاكل العراق - ومشاكل أمريكا. وفى تناولها لتاريخ العراق الطويل تجد المؤلفة أن أهم سمة لهذا البلد هى ضعفه، فالعراق من وجهة نظرها عبارة عن مزيج من السكان الشيعة والسنة والأكراد الذين لا يربطهم معًا سوى خيط رفيع. لهذا ترى أن العراق ما بعد صدام سيكون أسوأ حالاً من البلقان، وبالتالى سيصبح كابوسًا لكل من الشعب العراقى والإدارة الأمريكية.

"سير ومذكرات"

ناصر الدين الأسد بين التراث والمعاصرة

عبد العزيز الدورى وآخرون

عمان: مؤسسة شومان، ٢٠٠٢

يتضمن الكتاب فعاليات الندوة التى نظمتها مؤسسة شومان حول الدكتور ناصر الدين الأسد ودوره فى الحياة الفكرية

والأدبية، فضلاً عن دراسات لمرافقي رحلته الذين خبروا عن قرب صفاته الشخصية ومنهجه في التفكير.

■■■

نوار عين الصقر
تحرير: سليمان العطار
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢

هذه هي أول سيرة ذاتية يكتبها جندي هو الفنان التشكيلي أحمد نوار الذي كان مجندًا في فترة حرب الاستنزاف وشارك في حرب أكتوبر ١٩٧٣، وهو يسرد في عشرين فصلاً بعضًا من بطولاته ومشاهداته وانطباعاته طوال هذه السنوات العصيبة.

■■■

Flaubert: A Life
(فلوبير: حياة)
Geoffrey Wall
Farrar, Strous & Giroux, 2002, 416PP., $27.00

قصة حياة الأديب الفرنسي جوستاف فلوبير الذي ولد عام ١٨٢١ وتوفي عام ١٨٨٠، كما يرويها جيوفري وال الذي سبق وترجم لفلوبير رائعته: «مدام بوفاري». وقد اعتمد على رسائل فلوبير العديدة لصديقه وناشره ماكسيم دوكامب وحبيبته لويز كوليت وغريمته جورج صاند.

يتناول الكتاب شخصية فلوبير ومزاجه العام وعمله بالقانون الذي أهمله في سبيل الأدب، ورحلاته الطويلة إلى مصر، ثم مرضه العصبي الذي يشخصه المؤلف بأنه صرع، وتأثير نجاح والده الطبيب البرجوازي على شخصية فلوبير وأسلوبه في العمل.

■■■

Behind Sad Eyes: The Life of George Harrison
(خلف عيون حزينة: حياة جورج هاريسون)
Mark Shapiro
St. Martin's Press, 2002, $24.95

«الخنفس الهادئ» هو اللقب الذي عرف به جورج هاريسون أحد أعضاء فريق الغناء البريطاني الشهير البيتلز، والذي توفي مؤخرًا في العام الماضي. يستعرض هذا الكتاب حياته وشخصيته سواء داخل الفريق أو خارجه.

■■■

Camille Claudel: A Life
(كاميل كلوديل: حياة)
Odile Ayral-Clause
Abrams, 2002, 280PP., $29.95

اشتهرت النحاتة الفرنسية كلوديل (١٨٦٤-١٩٤٣) بعلاقتها الغرامية بالفنان أوجست رودان، والتي جسدتها السينما الفرنسية في أواخر الثمانينيات في فيلم من بطولة جيرار دوبارديو وإيزابيل أدجاني. يتناول هذا الكتاب سيرة حياتها وتفاصيل علاقتها برودان التي استمرت خمسة عشر عامًا، انتهت بفقدانها لصوابها ودخولها مصحة عقلية لمدة الثلاثين سنة الأخيرة في حياتها.

شعر

الجميلة تنزل إلى النهر
فاروق شوشة
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢

قصائد يتغزل فيها الشاعر بالنيل الكريم، ويروي قصة عروس النيل في أبيات شعرية، حيث يهبها النيل الخلد وتهبه الجمال فيزداد بهاء، إنها العلاقة الأبدية بين الناس والنهر، فمصر هبة النيل، كما قال هيرودوت، كما أنها هبة المصريين كما يحلو لآخرين أن يرددوا.

■■■

رعشة في الأفق
أحمد سويلم
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢

أربع وثلاثون قصيدة تدور في أفق رومانسي حالم، وتجادل الواقع برؤية عميقة تمثل استمرارًا لمسيرة الشاعر الذي قدم من قبل عدة دواوين منها الطريق، وقلب حائر، والهجرة من الجهات الأربع، وعدة مسرحيات شعرية.

■■■

مدن العتمة
لويس بورخيس
ترجمة: إبراهيم الخطيب
المغرب: دار توبكال للنشر، ٢٠٠٢

مختارات شعرية من بورخيس، مع دراسة لمسيرة الشاعر وأهم الأفكار التي تناولها في قصائده.

علوم

عواقب الثورة البيوتكنولوجية
فوكوياما
ترجمة: أحمد مستجير
القاهرة: دار سطور، ٢٠٠٢

يتوقع المؤلف في ضوء الثورة العلمية التي تشبه الانقلاب بكل ما حملته من تجاوز للتوقعات في مجال الجينات والهندسة الوراثية، أن يستمر هذا التطور وأن تتفجر الأحداث وتنشأ أجيال جديدة من البشر السوبر مما سيكون له تأثير كبير على البيئة وعلى النوع البشري.

■■■

Science In Translation
(ترجمة العلوم)
Scott L. Montgomery
University of Chicago press, 2002, 326PP., £ 13.5

إن تبادل المعرفة العلمية عبر الثقافات كان دائمًا عاملاً أساسيًا في تشكيل الحضارة الإنسانية، وعلى الرغم من الأهمية الهائلة للترجمة في تاريخ العالم إلا أن هذا الموضوع لم ينل اهتمامًا كافيًا حتى الآن. هذا الكتاب يبحث الأدوار المتعددة التي لعبتها الترجمة في تطور العلوم في الغرب منذ العصور الكلاسيكية وحتى الآن. يتناول الكتاب دور العرب في ترجمة الأعمال اليونانية والرومانية إلى العربية ومنها إلى أوروبا مرة أخرى والتي لولاها لما حدثت النهضة كما عرفناها.

ويناقش المؤلف القضايا الفلسفية المتصلة بموضوع ترجمة العلوم ومن ضمنها عدم ثبات النص العلمي، والمفقود في عملية الترجمة، إلى جانب استحالة وجود لغة تقنية عالمية.

■■■

I Have Landed: The End of a Beginning in Natural History
(نهاية بداية في التاريخ الطبيعي)
Stephen Jay Gould
Harmony, 2002, 384PP., $25.95

العالم ستيفن جاي جولد أصبح اسمه مرادفًا للأحياء التطورية (أو النشوئية). هذا الكتاب يضم واحدًا وثلاثين مقالاً نشرت من قبل في مجلة «ناتشورال هيستوري»، تستكشف مقالات جاي جولد العلاقات الغامضة التي تربط بين الفن والعلم والعالم الطبيعي.

فكر ديني

أنبياء الله في فلسطين
نبيل آغا
عمان: بيروت - المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١

لأرض فلسطين مكانة واضحة في تاريخ النبوة والديانات، فقد سكن هذه الأرض عدد كبير من الرسل والأنبياء، منهم أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وزكريا وموسى وعيسى، هي أرض الأنبياء والرسالات والدم والخديعة.

■■■

صراع الثقافة الإسلامية مع العولمة
محمد الشبيني
بيروت: دار العلم للملايين، ٢٠٠٢

ينظر كثير من المفكرين العرب والإسلاميين وكذلك التقدميين إلى العولمة بوصفها شرًا يهدد الهوية الحضارية للأمة، ويعتبرون أن المعركة الحقيقية هي بين الثقافة الإسلامية والتوجهات الثقافية والفكرية للعولمة، وهذا بعض ما يشير إليه المؤلف.

فنون

الألحان القبطية روحانيتها وموسيقاها
جورج كيرلس
القاهرة: كنيسة مار مرقص، ٢٠٠٢

دراسة في موسيقى التراتيل الإنجيلية وأصولها، ويبين المؤلف أن هذه الموسيقى الفرعونية تم تناقلها شفهيًا عبر رجال الدين والرهبان، وكيف تم الحفاظ على هذه الموسيقى من جيل إلى جيل.

■■■

فنون السينما
ترجمة: عبدالقادر التلمساني
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢

يبحث الكتاب عما وراء الشاشة السينمائية.. أي ما لا يراه الجمهور من إعداد وجهد لإنجاز الفيلم السينمائي، ويشرح أسرار الفن السابع معتمدًا على نماذج تطبيقية خصوصًا من الفيلم الفرنسي من مراحل الإعداد له وحتى عرضه.

■■■

Landscapes
(مناظر طبيعية)
Robert Caputo,
National Geographic Books, 2002, 159PP., $14.99

ما هي اللحظة المناسبة لالتقاط صورة فوتوغرافية لغروب الشمس؟ كيف تلتقط صورة لابنك وهو يلعب كرة القدم؟ ما هي الموضوعات التي تصلح للتصوير بالأبيض والأسود؟ وما هي العدسات المناسبة؟ هذه الأسئلة مهمة بالنسبة لأي شخص يهوى تصوير المناظر الطبيعية ويرغب في إخراج لمسة فنية في الصور التي يلتقطها.

يحتوي هذا الكتاب على نصائح فريق الناشيونال جيوجرافيك، تلك المجلة التي اشتهرت بتصويرها الباهر للمناظر الطبيعية في مختلف أنحاء العالم.

قضايا اجتماعية

الشباب وأزمة التعبير
سيد صبحي
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢

يتناول الكتاب عبر فصوله الثلاثة مشكلات الشباب بين اليأس والأمل، حين تغيب القدوة ويتراجع الانتماء ويصير العنف والتطرف والإدمان زادًا يوميًا، وإلى جانب التحليل الاجتماعي والنفسي الذي يقدمه المؤلف، فإنه يقدم استطلاعات يجيب عنها الشباب بأنفسهم.

■■■

Power and Control
(القوة والتحكم)
Sandra Horley, Cherie Booth
Vermillion, 2002, 264PP., £ 7.99

ترى المؤلفة ساندرا هورلي أن العنف المنزلي يزداد في المجتمعات الغربية بشكل كبير، وفي المستقبل سوف تتعرض امرأة من كل أربع نساء للعنف المنزلي. وقد أمضت هورلي عشرين عامًا في مساندة النساء اللاتي يتعرضن للعنف، وهي تحاول تفتيح وعي النساء لحقيقة بعض الرجال الذين يتخفون خلف قناع «الرجل الساحر»، كما تقدم نصائحها لكيفية تصرف المرأة في مثل هذه المواقف لتجنيب نفسها المخاطر الجسدية والنفسية المختلفة.

قـــــراءات جـــــديـــدة

"لـغـــة"

التفكير العلمى فى النحو العربى
حسن الملخ
فلسطين: الشروق، ٢٠٠٢

دراسة جادة جديدة عن قواعد اللغة العربية وأصولها ودورها فى الحفاظ على اللغة وحمايتها من الضياع، والمؤلف إذ ينفى أى فرصة للاجتهاد فى قواعد النحو، لا يمانع فى مزيد من التبسيط والشرح لها.

■■■

Foundation of Languges
(أساسيات اللغة)
Ray Jackendoff
OxFord University Press, 2002, 498PP., £ 25.00

يعد راى جاكندوف من كبار علماء وأساتذة اللغويات والعلوم المعرفية فى العالم، ومكانته تضاهى مكانة ناعوم تشومسكى فى هذا المجال. فى هذا الكتاب يقدم جاكندوف نظرية شاملة جديدة للعلاقة بين الأصوات والبناء والدلالة فى اللغة، وعلاقتها بالعقل والمخ.

"للأطفـــال"

The Jar of Olives
(جرّة الزيتون)
Denys Johnson-Davies
Dar El-Shoruk, 2002, 47PP., L.E 20.00

صدرت هذه القصة ضمن سلسلة كتب أطفال جديدة مستوحاة من التراث العربى ولكن مقدمة باللغة الإنجليزية. مؤلفها هو دنيس جونسون دايفيز الذى اشتهر بترجماته الإنجليزية الرائدة للأدب العربى المعاصر.

استوحى دايفيز قصة «جرة الزيتون» من حكايات ألف ليلة وليلة، وتدور أحداثها فى بغداد أثناء حكم الخليفة العباسى هارون الرشيد، الذى يقوم فى القصة بالاعتماد على حكم صبى صغير فى حل لغز سرقة كبيرة والتحكيم بين طرفيها، وفى ذلك يتفوق الصبى الصغير بأسئلته الذكية على قاضى بغداد. تضم القصة ذكرًا لأهم المدن فى ذلك الوقت مثل القاهرة ومكة وحلب ودمشق والقدس وأصفهان، حيث يزورها بطل القصة أثناء رحلته إلى الحج.

■■■

Secrets
(أسرار)
Jacqueline Wilson
Doubleday, 2002, 219PP., £10.99

قصة مؤثرة عن فتاتين صغيرتين وتأثير كل منهما على حياة صديقتها. إحداهما فتاة سمينة من أسرة ثرية وتعانى من مشكلات مع والدتها وتلجأ لكتابة اليوميات للترويح عن نفسها. الأخرى فتاة نحيفة من أسرة فقيرة تعانى من مشكلات مع والدها، وتكتب هى الأخرى يوميات لتفريغ غضبها. تنشأ صداقة قوية بين الصغيرتين وتحاول كل واحدة مساعدة صديقتها فى التغلب على مشكلتها.

"نقـــد أدبى"

أدبيات الأقصى والدم الفلسطينى
جابر قميحة
القاهرة: مركز الإعلام العربى، ٢٠٠٢

فلسطين هى قضية كل العرب، والأقصى هو قضية كل المسلمين، وقد كتب كثيرون فى هذا المعنى شعرًا ونثرًا، المؤلف يشير إلى هذه الكتابات ويتناولها بالنقد والتحليل. ويقيّم كيفية تعبيرها عن حقيقة المأساة التى يعانيها الشعب العربى فى فلسطين.

■■■

الشعر الشعبى العربى
حسين نصار
القاهرة: دار الأمل، ٢٠٠٢

دراسة نقدية للشعر الشعبى وموضوعاته، تلقى أضواءً على قضاياه بوصفه أحد الروافد المهمة للتاريخ الاجتماعى، وقد ضم هذا الشعر معارك وشخصيات وأخبارًا عن حكام ومدن ومجتمعات.

■■■

التجربة القصصية النسائية فى الجزائر
باديس فوغالى
الجزائر: اتحاد الكتّاب الجزائريين، ٢٠٠٢

بدأت مساهمات الأديبات الجزائريات فى القصة الجزائرية منذ عام ١٩٥٥، والمؤلف يقدم فصولاً تشتمل على دراسة نقدية للهيكل القصصى النسائى الجزائرى عارضًا لنماذج تطبيقية لكل من نزيهة زاوى، وأوليما المسعودى، وجميلة زنيد وأخريات.

■■■

رحلة فى فكر طه حسين
مجاهد عبد المنعم مجاهد
القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢

دراسة نقدية لأهم الأفكار التى عبر عنها طه حسين فى كتاباته التى شغلت الرأى العام لسنوات طويلة وكان بعضها صادمًا لمجتمع محافظ لم يعتد مناقشة ثوابته بهذا العنف والصخب، كما فعل طه حسين فى «مستقبل الثقافة فى مصر» وفى «الشعر الجاهلى» وغيرهما.

■■■

مائة عام من الفكر النقدى
سعيد الغانمى
دمشق: دار المدى، ٢٠٠٢

يعج حق النقد الأدبى بأكوام هائلة من المصطلحات التى تم استيرادها من الغرب كما هى، وبرغم أن هذه المصطلحات هى نبت طبيعى لبيئة مغايرة وحصاد تطور اجتماعى وتراكم ثقافى تم عبر سنوات طويلة، فإنها حشرت فى بيئة النقد العربية مما أوجد حالة من التشويش وعدم وضوح الرؤية، هذا يعض ما يعالجه المؤلف إلى جانب دراسات نقدية تطبيقية عن شعراء وأدباء عرب.

كتـــاب الــزاويـــة

حالة حصار
(٥)

قالت امرأةٌ للسحابة : غَطِّى حبيبى
فإن ثيابى مُبَلَّلةٌ بِدَمِهْ!
إذا لم تكُنْ مَطَرًا يا حبيبى
فكُنْ شجَرًا
مُشبَعًا بالخُصُوبة . . كُنْ شَجَرا
وإن لم تكُنْ شَجَرًا يا حبيبى
فكُنْ حجرًا
مُشْبَعًا بالرطوبة . . كُنْ حجرا
وإن لم تكن حَجرًا يا حبيبى
فكُنْ قمرًا
فى مَنَام الحبيبة . . كُنْ قمرا
(هكذا قالت امرأةٌ لابنها فى جنازته)
(إلى الليل :) مهما ادَّعَيْتَ المُساواة
«كُلُّكَ للكُلِّ» . . للحالمينَ وحُرَّاسِ
أحلامهم، فلنا قَمَرٌ ناقصٌ، ودمٌ
لا يُغَيِّرُ لَوْنَ قميصكَ يا لَيْل . . .

***

نُعزِّى أبًا بابنه : «كَرَّم اللهُ وَجْهَ الشهيدْ»
وبعد قليل، نُهنِّئُهُ بوليد جديدْ

وجهات نظر
رسائل الكتاب

ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من أراء. مثلها مثل المقالات ذاتها. لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

ما يجرى فى منطقتنا هذه الأيام.. والملف الذى خصصناه للموضوع فى العدد الماضى (مايو ٢٠٠٢) أثار العديد من الآراء والتعليقات والتعقيبات التى وصلتنا من قراء المجلة.

وهنا بعض منها:

مأزق السلطة الفلسطينية وحتمية العودة للشعب

فى خامس زيارة له إلى البيت الأبيض، أعد شارون ملفًا كاملاً لإثبات ضلوع الرئيس عرفات فى عمليات المقاومة، ولم يحاول إخفاء خطته ودعوته إلى إعادة تشكيل قيادة ومؤسسات السلطة الفلسطينية حتى تتلاءم مع مخططه لفرض سلامه الإسرائيلى على الشعب الفلسطينى، وعندما وقع الهجوم الاستشهادى مساء ٧ مايو جنوب تل أبيب، أصرت أجهزة الدعاية العبرية على لوم الرئيس عرفات. وقطع شارون رحلته وقفل عائدًا لبحث دلالات الحدث وأهمها أنه لا يوجد حل عسكرى للصراع وأن المقاومة مستمرة رغم انهيار البنية التحتية للسلطة واحتلال الأراضى الفلسطينية وحصارها وتقطيع أوصالها.

ولقد أصبحت الصورة أكثر وضوحًا وأهداف الدولة العبرية أكثر تحديدًا بعد أن هدأ إلى حد ما رماد الهجمة الوحشية الشرسة والمدمرة التى شنتها الدولة العبرية على شعبنا الأعزل فى فلسطين المحتلة والتى انتهكت فيها كل المبادئ والقوانين الدولية، وبوجه خاص كل أحكام القانون الدولى الإنسانى، والتى تجاوزت فيها كل الخطوط الحمراء، وتنصلت بها من كل التزاماتها بموجب سلسلة اتفاقيات أوسلو فى إطار مرجعية مدريد، وذلك بدعم صريح من الولايات المتحدة، وصمت مشبوه من الاتحاد الأوروبى وغيره من القوى الكبرى التى وقفت وكأنها عاجزة عن صد المد الشيطانى العبرى الوحشى تحت سمع العالم وبصره، وضربت إسرائيل بقرارات مجلس الأمن الضعيفة عرض الحائط بما فيها تشكيل واستقبال لجنة الأمم المتحدة لتقصى الحقائق، مما أجبر الأمين العام للأمم المتحدة على حلها.

ولا يختلف اثنان على أن الهدف الأول لهجمة ٢٩ مارس العبرية التى اتخذت لها أسماء عدة كان تحطيم البنية التحتية للسلطة الفلسطينية وشل قدرتها على الحركة وإبطاء قدرتها على القيام بمسئولياتها، حتى يتخلص شارون من كل التزامات ونتائج اتفاقيات أوسلو بما فيها وجود سلطة فلسطينية، ويبدأ فى فرض المخطط الصهيونى لسلام إسرائيلى فى ظل كيان فلسطينى خانع وضعيف لا حول له ولا قوة يمكن تزيينه بلفظ دولة ولا بأس من علم ونشيد وطنى و٢١ طلقة وحرس شرف لرئيسها، على أن تكون مهمته الأساسية هى الحفاظ على أمن إسرائيل وإدارة الشئون البلدية وأمور الحكم المحلى بما يرفع أعباءها عن كاهل إسرائيل، دون أن تتعلق بمفاهيم سيادية أو تتبنى آمالاً استقلالية.

وفى حقيقة الأمر لم تكتسب السلطة الفلسطينية يومًا صفة أشخاص القانون الدولى وفقًا للمبادئ والقواعد المعمول بها، بل ظلت فى عرف المجتمع الدولى كيانًا ناقص السيادة لا يرقى إلى دولة، وإن كانت تتجاوز عن المناصب التى خلعت على قياداتها من رئيس ووزراء، وبصرف النظر عما تلقاه قياداتها من مراسم رؤساء الدول والوزراء من بعض الدول للمجاملة، ولدينا على سبيل المثال حكم من مجلس الدولة المصرى فى دعوى ترافع فيها كاتب هذه السطور عن طيار مصرى رفض السماح لأفراد الأمن الإسرائيليين المسلحين بالصعود إلى الطائرة المصرية فى مطار غزة بناء على اتفاق بين السلطة وبين إسرائيل يشير مجمله إلى أن السلطة لا تعتبر شخصًا من أشخاص القانون الدولى العام.

والغريب فى كل ذلك أن انتفاضة الأقصى الباسلة التى قامت فى ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠، كانت فى حقيقتها ثورة على ترتيبات أوسلو بعد أن فقدت كل مصداقيتها فى الشارع الفلسطينى والعربى، بعد أن منحتها الجماهير الفلسطينية ما يقرب من تسع سنوات ناورت فيها إسرائيل بكل قدراتها للتملص من التزاماتها فى اتفاقيات أوسلو بموجب مرجعيات مدريد، وبذلك فمن سخريات القدر أن تتفق أهداف انتفاضة الأقصى بصورة أو بأخرى مع هدف هجمة ٢٩ مارس الشارونية، فى تجاوز السلطة الفلسطينية بعد أن فشلت فى تحقيق المطالب الفلسطينية المشروعة والمتفق عليها، وفى نفس الوقت لم تتماش تمامًا مع رغبات الدولة العبرية فى قبول تسوية مبتسرة وظالمة للنزاع الإسرائيلى الفلسطينى فى كامب ديفيد وما بعدها، كما لم ترق إلى تطلعات إسرائيل فى أن تتولى السلطة مهمة حماية أمنها بوقف وملاحقة كل عمليات المقاومة الفلسطينية الباسلة.

فإذا وافقنا على جدية هذه الطروحات، وبحثنا عن دلالاتها الحقيقية، لوصلنا بالضرورة إلى قناعة سوداوية غريبة ومؤسفة ولكنها حقيقية، بأن السلطة الفلسطينية لم يعد لها من صلاحيات أو اختصاصات تبرر استمراريتها بشكلها الذى انبثق عن اتفاقية أوسلو، وأنها لم تصبح كيانًا مرغوبًا فيه على الجانبين الفلسطينى والإسرائيلى فى آن واحد.

وإذا رجعنا قليلاً إلى الوراء لتذكرنا سلسلة طويلة ومتلاحقة من الملاحظات والانتقادات من داخل السلطة وسط مطالبات بتطهيرها من الفساد والبيروقراطية وتنشيط دورها بعد أن عانت من عدم الفاعلية، وتغيير مؤسساتها بل وقياداتها بالرجوع إلى الشعب عبر صناديق الاقتراع، ووصل الأمر إلى الإيماء بتململ إلى الأسلوب غير الديمقراطى للقيادة السياسية الفلسطينية فى ممارستها لصلاحياتها، وإلى تعويق وتأجيل للحوار والمحاسبة فى مؤسساتها التشريعية والسياسية، وإلى قرارات غير مقبولة من الشارع الفلسطينى تتمثل فى تخاطب تلك القيادات بود وحرارة مع العدو بحجة المرونة، وفى تجريم عمليات نضالية باسلة والقبض على مناضلين شرفاء بدلاً من تقليدهم أوسمة الشجاعة والفداء، وقد رفضت قيادة السلطة عدة مرات إجراء أى تغييرات جوهرية على نظامها وتشكيلها وتوجهاتها بدعوى خطورة المرحلة وحساسيتها. كذلك تميزت فترة التسعينيات بتزايد التناقضات بين عناصر المنظمات المشاركة فى السلطة، وافتقادها لبرنامج موحد أو متفق عليه للعمل الوطنى، واستمرت السلطة تعانى من ذلك النص إلى أن لقنتها فصائل المقاومة على الأرض درسًا لم تستوعبه وهو توحيد برامجها وممارستها النضالية على أرض المعركة ومشاركتها فى أعمال المقاومة فى إطار تنسيق قوى وفعال أثناء احتدام المعارك، الأمر الذى أتاح لضربات المقاومة الكثير من الفاعلية والتأثير على معنويات العدو.

ومن أخطر ما تواجهه السلطة بعد الإفراج العبثى عن الرئيس عرفات (وهو الإفراج الذى يصعب تصور أهدافه لسبب بسيط وهو عدم تمتع عرفات بحرية كاملة للحركة ووجوده دائمًا فى كنف وتحت سيطرة أنياب الدولة العبرية)، هو أن أمريكا وإسرائيل قد أهدرا مصداقيته لديهما، وأصبح التفاهم معهما فى أى تسويات قادمة رهينًا برضوخ عرفات بشكل مهين لإرادة إسرائيل وهو ما يأباه تاريخ الرجل النضالى، أو ببزوغ قيادة بديلة تكون فى طوع التوجهات الإسرائيلية الأمريكية فى ظل رفض شعبى لها وشكوك فى توجهاتها، وهنا نجد الشعب الفلسطينى واقعًا فى مصيدة، فإن احتفظ بقيادة عرفات فلا حل ولا تسوية، وإن برزت قيادة بديلة فلا ثقة ولا مصداقية، وبالتالى يصعب تصور إمكانية التوصل إلى ترتيبات أو تسويات مقبولة من الجانبين فى المستقبل المنظور.

إن وجود سلطة فلسطينية لا تتجاوز اختصاصاتها صلاحيات البلديات والحكم المحلى، أمر لم يتحقق تمامًا منذ نشأة السلطة إلى ما قبل ٢٩ مارس ٢٠٠٢، كما أنه أصبح أمرًا متعذرًا فى الظروف الحالية، ويقتضى الأمر حوارًا وطنيًا شاملاً بين كل الفصائل للاتفاق على استراتيجيات جديدة تتجاوب مع المعطيات الجديدة، وإعادة بناء الصرح المؤسسى الفلسطينى بالشكل الذى يناسب المرحلة الجديدة لضمان استمرار النضال وحصار كل دعوة أو شعور بالهزيمة ومكافحة أى دعوات استسلامية تحت أى مسميات أو أعذار، سواء بالاستمرار فى الهجمات الاستشهادية، أو حتى بالعودة إلى الحجارة، أو بالمواجهة بالـ«آر.بى.جى» وستينجر والهاون والصواريخ البدائية. المهم هو استمرار النضال وعدم التوقيع على تسويات مرحلية تخفى تنازلات خطيرة وتنشر الوعى الاستسلامى وتخضع لإغراءات المعونات الأوروبية والأمريكية وسوق العمل الإسرائيلية.

إن قدر السلطة الفلسطينية أن تتحمل المسئولية السياسية لفشل مرحلة أوسلو بكاملها رغم الجهود المكثفة والمضنية التى بذلتها، والمقاومة الجريئة والصلبة للضغوط المكثفة التى مارستها عليها الدولة العبرية والولايات المتحدة الأمريكية وبعض الدول العربية والصديقة، كما أن قدر شعبنا فى فلسطين هو أن يتحمل العبء الكامل للنضال والمقاومة دفاعًا عن حقوق كل العرب والمسلمين، فى الوقت الذى يغيب فيه الدعم الحقيقى لهذا النضال من النظام العربى الذى يعانى الكثير من السلبيات وتتخلله الكثير من الثغرات وعوامل الضعف، ولكن هذا الوضع المزرى لا يقدر له الدوام، لأن عناصر القوة العربية كبيرة ومؤثرة، وهى أقوى من كل عوامل الضعف، ولأن الشارع العربى لابد أن ينتفض من الخليج إلى المحيط فى نصرة حقوق شعبنا فى فلسطين وحفاظًا على مقدساتنا الإسلامية والمسيحية. وعلى من يعدون المخططات فى كواليس البيت الأبيض والبنتاجون وفى أجهزة المخابرات ومراكز البحوث الإسرائيلية، أن يدركوا أن مشروع هرتزل وبالفور لم ينجح رغم مرور تلك العقود، وأن الشعب العربى يتمتع بالنَّفَس الطويل والقدرة على استيعاب أكثر من كبوة ولكنه بحكم قواه الذاتية الكامنة، وبعمق حضارته لا يمكن أن يُهزم، فقد تنجح مخططاتهم سنة أو سنوات ولكن العرب سيقلبونها نارًا على هؤلاء الأذكياء، ليرتد ذكاؤهم غباء مفرطًا، وليجلبوا على أهلهم العار والذل ويعودوا للتشرد من جديد، هل هى أضغاث أحلام؟ كلا فالشعب العربى يراها كحقيقة قاطعة ومجسمة ككل من درس ديناميكية الصراع وموازينه بعيدًا عن التخويف بالتكنولوجيا والعولمة وأسلحة الدمار الشامل.

السفير/ إبراهيم يسرى
محام ومحكم دولى

رسائل الكتاب
وجهات نظر

شــــارون ينـفـــذ استـــراتيـجـيـة ثابتــة

تعليقًا على ما قرأت بعدد مايو ٢٠٠٢ ولشد ما فوجئت بكم من المقالات التى تهتم وتتحدث بتركيز عن شخصية شارون وتحليلها وذلك بأقلام مجموعة من كبار المثقفين فى العالم العربى، وأود أن أخص تعليقى بالأستاذ يوسف القعيد وهو الذى أظن أنه مــازال يؤمن أن فلسطين دولة مغتصبة من شمال سيناء حتى جنوب لبنان ومن البحر الأبيض حتى نهر الأردن قبل أن يتم زحزحة العقل العربى للمطالبة فقط بالانسحاب من الأراضى المحتلة بموجب قرارات مجلس الأمن ثم تمت الزحزحة حتى يتم التفاوض على هذه الأراضى ثم نتقهقر أكثر حتى نطالب بحدود سبتمبر ٢٠٠٠، والآن مطلوب منا التفاوض على الوضع الحالى كما قال شارون إذا كان هناك تفاوض.

سيدى: السؤال الآن هل شارون هو المسئول عن هذا كله؟ أليس الشعب الإسرائيلى هو الذى اختاره، وأتحدى أى شخص يذكر لى حاكمًا واحدًا لإسرائيل لم يقم بمذابح ضد الفلسطينيين والعرب ولم يقتل الآلاف منهم، إذن الشعب الإسرائيلى كله شارون.

ورد فى التحليل أن أمه وأباه قد أهدياه مسدسًا وخنجرًا وهو فى سن الخامسة، فنعم التربية تلك التى جعلت منه فى يوم حاكمًا لبلاده بموجب انتخابات حرة وليست مزورة، وهو أيضًا لا يطمع فى الحكم لأبد الأبدين أو أن يورث الحكم لأحد أبنائه، وهو على مدار تاريخه كله لم يكن فى يوم من الأيام عميلاً لأى دولة لا أمريكا ولا غيرها ولم يكن مخلصًا أبدًا إلا لوطنه الذى ولد وتربى به - وإن كان هذا الوطن مغتصبًا من أصحابه - ولا يوجد زعيم خدم قضية بلاده مثل ما خدم شارون قضية بلاده.

فهل يمكن فى هذه الحالة أن نعتبره ديكتاتورًا أو خائنًا أو عميلاً؟

سيدى (بالله عليك ماذا تفعل لو كنت مكانه) وأمامك كل هذا الانحناء العربى؟

سيدى إنك تقول إنه لا يمتلك استراتيجية بل هو رجل تكتيكى فى تصرفاته وقراراته، فهل هناك رئيس وزراء لإسرائيل يضع استراتيجية لها، بل الاستراتيجية موضوعة منذ زمن طويل، ثم ماذا تفيد الاستراتيجية الآن معنا ونحن فى هذا الوضع فليصفعنا ويقتلنا صباحًا ولا نحرك ساكنًا، ثم يمد يده باستعلاء لنا مساء فنهرع بالتقبيل والأحضان ولا مانع من تقبيل الأيادى أيضًا.

سيدى: اللوم ليس على شارون ولا الذنب ذنبه فهو رجل كما قلت يعمل لمصلحة بلاده ولكن اللوم والذنب ذنب من صدق أو حاول أن يجعلنا نصدق أنه سوف يوجد بين (أحمد وداود) سلام ممكن.. ذنب من سيقولون يومًا ما (قُتلنا يوم قتلت فلسطين).

سيدى لابد من إيضاح أصل القضية إجماليًا ولا ننشغل عنها بفروع، فعنوان المقال هو (أنا أكذب.. أنا أكره.. أنا اقتل.. إذن أنا شارون) وهل هناك حاكم لإسرائيل لم يكذب ولم يكره العرب ولم يقتلهم، فكلهم شارون أو كلهم إسرائيل أى الألفاظ تشاء أن تختار، فشارون ليس هو حاكم إسرائيل منذ عام ١٩٤٨ ولن يظل حاكمًا لإسرائيل للأبد. ومن يأتى بعده ليس بأفضل منه بالنسبة لنا، وهم قد قالوها مسبقًا أنه لن يأتى أفضل من باراك والآن لن يأتى أفضل من شارون وذلك لأننا قد نجحنا فى التوصل لهدم قانون نيوتن (كل فعل له رد فعل مساو له فى المقدار ومضاد له فى الاتجاه)، فهو لا ينطبق علينا فنحن مرتاحون ومصممون وعازمون على أن نظل على هذا الوضع من الانحناء (ولا نرتضى بغير الانحناء بديلاً).

وأخيرًا لا يسعنى إلا أن أذكر قول الله ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم﴾ فى حين أن كثيرًا منا يدعو فى صلاته بقوله: اللهم دمر الظالمين بالظالمين وأخرجنا من بينهم سالمين (زى الشعرة من العجين).

ولكم ولصرحنا الثقافى «وجهات نظر» خالص التحية والتقدير.

صلاح خلاف
محاسب

واقع الحال و«عملية هبرون»

فى المقالة بعنوان «المؤامرة والسياسة والجريمة» التى كتبها أستاذنا/ محمد حسنين هيكل فى مجلة «وجهات نظر» عدد يونيو ٢٠٠١، وقدم فيها عرضًا وتحليلاً لقصة بعنوان «عملية هبرون»، وهو المسمى الرمزى للعملية الاستخباراتية التى خطط لها الموساد الإسرائيلى، بهدف وضع أحد عملائه فى المكتب البيضاوى للبيت الأبيض رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية، ليكون ذلك هو «الضمان النهائى الذى لا ضمان بعده ولا ضمان فوقه.. فهو كفيل بأن يحقق لها كل ما تحلم به، وأبعد وأوسع من الحلم أيضًا».

ذلك لأن رئيس الوزراء الإسرائيلى - فى القصة - يشعر أن إسرائيل تحتاج إلى ضمان أمريكى نهائى يوفر لها طول السنوات القادمة الحاسمة - وفيها التسوية الكاملة النهائية لأزمة الشرق الأوسط - ما لا تقدر عليه جماعات الضغط المؤيدة لها، وما هو أنفع من أغلبية صديقة من الشيوخ والنواب، وما هو أقوى من صف طويل متعاطف من رؤساء تحرير الصحف ومديرى الفضائيات وشركات السينما.

يقول سجل زيارة السيناتور الأمريكى جورج ووكر بوش عام ١٩٩٨م لإسرائيل إنه لبس القلنسوة ووقف يذرف الدمع الغزير على الحائط كمؤمن بعودة قتلة المسيح وإعادة بناء الهيكل المزعوم؟!

تقول نهاية قصة «عملية هبرون» إن الرئيس يتم دخوله إلى البيت الأبيض (بعد طحنه نفسيًا بين شقى رحى اليأس والرجاء من نتيجة التصويت) بأغلبية ضئيلة بعد عمليات خداع ولعب وتلاعب فى عد وإحصاء الأصوات بالآلات ويدويًا وبعد قرارات محاكم.. وهو ما حدث فى الواقع الفعلى!!

يقول واقع الحال إن قراءة ملف «إنرون جيت» فى ضوء شمعة «ووتر جيت» وفى وجود النائب البديل الجاهز للقفز.. إن الملف جاهز للنشر فى اللحظة المناسبة، ويقوم الملف بدور المسدس المصوب لظهر الرئيس عند أول بادرة لمخالفة التعليمات أو الخروج عن النص، وهو ما يجعله يفضل الموت للحرب الإرهابيين على أن يكون فاشلاً Looser ويوبخه أبوه.

ويقول الواقع المعاش والمرئى فى إسرائيل.. إنه قد تشكلت وزارة وحدة وطنية من جميع الأحزاب لتنفيذ المخطط الكبير من خلال تطبيق أسلوب إثارة الفلسطينيين بفعل قذر ومن ثم استغلال رد الفعل كمبرر للتقتيل والتدمير واكتساح الأراضى.. وبدأت الخطة بزيارة شارون للمسجد الأقصى ثم اكتساح الأراضى.. ثم عمليات التدمير للأهداف المدنية.. ثم قتل النساء والأطفال، ومن ثم استغلال رد الفعل عليها بالعمليات الاستشهادية فى تبرير عدم التراجع والبقاء النهائى فى تلك الأراضى؟

ويتطابق الحال أيضًا مع الشواهد المنشورة داخل الولايات المتحدة الأمريكية، وأيضًا مع سياستها المعلنة والمنفذة فى المنطقة. ومنها التقرير الاستراتيجى للسياسة الأمريكية المقدم من السيدة كونداليزا رايس لتلميذها غير النجيب بأسلوب افعل ولا تفعل (محمد حسنين هيكل - وجهات نظر سبتمبر ٢٠٠١). ثم شواهد المؤامرة غير المفسرة - حتى الآن - بدءًا من منح ٤٠٠٠ يهودى إجازة من العمل فى برجى مركز التجارة العالمية قبل صباح ١١ سبتمبر. ثم اكتشاف المباحث الفيدرالية لمجموعات تجسس إسرائيلية ثم التعمية على أخبارها، وغيرها.. وغيرها مما هو معروف ومنشور فى أوروبا ولا يترجم للعربية إلا فيما تنشره الأهرام أحيانًا.

أظنها الحقيقة لأن واقع الحال يؤيد وقائع القصة المنشورة بتفاصيلها فى كتاب رجل المخابرات الأمريكى القديم (عملية هبرون) كما فعل من قبل موشى ديان حين نشر خطة حرب الخامس من يونيو. اعتمادًا على أن العرب لا يقرأون، وإن قرءوا لا يفهمون، وإن فهموا لا يفعلون.. لأنهم غير قادرين.. ولأنهم على ضياع رفاهية كراسى الحكم خائفون.

د. حمزة إبراهيم عامر
أستاذ الجيولوجيا التطبيقية

الوقوف على الشاطئ الآخر

أسجل أولاً إعجابى الشديد بآراء وأسلوب الأستاذ سلامة أحمد سلامة من خلال كتاباته. وأرجو أن يتسع صدر المجلة لهذا التعليق السريع، مع ما به من تبسيط.

نعم يا سيدى تظهر الكثير من مفردات اليمين الأمريكى فى الخطاب الرسمى الأمريكى رغم أن الدستور الأمريكى يفصل بين الكنيسة والدولة، لأن الفصل بين الدين والدولة، أو ما يعرف بالعلمانية، لا يعنى على الإطلاق، وأكرر على الإطلاق، فصل الدين عن المجتمع والناس. فى ظل فصل الدين عن الدولة، ليس المطلوب أن يتخلى المرء عن معتقداته الدينية أو عن ممارستها، بل المطلوب أن توفر الدولة الغطاء القانونى الذى يسمح لكثيرين آخرين بالتعبير أيضًا عن معتقداتهم التى قد تختلف عن معتقدات من فى السلطة وممارستها إن أرادوا ذلك. هذا هو المناخ الذى يوفر مجالاً من الحرية يسمح حتى لمثل هذا الكاتب الأمريكى الذى ذكرته فى مقالك أن يكتب ما يعد هوسًا، لأن الجميع يعلم أنه لن تؤثر مثل هذه الآراء على قرارات الدولة التى تحكمها فى نهاية الأمر استراتيجية غير انفعالية تعمل على تحقيق المصالح العليا للبلاد. وأرجو ياسيدى ألا تعتبر هذا من زاوية النظر إلى الغرب بمثالية Idealising the west فمعروف ما يحدث مثلاً إذا ما تناول شخص، حتى لو كان من العلماء، موضوع محرقة اليهود، ولكن هذا حديث آخر.

أرجو يا سيدى أن نتخيل، والخيال والحمد لله ليس لأحد سيطرة عليه حتى الآن، أننا نقف على الشاطئ الآخر وننظر إلى أنفسنا، ونحلل خطابنا من هذا المنظور الغيرى. عندها سنرى كيف يبيع ساسة الغرب بسهولة شديدة لناخبيهم، غير المثقفين كطبيعة الجمهور خاصة فى أمريكا، فكرة الخطر القادم من دول إسلامية، خاصة إذا امتلكت سلاحًا نوويًا، فى ظل خطاب إسلامى ينادى طول الوقت «بتوجيه ضربة لرأس أمة الكفر». ومما يدعو للسخرية والخزى أن حالنا هذا وتهديداتنا الجوفاء واعتقادنا بأن نصر المسلمين قادم لا محالة منطق يلائمهم تمامًا. فمن ناحية يبيعوننا بخسًا على تذاكرهم الانتخابية، ومن الناحية الأخرى يضمنون أن ينشغل تفكيرنا بالبحث فى أمور مثل، «هل السلام على المرأة باليد يعد زنى؟ وهل زرع الأعضاء حلال أم حرام؟»، بدلاً من التركيز، كل التركيز، فى مجالات البحث العلمى وتنمية وتطوير مؤسساتنا حتى يمكن أن نفاخر مرة أخرى، بحاضرنا كما نتفاخر دائمًا بماضينا.

محمد حلمى محمود

"نون"

التحالف غير المقدس

بين الصهيونية واليمين المتطرف!

يصاب الأوروبيون عادة بصدمة تفقدهم توازنهم، بمجرد أن يرتفع صوت واحد في إسرائيل يتهم الشعوب الأوروبية بمعاداة السامية. فإذا تجاوب معه صوت مماثل من أحد السياسيين العاملين في اللوبي الصهيوني الحاكم في أمريكا، وهو ما يحدث دائمًا، وقال إن أوروبا التي قتلت عدة ملايين في الهولوكوست تتبنى الآن موقفًا معاديًا للسامية، انهارت أعصاب السياسيين والمسئولين الأوروبيين، ووقع الاتحاد الأوروبي بأجهزته ومؤسساته في أزمة يعتبرها البعض كارثة.. ويتصاعد معها الإحساس بالضياع إذا ارتبطت تلك الاتهامات بالصراع في الشرق الأوسط، أو ببعض الانتقادات التي توجه إلى إسرائيل في تعاملها مع القضية الفلسطينية.

حدث ذلك في نوفمبر ١٩٦٧، بعد حرب الأيام الستة التي اجتاحت فيها القوات الإسرائيلية سيناء. ووقف الجنرال ديجول في قصر الإليزيه يوجه نقدًا حادًا لإسرائيل لتورطها في عدوان يونيو ٦٧، ويقول ما معناه إنه كان يأمل أن تتصرف إسرائيل بقدر من التواضع. ووصف الشعب اليهودي الذي لم يستمع لنصائحه، بأنه «شعب استعلائي، مسيطر، تملؤه الثقة الزائدة بالنفس». وكانت هذه العبارات الهينة اللينة وحدها كافية لتصب حممًا من الهجوم الحاد ضد الزعيم الفرنسي، متهمة إياه بمعاداة السامية. واشتدت الحملة ضده بعد أن أصدر أوامره. وكان قد انتخب رئيسًا لفرنسا قبل يومين من شن الهجوم الإسرائيلي ضد مصر وسوريا. بفرض حظر على صادرات السلاح الفرنسي وقطع الغيار العسكرية لإسرائيل.

ولكن هذا الزعيم التاريخي العملاق لم يتراجع عن موقفه أمام الحملات اليهودية العنيفة، كما يحدث اليوم من جانب كبار الساسة والمسئولين الأوروبيين. فقد كان ديجول هو الذي قاد حركة المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازي. ولم يكن بوسع الصهيونية العالمية أن تمارس معه أساليب الابتزاز السياسي التي تمارسها الآن ضد كبار السياسيين الأوروبيين والأمريكيين الذي يضطرون إلى تغيير مواقفهم وقناعاتهم السياسية، بل وفي كثير من الأحيان بما لا يتفق مع مصالح بلادهم، خوفًا من تهمة العداء للسامية أو بتهمة مساندة القوى اليمينية المتطرفة لأسباب انتخابية داخلية.

وقد أتقن يهود العالم هذه اللعبة القذرة على مر العقود الأخيرة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وما ارتُكِبَ خلالها من جرائم ضد الإنسانية، كان اليهود بعض ضحاياها، فأصبح من اليسير بفضل أبواق الإعلام اليهودي وفساد الأحزاب والمؤسسات السياسية في معظم الدول الأوروبية، وفي الولايات المتحدة نفسها، اعتبار أي نقد لإسرائيل وسياساتها لونًا من ألوان المعاداة للسامية أو تدبير بعض الاعتداءات الفردية على أشخاص اليهود ومعابدهم وافتعال مشاجرات عادية، لا تلبث أن تتحول إلى احتقان أو توتر اجتماعي في القرية أو الضاحية التي وقعت بها.. لإيهام الرأي العام في هذه الدولة أو تلك، وكذلك الرأي العام العالمي بأن موجة جديدة من معاداة السامية قد تفجرت، وأن اليهود على أبواب «هولوكوست» جديد!!

وفي هذا السياق يمكن فهم الموجة واسعة النطاق من الاتهامات الإسرائيلية الموجهة إلى العالم بمعاداة السامية، والتي تزامنت بشكل خاص مع الانتقادات الشديدة التي وجهتها بعض الدوائر الأوروبية إلى المذابح وأعمال القمع والإبادة التي ارتكبتها إسرائيل في الأراضي الفلسطينية. إذ يبدو تعاطف هذه الدوائر مع محنة الفلسطينيين أمرًا مكروهًا ومعاديًا لإسرائيل. وعندما نشرت صحيفة «لاستامبا» الإيطالية رسمًا للسيد المسيح طفلاً وهو ينظر من مهده إلى دبابة إسرائيلية ويقول: «لا تقولوا لي إنهم يريدون قتلي ثانية!»، لم يأخذ الإسرائيليون ذلك باعتباره نقدًا للحصار الإسرائيلي لكنيسة المهد في بيت لحم، بل اعتبروه جريمة لا تغتفر في معاداة اليهود وإحياءً للنزعات العنصرية والفاشية.

غير أن الأمر يبدو عند التحليل أكثر تعقيدًا من ذلك. إذ تسعى العناصر اليهودية من خلال حملاتها ضد الأحزاب والقوى اليمينية وتوجيه اتهاماتها إليها بمعاداة السامية، ليس فقط إلى تحذير القوى الديمقراطية، ولكن إلى تحقيق حد أدنى من التضامن بين اليهود والقوى الفاشية. إن لم يكن بهدف الحصول على تأييدها، فبهدف تحييدها، واستخدام أدواتها دون التعرض للنقد والهجوم. وهذا ما فعلته إسرائيل والقوى الصهيونية العالمية في الأزمة الأخيرة، حين حاولت لفت الأنظار عن الجرائم والمذابح التي ارتكبتها في الأراضي الفلسطينية، باستخدام نفس أساليب الإبادة التي طبقها النازي في تدمير بيوت المدنيين وتعريضهم لعقوبات جماعية وقتل المشتبه فيهم دون محاكمة، ثم اللجوء إلى الترحيل الجماعي «الترانسفير» لأعداد كبيرة من الفلسطينيين.

وقد نجحت إسرائيل إلى حد كبير بهذه الطريقة في إسكات الأصوات المنصفة التي ارتفعت في دوائر أوروبية عديدة احتجاجًا على الفظائع الإسرائيلية، وتحت سيف الاتهام بمعاداة السامية أُخرست ألسن وأقلام كثير من الصحفيين والمراقبين وموظفي الأمم المتحدة والهيئات الدولية، بل ونجحت إسرائيل في وقف قرار مجلس الأمن بإرسال لجنة لتقصي الحقائق حول مذابح جنين، وبدلاً من أن يحاسب الرأي العام العالمي إسرائيل على جرائمها، تحول إلى موقف الدفاع عن النفس من تهمة انبعاث اليمين المتطرف وإحياء نزعات معاداة السامية الأوروبية. وقد وصل الأمر إلى حد تنظيم حركة مقاطعة واسعة لمهرجان كان السينمائي في فرنسا، وإطلاق دعوة لنجوم السينما الأمريكيين بعدم الذهاب إلى كان، بحجة أن فرنسا صارت من أكثر الدول عداء للسامية.. مع أن حركة اليمين الفرنسية بزعامة حزب لوبان وغيرها من أحزاب اليمين الأوروبي لم تتعرض لليهود في حملاتها الانتخابية، بقدر ما تعرضت لهجرة المسلمين والأفارقة وطالبت بالحد منها.

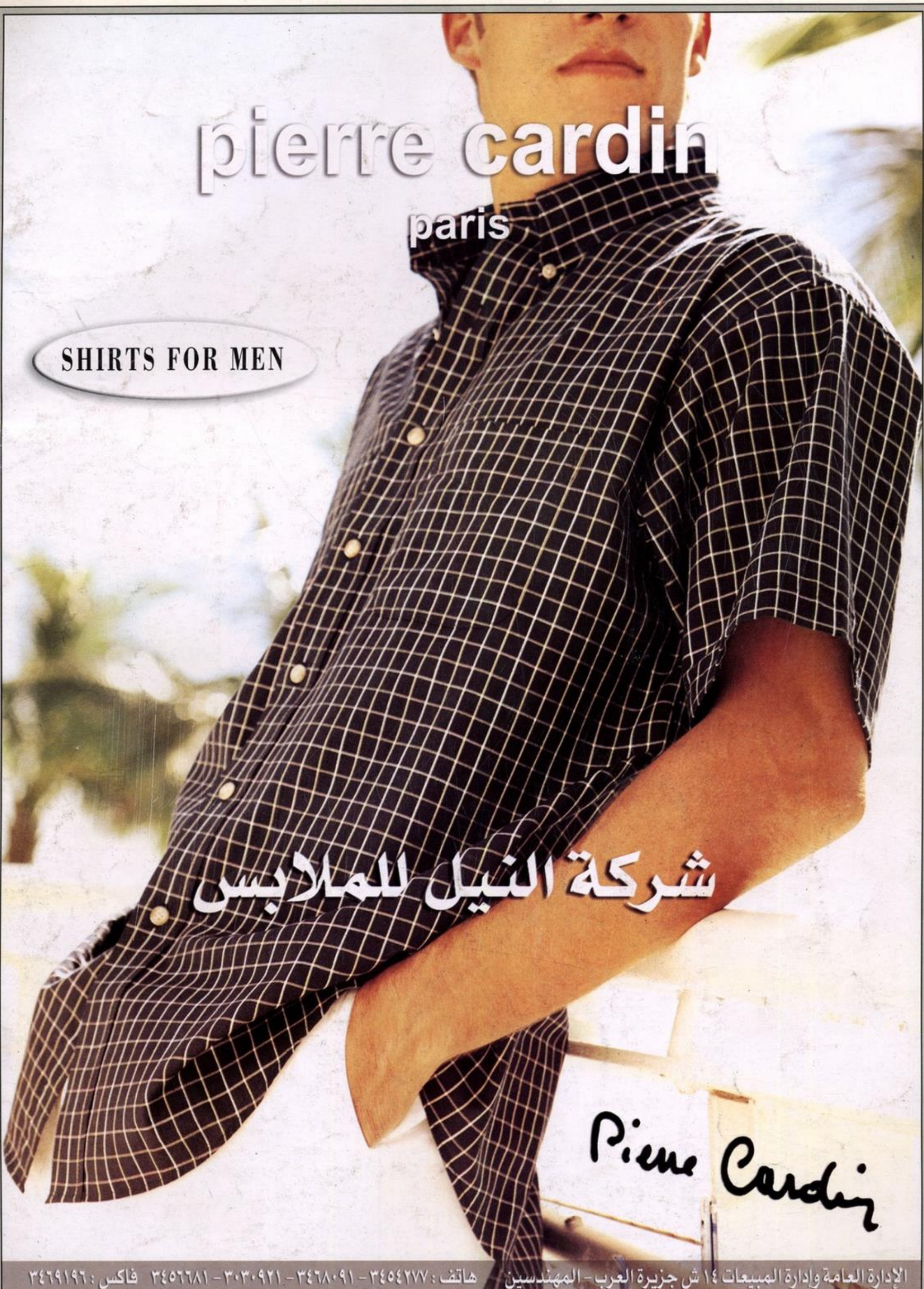
إن النظرة الفاحصة لتاريخ اليهود وقيام الدولة الإسرائيلية، لا يدع مجالاً للشك في أن التجربة الإسرائيلية قامت على استيعاب الخبرات الفاشية والنازية والاستفادة من النزعات العنصرية التي سادت أوروبا وميُزت تاريخها منذ بداية الحقبة الاستعمارية.. ومن الناحية التاريخية، فإن مشاعر العنصرية والاستعلاء الجنسي والفكري التي ميزت موقف أوروبا تجاه الشعوب الأخرى، في مرحلة المد الاستعماري والحروب الكولونيالية التي استهدفت الاستيلاء على ثروات الشعوب الأفريقية والآسيوية وفرض سيطرتها عليها، ظلت مرضًا دفينًا في العقل الأوروبي والثقافة الاستعمارية التي أفرزتها. وقد ظل اليهود جزءًا من التراث الاستعماري الأوروبي، ومازالوا حتى الآن.. لم ينفصلوا عنه كشعب إلا بظهور الحركة الصهيونية والسعي لإقامة دولتهم. وبقيت العلاقة بين اليهود وأوروبا علاقة مركبة حتى الآن. تتميز بالتجاذب والنفور، وبالحب والكره، وبميل دفين للالتحاق بالثقافة الأوروبية من ناحية وادعاء الاستقلال عنها من ناحية أخرى.

ولم يعرف عن التراث اليهودي أنه دافع عن حركات التحرر أو ساعدها. بل كان جزءًا لا يتجزأ من نظام التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا، واتخذ اليهود موقفًا مناهضًا لحركة المساواة بين البيض والسود في الولايات المتحدة الأمريكية، وتحالفوا مع أنصار التفرقة العنصرية فيها. وهم يطبقون الآن في المجتمع الإسرائيلي كل الأساليب التي عرفوها في التعامل مع الفلسطينيين في دولتهم كمواطنين من الدرجة الثانية أو الثالثة.

في المؤتمر الذي انعقد في ديربان لمكافحة العنصرية في الصيف الماضي، لم تستطع أمريكا بكل نفوذها أن تبرئ إسرائيل من تهمة العنصرية، ولا أن تحصن الصهيونية من مساواتها بالعنصرية واعتبارها شكلاً من أشكالها، بعد أن أصبحت الممارسات الإسرائيلية كقوة احتلال ذات أهداف استعمارية، تحتضن نفس الأنماط التي عرفها التراث الاستعماري الأوروبي، وتتبنى أنساقًا ثقافية تقوم على فكرة التفوق الجنسي والتمايز العرقي واستنكار حق الشعوب الأخرى في تقرير مصيرها والدفاع عن وجودها.

ومن هنا يمكن تصور الدوافع والأسباب التي تجعل من إسرائيل وقوى الصهيونية العالمية، المستفيد الأول وربما الأوحد من بعث قوى اليمين المتطرف في أوروبا. فهناك بغير شك مصالح مشتركة يجني كل طرف منهما ثمارها بطريقة مختلفة.. أحزاب اليمين الفاشي في أوروبا تصد جحافل المهاجرين الأجانب من المسلمين والملونين الذين «يلوثون» المجتمعات الأوروبية ويهزون قيمها وعاداتها، ويحصلون على أماكن العمل كأيد عاملة رخيصة، والجماعات اليهودية ذات النفوذ الضاغط على عصب الحياة السياسية والاقتصادية في الغرب، تطلق صيحة «الخوف من الذئب» بين الحين والحين، فتجني مزيدًا من التعويضات والمواقع المؤثرة والمكاسب السياسية.. والضحية في كلتا الحالين واحدة، هي مجموعة شعوب فقيرة مهضومة يسهل ابتزازها واستغلالها سواء في فلسطين أو في أفريقيا أو آسيا.. إنه التحالف غير المقدس بين الصهيونية وقوى اليمين المتطرف في الغرب!

سلامة أحمد سلامة


pierre cardin
paris
SHIRTS FOR MEN
شركة النيل للملابس
Pierre Cardin
الإدارة العامة وإدارة المبيعات ١٤ ش جزيرة العرب - المهندسين هاتف : ٣٤٥٤٢٧٧ - ٣٤٦٨٠٩١ - ٣٠٣٠٩٢١ - ٣٤٥٦٦٨١ فاكس : ٣٤٦٩١٩٦